المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد العاشر

حضارة الإسلام

يحتوي على

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

الثقافة العربية

القرن العشرون

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المجلد العاشر

حضارة الإسلام

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد العاشر

حضارة الإسلام

يحتوي على

اثر العرب في الحضارة الأوروبية

الثقافة العربية

القرن العشرون

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص - ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٧٨

عباس محمود

العقاد

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

دار الكتاب اللبناني

تمهيد

موضوع هذا الكتاب الوجيز ينقسم إلى قسمين : أولهما أثر العرب في الحضارة الأوربية من أقدم أزمانها ، والثاني أثر أوربة الحديثة في النهضة العربية العصرية .

وسيرى القراء أننا شملنا بالكلام أمماً غير الأمم التي تعرف باسم العرب ، في مصطلحات اللغات الشائعة على الألسنة والأقلام .

لأننا قد لاحظنا في ذلك أمرين : أحدهما أننا رجعنا بأولئك الأقوام إلى أصلهم القديم في الجزيرة العربية ، أخذاً بالقول الراجح الذي يرى أن جزيرة العرب هي أصل الساميين أجمعين ، ومنهم الكلدان والسريان والكنعانيون والعبريون .

والأمر الثاني أننا رجعنا بالفضل في نهضة الأمم الاسلامية إلى « الجو الأدبي » الذي أحاط بها وامتزج ببواعث النهضة فيها . فالفرس ليسوا من السلالة السامية أو العربية ، ولكنهم لم ينجبوا الفلاسفة والعلماء وكبار الشعراء ، قبل امتزاجهم بالدعوة الروحية التي انبثقت من قلب الجزيرة العربية . فمن الحق أن يقال إن « الجو الأدبي » الجديد الذي أحاط بهم بعد قيام الدولة الاسلامية كان له فضل معدود ينسب إلى تلك الدولة .

والكلدان والسريان كانوا في دولة العرب رواد البحث والترجمة والدراسات العلمية والطبية على التخصيص ، ولكن هؤلاء الكلدان والسريان كانوا

يعيشون بثقافتهم اليونانية هذه في ظل الدولة الرومانية الشرقية ، ولم تنبعث من كتبهم ولا معلوماتهم نهضة فكرية كالنهضة التي جاشت بها أمم الشرق ، بعد فتوحات العرب وانتشار الدعوة إلى النظام العالمي الجديد ، وهذا عدا ما نعلم من أن الكلدان والسريان ينتمون الى الساميين ولا يحسبون في عداد الآريين أو السلالات الأخرى . فلا تعزز أعمالهم أقوال القائلين إن الساميين من أصولهم القديمة خلو من بواعث التمدين والتفكير .

ولاحظنا مع هذا أن قوة التفكير تقاس بالقدرة على فهم يبتكره الآخرون كما تقاس بالقدرة على ابتكاره ، فلا تتهم أمة بالعجز عن التفكير اذا استطاعت أن تفهم مبتكرات الفكر في أمة أخرى ، وشعرت بالحاجة إلى فهمها ، وخلقت لها جواً تروج فيه وتشغل به أذهان أبنائها ، وبخاصة إذا علمنا أن الابتكار المحض لم يكتب قط لأمة من الأمم ، ولم يعهد قط في ثقافة قومية أنها كانت محض ابتكار خلا من كل استعارة واقتباس .

وليس من همنا في هذا الكتاب أن ننفي مزايا الشعوب والسلالات . فان هذه المزايا حقيقة لا شك فيها ولا سبيل إلى إنكارها ، ولكننا اهتممنا برد هذه المزايا إلى عوامل طبيعية وأسباب تاريخية ، تسري على كل قوم إذا تعرضوا لها ، ولا ينفرد بها الساميون أو غير الساميين .

وبهذا الميزان الصحيح تنعقد الموازنة بين الحضارة العربية وسائر الحضارات فلا تشيل في الميزان .

من هم العرب ؟

من هم العرب ؟

هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم ، لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون ، وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة . وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين .

فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية ، ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي الذي انفردت به بين لغات العالم بأسره ، وتشابه الضمائر والمفردات وكثير من الجذور والمشتقات . فضلا عن التشابه في ملامح الوجوه وخصائص الأجسام ، قبل ان يكثر التزاوج بينها وبين جيرانها من الأمم الأسيوية أو الأفريقية .

وإذا كان لهذه الأمم جميعاً أصل واحد ، فأرجح الأقوال وأدناها إلى التصور أن يرجع هذا الأصل إلى الجزيرة الغربية لأسباب كثيرة :

منها أن التحول من معيشة الرعاة إلى معيشة الحرث والزرع والاقامة في المدن طور من أطوار التاريخ المعهودة ، وليس من أطواره المعهودة أن يتحول الناس إلى معيشة الرعاة الرحل في بوادي الصحراء بعد الاقامة في الحواضر والبقاع المزروعة .

ومنها أن الجزيرة العربية ـ في عزلتها المعروفة ـ أشبه المواقع بالمحافظة على أصل قديم ، وهي كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء عن سكانها فيهجروها إلى أودية الأنهار القريبة .

ومنها أن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة ، وأقربها ما حدث بعد الاسلام في وقت واحد من زحف العرب على العراق وزحفهم على الشام في عهد الخليفة الصديق . وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلا على التاريخ القديم ، ولا سيما إذا خلا التاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية تومىء إلى هجرة النهريين وسكان الاودية إلى الجزيرة العربية في زمن بعيد أو قريب ، فان السمّريين سكان ما بين النهريين الأقدمين كانوا هنالك قبل عشرة آلاف سنة ، ولم يصل إلينا قط خبر عن هجرتهم إلى مكان في الجزيرة العربية ، كائناً ما كان موقعه من تلك البلاد، بل ثبت على التحقيق أن الساميين هم الذين هجروا مواطنهم إلى ما بين النهرين ، حيث قامت العواصم التي تسمى بالأسماء السامية كمدينة بابل « باب الله » أو « باب أيل »

***

أما الرأي الأخر الذي يرجح أن الأمم السامية نشأت في بقعة من الأرض ، غير الجزيرة العربية ، فأشهر القائلين به هو الأستاذ « جويدي الكبير » العالم الايطالي المعروف في القاهرة ، وأقوى الحجج التي يستند اليها مستمد من مضاهاة اللغات السامية وكثرة أسماء النبت والأمواه في لهجاتها الأولى ، وعنده أن اشتراك اللغات السامية في هذه المفردات مما يدل على أرومة نشأت في بلاد مخصبة كثيرة الزروع والأنهار ، ولم تنشأ في صحراء العرب وما شابهها من البقاع .

وهذا الرأي ضعيف لا يقوم بالحجة الناهضة ، ولا تؤيده حالة الجزيرة العربية قبل الكشوف الحديثة بزمن طويل ، فضلا عن حالة الجزيرة التي تدل عليها تلك الكشوف في طبقات الأرض وعوارض الجو وعلم الأجناس .

فالمروج الفيحاء والبقاع المخصبة لم تكن مجهولة قط في جنوب الجزيرة ، ولا في جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادي اليمامة ، وهي البقاع التي مر

بها المهاجرون من قديم الزمن تارة من اليمن إلى البحرين إلى ما بين النهرين وبادية الشام ، وتارة من البحرين بداءة إلى ما وراءها من المشارف الشمالية .

ولم تزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الاسلام مشهورة بالمراعيّ الواسعة والعيون الثرارة والأمطار الغزيرة ، والمروج المعشبة التي تخلفت مما هو أخصب منها وأعمر بالانسان والحيوان في أقدم الأزمان . وقد لاحظ الرحالة الألماني « شوينفرت » أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها الآبدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق .

وتبين من الكشوف العلمية في العهد الأخير أن الجزيرة العربية تعرضت لأدوار الجفاف وطوارىء الزلازل منذ عصور موغلة في القدم ، فكان القفر فيها يجور على الخصب في أدوار طويلة بعد أدوار اخرى على التدريج ، قبل أن تجور الصحراء على معظمها في عصور التاريخ .

فحالة الجزيرة العربية كافية لتفسير التشابه بين لغات الساميين في ألفاظ الخصب والثمرات والأمواه ، ولكن الرأي الآخر ـ رأي الأستاذ جويدي ـ لا يفسر لنا الفرض القائل بهجرة العرب مثلا مما بين النهرين ، أو من الشام ، إلى قفار الصحراء ، وهو فرض لا دليل عليه من الروايات القديمة ولا من الأحوال المرجحة على حسب التقدير المعقول ، ولا من السوابق المألوفة كما رأينا الأمثلة عليها في التاريخ الحديث .

***

وعلى هذا يصح أن نعتبر أن سلالة العرب الناشئين في جزيرتهم الأولى قد سكنت أواسط العالم المعمور ، منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير ، وأن كل ما استفاده الأوربيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربي او تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد .

وليس هذا التراث بقليل .

لأنه يشتمل على كل أصل عريق ـ عند الأوروبيين ـ في شؤون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة . وهي (١) العقائد السماوية و(٢) آداب الحياة والسلوك و(٣) فنون التدوين والتعليم و(٤) صناعات السلم والحرب وتبادل الخيرات والثمرات .

العقائد السماوية

والأديان الكتابية هي أول ما يخطر على البال حين يجري الكلام على العقائد السماوية التي تلقاها الأوربيون من تراث الجزيرة العربية ، أو من تراث الأمم السامية .

لأن الأديان الكتابية الثلاثة ـ وهي الموسوية والمسيحية والاسلام ـ ظهرت وانتشرت بين سلالات الجزيرة العربية ، على اختلاف موعدهم من الهجرة منها إلى الأقطار التي تليها .

ولكننا لا نعني هذه الأديان حين نتكلم في هذا الفصل عن العقائد السماوية ، لأنها من وقائع العيان التي لا تزال قائمة في وقتنا الحاضر بغير حاجة إلى استقراء التواريخ ومضاهاة الأخبار والروايات .

وإنما عنينا بالعقائد السماوية كل ما عرفه الأوروبيون الأقدمون عن السماء وأفلاكها ومداراتها ، وسلطانها المزعوم على الأرضين ، وطوالعها النافذة في جميع الأحياء ، سواء ما انطوى منها تحت عنوان « علم الفلك » أو ما انطوى تحت عنوان الكهانة والتنجيم .

فمما لا خلاف عليه أن العرب نشأوا في بلاد أصحى سماء وأسطع فضاء من البلاد الأوربية ، وأنهم سبقوا أبناء البلاد الغائمة والآفاق المحجبة الى رصد النجوم ومراقبة المطالع والمغارب في القبة الزرقاء ، لأنهم على سهولة الرصد عندهم كانوا في حاجة دائمة إلى توسم المطر وترقب الأنواء والخبرة بمواقيت

الإدلاج والاسراء ، في رحلاتهم الطويلة بالصحراء .

ووافق علمهم هذا علم المدائن والأمصار التي قامت بين النهرين ، إذ من المحقق أن تقسيم الأشهر والأيام كما شاع في بلاد الكلدانيين والساميين قد كان عليه طابع اللغة العربية القديمة ، وأن النسيء في حساب الأشهر والأسبوع في حساب الأيام كانا من المخلفات السامية في تلك البلاد ، وظلت بقاياه بين العرب في الصحراء إلى ما بعد الاسلام .

وكائناً ما كان الرأي في الاقتباس من الحضارات السمّرية بين النهرين فليس « الأسبوع » من عمل السمّريين ولم يظهر بينهم قبل ظهور البابليين .

وعن هذه الأقوام العربية الأولى تلقى الأوربيون عقائدهم عن الأسبوع وارباب الأيام وسلطانها على الأحياء أو على الأحداث والزروع والضروع .

ولا تزال أسماء الأيام الإفرنجية تحمل طابع العقائد « السماوية » كما كان يعتقدها أسلاف العرب المعرقون في القدم ، وتتداولها لغات الغربيين الى هذه الساعة التي نحن فيها .

جاء في الجزء الأول من اخوان الصفاء عن أوائل ساعات الأيام : « إعلم أن الليل والنهار وساعاتها مقسومة بين الكواكب السيارة ، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس ، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر ، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد ، وأول ساعة من يوم الخميس للمشتري ، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة ، وأول ساعة من يوم السبت لزحل . . . »

ونضرب صفحاً عن تقسيم الليالي والساعات لأن تقسيم أوائل الأيام يغنينا فيما نحن فيه .

فيوم الأحد يعرف في الإنجليزية باسم « سنداي » sunday أو يوم الشمس .

ويوم الإثنين يعرف فيها باسم « منداي » Monday أو يوم القمر .

ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم ثيوزداي Tuesday أو يوم « ثيوز » إله الحرب عند أمم الشمال الأولى ، وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم مارس وهو المريخ .

ويوم الأربعاء يعرف في الانجليزية باسم ودنزداي Wednesday أي يوم « ودين » إله المعارف والفنون عند قدماء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية أيضاً لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أو يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure وبالانجليزية mercury

ويوم الخميس يعرف في الإنجليزية باسم ثورزداي Thursday او يوم « ثور » إله الرعد عند قدماء التيوتون ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس فيها يعرف باسم Jeudi أي يوم المشتري أو الإله جوبيتر jovis dies ويرجع هذا الإسم إلى اسم « يا هو » jehova الذي يشير به أبناء الأمم السامية إلى الله ، ولا يزال كثير من العرب حتى اليوم يستغيثون بالله فينادون « يا هو ! » .

ويوم الجمعة يعرف في الإنجليزية باسم « فرايداي » Friday أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد ومقابلة الزهرة في صفاتها ، وتوضحه التسمية الفرنسية ، لأن يوم الجمعة فيها يعرف باسم يوم الزهرة Vendredi أو يوم فينوس .

ويوم السبت يعرف في الإنجليزية باسم ساترداي Saturday او يوم زحل Saturn في تلك اللغة الى اليوم .

* * *

ويتبين من معاني ايام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التي أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغلت في شعوبهم الأوربية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وهي العقائد التي ترتبط بالمعيشة اليومية وطوالع الأوقات وسلطان الأفلاك العليا على الأحياء وحوادث الأيام .

فهي على هذا أكبر شأناً وأشد ايغالا في الحياة من تسمية مقتبسة من تقويم منقول .

وقد اصطبغت حياتهم العاطفية بما تلقوه من أسماء تلك الأرباب وخصائصها فشملت الشعور بالقداسة والشعور بالغضب والشعور بالحب والغرام

والجمال .

فاسم الإله الأكبر jove أو jehova مأخوذ كما قدمنا من اسم « ياهو » الذي يجري على ألسنتنا إلى أيامنا الحاضرة .

وإله الغضب والحرب عندهم مأخوذ بلفظه ومعناه عن الساميين الأقدمين لأن Mars هي تصحيف ظاهر لكلمة المريخ .

وربة الحب أو العذراء الفاتنة « فينس » هي تصحيف كلمة « بنت » السامية ، وكانت تكتب عندهم بالباء ثم صحفت الى الفاء ، كما يقع ذلك في كثير من الأسماء ، وهكذا فعلوا بأسماء الزهرة الأخرى فصحفوا عشتار الى « استار » أي النجمة ، وهي عثتار في اللغة العربية اليمانية القديمة ، ثم عرفها الساميون في شمال الجزيرة العربية باسم عشتار وعشتروت .

وكذلك أخذوا ادونيس Adonis إله الفتوة والجمال من « ادوناي » بمعنى السيد أو الرب عند الكنعانيين .

فهم قد مزجوا معيشتهم اليومية وحياتهم العاطفية بعقائد السماء التي تلقوها عن السلالة العربية ، ولم يقصروا النقل على علم الفلك ولا أزياج النجوم ، فانهم ـ كما سيلي في بعض فصول هذا الكتاب ـ قد ظلوا ينقلون عن العرب في هذا العلم إلى ما بعد الاسلام بزمن طويل ، وقد بقيت في لغاتهم عشرات الأسماء العربية للكواكب والمصطلحات الفلكية ، بتحريف قليل أو بغير تحريف .

آداب الحياة والسلوك

وقد كانت المدرسة الكبرى المعنية بآداب الحياة والسلوك - بين مدارس الفلسفة التي اشتهرت باسم « الفلسفة الاغريقية » - هي مدرسة شرقية في أصول أساتذتها ، وأصول مبادئها ، وأصول تفكيرها التي انفردت بها بين أصول التفكير الغالبة على عقول حكماء الاغريق الأصلاء .

ونعني بتلك المدرسة الشرقية مدرسة الرواقيين .

فقد كان رأس هذه المدرسة « زينون » من أصل « كنعاني » أو فينيقي كما كان الاغريق يسمون بعض الكنعانيين ، وكان مولده على الشاطىء الشرقي من جزيرة قبرص في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وكان من أقطاب هذه المدرسة من ولد في صيداء ومن ولد على ضفاف نهر العاص أو نهر الدجلة .

وكان لها شأن جليل في الثقافة الاغريقية ثم في الثقافة الرومانية ثم في المدرسة الافلاطونية التي نشأت بالاسكندرية ، وبقي لها هذا الشأن في تفكير الأوربيين وآداب سلوكهم الى عصور النهضة والاصلاح الديني وما لازمه من ضروب الاصلاح الأدبية . فكانت الفلسفة الرواقية هدى لطلاب الاصلاح في طلب الكمال وطلب السعادة وطلب الحكمة العملية في الحياة .

وحسبك شاهداً على مكان هذه المدرسة من السيطرة على الآداب الأوربية في دولة الرومان أن سنيكا وشيشرون وابيكتيتس ومارك اورليوس كانوا من أتباع

الرواقيين ، وانها المدرسة التي طاولت كل مدرسة أخرى في أمد البقاء واتساع النطاق ، فلم تضارعها في طول بقائها واتساع نطاقها مدرسة فلسفية نشأت على عهد الاغريق والرومان ، وان النمط الرواقي في الحياة كان ولم يزل بين الغربيين قدوة الرجل الكامل ـ أو طالب الكمال ـ إلى عهد ديكارت الفرنسي وامرسون الأمريكي ، ومن تتلمذ عليهما إلى هذا الجيل .

وقد كان طابع الذهن السامي ـ ونكاد نقول طابع الجزيرة العربية ـ ملحوظاً على كل ما علمته المدرسة الرواقية في باب الغيبيات أو باب العلم الطبيعي أو باب الأخلاق .

فكانت تدين بالتوحيد ونسبة الفعل كله إلى الله والانفعال كله الى المادة وقد تميل أحياناً الى وحدة الوجود فيما طرقته من بحوث ما وراء الطبيعة .

وكانت ترى في باب العلم الطبيعي أن الشيء الموجود هو الذي يفعل أو ينفعل ، ولا وجود لغير ذلك من الفروض المثالية أو الفروض الخيالية فكل ما في الكون مرجعه الى الحس والتجربة وقدرة الفعل والانفعال . ولعلهم كانوا في هذا الباب رواداً سابقين للمدرسة التجريبية التي ظهرت بعدهم بألفي سنة . ويعزو « سترابو » الجغرافي الكبير إلى موخوس الصيداوي أنه أول من قال بالجوهر الفرد قبل حرب طروادة ، ويستند في هذا الخبر إلى رواية بوسيدنيوس الفيلسوف الرواقي المعروف ، وهو سبق له معناه في عصر الكلام على الجوهر الفرد والقنبلة الذرية .

أما في الأخلاق فلا قيمة عندهم للبحث الفلسفي ، إن لم يكن له نفع في طلب الحياة الفاضلة ونشدان السعادة والتطلع إلى الكمال ، ومساك الأخلاق المثلى عندهم ضبط النفس وتربية الارادة واجتناب المطامع والشهوات .

وليس من العسير تعليل هذه النزعة الرواقية أو هذه الفلسفة العربية القديمة ، لأنها تنبعث من مصادر ثلاثة كل منها خليق أن يتجه بها هذا الاتجاه : وهي سلطان القبيلة ، وسلطان الدين ، وسلطان الدولة والنظام .

فالقبيلة تفرض على أبنائها حياة الصبر والشظف والمحافظة على التراث القديم ، وتجعل كل فرد من أبنائها مسؤ ولا عن القبيلة بأسرها ، فعليه من أجل ذلك حساب عسير في كل صلة بينه وبين سائر الأفراد من تلك القبيلة أو من

أبناء القبائل الأخرى ، وغاية ما يحذره الرجل في ظل هذا السلطان أن « يخلع » فيصبح كما يسمونه خليعاً لا حساب عليه .

ثم يأتي سلطان الدين والكهانة بعد انتظام القبيلة في دور الحضارة والعرف الموروث ، ولن تفترق الكهانة القديمة عن المراسم والآداب التي تلتزم في آداب المعيشة وآداب السلوك ، ويتعرض الخارج عليها لخطر جسيم يضارع خطر « الخلع » أو يزيد عليه ، لأنه يخلعه من حظيرة قومه وحظيرة الله على السواء .

ويتمشى مع سلطان الدين سلطان النظام والقانون في الدولة المهيبة قائماً على ركنين من وشائج العصبية وفرائض العبادة ، أو قائماً على الحاسة الموروثة في عنصر النسب وعلى العقيدة المستقرة في الضمير .

فاذا اتفقت هذه المصادر الثلاثة على إنشاء مدرسة من مدارس الحكمة فلن يكون عجيباً أن تنشأ هذه المدرسة على مثال الرواقيين ، فان نشأتها بين السلالات العربية مفهومة قريبة التعليل ، وإنما المستغرب الذي يخفى تعليله للوهلة الأولى أنها انتشرت في البيئة الاغريقية والبيئة الرومانية أو البيئة الأوربية على الاجمال ، فلولا ما أصاب العالم الأوربي من القلق النفساني بعد فتوح الاسكندر وقبل الدعوة المسيحية لتعذر فهم ذلك الانتشار .

التدوين

ولا تستطاع المبالغة فيما استفاده البشر من اختراع طريقة لاثبات المعاني بالحروف وإثبات الأعداد بالأرقام . فان تدوين المعارف البشرية كلها راجع إلى هذا الاختراع النفيس .

ومما يقل فيه الخلاف بين المؤرخين والمنقبين أن حروف الكتابة العربية والكتابة الأفرنجية ترجع إلى مصدر واحد ، وأن الأوربيين اعتمدوا على الكنعانيين أو الارميين في اقتباس حروفهم الأولى ، وهي مشابهة في لفظها ورسمها لبعض الحروف السامية ، ولا سيما الألف والباء والجيم والدال ، وكلها ذات معان معروفة في لغات الساميين .

ومعظم الباحثين في هذا الموضوع يرجحون أن الحروف الكنعانية أو الارمية تدرجت من حروف مصرية مأخوذة عن الصور الهيروغليفية القديمة ، وأن اللوحة التي عثر بها سير فلاندرس بترى في شبه جزيرة سيناء (سنة ١٩٠٦) تشتمل على النموذج الوسط بين الصور القديمة والحروف الابجدية كما نشرها الكنعانيون والارميون . ويقدرون أن هذه اللوحة ترجع إلى أقدم من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، وقد كان الارميون في ذلك العهد يعيشون في شبه جزيرة سيناء .

ولعل الصور الهيروغليفية في مصر سبقت مثيلاتها في بلدان العالم لتوافر الورق البردي ومداد الكتابة الثابت في وادي النيل . ولكن الأوربيين لم

يقتبسوها مباشرة من وادي النيل لحرص الكهنة على إخفاء هذه الأسرار . . فلما بلغت مع الزمن طور الحروف الشائعة أمكن أن تنتقل إلى جوار مصر في سيناء وتخومها الشرقية ، حيث اقام الآراميون والكنعانيون .

ومما لاشك فيه أن فضل النشر والتعميم ثابت لابناء الجزيرة العربية في هذا الاختراع النفيس ، لأنهم نقلوه إلى الأقطار الأسيوية كما نقلوه إلى الأقطار الأوربية ، فأخذ الهنود حروفهم من اليمن كما أخذ الاغريق حروفهم من عرب الشمال بفلسطين .

وطريقة الترقيم الحسابية أحدث كثيراً من طريقة الكتابة بالحروف ، .ولكن تقويم الحروف بالقيم الحسابية قديم في الشعوب السامية ، ولما اقتبسوا الأرقام الهندية بعد الاسلام صقلوها وأضافوا إليها علامة الصفر والطريقة العشرية ، ومن ثم عرفت هذه الأرقام عند الأوربيين باسم الأرقام العربية ولا يزال اسم الصفر عندهم Zero « زيرو » محرفا عن اسمه فيها .

صناعات السلم والحرب

ويرى إسحاق تايلور Issac Taylor ان الاغريق اقتبسوا نظام الأوزان وسك النقود عن البابليين من طريق الارميين فالليديين في آسيا الصغرى .

وقد كان للإرميين بطون في العراق وبطون أخرى في سيناء وفلسطين فكانوا ينشرون ما اقتبسوه من وادي النهرين ووادي النيل على السواء ، وكان الاغريق على اتصال بهم في الموانىء الشرقية من آسيا الصغرى إلى تخوم سيناء ، فنقلوا عنهم وسائل الحضارة والتجارة قبل أن يهتدي إليها أبناء القارة الأوربية بزمن طويل .

والاغريق ملاحون قدماء في صناعة الملاحة ، ولكنهم لم يسبقوا الكنعانيين إلى هذه الصناعة لأن هؤلاء قد عكفوا على نقل التجارة البحرية ، وأوشكوا أن يحتكروها في شرق البحر الأبيض إلى ما بعد أيام الإسكندر ونشأة الاسكندرية ، وأعانهم على تجويد الملاحة كثرة الأخشاب الصالحة لبناء السفن في أرض كنعان ، وكثرة المحاصيل التي يحتاجون إلى بيعها والمبادلة عليها في الموانىء القريبة أو البعيدة ، ووقوع بلادهم على شواطىء بحر تفضي إليه التجارة الأسيوية من أبعد الاقطار .

وربما تعلم الاغريق صناعة السفن من الكنعانيين أو من البابليين ، وقد تفيدنا قصة نوح وسفينته لأنها أقدم سفينة ورد لها ذكر في التاريخ ، ولا شك أنها لم تبن في بلاد الاغريق بل بنيت في بلاد قريبة من بلاد التوراة ، أو قريبة مما بين العراق وفلسطين ، وقد وجدت آثار السفن الفينيقية القديمة في أفريقية

الجنوبية ، وقد ذكر هيرودت رحلات الفينيقيين والمصريين في عهد الفرعون نيخاوس ـ وكانوا أول من عرف الأمم في ساحل أفريقية الشرقي معرفة يقين . وإنما كان الأغريق يعرفونهم على أيام هوميروس معرفة سماع .

فاذا كان تحقيق السبق عسيراً اليوم ، فالأمر الذي لا يعسر تحقيقه أن الكنعانيين ـ أو الفينيقيين كما سماهم الاغريق ـ توسعوا في الملاحة وإقامة المستعمرات البحرية البعيدة توسعاً لم يبلغه الاغريق في الزمن القديم ، وأنهم إذا كانوا قد اقتبسوا الموازين والنقود والكتابة وأرصاد النجوم وخصائص الأيام الفلكية عن الساميين ، فليس بالبعيد أنهم تلقوا عنهم دروساً في الملاحة والتجارة وبناء السفن وتوجيهها في البحر على حسب الطوالع والنجوم .

ومما يلاحظ في سياق الكلام على مقتبسات الاغريق من الدول السابقة في شؤ ون الحياة اليومية وشؤ ون الحضارة عامة أن أبقراط الملقب بأبي الطب قد نشأ في جزيرة كوس ، وأن جالينوس أشهر الأطباء اليونان بعده قد نشأ في آسيا الصغرى ، وأنهما قد ساحا في أرض كنعان وإرم كما ساحا في الديار المصرية ، ولا خلاف في اقتباس أبقراط وجالينوس من طب الفراعنة القديم ، ولكن المعارف التي اقتبسها أهل آسيا الصغرى من كنعان وبابل لا بد أن تشمل المعارف الطبية التي تلازم الحضارات العريقة ، ولا يمكن أن تستثنى منها بفرض من الفروض .

***

وتلك هي خلاصة الحضارة القديمة في كلمات معدودات ، فلم تكن هناك صناعة من صناعات السلم لم يتتلمذ فيها الإغريق على أمة من سلالة الجزيرة العربية ، أو لم يكونوا فيها لاحقين على إثر سابقين .

وعلى هذا الاعتبار ـ أي اعتبار الساميين جميعاً من سلالة الجزيرة العربية ـ يجب أن يعود اليهم فضل الفنون الحربية التي استفادها الرومان من القائد القرطاجي المشهور باسم هنيبال . فان معركة كاني Cannae التي هزم فيها الرومانيين بنصف عددهم على وجه التقريب لا تزال محوراً للبحث والمناقشة ومرجعاً للدرس والتعلم في أحدث مدارس أوربة العسكرية ، وهي على هذا لم تكن إلا فناً من فنون كثيرة فوجىء بها الرومانيون من أساليب ذلك القائد

العظيم في نقل الجنود بالبر والبحر والنزول بهم على الشواطىء المكشوفة والصعود بهم الى قلل الجبال ، واستخدام السفن المبتكرة في البحر وابتكار الخطط السريعة لتسخير الحيوان في المعارك البرية ، ومنه الفيل والحصان .

ولو شاء المؤرخ أن يعد هينبال عربياً بحتاً - ولا يجعله من السلالة العربية وحسب - لكانت له قرينة من اسمه واسم وطنه وتاريخ ظهوره . . . فانه ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد حين كانت الأمة العربية قد شارفت طورها الحديث الذي بقيت عليه إلى اليوم ، وكانت في اسمه لهجة العربية كما كانت تلفظ في ذلك الزمان ، أو على نحو مقترب منها غاية الاقتراب . لانه سمي « حني بعل » وهو اسم يرادف نعمة بعل أو نعمة الله . وسميت بلدته « قرية حداش » أو القرية الحديثة فصحفت إلى قرتاش فقرطاج بتعطيش الجيم كما نطق بها الرومان ، وكان اسم أبيه حامي القرية أو « هاملكار » بعد التصحيف والتحريف .

***

وخلاصة ما تقدم أن الأوربيين تتلمذوا على أبناء الجزيرة العربية في مسائل العقيدة ومسائل الحضارة والمعيشة اليومية ، قبل أن تبلغ أوربة مبلغ المعلم لغيره في أمر من الأمور .

ولا يقدح في هذا أن السمريين - سكان ما بين النهرين الأولين - كانوا شعباً من شعوب العنصر الآري كما جاء في بعض التقديرات التي تستحق النظر والترجيح .

فان المحقق الذي لا تختلف فيه الظنون أن المعارف الفلكية التي وصلت إلى الأوربيين وبنوا عليها عقائدهم في الكواكب والأيام مصبوغة بالصبغة البابلية سواء في الأسماء أو الصفات ، وأن الكتابة قد وصلت الى الأوربيين والهنود من طريق أبناء الجزيرة العربية في أقصى الشمال أو أقصى الجنوب ، وأنه مهما يكن الظن بالابتكار في أطواره الأولى فالطابع السامي ظاهر على أول ما اقتبسه الأوربيون من دروس الفلك والكتابة والحكمة الرواقية وبعض أسباب التجارة والملاحة والعمار ، وليس في شيء من ذلك ، ولا في غيره ، طابع ظاهر للسمّريين .

الأصل والنقل

الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات : فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية . ولم توجد قط حضارة تفردت بالابداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة .

إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوروبيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الابداع ، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ـ ولو كانت شرقية ـ بملكة الابداع والتفكير الحر ولا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة . لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى ، وهي الدعوى التي يسوغ بها سيادته على أمم العالمين .

وقال منهم قائلون إن هذه السمة ـ سمة النقل ـ لازمت الجنس العربي منذ كان له تاريخ متصل بتاريخ العالم في أقدم العصور ، فالسمريون سبقوا الأمم العربية فيما بين النهرين ، وبلغوا شأواً عظيما من الحضارة والعمران تدل عليه الآثار التي بقيت بعدهم ولا تزال فضلة منها كافية لتقديرها أحسن تقدير . فلا جرم كان البابليون والكلدانيون مسبوقين إلى حضارتهم فيما بين النهرين ولم يكونوا فيها سابقين ولا مبتدعين .

ولماتجدد ظهور العرب بعد الاسلام كانت لهم حضارة ، ولكنها كانت كذلك حضارة منقولة ، ولم تكن بالحضارة المبتدعة على أيديهم ، وثبتت سمة النقل

باحصاء أسماء العلماء والمفكرين الذين نهضوا بأمانة الثقافة في ظل الدولة العربية ، فانهم كلهم - إلا القليل منهم - كانوا من الشعوب الأعجمية التي دانت بالاسلام ولم يكونوا من العرب الأصلاء ، وتلك هي الحجة التي يستند اليها دعاة العصبية الأوربية في تجريد الأمم التي لا تتوشج بينها وبين الأوربيين واشجة قرابة ، من مزايا الابداع والتفكير .

وهذا الكتاب فيما نرى هو موضع الفصل في هذه الدعوى الشائعة ، أو هو على الأقل موضع الاشارة الى البينة الراجحة والبينة المرجوحة من أقوال دعاتها ، لأن تمحيص المزايا العربية هو قوام الكلام على آثار العرب في الحضارة الأوربية .

وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل : أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنقل ؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون اليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى ؟

فالاغريق نقلوا قبل أن يبدعوا ، وعلماؤهم - كما أشرنا الى ذلك في غير هذا الموضع - قد نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية والاسكندرية وفلسطين والشام وتخوم العراق ، ولم ينحصر نبوغهم في مكان واحد يقال إنه هو موطن العنصر المحض الخالص الذي لا يشوبه عنصر دخيل .

ويصدق هذا على الهند وفارس والصين ، كما يصدق على أية أمة من سلالات الأوربيين المحدثين .

ولا شك أن السمّريين الأقدمين كانوا سلالة أخرى غير السلالة العربية لأنهم يخالفونها في معدن اللغة وخصائص المزاج ، ولكن الجزم بمنشئهم الأصيل أمر لم ييسر للباحثين إلى يومنا هذا . فقد تباين القول في منشئهم حتى قال أناس إنهم من المغول وقال آخرون إنهم من المصريين ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء إنهم أوربيون منحدرون من الشمال .

إلا أن القول بأن العرب الذين وفدوا إلى بلادهم لم يبدعوا شيئاً غير ما أبدعه السمريون هو محض تخمين وتظنين ، لأن العالم لم يتلق عن السمريين أثراً من آثار حضارتهم في حينها ، ولما اتصلت العلاقة بين بلادهم وما جاورها كانت السمات العربية ظاهرة في معدن اللغة وعادات الاجتماع ومزاج التفكير ، فلا موضع هنا للجزم بأن العرب نقلوا ولم يبدعوا ، وأن السمريين قبلهم أبدعوا

ولم ينقلوا ، مع جهلنا كل الجهل بما أبدعوه وما نقلوه .

أما في العهد الاسلامي فقد اشتركت الأمم الأعجمية حقاً في أمانة الثقافة وكان لفضلائها قسط عظيم في مختلف العلوم والدراسات ، ولكنها لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الاسلام فيها ، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة .

وكل نظر صحيح في هذه المسألة يوجب الشك في السبب الذي يردها إليه دعاة العصبية العنصرية ، وهو العجز الأصيل في تفكير العربي وقلة استعداده للبحث الفلسفي والدراسة النظرية ، والاهتمام بالمعرفة والاستطلاع لغير الكسب والانتفاع .

مثال ذلك أن الذين جمعوا الحديث في أول حركة الجمع كانوا من الأعاجم وكان أقلهم من العرب الأصلاء ، ولم يقل أحد قط إن العربي تعوزه ملكة الرواية وحفظ الأنساب والاسناد ، وهو الذي وعى بالحافظة من أنسابه وإسناده ورواياته ـ ما لم يدخل في وعي أمم كثيرة من أمم البداوة أو الحضارة .

فلا بد من الرجوع إذن إلى سبب غير السبب العنصري المزعوم لتعليل القلة الملحوظة في عدد العلماء من العرب الأصلاء ، في بعض العصور .

وأدعى من هذا إلى البحث عن سبب غير ذلك السبب أن العرب الأصلاء قد اشتغلوا بالفلسفة والحكمة في الأندلس وعلى عهد العلويين وأواخر العباسيين ، وأن تاريخ الثقافة العربية يشتمل على أناس مثل ابن الهيثم والحسن بن أحمد الهمداني (المتوفى سنة ٣٣٤) صاحب كتاب سرائر الحكمة وأنساب حمير وهو محيط بمباحث الفلسفة عن أصل العالم وقواعد المنطق والكلام ، ومثل ابن النضر القاضي الذي قال فيه أبو الصلت في رسالته عن منجمي مصر : « أما المنجمون الآن بمصر فهم أطباؤ ها كما حذيت النعل بالنعل لا يتعلق أكثرهم من علم النجوم بأكثر من زائجة يرسمها ومراكز يقدمها وأما التبحر ومعرفة الأسباب والعلل والمبادىء الأول فليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المنزلة ، ويحلق في هذا الجو ويستضيء بهذا الضوء ، ما خلا القاضي أبا الحسن علي بن النضر المعروف بالأديب ، فانه كان من الافاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان » .

وفي كتب التراجم والسير ـ ولا سيما أخبار الحكماء للقفطي ـ خلاصات طيبة عن كثير من الفلاسفة والحكماء ممن لم يرزقوا الشهرة في صدر الاسلام . وقد اشتهر مع هذا رجال كالكندي ومحمد بن ابراهيم الفزاري وأبناء موسى بن شاكر الثلاثة محمد وأحمد والحسن في العهد الذي برزت فيه أسماء العلماء من الغرباء عن السلالة العربية .

ولا يذهب بنا البحث عن سبب غير سبب القصور العنصري إلى بعيد . فان الأسباب كثيرة مكشوفة قريبة التناول لمن يريد أن يراها ، ومنها أن الأعاجم سبقوا العرب إلى صناعة الكتابة لأن العرب كانوا في صدر الاسلام اصحاب قيادة ورئاسة شغلتهم الفتوح وسياسة البلدان المفتوحة عن دراسة العلوم التي يغني عنهم فيها أعوانهم من الأتباع والمرؤ وسين .

ومن تلك الأسباب أن الأمم الطارئة على الاسلام كانت أحوج إلى تعلم اللغة والفقه والبحث عن مصادرهما ، وإلى الاستمساك في بلادهم النائية بعروة الدين الذي لا تربطهم بالدولة عروة سواه .

ومنها أن الدولة العباسية قامت على الأعاجم فقربتهم وتعهدتهم بالمكافأة والتشجيع ، فأقبلوا على البحث والعلم وهم على ثقة من حسن الجزاء .

ومنها أن عدد الفضلاء الأعاجم هو عددهم بالقياس الى جميع أفراد الأمم التي ينتمون إليها . أما عدد الفضلاء من صميم العرب فهو عددهم بالقياس الى الفاتحين الراحلين عن الجزيرة العربية ، وهم قلة صغيرة إلى جانب الذين تخلفوا بعدهم في البادية على نحو من معيشتهم الأولى .

ومنها أن الجدل والمناظرة من لذات الأمم المغلوبة لأنها تلتمس فيها الغلب الذي فاتها من جانب السيادة والقيام على العروش .

فالقصور العنصري سبب لا تلجئنا إليه الحقائق ولا تزكيه عند المنصفين ، أما الثابت من هذه الحقائق فهو أن الدفعة التي أحيت الحضارة في رقعة الدولة الاسلامية قد جاءت من السلالة العربية ، وأن حضانة الدولة الاسلامية هي التي سمحت ببقاء ما بقي من حضارات الفراعنة والاغريق والفرس والهنود ، ولولا قوة « موجبة » في العبقرية العربية لما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضانة .

وليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الاسلامية عربياً محضاً في الأصـول والفروع ، ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها ، فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث ، فحفظت تراث الانسانية كلها وزادت عليه ونقلته الى من تلاها ، وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات ، ومن طلب إليها الا تورث الناس إلا شيئا جديداً من ابتداعها فقد طلب إليها أن تلغي كل ما تقدمها ، أو هو قد طلب إليها ما يناقض الحضارة في فضيلتها الكبرى ، وهي فضيلة السماحة والحرص على تراث بني الانسان .

وفيما يلي بعض ما حملته من أمانة الحضارة إلى العالم الحديث :

الطب والعلوم

أشاد هوميروس في الأوديسى بمهارة الأطباء المصريين ، وقال هيرودوت غير مرة إنهم كانوا يعالجون أنواعاً شتى من الأمراض ، يختص كل منهم بمرض يبرع في علاجه ، وروى أن قورش أرسل إلى مصر في طلب طبيب للعيون ، وأن دارا كان عظيم الاعجاب بهم كثير الثناء عليهم ، وكان الاغريق يعرفون اسم « امحوتب » رب الحكمة في مصر القديمة ويسمونه بلغتهم أموثيس . وقد نقلوا عن الطب المصري كثيراً من العقاقير كما نقلوا آلات الجراحة بغير تبديل .

وتلقى الاغريق شيئاً من الطب الكلداني كما كان في عصوره القديمة مزيجاً من السحر والتعويذ والعلاج .

ثم دارت دورة الثقافة الانسانية على أتمها في هذه الصناعة التي يحتاج إليها جميع الناس ، فأعاد الاغريق ما أخذوه وما زادوه إلى المصريين في عهد مدرسة الاسكندرية ، وإلى الكلدان والسريان في أواخر الدولة الرومانية الشرقية ، وكان في ذلك الحين حصة من تراث الأديرة وكهانها ، يتدارسه من يتدارسون العلوم باليونانية أو اللاتينية ، وكان معظمهم يومئذ من رجال الدين .

واستعان الفرس بأطباء السريان والروم فأنشأوا المدرسة الطبية والمستشفى المشهور بجنديسابور ، وكان عليه معول الشعوب القريبة كلها في إتمام معارفهم الطبية والتوسع في الاطلاع على فنون العلاج عند سائر الأمم ، ومن تلاميذه النابهين بين أطباء العرب الحارث بن كلدة الذي تعلم الطب في الجاهلية وأدرك الاسلام .

وقد عرف العرب التطبيب في أقدم عصور الجاهلية على طريقة البداوة في مزج الطب والكهانة وعلاج الأمراض بالوسائل البدائية ، فكان لكل قبيلة عرافها الذي يستشار في كل ما حزبها من الأمور ، ومنها العلل والشكايات .

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني

وكان طب هؤلاء العرافين يخلط بين الرقى والتبخير وتعاطي الأدوية التي تقترن بالعزائم والتمائم والتعاويذ ، ومع العرافين أطباء مختصون بالعلاج لا يزاولون الكهانة ولا يموهون على المرضى باسم الجن أو الأصنام ، ويعالجونهم بالفصد والكي والحجامة والحمية وبعض العقاقير والأعشاب التي تنبت في بلاد العرب أو تجلب من الهند والصين . ووصايا هؤلاء الأطباء تدل على خبرة حسنة بتصحيح الأجسام ، كما قال الحارث بن كلدة :

« من سره البقاء ، ولا بقاء ، فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقلّ غشيان النساء »

وسأله معاوية : ما الطب يا حارث ؟ فقال : الأزم يا معاوية ! يعني الجوع . وكان ينهى عن الاستحمام بعد الطعام ويوصي بالتخفف من الديون والهموم . وكانت لهم طريقة عملية ناجعة في التماس الدواء لما استعصى عليهم دواؤه وهي أن يخرجوا المريض إلى طريق القوافل ليراه من أصيب بمثل مرضه ويصف له الدواء الذي شفاه .

ويبدو لنا أن اشتغال العرب الطويل برعي الماشية قد باعد بينهم وبين طب الكهانة والخرافة ، وقارب بينهم وبين طب التجارب العملية ، لأنهم راقبوا الحمل والولادة والنمو وما يتصل به من الأطوار الحيوية ، وشرحوا الأجسام فعرفوا مواقع الأعضاء منها وعرفوا عمل هذه الاعضاء في بنية الحيوان نحواً من المعرفة السليمة ، فاقتربوا من الاصابة في تعليل المرض والشفاء .

وجاء الاسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعي على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ، ولم يحدث في مكان الكهان طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين . بل سمح النبي عليه السلام باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين ، فلما مرض سعد بن أبي وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له : إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع آخرون . ثم

قال للحارث بن كلدة : « عالج سعداً مما به » والحارث على غير دين الاسلام . وذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » ومنها التطبيب أو هي الطب قبل سائر ضروب الحكمة ، فجعل الاسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه ، واتخذها وظيفة معترفا بها ولو لم تكن من أعمال المتدينين .

لهذا كثر اشتغال المسيحيين بالطب في ظل الدولة الاسلامية ، ونبغ الأطباء بين نصارى المشرق في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ، لأن المرض عقاب من الله لا ينبغي للانسان أن يصرفه عمن استحقه ، وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعهد الايمان ، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد ، وهو إبان الحضارة الاندلسية .

وقد دعي إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله ، وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان ، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم .

ومن هذه الكثرة في عدد الأطباء ومعلمي الطب ، يتبين لنا أن الحاجة إلى دراسة الطب والعلوم كانت حاجة عمران كامل ، ولم تكن حاجة أفراد أو طوائف محدودة .

فمن الجائز في بداية الأمر أن الملوك احتاجوا إلى الأطباء البارعين ، فاستقدموا إليهم من ترامت إليهم سمعتهم بالقدرة والدراية ، ومن الجائز كذلك أن بعض الرهبان أو العلماء في طوائف السريان والروم كانوا ينقطعون لدراسة العلم ، فيما انقطعوا له من صنوف الدراسات ، ولكن العاصمة لا تتسع لاكثر من ألف طبيب في وقت واحد ما لم تكن الحاجة إلى الطب والعلم حاجة عمران واسع الأطراف ، وقد كان السريان والروم في أماكنهم وكان معهم أقوامهم وذووهم وكتبهم وودائعهم في ظل القياصرة والأكاسرة ، فلم يتسع نطاق المعرفة هذا الاتساع ولم يبلغ ارتقاء المعيشة في عهد الحضارة الرومانية أو الفارسية هذا المبلغ ، وإنما الجديد في الأمر هو التفاعل الطيب في بنية المجتمع مع قيام الدولة الصالحة التي نهضت بها العبقرية الاسلامية ، وتكفلت بها سماحة الدين الجديد .

ولم تكن مزاولة الصناعة وحدها هي الغرض المقصود من هذه النهضة الواسعة وهذا التعليم المستفيض ، لأن أشهر الأطباء كانوا يضيفون إلى علم الطب علماً آخر كالفلسفة أو الهندسة أو الفلك أو الكيمياء ، وكانوا يؤلفون الموسوعات ويطيلون البحث في أمهات هذا العلم حيث كان .

وقد كان بعض الدراسة كافياً لمزاولة الصناعة الطبية في تلك العصور ، ولكنهم طلبوا العلم للعلم فلم يقنعوا بما وجدوه من كتب الاغريق الأقدمين أو كتب الفرس والهنود ، ورجعوا إلى كل مظنة من مظان التوسع في هذه البحوث ، فتساوى بحثهم عن كتب الطب وبحثهم عن كتب الهندسة والنجوم وسائر المعلومات ، ووضعوا الكتب فيما قرأوه وترجموه فاذا هو موسوعات تشمل « الوصفة » الهندية الى جانب الوصفة العربية أو الفارسية أو اليونانية ، وإذا هي مباحث تهذيب واستقصاء وليست متاجر أرباح .

ومن موسوعات الطب الاسلامية ما لم يوضع له نظير في الضخامة والتمحيص على قدر أسباب التمحيص في زمانه ، وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربة من حال إلى حال ، ولم يضارع مؤلفي العربية فيها أحد من علماء الأوربيين إلى مطلع العصور الحديثة ، مع شغف الأوربيين اخيراً بادعاء ملكة العلم للعلم ، واتهام الشرقيين بأنهم لا يطلبون العلم إلا للصناعة وأرباحها ، فانعكست الآية هنا وأصبح أطباء أوربة يقرأون كتب العربية ليستفيدوا منها في مزاولة الصناعة وكسب الأموال ، وتشابهوا في ذلك جميعاً ، ما لم يكونوا من الرهبان والقسوس الذين انقطعوا عن الدنيا فلا يجهرون بطلب المال من صناعة الطب ولا غيرها من الصناعات .

فترجم كتاب القانون لابن سينا في القرن الثاني عشر ، وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والاغريق والهنود والسريان والأنباط ، وترجم كتاب الحاوي للرازي سنة ١٢٧٩ وهو أكبر من القانون وأوسع منه في المادة والموضوع ، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته لأنه عمل لا يضطلع به الأفراد .

وترجمت كتب ابن الهيثم في ذلك العصر فكان عليها معول الأوربيين اللاحقين جميعاً في البصريات .

وظهر من برامج جامعة لوفان المحفوظة أن كتب الرازي وابن سينا كانت هي المرجع المعول عليه عند أساتذة تلك الجامعة إلى أوائل القرن السابع عشر ، وجاء المدد من الأندلس العربية فأمد أوربة بمرجعها الأكبر في الجراحة وتجبير العظام ، وهو كتاب التعريف لمن عجز عن التصريف لأبي القاسم خلف بن العباس ، وقد طبع باللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر ، وكان قبل طبعه دروساً متداولة بين أبناء الصناعة يعتمدون عليها في الأعمال الجراحية ولا سيما فتح المثانة واخراج الحصاة ، وقال العالم الطبيعي الكبير هاللر في رواية جستاف لو بون إن كتب أبي القاسم كانت مرجع الجراحين جميعاً بعد القرن الرابع عشر للميلاد ، وقد ترك كتيباً صغيراً عن الآلات الجراحية التي تستخدم في العمليات على اختلافها مع توضيحها بالأشكال وطرائق الاستخدام .

وتكاثرت المستشفيات باسم المارستانات في أنحاء الدولة الاسلامية بعد القرن الثالث للهجرة ، وكانت لهم طريقة لطيفة للتحقق من جودة الهواء وصلاح الموقع لبناء المستشفيات ، تغني عن الأساليب العلمية التي اتبعت في العصر الحاضر ، بعد كشف الجراثيم والاحاطة بوسائل التحليل . فكانوا يعلقون اللحوم في مواضع مختلفة من المدينة في وقت واحد ، فأيها أسرع إليه العفن اجتنبوا مكانه واختاروا المكان الذي تتأخر فيه عوارض الفساد .

وقد تسلم العرب الطب في مرحلة من مراحله الطويلة بين النظريات القديمة والنظريات الحديثة . فكانت نظرية بقراط أن الأخلاط أربعة دم وبلغم وصفراء وسوداء ، وأن المرض هو اختلال النسبة بين هذه الأخلاط ، والعلاج هو ردها الى نسبتها الأولى ، وكانت نظرية جالينوس أن الأمزجة أربعة وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، فمن أصيب من قبل الحرارة فعلاجه البرودة ، ومن أصيب من قبل الرطوبة فعلاجه اليبوسة ، وعلاج كل عرض من هذه الأعراض يقتصر على هذا القياس ، وكثر بين أطباء مدرسة الاسكندرية انتقاد هذه النظريات ولا سيما نظرية بقراط فأبطلها « أرازسترات Erasistratus » ونصح لأتباعه بإهمالها وإيثار الملاحظة الدقيقة عليها ، وجاء بعدهم من اكتفى في التوصيف بسؤال المريض والمقابلة بين حالته وأحوال المرضى الآخرين ، وتسجيل الظواهر والأعراض في جميع الأحوال .

فلما تناول العرب الطب كانت هذه الصناعة في المرحلة بين تناسي النظريات

القديمة ونشأة النظريات الحديثة ، ولم تكن العلوم في جملتها قد وصلت الى الطور الذي يسمح بابتكار هذه النظريات ، فاعتمدوا الملاحظة والتجربة ولم يعولوا كل التعويل على التزام النظريات أو ابتكار الجديد منها ، وتصرفوا في العلاج فلم يتقيدوا برأي جالينوس في علاج البرودة بالحرارة أو الحرارة بالبرودة ، بل كان منهم من يعالج البرد بالبرد في بعض الحالات او يجمع بين الحمية والتبريد والترطيب ، كما كان يفعل صاعد بن بشر رئيس المستشفى العضدي ببغداد ، وقد عرفوا العلاج بالعوض كما يؤخذ من كلامهم عن خصائص اعضاء الحيوان ، فان الدميري صاحب كتاب الحيوان يذكر من منافع رئة الثعلب مثلا أنها تداوي أمراض الصدر لأن هذا الحيوان لا يلهث إذا عدا ، ويذكر غير ذلك من خصائص أعضاء الحيوان .

وسبقوا الافرنج الى وصف الجذام وشرح مرضي الجدري والحصبة ، وعلاج أمراض العين ، وحاموا حول مذهب فرويد في الطب النفساني وعلاقته بالمسائل الجنسية على نحو تجريبي خليق بأن يحتذى في تقرير المعارف والمشاهدات . فمن ذلك أن حظية للرشيد تمطت في بعض الأيام ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها ، وعولجت بالتمريخ والدهن فلم تنتفع بهما . فلما سئل جبرائيل بن بختيشوع قال للرشيد : « إن لم يسخط علي أمير المؤمنين فلها عندي حيلة . قال له الرشيد : ما هي ؟ قال : تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده وتمهل علي ولا تعجل بالسخط . فأمر الرشيد باحضار الجارية فخرجت فأسرع اليها جبرائيل ونكس رأسه وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها ، فانزعجت الجارية وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها » . . . فقال جبرائيل : قد برئت يا أمير المؤمنين ، ولما سئل في تعليل ذلك قال : « هذه الجارية انصب الى أعضائها وقت المجامعة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة ولأجل أن سكون حركة الجماع يكون بغتة جمدت الفضلة في بطون الأعصاب وما كان يحلها إلا حركة مثلها ، فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وحلت الفضلة فبرئت » .

ويروى عن ابن سينا أنه دعي لعيادة فتى مريض لم يهتد الأطباء إلى علته ، فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة وتناول يد الفتى يجس نبضها ويرقب وجهه ، وطلب من العريف أن يسرد أسماء الأحياء في المدينة فسردها حتى جاء

ذكر حي منها فازداد نبض الفتى ، ثم سأله أن يذكر بيوت الحي فازداد النبض عند واحد منها ، فسأله عمن في البيت من الفتيات ، وقال لأهل الفتى : زوجوه تلك الفتاة فهذا هو الدواء .

وعالج أطباء العرب الجنون علاج الأمراض الطبيعية ، وقد كان يسمى عند الافرنج بالمرض الالهي أو المرض الشيطاني لأنهم كانوا يحسبونه من إصابات الأرواح أو الشياطين .

***

واقترنت بحوث العرب في الطب ببحوثهم في الكيمياء . فاستفاد الأوربيون منهم كثيراً في هذا العلم المستحدث ، وربما كانت فائدتهم من دروس العرب الكيمية أعظم مما استفادوه من دروسهم الطبية .

فالقلويات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي Alkali وماء الفضة وهو من أهم الحوامض المستخدمة في التجارب الكيمية لم يظهر وصفه في كتاب قبل كتب جابر بن حيان . وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوربيون عن ملح النوشادر وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج وبعض السموم . وقد ترجم له كتابه السبعين وكتاب تركيب الكيمياء الى اللغة اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر ، وظلت كتبه عمدة في هذا العلم بين الأوربيين إلى أواخر القرن السابع عشر ، فترجم كتابه الاستتمام إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٧٢ .

ونقلت كتب الرازي كما نقلت كتب جابر بن حيان ، ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المواد الكيمية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية ، وتقسيم المواد المعدنية أدق تقسيم عرف في العصور الوسطى ، ولعل التاريخ الأوربي لم يتأثر بشيء من كشوف العرب في المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدامه في قذائف الحصار وأسلحة القتال .

وفي الطبيعيات أخرج العرب الثقل النوعي لكثير من العناصر والجواهر النفيسة ، ونقلوا رأى الاغريق في الجاذبية وتعليل الثقل ، وفحواه أن الأجسام

الثقيلة مجذوبة إلى معدنها من مركز الأرض ، وأن الأجسام الروحانية مجذوبة إلى أصلها في السماء . ولكن البيروني شك في ذلك ووجه إلى ابن سينا سؤ اله الذي يدل على ميله إلى القول بأن الأجسام كلها مجذوبة إلى مركز الكرة الأرضية ، وذلك حيث يقول : « ما الصحيح من قول القائلين أحدهما يقول إن الماء والأرض يتحركان إلى المركز ، والهواء والنار يتحركان من المركز ، والآخر يقول إن جميعها يتحرك نحو المركز ولكن الأثقل منها يسبق الأخف في الحركة إليه »

وقد مهدت هذه الآراء سبيل نيوتن إلى كشف قانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمي الحديث .

وللبيروني أيضاً فضل السبق إلى درس السوائل في عيون الأرض ومرتفعات الجبال ، وما تحكم به حركاتها في حالي التوازن والارتفاع ، ومن رواد هذه المباحث في اللغة العربية أبناء موسى بن شاكر أصحاب كتاب الحيل الذي يعد أصلا من أصول « الميكانيكا » قبل تطورها الأخير في عصر الآلات .

وعلى سذاجة البحوث التي انتهى إليها علم التاريخ الطبيعي قبل القرن الثامن عشر ، كانت مؤ لفات العرب خير المراجع في هذه العلوم للأوربيين وغير الأوربيين ، فانهم جمعوا المتفرق من المعلومات القديمة عن الحيوان والنبات وزادوا عليه وتوسعوا فيه . فنقلوا عن الهند والكلدان واليونان والأنباط ، واعتمدوا على المشاهدة في بلادهم وغير بلادهم كما فعل ضياء الدين المالقي المعروف بابن البيطار ، فقد ولد بمالقة وساح في أنحاء العالم الاسلامي ووصل إلى أقصى بلاد الروم للبحث عن الأعشاب وأصناف النبات ، وعينه الكامل الأيوبي رئيساً للعشابين بالديار المصرية ، وهم يقابلون في عصرنا هذا علماء النبات وعلماء الصيدلة في وقت واحد ، وألف كتاب « الأدوية المفردة » فاستوعب فيه صفوة المعلومات التي أدركها علم زمانه في هذه البحوث .

جاء في كتاب « الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية » لمؤ لفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلن شارلز بام وفان نوستراند : « في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الاغريق من التراث العلمي على التقريب . وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه . . . وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الاغريقية العربية تتسرب إلى أوربة الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . . . ولم يكن

تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر ، ولكنه جاء من طريق صقلية إلى ايطاليا ، ومن أسبانيا المحمدية إلى أسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا . وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظى إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية ، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الانجليز[1] مثل أديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلي وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام ، وكانت رسالة أديلارد أوف بات في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته اوروبة الغربية في القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في أسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية . . . وترجم جيرارد أوف كريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ في الثالثة والسبعين من عمره واحداً وسبعين كتاباً مختلفاً من هذه الكتب ، وقاربه في وفرة الانتاج أفلاطون أوف تيفولي ، وعلى هذا النحو كانت أوروبة قد استولت في مستهل القرن الثالث عشر على محصول العلم الاغريقي والعربي بحذافيره . وأصبح تدريس العلم في الجامعات الحديثة من الأمور المقررة المتفق عليها . وكان أعظم علماء ذلك العصر الانجليزي الفرنسيسكاني روجر باكون (١٢١٤ - ١٢٩٢) وهو لا يقصر في عظمته عن شأن البرتس الكبير ، وكلاهما قد تولى التدريس في جامعة باريس . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى ظهرت مجموعة هذه المعارف في سفر ضخم من تصنيف فنسنت أوف بوفيس ، سماه مرآة الطبيعة ، وحوى فيه كل ما وسعته المعرفة البشرية في ذلك الجيل من طب وظواهر كونية وفلك وجغرافية وظواهر جوية ، وكلام عن طبقات الأرض والمعادن والنبات والاحياء والتشريح . . الخ » .

***

على أن الجانب المهم من أثر هذه الموسوعات الثقافية في أوربة لا يتوقف على تعديد المعلومات كم « معلومة » بلغت وكم معلومة أخذها العرب أو أخذها منهم الأوروبيون ، وإنما المهم ان الأوروبيين تناولوا مشعل العلم من أيدي العرب فاستضاؤوا به بعد ظلمة وبلغوا به بعد ذلك ما بلغوه من هذا الضياء

---

١ - حافظنا على التسمية الانجليزية لأنها أشبه بالاسماء التي يعرف بها اصحابها بهذه الصيغة .

العميم الذي انكشفت به أحدث العلوم ، ولو لم يحمل العرب ذلك المشعـل شرقاً وغرباً لكان من أعسر الأمور أن يقدح الأوروبيون نوره من جديد . وإذا أفلحوا في قدحه فقصاراه في ثلاثة قرون أن يقف دون الشأو الذي انتهى إليه جهد الانسان في عشرات القرون .

الجغرافيا والفلك والرياضة

يعتبر بظليموس صاحب « المجسطي » معلم الجغرافية الأول في العصور القديمة ، لأن اسمه كان أشهر الأسماء التي أذاعها العرب في أوربة بعد مولده بعدة قرون .

ومن الخطأ أن يظن أن علم الجغرافية علم يوناني في أصوله ومبتكراته لاشتهاره باسم مؤلف من كلمتين يونانيتين ، لأن بطليموس نفسه قد اقتبس كثيراً من المصريين كما اقتبس كثيراً من الكنعانيين ، وقد سبقه من اليونان جغرافيون وسياح اعتمدوا على أهل مصر وبابل فيما أثبتوه من الأصول الجغرافية التقليدية ، ومنها الكلام على النيل وأثيوبية وتقسيم الدنيا إلى سبعة أقاليم ، ويبدو على هذا التسبيع ، طابع البابليين الذين تحدثوا قديماً عن الكواكب السبعة والأيام السبعة ، وجعلوا التسبيع سمة من سمات الخليقة الالهية .

فبطليموس نشأ في الاسكندرية واقتبس فيها ما توارثه المصريون من الأرصاد والتقاويم ، وأخبار الرحلات وقصص السياح على عهد الفراعنة عما طرقوه من البرور والبحور ، وقد بلغ من شيوع هذه الرحلات بين الاغريق الأقدمين أنها تطرقت إلى الالياذة والأوديسى من شعر هومر ، كما تطرقت إلى شعر غيره من فحول الشعراء .

ولصلة لا شك فيها بين علم المصريين الأقدمين وعلم الاسكندريين راجت المدرسة الجغرافية في الاسكندرية رواجاً لم تبلغه في أرض الرومان ولا

اليونان ، فاشتهر فيها بولبيوس وبسدونيوس وثيوفان ومتلين ، كما وفد إليها استرابون قبل بطليموس بنحو مائة سنة ، وهذا عدا الفلكيين الذين كان لهم من البحث الجغرافي نصيب .

يعزو بطليموس فضلا كبيراً إلى كتاب مارنيوس الصوري الذي دون في كتابه خبرة الكنعانيين وخبرة المصريين ، واعتمد عليه بطليموس كثيراً في تقسيم خطوط العرض وخطوط الطول .

والواقع الذي تتفق عليه آراء المؤرخين أن أوربة لم تطلع على جغرافية بطليموس قبل انتقالها إليها من طريق الثقافة العربية ، وأنها وصلت إلى الأوربيين مزيدة منقحة بما أضافه إليها الجغرافيون المسلمون ، ولا سيما البيروني في رحلاته إلى آسيا الشرقية .

واخترع ابن يونس المصري في القرن التاسع للميلاد الرقاص ثم توالى بعده من ضبط حركاته وانتظام ذبذباته .

وليس أرجح من الأقوال التي ترجع بتاريخ الابرة المغناطيسية إلى الملاحين العرب والمسلمين ، لأن الأقوال التي ترجع بها إلى مخترعات الصين يشوبها كثير من الشك ، ومثلها الأقوال التي ترددها بين الرومان واليونان ، ولم يكن باب الاقتباس مغلقاً بين الصين والعرب في فنون الملاحة . إذ كانت السفن تغدو وتروح زمناً طويلا قبل الاسلام بين الحيرة العربية وموانيء الصين ، وقد أثبت العلامة جوستاف لو بون نسبة الابرة إلى العرب في كتابه عن الحضارة العربية ، وهو إثبات له قيمته في بابه ، فان أعوزته أدلة الجزم القاطع لم تعوزه أدلة الترجيح .

وقد اشتهر في المشرق الاسلامي جغرافيون مبرزون أضافوا الى العلم أحسن التحقيقات من طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات ، ولكن الاندلس هي التي جمعت صفوة هذه المعلومات وأشاعتها في الأقطار الأوربية التي تجاورها ، وكان للشريف الإدريسي خاصة أعظم الفضل في جمع هذا العلم وتجديده وإحياء العناية به بين ذوي الشأن في زمانه . فلما أراد روجر الثاني ملك صقلية النورماني في القرن الثاني عشر أن يستوفي معلومات عصره الجغرافية لم يجد من يعتمد عليه في ذلك غير الشريف الإدريسي الذي ولد في

سبتة ودرس في قرطبة وتطايرت شهرته في بلاد الحضارة الاسلامية والمسيحية . فوضع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، وصنع له الملك كرة فضية - تمثل كرة الأرض - زنتها أربعمائة رطل رومي ليتخذها مثالا لما يثبته من معالم الكرة الأرضية ولا يعرف أن أحداً سبق الادريسي إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت في الخرائط التي بقيت في بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسي ترسم النيل آتياً من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخبط الجغرافيون في وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيردوت الملقب بأبي التاريخ .

ومن الخرائط المرسومة والآراء النظرية التي نقلت عن العرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ، ترتفع قمتها في الهند وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها في مكان آخر ، يشبه إقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه . وكانت الخريطة التي أوحت اليه هذه الفكرة مباشرة خريطة الكردينال بطرس الايلي التي سماها صورة الدنيا Imago mundi واعتمد فيها على المصادر العربية ونشرها في أوائل القرن الخامس عشر قبل رحلة كولمبس بنحو ثمانين سنة وهو فضل يحسب للعرب في كشف العالمْ الجديد .

ولقد كانت آراء البيروني ومروياته في علمي الجغرافية والفلك شائعة بين الأوربيين المهذبين ، ومما نقله البيروني عن أهل الهند « أن على ترابيع خط الاستواء أربعة مواضع هي جمكوت الشرقي والروم الغربي وكنك الذي هو القبة والمقاطر لها فلزم من كلامهم أن العمارة في النصف الشمالي بأسره » ثم قال : « وأما اليونان فقد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس ، فلما لم يأتهم خبر إلا من جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ، ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور ، جعلوا العمارة في أحد الربعين الشماليين ، لا أن ذلك موجب أمر طبيعي فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ، ولكن أمثاله من المعارف موكول إلى الخبر من جانب الثقة ، فكان الربع دون النصف هو ظاهر الأمر والأولى أن يؤخذ به إلى أن يرد دليل لغيره . . . » .

ومعنى هذا الكلام الواضح أن موجب العقل يقضي بوجود جانب مغمور في الجانب الغربي من الكرة الأرضية ، ولكن لا يقطع بوجوده إلا بعد المشاهدة

وتواتر الخبر من الثقات . وهذه هي الحقيقة التي اعتمد عليها كولمبس فاقتحم بحر الظلمات على رجاء تحقيق الفكرة المنطقية برؤ ية العيان .

ولو بقي الرأي الغالب على أهل أوربة عن تسطيح الأرض كما كان قبل شيوع كتب الجغرافيين من العرب ـ مع إنكار الكنيسة للقول باستدارتها ودورانها ـ لكان من المتعذر جداً أن يسنح في ذهن كولمبس خاطر السفر إلى الغرب للوصول إلى الأقطار الأسيوية ، ولكن العرب أشاعوا هذه الحقيقة في أهم الكتب الجغرافية التي ألفوها ، فكتب ابن خرداذبة المتوفى سنة ٨٨٥ للميلاد « أن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة » وقال ابن رسته المتوفى سنة ٩٠٣ « إن الله جل وعز وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً ، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك » وأتى بالبراهين على ذلك فقال : « والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية ، ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو فانه يرى وقت الحدث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل كسوف القمر ، فانه إذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلا ـ أقول وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين . . . الخ » وقال المسعودي المتوفى سنة ٩٥٦ : « جعل الله عز وجل الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير ، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر ويحيط بفلك القمر فلك عطارد الخ » . وقال المسعودي في مروج الذهب إن الشمس « إذا غابت في هذه الجزائر ـ أي جزائر الأقيانوس ـ كان طلوعها في أقصى الصين وذلك نصف دائرة الأرض » .

وقد تولى العلماء غير الجغرافيين تقرير هذه الحقيقة بالأدلة الفلسفية كما فعل ابن سينا في جوابه عن سؤ ال أبي حسين أحمد السهلي عن علة قيام الأرض في الفضاء وثبات الأجسام عليها حيث قال : « . . . . ينبغي حينئذ ضرورة أن تكون جميع الأجسام الثقال ، حيواناً كانت أو غير حيوان ، تميل بطبعها وتنجذب من جميع الجوانب كلها الى وسط العالم » وألم في ختام الرسالة بأقوال

الأقدمين فقال : « ذهبت طوائف من القدماء إلى آراء أخرى غير ما سبق . فمن أصحاب فيثاغورث من قال إن الأرض متحركة دائمة على الاستدارة ، ومنهم من قال إنها هابطة إلى أسفل ، ومن غيرهم من ذهب إلى سكونها ».

فشيوع العلم باستدارة الأرض بفضل تداوله في الكتب العربية هو الخطوة الأولى التي تسبق كل خطوة في طريق كولمبس ومن صدق بدعوته من أبناء زمانه ، ولولا هذه الخطوة لكان أهل أوربة الشمالية أولى بكشف الدنيا الجديدة لأنهم أقرب إليها ، ولهم دراية بالملاحة كدراية أبناء الشواطىء الجنوبية .

على أننا قرأنا رأياً لبعض المشتغلين باللغة والتاريخ عندنا يؤكد فيه سبق العرب إلى كشف الدنيا الجديدة بأدلة لغوية تاريخية يعتمد عليها ، وأشهر من قال بذلك الأب أنستاس الكرملي صاحب البحوث الطويلة في مشتقات الألفاظ وتواريخها . فانه يشير إلى تيار الخليج الحار في المحيط الأطلسي فيقول :

« سبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك إلى أرلندة ومن هذه إلى تلك . فكانوا يركبونه من موطن إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان جزر المانش أي جزر القصدير وأهالي جزيرة أرلندة . فكانوا إذا ظعنوا إلى أنحاء المكسيك مكث بعضهم فيها وعاد القليلون منهم إلى بلادهم راكبين متن ذلك التيار المبارك مسبحين ربهم مباركين مسلمهم . ونعرف أنهم كانوا يقيمون في الديار التي عرفت بعد ذلك بالمكسيك من أسماء الحيوانات التي سموها بها ، وهي أسام تعرف بها إلى اليوم ، لكن لا يفقه أهلها معانيها ولا علماء الغرب الذين اتخذوها . . » .

إلى أن يقول : « وأما بعض هذه الألفاظ فمنها التمساح المسمى عندهم Alligator فانهم لم يعرفوا من أي لغة هي . إنما يقولون إنها بلسان البلاد التي يعيش فيها ولم يزيدوا على هذا القدر . أما أنها من لغتنا المصرية فمما لا شك فيه لوجود العمامة والكوفية في رأسها أي الألف واللام وهي العمرة التي يمتاز بها القحطاني دون غيره . . . . » .

وقد كنا نود أن يستند القول بوصول العرب إلى العالم الجديد على بينة أقوى من هذه البينة . لأن الواقع أن أصل تسمية التمساح بهذا الاسم الأسباني معروف، إذ هو مأخوذ من el lagarto الأسبانية المصحفة من lacerata

اللاتينية بمعنى فصيلة الضب والعظاية ، وإلى اللاتينية ترجع كلمة lizard الانجليزية التي يسمى بها ذلك الحيوان وكلتاهما قريب من قريب .

إلا أننا مع هذا لا نوافق الأب أنستاس الكرملي على أن كولمبس كان مديناً بالفضل في معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس للمسيح ، وذلك ما يؤخذ من مقال الأب حيث قال : « وأول من انتبه لهذا الأمر راهب اسمه برندان السائح البحار المولود . . . سنة ٤٨٣ م وهو من أصل شريف يرتقي إلى ملك أرلندة . . . ففي عام ٥٤٥ م تهيأ لتحقيق ما يختلج في صدره من الأماني مع أربعة عشر راهباً من مقتحمي الأهوال ، فابتنوا مركباً كبيراً ليستكشفوا ما هنالك . . . وفي سنة ٥٥٢ نزل برندان ورفاقه على ساحل أميركة . . . ولا جرم أن كولمبس كان واقفاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان ، فتمكن من أن يقنع الملك فردينند والملكة إيزابلة بأن يوافقا على هذه الرحلة للبحث عن العالم الجديد . . . » .

فقصة برندان هذه من الأقاصيص التي يرتاب فيها الثقات ولا يجدون لها أصلا مكتوبا قبل القرن الحادي عشر للمسيح ، وهي التي يصح أن يقال إنها مقتبسة من المصادر العربية ، لأنها تحكي لنا حكاية الحوت الكبير الذي نزل عليه المسافرون وظنوه جزيرة راسية فتحرك بهم وأوشك أن يغرقهم ، وليس في القصة وصف للقارة الجديدة بل وصفها كله خيال عن نعيم الأبرار الموعود في أرض الصالحين والقديسين .

وقد تواترت أقاصيص الجغرافيين العرب عن المغررين الذين طوحوا بأنفسهم في بحر الظلمات ، فهلك منهم من هلك ، وعاد منهم من عاد بأخبار تشبه الأساطير ولا تبدو عليها مظنة الثقة والاعتماد . ومن ذلك إشارة المسعودي في مروج الذهب إلى أخبار « من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه ، ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا » .

ومنه وصف الادريسي في نزهة المشتاق حيث يقول : « إنهم وصلوا ـ من لشبونة بعد اثني عشر يوماً ـ إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف ، ثم فردوا قلاعهم في اليد الأخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها ، فقصدوا الجزيرة

فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها » .

إلى أن يقول : « فاعتقلوا فيها في بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسألهم عن حالهم وفيم جاؤوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً وأعلمهم أنه ترجمان الملك . . . فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا في غير حاجة ولا فائدة تجدي » .

وهذه وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك ولا سيما قول الرواة أن المغررين وجدوا في الجزيرة « رجالا شقراً زعراً شعور رؤ وسهم سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب » .

ولو وصل أولئك المغررون إلى القارة الجديدة لرأوا هناك ما رآه كولمبس ، وعادوا بخبر أصح من هذه الأوصاف ، وليس فيها جميعاً ما يزيدنا على الظن بأن رواداً من العرب حاولوا استطلاع بحر الظلمات فلم يصلوا منه إلى نهاية ، وهو ظن نستطيع أن نذهب إليه ، بل نجزم به ، بغير حاجة إلى تلك الأقاصيص .

وأقوى من هذا التقدير دلالة على سبق العرب إلى ارتياد العالم الجديد أن كولمبس عاد من أمريكا بذهب مخلوط بالنحاس على النحو الذي يخلط به أهل غانة الأفريقية وبالنسبة التي يلاحظونها في هذا الخليط . وإن لغات الهنود الحمر تشتمل على كلمات أوربية وأقدم منها الكلمات العربية التي تتخللها مع بعض التصحيف والتحريف . ولكن قرينة الذهب أقوى وأقرب إلى الاحتمال . لأن تحقيق الزمن الذي تسربت فيه الكلمات المزعومة أمر عسير المراجع ، إذ كانت الرحلات قد توالت بعد كشف أمريكا بين الشواطىء الأفريقية والشواطىء الأمريكية في أيام رواج النخاسة ، واختلاط النخاسين والعبيد بمن يتكلمون العربية في أفريقية الغربية ، وليس من السهل إثبات تواريخ الألفاظ في لغات كلغات الهنود الحمر لا تعتمد على الكتابة والتسجيل .

وأجدر بنا أن نقول كما قال البيروني إن الأمر موكول إلى الخبر من جانب

الثقة . فان فضل العرب القائم على الحقائق في المعارف الجغرافية يغنيهم عن كل فضل قائم على الظنون .

وليس للجغرافية ـ بعد ـ من عماد تقوم عليه غير السياحة والاستقراء والأرصاد الفلكية ، وفي كل أولئك فضل ثابت للعرب والمسلمين غير منسي ولا منكور .

فقد كانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر فناً إسلامياً من فنون أهل المغرب على الخصوص ، وهم قدوة الأوربيين في هذه الشؤون . ومن سياح المسلمين المشهورين أبو عبيد الله البكري الذي ولد في مرسية وألف كتابي معجم ما استعجم ، والمسالك والممالك ، وتوفي في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، ومنهم الشريف الادريسي المتقدم ذكره ، ومنهم محمد بن عبد الرحيم المازني الذي ولد في غرناطة وألف نخبة الأذهان في عجائب البلدان وتوفي في القرن الثاني عشر ، ومنهم ابن جبير الذي ولد في بلنسية قبل منتصف القرن الثاني عشر ، وكتب رحلته المتداولة بين قراء العربية ، ومنهم ابن بطوطة صاحب تحفة النظار في غرائب الأمصار أكبر الرحالين في القرن الرابع عشر على الاطلاق .

وهؤلاء غير الرحالين المشرقيين من أمثال المسعودي وابن حوقل وياقوت الحموي والبيروني ، وعشرات آخرين لم يشتهروا هذه الشهرة ولم يتركوا بعدهم من المطولات مثل ما ترك هؤلاء .

ويدل على أثر المسلمين في الملاحة تلك الكلمات التي لا تزال محفوظة في لغات الأوروبيين بما يشبه حروفها العربية ، مثل Tare من طرح السفينة ، و felouque من الفلك ، و Caifata من القلفطة ، و Amiral من امير البحر ، و arsenal من دار الصناعة ، و risk بمعنى المغامرة في طلب المعاش من كلمة رزق . و avala من كلمة حوالة و avaare من كلمة عوار . و wissil الألمانية من كلمة وصل و calibre من كلمة قالب . وغير ذلك كثير ولا سيما في كلام أهل الأندلس والبرتغال .

وقد كشفت على شواطىء البحر البلطي وفي البلاد الأوربية الشمالية أحافير شتى ترجع إلى القرون الوسطى منها نقود إسلامية . وهي تدل على اتصال التجارة الشرقية بأطراف أوربة في الشمال وعلى دخول تلك الأقطار في نطاق

الجغرافية الاسلامية بالمعاملة أو العيان .

وإذا كان وصول العرب إلى القارة الأمريكية قبل كولمبس غير مقطوع به على سبيل التحقيق فمن المحقق أنهم وصلوا في المحيط الأطلسي إلى أمد بعيد وانتهوا إلى جزائر الآزور وكشفوا سواحله إلى أقصى الجنوب .

أما المعارف الجغرافية من طريق الارصاد الفلكية فمن مآثر العرب فيها أنهم قاسوا محيط الكرة الأرضية في عهد المأمون ، ثم قاسوه على طريقة البيروني بتقدير ارتفاع الجبال بالدقائق والدرجات . وانهم صححوا خطوط الطول والعرض وحققوا الاعتدال الشمسي وضبطوا التقاويم وأحكموا الازياج . قال جوستاف لو بون في كتابه عن حضارة العرب : إن التقويم السنوي الذي أصلح في عهد السلطان ملك شاه أصح من التقويم الغريغوري الذي أتمه الأوربيون بعد ستمائة سنة ، لأن التقويم الغريغوري يقع فيه خطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة ولا يقع بحساب التقويم العربي غير خطأ يومين ، وانهم عرفوا مقياس خط النهار قبل الأوربيين بألف سنة ، وانهم كشفوا الاختلاف الثالث في سير القمر الذي أغفله بطليموس ، وانهم هم الذين عينوا الأماكن على الخرائط واستدركوا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها الأغريق في درجات العرض والطول ، ومنها أخطاء بطليموس الكبير ، وكانت أخطاؤهم لا تتجاوز الدقائق حيث تتجاوزها أخطاء الأغريق إلى الدرجات .

ولا حاجة إلى استقصاء طويل في علم الفلك عامة لاقرار فضل العرب فيه على الأمم الأوربية . فان الأسماء العربية باقية بلفظها في المعجمات الفلكية الأوربية سواء في أسماء الكواكب والنجوم أو أسماء المدارات والمصطلحات ، ومن مئات هذه المفردات نكتفي بالقليل للدلالة على الكثير كالطرف Altaref وكرسي الجوزاء Cursa والكف Caph والأرنب Arnab والعرقوب arkab والسمت Azimuth وأدحى النعام Azha والبطين Botein وزبانتي العقرب Zuben Hakrabi والوزن Wezn والنسر الواقع Wega والساهور Saros والسيف Saif وصدر الدجاجة Sadr وسعد السعود Sadalsud ورجل الجبار Rigel والزورق Zaurek وقرن الثور Tauri والراعي Errai والذنب Deneb . . . . وأمثال هذه الأسماء المحفوظة بألفاظها كثير غير ما ترجموه بالمعاني دون الألفاظ .

***

والعلاقة بين الفلك والعلوم الرياضية توجز لنا البيان عن حظ الثقافة العربية من الرياضيات في جملتها . وقد تغني العناوين هنا عن التفصيلات التي تلتمس في مطولات هذا الباب . فان الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية ، لأن الأغريق وقفوا به عند القواعد الأولى التي أثبتها ديوفانتس Dioplantus الاغريقي السكندري في القرن الثالث للميلاد ، وقد لخص جوستاف لوبون تجديداتهم في هذه العلوم فقال إنهم أدخلوا الخط المماس إلى حساب المثلثات ، وحلوا المعادلات المكعبة ، وقد توسعوا في مباحث المخروطات ، وأحلوا الجيوب محل الأوثار وانشأوا النظريات الأساسية لحل مثلثات الأضلاع ، وروي عن بعض الثقات أن تجديدات العرب في هذه المسائل وأمثالها كانت ثورة علمية بعيدة الآثار .

وليس بالشرقيين غلو في القول إذا ارتفعوا ببعض الرياضيين الاسلاميين إلى الذروة العليا في علوم الرياضة جمعاء . فان الأستاذ كارل ساخاو الذي كان استاذاً للغات السامية في جامعة فيينا يقول عن البيروني إنه أعظم العقول التي ظهرت في العالم .

والأستاذ لالاند الفلكي الفرنسي المشهور في القرن الثامن عشر يقول عن البتاني إنه واحد من عشرين رياضياً ظهروا في العالم القديم والعالم الحديث .

ومن تمحيص القول في نشأة العلوم الرياضية أن نلغي منه اللغو الذي يتداوله بعض الأوربيين المحدثين ، ليؤثروا الأغريق وحدهم بالفضل في ابتداع الهندسة وتطبيق الرياضة النظرية على الفلك وسائر الفنون . فقد بلغت العصبية « الأوربية » ببعضهم أن يعزوا إلى طاليس فضل الإنباء بالكسوف قبل وقوعه ، وينسوا الحقائق الحسية التي تدل على سبق المصريين والبابليين في هذه الدراسات . ومن هؤلاء من يكتب عن تاريخ الفلسفة الاغريقية قديمها وحديثها ـ كجون برنيتBurnet ـ أو يكتب خاصة عن تاريخ هذه الفلسفة من طاليس إلى أفلاطون ، ويغفل عما كتبه أفلاطون نفسه في نشأة الرياضيات . لأن أفلاطون قرر في حوار فيدراس أن توت الاله المصري هو الذي اخترع الحساب والهندسة والفلك وكتابة الحروف ، وكان ينعى على قومه أنهم لا يعنون بهذه العلوم عناية المصريين كما جاء في الفصل السابع من قوانينه حيث قال : « ان الأحرار عليهم أن يتعلموا من هذه المسائل بمقدار ما يبذل للتعليم في مصر

لعدد كبير من الأطفال حين يتعلمون الكتابة » وإن أطفال المصريين يتدرجون من تعلم الجمع والطرح والقسمة إلى التمرينات في قياس الأطوال والسطوح والمكعبات . تم ختم الكلام الذي ورد في ذلك الحوار على لسان الأثيني آسفاً لذلك الجهل المخجل المضحك الذي أطبق على سائر بني الانسان في هذه الدراسات .

وقد كان أقليدس ـ الذي ينسب إلى صور ـ يتلقى العلم على تلاميذ أفلاطون في أثينا ، ويسمع منهم أمثال هذا الكلام عن شغف الحكماء المصريين بالدراسات الرياضية ، وسعة المجال الذي يدرسون فيه الرياضيات على الاجمال ، فلا جرم يرحل بعد ذلك إلى الاسكندرية وينبغ بعد ذلك في هندسته نبوغاً لم يسجل لأحد من الأثينيين الذين اقتصروا على معارف بلادهم في هذا الباب ، ولم يرحلوا عنها إلى مصر أو بين النهرين .

وطاليس نفسه قد حضر إلى مصر وقال هيرونيمس Heronymus الرودسي « إنه لم يتعلم قط إلا في أيام رحلته إلى مصر واختلاطه هناك بالكهان » .

وهيرودوت هو الذي روى لنا قصة إنباء **طاليس بالكسوف** قبل وقوعه ، وهو الذي روى كذلك أن الاغريق أخذوا آلة قياس الانتقال الشمسي والاعتدالين بالظلال من البابليين ، وتواترت الأقوال في كتب التاريخ الرياضي بأن البابليين قد رصدوا الكسوف ، وحسبوا له دورة تتم بعد مائتين وثلاث وعشرين دورة قمرية أي في ثماني عشرة سنة وأحد عشر يوماً ، وطبقوا ذلك الحساب من أزمنة مجهولة قبل كل رصد منسوب إلى الاغريق .

فليس مما يليق بالعالم أن ينكر الحقيقة تعصباً لجنس من الأجناس ، لأن العلم الصحيح وحب الحقيقة لا يفترقان . ومهما يكن من غلو الغالين في تقويم حصة الأغريق من التراث الرياضي ، فالحقيقة التي لا تقبل النزاع أنهم أخذوا من الشرق قبل أن يأخذ منهم الشرق ، وأن أبناء هذا الشرق هم الذين أعطوا الأوربيين وديعة تلك الحصة كبرت أو صغرت ، وزادوا عليها مازادوه بالتنقيح والابتكار .

الأدب

كتب الأستاذ حب Gibb في مجموعة ترات الإسلام فصلا ممتعاً عن أثر العرب في الآداب الأوروبية ، استشهد فيه بكلمة للأستاذ ما كيل Mackail من محاضراته على الشعر قال فيها : « إن اوروبة مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الخيالية Romance كما هي مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية » . . . « وإننا - يعني الأوروبيين - مدينون لبطحاء العرب وسوريه بمعظم القوى الحيوية الدافعة - او جميع تلك القوى - التي جعلت القرون الوسطى مخالفة في الروح والخيال للعالم الذي كانت تحكمه رومة ».

ولا يقر الأستاذ جب كل هذا التعميم والاطلاق ، ولكنه لا يبطله كل الابطال ولا ينفي الأثر الذي تركه الأدب العربي في شعر الأوربيين ونثرهم ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرون الحديثة ، وإن كان يرجح أن هذا الأثر قد تسرب من طريق الايحاء والرواية اللسانية بين المسلمين الذين كانوا يتكلمون العربية وبعض اللغات الأوروبية ، وبين شعراء فرنسا الجنوبيين ممن لم تثبت معرفتهم بالعربية على التحقيق .

والذي نعتقده على أية حال أن العقل يأبى كل الاباء أن قيام الأدب العربي في الاندلس يذهب من صفحة التاريخ الأوربي بغير أثر مباشر على الأذواق ، والأفكار والموضوعات والدواعي النفسية والأساليب اللغوية التي تستمد منها الآداب .

ويزيدنا اعتقاداً لذلك أن أوربة كانت تتلقى آثار الثقافة العربية من ثلاث

جهات متلاحقة في القرون الوسطى . أولاها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوربة الشرقية والشمالية من طريق بحر الخزر او طريق القسطنطينية ، وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت منها اطراف الأخبار الاسلامية الى بلاد السكنداف .

والجهة الثانية هي جهة المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمنا طويلا بين سورية ومصر وسائر الأقطار الاسلامية .

والجهة الثالثة هي جهة الأندلس وصقلية وغيرهما من البلاد التي قامت فيها دول المسلمين وانتشر فيها المتكلمون باللغة العربية .

وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربي أسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوربة بأسرها ، خلال القرن الرابع عشر وما بعده ، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية على وجه لا يقبل التشكيك أو لا يسمح بالانكار .

ونخص منهم بالذكر بوكاشيو ودانتي وبترارك الايطاليين وشوسر الانجليزي ، وسرفانتيز الأسباني ، وإليهم يرجع الأثر البارز في تجديد الآداب القديمة بتلك البلاد .

ففي سنة ١٣٤٩ كتب بوكاشيو Boccoccio حكاياته التي سماها « الصباحات العشرة » وحذا فيها حذو « الليالي العربية » او ألف ليلة وليلة التي كانت يومئذ في دور النشر والاضافة بين مصر والشام ، وقد ضمنها مائة حكاية من طراز حكايات ألف ليلة ، واسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال اعتزلوا المدينة في بعض الضواحي فرارا من الطاعون ، وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح تزجية للفراغ . وقد ملأت هذه الحكايات اقطار أوروبة واقتبس منها شكسبير موضوع مسرحيته « العبرة بالخواتيم » All is well that ends well كما اقتبس منها لسنغ الألماني مسرحيته « ناثان الحكيم » .

وكان « شوسر » إمام الشعر الحديث في اللغة الانجليزية أكبر المقتبسين منه في زمانه ، لأنه لقيه حين زار ايطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « قصص كانتر بري » وأدارها على محور يشبه المحور الذي اختاره بوكاشيو لقصص الديكاميرون ، ومنها قصة السيد التي اقتبس فيها إحدى قصص ألف ليلة وليلة واستهلها بالكلام على بلاط خان من خانات التتر أو المغول . ولم يزل

الشعراء الغربيون ينسجون على هذا المنوال في نظم القصص الى عهد لونجفلو Longfellow صاحب الديوان الذي سماه « قصص خان بمنعطف الطريق » .

وربما كانت صلة « دانتي » بالثقافة العربية أوضح من صلة بوكاشيو وشوسر . لأنه أقام في صقلية على عهد الملك فردريك الثاني الذي كان يدمن دراسة الثقافة الاسلامية في مصادرها العربية .

ودارت بينه وبين هذا الملك مساجلات في مذهب أرسطو كان بعضها مستمداً من الأصل العربي ولا تزال نسخته المخطوطة محفوظة في مكتبة السير توماس بودلي باكسفورد . وقد لاحظ غير واحد من المستشرقين أن الشبه قريب جداً بين أوصاف الجنة في كلام محيي الدين بن عربي وأوصاف دانتي لها في القصة الالهية ، وقد كان دانتي يعرف شيئاً غير قليل من سيرة النبي عليه السلام ، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة المعراج ووصف الاسراء ومراتب السماء ، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء واقتبس من هذه المراجع كلها رحلته إلى العالم الآخر كما وصفها في القصة الالهية ، وأكبر القائلين بالاقتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية : وهو الأستاذ آسين بالسيوس Asin Palacios .

وعاش بترارك في عصر الثقافة العربية بايطاليا وفرنسا وحضر العلم بجامعتي مونبليه وباريس ، وكلتاهما قامتا على تلاميذ العرب في الجامعات الأندلسية . أما « سرفانتس » فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه « دون كيشوت » بأسلوب لا يشك من يقرأه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والأمثال التي لا تزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام . وقد جزم برسكوت Prescott صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الأسبان بأن فكاهة « دون كيشوت » كلها أندلسية في اللباب .

* * *

إلا أن الأثر الذي يفوق هذه المقتبسات الفردية جميعاً هو الأثر الشامل الذي يعزى اليه أكبر الفضل في إحياء اللغات الأوربية الحديثة وترقيتها إلى مقام الأدب والعلم ، بعد أن كانت مجفوة مزدراة في حساب العلماء والأدباء . وبعد أن كان كل أدب وكل علم لا يكتب بغير اللاتينية أو الاغريقية ، ولا يكاد يكتب

فيها أحد غير رجال الدين ومن في حكم رجال الدين ، وهم يقصرون الفهم على أنفسهم ولا يشركون فيه جمهرة الشعب ، ولا سيما طبقة السواد .

فقد كان شيوع التعليم بالعربية سبباً لاهمال اللاتينية والاغريقية وخطوة لا بد منها لاحياء اللغات الشعبية ، وتداول الشعر والبلاغة والعلم من طريق غير طريق القسوس والرهبان المنقطعين للمباحث الدينية . ويروي لنا دوزي في كتابه عن « الاسلام الأندلسي » رسالة ذلك الكاتب الأسباني - الفارو - الذي كان يأسى أشد الأسى لاهمال لغة اللاتين والاغريق والاقبال على لغة المسلمين ، فيقول : « إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وساء ذلك معاصراً كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفى من نصيب معاصريه فأسف لذلك مر الأسف وكتب يقول : إن اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ واأسفاه . إن الجيل الناشىء من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الاصغاء اليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات . فيا للأسى . إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحداً في كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق . أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ! وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة وصحة الأداء . . . »

وقد قال دانتي إن الشعر الإيطالي ولد في صقليه ، وشاع نظم الشعر باللغه العامية في إقليم بروفنس Provence حيث تلتقي الأمم اللاتينية في الجنوب ، فانتشر من ذلك الإقليم أولئك الشعراء الجوالون الذين عرفوا باسم التروبادور Troubadour واشتق الأوروبيون اسمهم هذا من كلمة تروبر trobar وقيل في رأي بعض المستشرقين إنها مأخوذة من كلمة « طرب » أو طروب ، وإن

اسم قصيدهم tenson « تنزو » مأخوذ من كلمة « تنازع » العربية . . . لأنهم كانوا يلقون الشعر سجالا يتنازعون فيه المفاخر والدعاوى كما يفعل الزجالون حتى اليوم بين أبناء البادية المحدثين ، ولوحظ بين أوزانهم وأوزان الزجل الأندلسي تشابه جد قريب ، وقد ظهر الزجل قبل ظهورهم وتغنى به المطربون وتداوله المنشدون في البيوت والأسواق ، ووجدت في اشعار الأوروبيين بشمال الأندلس كلمات عربية ، وإشارات إلى عادات لم توجد بين قوم غير المسلمين ، وهي تخميس الغنائم واختصاص الأمير بالخمس منها .

***

ولم تنقطع الصلة بين الأدب العربي ـ أو الأدب الاسلامي على الجملة ـ وبين الآداب الأوربية الحديثة من القرن السابع عشر إلى اليوم . ويكفي لإجمال الأثر الذي أبقاه الأدب الاسلامي في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديباً واحداً من نوابغ الأدباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل إسلامي أو نادرة إسلامية ، ومنهم شكسبير وأديسون وبيرون وسوذي وكولردج وشلي بين أدباء الانجليز ، ومنهم جيتي وهردر ولسنغ وهيني بين أدباء الألمان ، ومنهم فولتير ومنتسكيو وهيجو بين أدباء الفرنسيين ، ومنهم لافونتين الفرنسي وقد صرح باقتدائه في أساطيره بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوربيون من طريق المسلمين .

ولقد تأثرت القصة الأوربية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى : وهي المقامات وأخبار الفروسية ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والغرام ، وترى طائفة من النقاد الأوربيين أنفسهم أن رحلات جليفر التي ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو التي ألفها ديفوي مدينة لألف ليلة وليلة ، ورسالة حي بن يقظان التي ألفها الفيلسوف ابن طفيل ، وقد كان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية أول القرن الثاني عشر أثر يربى على كل آثارها السماعية قبل الترجمة المطبوعة ، واقترن ذلك بنقل التصانيف الأخرى التي من قبيلها فأصبح الاتجاه إلى الشرق حركة مألوفة في عالم الأدب كما كانت مألوفة في عالم السياسة والاستعمار .

على أن المدرسة المجازية الحماسية في أوربة القرون الوسطى إنما هي وليدة الحياة الحماسية المجازية التي سرت إلى الغرب كله من فاتحي العرب والمسلمين

بالقدوة العملية التي لا فكاك منها . ويعتقد « ابانيز » الكاتب الاسباني المشهور - كما يرى القارىء في موضع اخر من هذا الكتاب - أن أوربة لم تكن تعرف الفروسية ولا تدين بآدابها المرعية ولا بحوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الاندلس وانتشار فرسانهم وابطالهم في أقطار الجنوب ، وهو اعتقاد يعززه كثير من الأسانيد ، ولعل أقوى الأسانيد التي تعززه ذلك النموذج العسكري الجديد الذي لم يكن معهوداً في أبطال الوقائع الرومانية او الاغريقية ، وذلك الغرام الملتهب الذي لم يسبق له نظير في غزل الغربيين من اهل الجنوب أو الشمال ، وذلك التقديس للمعشوقة على نمط العذريين أو على النمط الذي أجاز لمتصوفة المسلمين أن يمزجوا بين نغمة العبادة ونغمة التشبيب ، ولم يكن تشبيب العاشق بالحبيب يرتفع في آداب الغرب إلى هذا المقام .

وقد بلغت المفردات العربية التي أضافها الاسبان وأهل البرتغال إلى لغتهم ما يملأ معجماً غير صغير ، ولكن العبرة مع ذلك بدخول تلك المفردات في الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية لا بمجرد دخولها في صفحات المعجمات ، فانها لم تتمثل على الألسنة الا بعد أن تمثلت في أحوال المعيشة ونوازع الاحساس والتفكير ، ومن هنا يعزى إليها من فعل الايحاء والتوجيه أضعاف ما يعزى اليها من فعل النقل والتلقين .

الفنون الجميلة

فنانان جميلان لم يكن لهما نصيب كبير في الحضارة العربية ، وهما التمثيل والتصوير بنوعيه : ونوعاه هما الرسم والنحت ، أي صنع التماثيل.

وشأن العرب في ذلك كشأن كثير من الأمم الشرقية أو الغربية ، فان التمثيل والتصوير لم يكونا في التاريخ القديم من الفنون الشائعة بين شعوب الحضارة ، ولا بين شعوب البداوة من باب أولى .

وقد نشأ التمثيل حيث نشأ في بلاد الاغريق من بعض الشعائر الدينية التي كانت تقام في موسم إله الخمر والصبوة ديونيسس Dionysus .

وكان في أول عهده مقصوراً على الرقص والغناء ، ثم أضيف إليه ممثل واحد يشغل الوقت بين الرقصات والأغاني ببعض الألاعيب والتراتيل ، ثم أضيف إلى الممثل الواحد زميل فزميلان ، وتعددت الأدوار في العرض الواحد تبعاً لهذه الزيادة وهذا التنويع ، حتى نشأت الرواية المسرحية على وضعها المعروف عند قدماء الاغريق .

فالشعوب التي خلت عباداتها الدينية الأولى من أمثال هذه الشعائر لم تخلق فيها فرصة لتطور فن التمثيل على هذا المنوال ، وربما كان في المجتمع العربي سبب آخر من الأسباب التي حالت دون تطور التمثيل من أصل اجتماعي غير أصول العبادات . فان التمثيل بعض الفنون التي ترتبط بالحياة الاجتماعية أوثق ارتباط ، ولا يعقل التمثيل في بيئة لم تتعدد فيها أدوار الحياة الاجتماعية على

حسب اختلاف الأعمال والصناعات والمشارب والطبقات ، فانما يقوم التمثيل من الناحية الاجتماعية على التجاوب بين الأفراد والأسر كلما تعددت العلاقات وتنوعت المطامع والنزعات ، ولم يكن في مجتمع البداوة مجال كبير لهذا التجاوب الكثير بين أسرة وأسرة وبين إنسان وإنسان ، وما كان من ذلك قائماً في حياتهم البدوية أو حياتهم الحضرية فقد وجد الكفاية للتعبير عنه في القصائد والأغاني وألعاب الفروسية وضروب المساجلات والمفاخرات التي تتفق لهم من حين إلى حين .

أما التصوير فقد قيلت في تعليل نقصه عند العرب أقوال شتى لا تستند إلى رأي جدير بالاقناع ، ومنها أن قلة التصوير من قلة الاحساس أو قلة انطباع المحسوسات في النفس بتلك القوة التي تفيض عنها فتلتمس لها مخرجاً بالتمثيل والتجسيم .

ولما قيل إن التصوير لم يبلغ مداه من التوسع والارتقاء في الحضارة العربية لأسباب دينية قال المتهمون للقريحة السامية إن تحريم الصور والأنصاب إنما هو نتيجة لضيق الحظيرة ونضوب الحس ، وليس هو بالسبب الأصيل لإعراض العرب عن رسم الصور ونحت التماثيل .

قالوا : ولولا انقطاع التعاطف الحي بين العربي وبين الحيوان لما صدف عن تشبيه الأحياء وتصويرها في الأبنية والأوراق كما صنع أبناء الأمم الأخرى في الشرق القديم .

ولكن الصحيح الذي ينساه أصحاب هذه الأقاويل أن الشعوب الأخرى لا تعرف تعاطفاً حياً بين الانسان والخلائق الحية التي تلازمه أوثق ولا أكرم من التعاطف الذي كان بين العربي والجواد أو الناقة أو كلب الصيد أو ظباء الفلاة ومهاها وطيورها وسائر حيواناتها . وقلما نظم شاعر عربي في عهد البداوة قصيدة من الشعر إلا استهلها بوصف محبوب أو وصف جمل أو ناقة أو وصف جواد كريم ، ولم يشبه الشعراء في أمة من الأمم القديمة جمال الأحباب والحسان بجمال المها والظباء كما فعل شعراء العرب الأسبقون ومن اقتدى بهم من الشعراء اللاحقين ، وهذا ولا شك إحساس نافذ قد وجد سبيله إلى التعبير بفن من الفنون الميسورة لأبناء الصحراء . إذ ليس التصوير وحده وسيلة

للتعبير عن الاحساس ، ولا سيا التعبير في بيئة بدوية تمتنع فيها أدوات التصوير .

وجدير بالذكر في معرض الكلام على تحريم الصور أن هذا التحريم قد دان به أناس كثيرون في آسيا الصغرى ، واشتهرت به طائفة كبيرة من طوائف الكنيسة الرومانية الشرقية عرفت باسم محطمي الأصنام أو الأيقونات Iconoclast وكانت دعوتها في القرن السابع مقدمة لانفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية . ولم تخل الكنيسة الغربية بعد هذا الانفصال من أتباع أشداء يدينون بمذهب أولئك المحرمين . ولولا احتضان المعابد لفن النحت والتصوير لكان من المشكوك فيه أن تفي المطالب الاجتماعية وحدها في أقطار أوروبة بحاجة هذين الفنين وحاجة المشتغلين بهما من نوابغ المصورين والمثالين .

ويجوز أن يقال في هذا الصدد إن الفرق بين العرب والأوربيين في تطور النحت والتصوير إنما هو فرق بين تخطيط المسجد وتخطيط الكنيسة كما توحيه العقيدتان .

فلم يكن في الاسلام محل للوسطاء بين الله والانسان ، وليس فيه من ثم محل لأسرار الكهانة ومحاريبها ولا لتجسيم الاله والقديسين ، وليس بالمنظور من العبادة الاسلامية مع هذا الاعتقاد أن تحتضن الفنون التي تزخرف المعابد بالصور والتماثيل ، وليس أفعل في تشجيع الفنون من رعاية المعبد وغيرة العقيدة ، وهما قد فعلا في ترقية فن البناء بين المسلمين ما فعلته الرغبة في تمجيد القديسين من ترقية النحت والتصوير بين الأوربيين .

فالمسجد لا يحتضن الصور والتماثيل فلم يتسع لها المجال في الحضارة الاسلامية كما اتسع لها في الأقطار الأوربية .

ولكنه لا يمنع البناء الجميل والقباب الفاخرة فكان هو أساساً لفن العمارة العربية الذي ضارع أجمل فنون البناء في القديم والحديث .

وقد كان للسليقة العربية ـ أو الشرقية ـ سمة خاصة فيه تدل على طابع مستقل عن الأساليب التي اقتبس منها العرب فنون البناء .

فمن الخطأ أن يقال مثلا إن الأسلوب البيزنطي هو أساس المدرسة التي اتخذت البناء في الشرق على هذا الطراز ، لأن الطراز البيزنطي نفسه نفحة من

نفحات الشرق التي خالفت بينه وبين أساليب القارة الأوربية من قوطية أورومانية ، ولولا هذه النفحة من روح الشرق لما حدث هذا الاختلاف بين بناء بيزنطة وبناء الجرمان أو الطليان .

ومما لا شك فيه أن العرب قد اعتمدوا على فنون البناء في الأمم التي سبقتهم إلى هذه الفنون ومنهم الفرس والروم والمصريون ، وأنهم قد استعانوا بالبنائين من القبط والأرمن في كثير من العمارات ، ولكن الذي لا شك فيه كذلك أن اليد الصانعة لم تكن في الحقيقة إلا الأداة المعبرة عن الروح العربية التي لا تلتبس بغيرها . فمن ذا الذي يتملى منظراً من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال ؟ ومن ذا الذي ينظر إلى تلك الأقواس والنوافذ ولا يعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى ؟ بل من ذا الذي يسمع المقابلة بين المصاريع والقوافي في الشعر العربي ولا يلمح المصدر الذهني الذي أوحى بها ماثلا في الأنساق والمقابلات أو في المربعات المتقابلة كما ظهرت في أول بناء مقدس حج إليه العرب وهو البيت الحرام ؟

فالروح العربي قد أضفى مثاله على طراز البناء المنسوب إليه بغير مراء ، فلا يرى الناظر بنية عربية ثم يخطر له أنها من وحي أوربة أو وحي الصين أو وحي فارس على تشابه الطرز والأقاليم في بعض الصفات .

ونحسب أن هذا الطابع الصراح هو الذي منع اقتباس الطراز العربي بتفصيلاته في الأقطار الأوربية التي اتصلت بالحضارة الاسلامية ، لأنه إما أن يكون طراز إقليم أو طراز مسجد ، وكلاهما لا يقتبس بتفصيلاته لاختلاف المناخ والعقيدة والمراسم الدينية .

ومع هذا اقتبس الأوربيون ما وسعهم اقتباسه من طراز البناء العربي متفرقاً في القصور والقلاع والأماكن التي لا شأن لها بالعقائد والمراسم الدينية ،

فشاع في انجلترة على عهد الملكة اليصابات وما بعده بعض النقوش البارزة التي أطلقوا عليها اسم النقوش العربية Arabesque وبنوا قلاعهم بعد الحروب الصلبية على طراز يقارب الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج ما بينها ، وتخطيط الحصون المركزة ، وإقامة الأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب

القذائف إلى الأفنية الداخلية ، وقد أخذوا من الكنائس الشرقية التي تأثـرت بالطراز العربي أنماطاً من الزوايا والبروج المستديرة لـم يكن لبناة الكنائس عهد بها في الغرب قبل الحروب الصليبية .

ولا أدل على مدى السلطان الفني الذي كان لمصنوعات العرب بين الأوربيين من محاكاتهم لها بغير تصرف فيها دون أن يفهموا معناها ، ومنها ما كان حروفاً مكتوبة ينقلها الصياغ وهم لا يحسنون قراءتهـا ، لأنهـم حرصـوا على محـاكاة الزخارف والمزركشات العربية ، كما رأوها على الأقمشة والمعادن والأخشـاب المرصعة أو المنقوشة ، وقد ذكر الأستاذ توماس أرنولد في كتاب تراث الاسلام أنهم عثروا في إيرلندة على صليب من مصنوعات القرن التاسع على الأرجـح نقشت البسملة على زجاجة في وسطه بالحروف الـكوفية ، واشتملـت كنيسـة بمدينة فلورنسة في منظر تتويج السيدة العذراء على أنسجة بين أيدي الملائكة منقوشة بالحـروف العـربية ، ودخلـت الأشـكال الشرقية على هذا النحـو في ظهارات الصور وبين المناظر المرسومة على الجـدران ، فكان لهـا نصيب من توجيه فن الرسم عند نهضته في القرون الوسطى .

على أن العرب لم يتجافوا الصور بتةً في عصور الجاهلية أو عصور الدولـة الاسلامية ، لأن أشعارهـم حافلة بأوصاف الدمـى والعـرائس والتصـاوير في الملابس والمباني والآنية وحلى الزينة وقصور الملوك والأمراء ، وقد أشار النابغة إلى دمى الرخام حين قال :

أو دمية من مرفوعة ... بنيت بآجر تشاد وقرمد

وأحصى البحاثة المرحوم أحمد تيمور باشا في كتابه القيم عن التصـوير عنـد العرب مئات الأبيات التي تدل على انتشار الرسم والنحت ، ومصنوعات هذين الفنين في المباني والمصوغات والمنسوجات التي يصنعها المسلمون ، وأتـى على أسماء كثيرين من مصوري العرب الذين فرغوا لنقش الرسوم أو نحت التماثيل من المعادن والأحجار .

وليس بنا في هذا الفصل أن نتوسع في الشواهد والأمثلة التي تدل على وجود الصور والمصورين في الحضارة العربية ، فانما يعنينا هنا أن العرب لم ينفردوا بالتخلف في فني التصوير والنحت بين أمم العصور القديمة ، وأنهم لم يقصروا

فيهما لنقص في الحاسة الفنية أو العواطف الحيوية ، وقد كان ذوقهم الفني زمناً من الأزمان قدوة للأوربيين في مجال الفن الذي يعم القصور والبيوت والمصانع والأسواق ، ولا ينحصر في دوائر الفن ومراسم ذويه .

الموسيقى

أما في الموسيقى فالاختلاف ظاهر بين الموسيقى العربية وموسيقى العصر الحديث في أوربة ، من القرن الثامن عشر إلى الآن .

ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى فارق أصيل بين الفطرة العربية والفطرة الأوربية ، كما خطر لبعض المحدثين الغربيين في معرض المفاضلة بين العناصر والأجناس .

لأن الموسيقى الأوربية القديمة كانت على مثل هذا الفارق بينها وبين الموسيقى الأوربية في أطوارها الأخيرة . فكانت موسيقى اليونان والرومان قائمة على الأغاني الحسية أو على الأنغام التي تصاحب الرقص والغناء ويتغلب فيها قصد الطرب على قصد التعبير ، وكانت الألحان الأوربية إلى ما قبل القرن الثامن عشر ألحان ترنيم وتنغيم ، ولم تكن ألحان تنسيق وتنويع على الأسلوب الذي سماه المحدثون « بالهرمونية » أو فن تناسق الألحان المختلفة .

والأوربي الحديث مع هذا لا يطرب لموسيقى « الهرمونية » فطرة وارتجالا بغير تعليم أو تدريب . فاذا تعددت الأنغام وتفاوتت الطبقات واتسع نطاق التباعد بين القوافي المرددة ، فالسامع الأوربي يضل طريقه إليها ويشعر بالجهد والاعياء في محاولة التوفيق بينها ، وربط فواصلها وانتظار اللازمة التي تسري بين فصولها . ولا بد له من إحاطة واسعة بمواضع الايقاع وطبقات الأنغام ، حتى يسيغ تلك الموسيقى المركبة ويغتبط بسماعها اغتباط المرء بفنون الذوق والجمال .

وقد يكون على أوفى نصيب من الفن الموسيقي الرفيع ، ثم يستمع إلى توقيع جديد فينفر منه حتى يسيغه ويستعذبه بعد التأمل والأناة . وفي ذلك يقول لأستاذ دوجلاس مور Doglas Moore أستاذ الموسيقى بجامعة كولمبيا في كتابه « من الأنشودة إلى الموسيقى العصرية » :

« إن السامع الذي تدرب على سماع النماذج السهلة خليق أن يشعر بالانقباض إذا أحس أنه يضل طريقه عاجلا وهو يصغي إلى السيمفونية . فليطمئن إذن ولا بأس على ذلك . لأن ما يتفق له من هذا القبيل يتفق لغيره على نحو من الأنحاء بالغاً ما بلغ نصيبه من التدرب والاختبار . إذ إن قدرتنا على الانتباه المركز أضيق من أن تتسع كثيراً لتعليق الاصغاء مع صحة السماع ، وأهل الصناعة أنفسهم يرتاحون للمألوف من الموسيقى فوق ارتياحهم إلى الجديد منها ، لأن مجهودهم في الاصغاء إلى المألوف قليل بالقياس إلى الجديد . ولكن المرانة والدأب على الانتباه مع الصبر والتفهم يمهدان الطريق إلى الألفة ويعجلان بتمهيده ، فتزداد القدرة على استيعاب معاني الموسيقى الجليلة وآياتها الرفيعة أوفر مزيد . . . »

فالذي طرأ على الموسيقى الأوربية الحديثة من التنويع والتركيب قد باعد بينها وبين موسيقى اليونان والرومان كما باعد بينها وبين موسيقى العرب والشعوب الشرقية على التعميم ، ولم يكن طارئاً على الفطرة الأوربية أو الفطرة الانسانية ، وإنما كان طارئاً من طوارىء المعارف والمخترعات بعد التوسع في علم الصوت وتركيب الآلات ، وتلقيح الموسيقى الحسية بموسيقى العبادات ثم بموسيقى السبحات الروحية والتأملات الفلسفية .

فقد تباعد الاختلاف بين الموسيقى القديمة والموسيقى الحديثة في اليوم الذي [illegible] تيه للاشتمال على العواطف الدينية والصلوات الالهية ، وأصبح السامع يصغي إليها في محاريب العبادة وهو متهيىء للخشوع والانابة إلى عظمة الله والغوص في سرائر الأكوان . فلما اتسعت لهذه التعبيرات العليا لم يكن لها أن تضيق بتعبيرات الحكمة العميقة ، والبداهة الصوفية والنفحات العبقرية التي شاع سلطانها في أوربة ، بعد وهن السلطان الديني فيها من جراء ثورات التمرد والتجديد ، وليس بعجيب من أجل هذا أن تكون بلاد الموسيقى الكنسية هي بلاد الموسيقى الهرمونية أو بلاد الموسيقيين الذين أبدعوا في الأوبرا والسيمفوني وسائر فنون التركيب ، وهي على الأغلب بلاد أسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا

ثم روسيا التي شاعت في كنائسها فرق الترتيل والتقسيم ، وقد يلفت النظر في هذا الصدد أن الأقاليم التي انقضى فيها سلطان الموسيقى الكنسية مرة واحدة - وهي أقاليم ألمانيا اللوثرية - كان نصيبها من كبار الموسيقيين دون نصيب الأقاليم التي اتصل فيها القديم بالحديث .

***

إلا ان الصلة لم تنقطع بين العرب وبين تطور الموسيقى الأوربية في هذا الطريق .

لأن الأندلس هي البلاد التي التي تلقت فن الأنغام على العرب ، وامتزجت فيها الموسيقى الحسية بموسيقى العبادة عدة أجيال بعد زوال الدولة العربية ، فكان للاسبان رقص ديني ترعاه الكنيسة وتنعقد فيه الصلة بين موسيقى الأقدمين وموسيقى المحدثين .

ومن الحقائق المقررة أن أبناءأوربة الغربية كانوا يتعلمون أفانين الأنغام على أساتذة من العرب الأندلسيين ، وأنهم نقلوا أسماء بعض الآلات بألفاظها العربية فبقيت في اللغات الأوربية حتى اليوم بعد تصحيف يسير . فكلمة لوت Lute من العود ، وكلمة نكر Naker من النقارة وكلمة Clè أو المفتاح الموسيقي من أقليد وكلمة Rabec من الرباب ، وأزياء الفنانين التي توارثتها أوربة بعد تبدل أسبابها قد بقيت مشابهة لأزياء المغنين ، حين كانوا في المغرب يتجملون كما يتجمل القيان ، فيرسلون الشعر ويطلون الخدود ويكحلون الجفون .

على أن بعض الأوروبيين الخبراء بتاريخ الموسيقى العربية - كالأستاذ فارمر Farmer يرون أن العرب قد سبقوا الأوروبيين إلى نوع من الهرمونية يسمونه « التركيب » ويعنون به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات في وقت واحد ، وهو غير الهرمونية كما تفهم اليوم ولكنه خطوة إليها من طريق الترنيم المعهود .

ولا خلاف بين المؤرخين في تداول العلماء الأوربيين لبحوث العرب في الموسيقى النظرية ، فانهم على قلة ما ترجموه من تلك البحوث قد كان منهم مئات يطلبون العلوم بمدارس قرطبة وغيرها ومنها الموسيقى النظرية ، وقد كانت الخبرة باللغة العربية شرطاً من شروط الرجل المثقف بين الأسبان المسيحيين . فكان طلابهم في جامعة اكسفورد الانجليزية يسخرون من العالم المشهور

« روجر باكون » كلما أخطأ في الترجمة اللاتينية عن العربية ، لأنهم كانوا يطلعون فيها على النص الصحيح .

وقد خيل إلى بعض النقاد الأوربيين في الزمن الحديث أن أصوات العرب لم تكن تحتمل التفخيم والارتفاع قياساً على ما يسمعونه في الأسواق من الصيحات البدوية التي تغلب عليها الحدة و« النحافة » . . . وهو تخيل كان خليقاً بهم أن يعلموا مكانه من الخطأ إذا أحضروا في أذهانهم « الحداء » في الصحراء ، وهو غناء العرب القديم ، وفيه ما فيه من مجال للأصوات التي تملأ الفضاء وترتفع إلى جميع الطبقات .

***

وليس بين الموسيقى العربية والموسيقى الأوربية فرق أصيل في السلم المعتمد عند العرب والأوربيين . إلا أن الموسيقي العربي المتشبث بالمألوفات يعتز بما يسميه ربع المقام ويحسبه فرقاً جوهرياً بين أنغام الشرقيين وأنغام الأوربيين . ولكن ملاحظة هذا « الربع » ليست شرطاً للسمع في الآذان العربية ، وإنكاره ليس شرطاً للسمع في الآذان الأوروبية . وقد صنع الموسيقي الحديث هانس بارت Hans Barth بياناً لوحظ فيه ربع المقام ، وألف إيفان وشنجرادسكي Ivan wischnegradsky كتاباً في الربع والموسيقى الهرمونية ، ووضع ألواز هابا Alois Haba أوبرا وتوقيعات أخرى على قاعدة الربع الملحوظ في الأغاني العربية ، وصنع جوليان كاريلو Julian Carello قيثارا على هذه القاعدة ولحن بها جون إبليبي Appleby موضوعاً يدور على حديث لسقراط ، وأنشأ نيقولا رمسكي كورساكوف Korsakof جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة في لننجراد « راجع موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقيين » .

وهؤلاء عدا الموسيقيين الذين أدخلوا الأنغام العربية في تقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية أمثال روبنشتين وفليكان دافيد وسان سنس Saint Saëns وقربوا بين الترنيم والهرمونية بعض التقريب .

فاذا شاعت هذه القاعدة في أوربة ودخلت في تركيب الآلات وتوزيع الأدوار ، فهي أثر جديد للفن العربي يضاف إلى الأثر القديم .

الفلسفة والدين

من الآراء التي شاعت بين الأوربيين في القرن التاسع عشر أن الأمم الشرقية تطلب العلم للمنفعة ولا تطلبه للمعرفة والمتعة العقلية ، كما كان يطلبه الاغريق في الزمن القديم .

وآية ذلك عند أصحاب هذا الرأي أن المصريين والبابليين والفرس والهنود كانت لهم علوم يتدارسونها ، ولكنها كانت كلها من قبيل الصناعات التي تنفعهم في البناء والزراعة وعلاج الانسان والحيوان ، وأن الاغريق وحدهم هم الذين عرفوا العلم والفلسفة كلفاً بالبحث والنظر المجرد لغير منفعة مقصودة من منافع المعاش .

وهذا الرأي يروج بين الأوربيين بغير تمحيص ولامناقشة ، لأنه يعجبهم ويرضي غرورهم ومصلحتهم في وقت واحد : يرضي غرورهم لأنه يميزهم على الأمم الشرقية بأشرف المزايا الانسانية ، ويرضي مصلحتهم لأنه يسوغ لهم استعمار الشرق واستغلاله في عصر الاستعمار والاستغلال .

ولكن الطريف في الفكرة أنها هي نفسها ليست من الأفكار الفلسفية أو العلمية التي تخلو من المنفعة والتسليم بغير سبب معقول . فان العقل المطبوع على الفلسفة والبحث المجرد لا يقبل أن يتركب العقل الاغريقي طبعاً وأصلاً غير التركيب الذي استقر في السلالات البشرية الأخرى ، ولا يستريح إلى هذا الحكم المعتسف بغير علة يرد إليها هذا الاختلاف العجيب في أصل التركيب .

والواقع أنه لا اختلاف هناك في أصل الطبيعة بين العقل البشري في الاغريق والعقل البشري في السلالات الشرقية التي ذكروها ، وإنما يقع الاختلاف لأسباب موضعية تجوز على الاغريق كما تجوز على المصريين والبابليين والعرب والفرس والهنود .

وإنما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية في زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهي لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية في طبيعة التركيب كما وهم القائلون بذلك الرأي المتعجل العسوف ، ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوي وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت في مصر وبابل لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين .

فالبلاد التي تجري فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان ، تستأثر بالبحث في أصول الأشياء وحقائق التكوين ، وتتولى شؤون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتئات عليه ، وإلا كان المفتئت كالمعتدي على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر ، تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الأسرار والطلاسم ، وابتعدت شيئاً فشيئاً من نطاق البحث الحر إلى نطاق المحفوظات والمأثورات .

ولو نشأ لليونان دولة كهذه الدول وكهانات كهذه الكهانات ، لما اجترأوا على التعرض لمسائل الخلق والخالق وطبائع الكون ومكونه ، بين سواد الناس وجمهرة النظارة ويسمعهم من شاء منهم بلا رقيب ولا حسيب .

اذ حدث للأوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية ، وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة وقوانين الوجود . فبطلت الفلسفة والدراسات العلمية في القرون الوسطى وحيل بين الناس وبينها إلا باذن من رجال الدين في حدود النصوص المقررة ، كما كانوا يفهمونها ويبيحون فهمها ، واستطاعت الكهانة الاوربية أن تفعل ذلك وهي حديثة العهد لم تبلغ من العراقة مبلغ الكهانة المصرية أو البابلية ، إذ كانت تعد أعوامها بالعشرات أو المئات القليلة وقد غبرت

على الكهانات القديمة ألوف من الأعوام بعد ألوف .

على أن الاغريق لم يتحركوا للبحث في الأسرار الالهية والعلوم الطبيعية إلا بهداية من أمم الكهانات التي سبقتهم إلى التدين وعبادة الخالق العظيم ، يوم كانوا يجهلون قدرة الخلق ولا يعرفون أنها صفة لاله العالم بأسره ، كما عرفها الموحدون أو المعددون في ظل الاله الواحد العظيم .

كان في أرض الاغريق ، وفي جزيرة كريت ، أناس من السلالة الاغريقية التي تشملهم على اختلاف القبائل واللهجات ، وكانت لهم حضارة يظهر من لقايا الحفر في مواضعها أنها ازدهرت قبل ميلاد المسيح بسبعة عشر قرناً على أقل تقدير ، فلم تكن لهم فلسفة ولا نبغ بينهم حكماء متفلسفون في طوال تلك القرون ، وإنما نبغ فلاسفتهم على الشواطىء الأسيوية أو الجزر القريبة منها بعد احتكاكهم بالأمم الشرقية ذوات الحضارة العريقة ، ولو لم يكن لعقائد الشرقيين وعلومهم فضل في تنبيه أذهان الاغريق إلى أصل الوجود وتقديرات الفكر الانساني الأول لعلل الأشياء ، لما كان هناك معنى لظهور الفلاسفة الأولين على مقربة من تلك الحضارات . وليس بصحيح أن الاغريق قصدوا الفلسفة النظرية ابتداء منذ أخذوا في البحث عن حقائق الأشياء ، فان فيثاغوراس كان يمزج الدين بالحكمة ويشرف على تنظيم الجماعات السرية التي تطمح إلى ولاية الحكومة ، وكان اكسينوفان Xenphanes يبشر بدين التوحيد وينحي على تعديد الأرباب ، وقد كان فيثاغوراس يؤمن كما يؤمن الهنود بتقمص الأرواح وثنائية الخير والشر والنور والظلام ودورات الحياة والأزمان ، ويرى أنه لا نجاة للمرء من دولاب الطبيعة الذي تقيده به تلك الدورات إلا بالرياضة والتقشف وخلوص النفس للمعرفة والحكمة ، وكان نباتياً يحرم أكل اللحوم على طريقة البراهمة ، وقد حذا حذوه في معظم آرائه إمبيدوقليس ودخل جزء من فلسفته الروحية في مذهب أفلاطون .

وليس أدل على الصبغة الشرقية في الفلسفة الاغريقية الأولى من غلبة علم الفلك والرياضيات على رواد هذه الفلسفة الاسيويين ، ومن غلبة الصبغة الدينية على فيثاغوراس واكسينوفان والمريدين لهذين الحكيمين ، ومن عدد السبعة الذي أطلق على الحكماء السبعة السابقين ومنهم تاليس وصولون . فان المعارف الفلكية تقدمت في بابل ومصر قبل أن يتناولها الاغريق بألوف السنين ،

والجماعات الدينية السرية انتقلت من بلاد الكهانات القديمة إلى آسيا الصغرى وما يليها ، وليس هذا كله مما يفهم منه أن السليقة الاغريقية هي التي ابتكرت البحوث الفلسفية أو كانت هذه السليقة ملازمة لها في جميع العصور .

على أن المصادر الشرقية ـ ومنها التوراة وأقوال المصريين والبابليين ـ ظاهرة في أقدم المذاهب الاغريقية وهو مذهب طاليس الذي لا يخلو مذهب فلسفي بعده من بعض آرائه . فهو كما قال الشهرستاني يرى « أن للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة جوهريته وإنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وابداعه وتكوينه الأشياء ، فلسنا ندرك له اسماً من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا » . . . إلى أن يقول : « ونقل عنه أن المبتدع الأول هو الماء . . . والماء قابل لكل صورة ومنه أبدع الجواهر كلها من السماء والأرض وما بينهما ، وهو علة كل مبدع وكل مركب في العنصر الجسماني . فذكر أن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء ومن صفوة الماء تكونت النار ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب . . . »

قال الشهرستاني : « وفي التوراة في السفر الأول مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى ثم نظر إليه نظر الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ثم صار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال . وكان ثاليس الملطي انما تلقى مذهبه من هذه المشكاة النبوية . . . »

***

أما حب العلم للعلم فشأن الاغريق فيه كشأن جميع الأمم والسلالات ، وحسبك أنهم سموا علم الهندسة علم « قياس الأرض » بعد تقدمه وظهور تطبيقات له غير مساحة الأرض وتقسيم المزارع والمروج . ولعل هذا مما يشير إلى الأصل الذي اقتبسوا منه معارفهم الهندسية ، لأن المصريين كانوا يحتاجون إلى إعادة مسح الأرض بعد الفيضان ، ولم تكن باليونان حاجة إلى المساحة والتقسيم كل عام .

وإنما جاء الفارق الظاهر في أسلوب الاشتغال بالعلوم من ضعف الكهانات في

الأوطان الاغريقية وقوتها في الأوطان الشرقية ، فلما ابتدأ الاغريق بحوثهم مضوا فيها طلقاء من قيود الدولة والدين ، وتيسر لهم ما تعذر على غيرهم لهذا الفارق العرضي لا لفارق في تركيب العقول وعناصر التفكير .

وليس أصعب من اثبات السلالة الاغريقية الخالصة لجميع الفلاسفة الموزعين بين آسيا الصغرى وأرض يونان وجزر الأرخبيل وصقلية والاسكندرية وتراقية ، وهي تشتمل على شتى الأجناس غير الاغريق .

ومن الواضح أن فيض البحوث الفلسفية عند الاغريق لم يكن ذلك الفيض الدافق العرم الذي يحطم القيود ويقتحم السدود . لأن سداً من أضعف السدود التي ابتليت بها الأمم الشرقية في تاريخها الطويل قد غيض ما فاض من قرائح اليونان في بضعة أجيال معدودات . فانقضى عصر الفلسفة اليونانية أمام صدمة مقدونية وأخرى رومانية ، وعاش الإغريق بعد ذلك في بلادهم دون أن يظهر منهم فيلسوف واحد إلى هذه الأيام .

فلا جرم تفعل الحواجز والقيود التي استلزمتها طبيعة تكوين الدولة في الأمم الشرقية مثل ما فعلته في اليونان خلال عصور الجمود والاقفار ، ولا حاجة بنا إلى تفسير آخر غير هذا التفسير نغوص فيه على أصول التركيب التي لا تقبل التعليل بعلة من علل الفلسفة أو علل الدراسة العلمية . فانما هي عوارض من أثر البيئة والتاريخ أصابت الساميين بأسبابها المعروفة ، كما أصابت الفرس والهنود أيضاً وهم غير ساميين ، ثم أصابت الاغريق والأوربيين أيضاً دهوراً طوالا تحت سلطان الدول والكهانات ، فكانوا أضيق بالبحث العلمي صدراً من شعوب الشرق جمعاء ، وحسبنا من ذلك محاكم التفتيش وعقوبات الاحراق والحرمان .

ولم تكن العرب في الجاهلية دولة قوية كالدول التي قامت بين النهرين أو على ضفاف النيل ، ولكنهم عاشوا عيشة البدو الرحل في طلب الكلأ والماء أو عيشة البدو الرحل في تجارة القوافل بين الصيف والشتاء ، وأحوجتهم مطالب المعاش إلى الغزو والدفاع بغير هوادة ولا انقطاع . وما من أمة سامية أو غير سامية تقضي أيامها في أمثال هذه الشواغل ثم يتسع لها المتام لدرس الفلسفة وتحصيل المعارف النظرية التي يعين عليها الأمان والاستقرار . .

ومن ضروب التجني التي لا تحمد من العلماء أن يقال إن العقل العربي لن يستطيع التفلسف بحال من الأحوال ، لأن الفارابي وابن سينا مثلا كانا من سلالة فارسية على أشهر الاقوال ولم يكونا من سلالة عربية أو سامية ، كأنما كانت للفرس قبل ذلك فلسفة فارسية أو كان لهم عذر كعذر العرب في هجر البحوث الفلسفية طوال العهود التي مرت بهم في الحضارة والعمران .

وإنما الرأي السليم الذي يقبله المنطق والعلم على السواء أن موانع الفلسفة واحدة حيث كانت الأمة من مواقع الأرض ، وكيفما كانت السلالة من عناصر الأجناس والأقوام . فالاغريق في موضع العرب لا يتفلسفون ، والعرب في موضع الاغريق لا يحجمون عن الفلسفة ودراسة العلوم .

على أن يعقوب الكندي عربي أصيل لم يعرف له نسب دخيل ، وفلاسفة الأندلس كانوا من العرب ولم يكونوا من الفرس أو من الأوربيين أو كانت عروبتهم كالاغريقية التي ينتمي إليها سكان تراقية وجزر الأرخبيل وكريت وصقلية وآسيا الصغرى وجالياتهم بصور وصيدا ووادي النيل .

ولعل هؤلاء الفلاسفة الأندلسيين هم أحق الفلاسفة المسلمين بالتنويه بهم في معرض الكلام على توجه الأوربيين إلى البحوث الفلسفية والدراسات المنطقية . فان فلاسفة الشرق كالفارابي وابن سينا وغيرهما لم يذاعوا بين الطلاب الأوربيين عامة إلا من هذا الطريق ، وكان الفضل المباشر في تعريف الأوربيين بهم لأمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن زهر ، وغيرهم ممن زاولوا الفلسفة والطب أو زاولوا الطب على انفراد . أما قبل ذلك فقد كان العلم بهم مقصوراً على الخاصة والمتفرغين للاستبحار في العلوم .

والأوربيون قد بدأوا بالاطلاع على فلسفة ابن سينا قبل أن يسمعوا بأسماء الفلاسفة الأندلسيين ، لأن رايموند أسقف طليطلة أمر بترجمة بعض مؤلفاته إلى اللاتينية قبل منتصف القرن الثاني عشر للميلاد ، ولم يكن هذا أول عهد المتفقهين من أبناء أوربة الغربية بالاطلاع على الثقافة العربية في حلقات الدرس بالجامعات الأندلسية . فمن تلاميذ هذه الثقافة قبل نهاية القرن العاشر رجل اشتهر بها وعده أبناء عصره من السحرة وأصحاب الخوارق لفرط ما أدهشهم من سعة علمه ووفرة محصوله ، وهو الكاهن جربارت الذي عرف

باسم سلفستر الثاني حين ارتقى إلى عرش البابوية سنة تسعمائة وتسع وتسعين .

وجاء الفلاسفة الأندلسيون ففتحوا الباب على مصراعيه ، وكان فقهاء المسيحية يبغضون أكبرهم وأشهرهم ـ أبا الوليد بن رشد ـ لاتهامهم إياه بالنزعة المادية وانكار خلود النفوس الفردية ، لكنهم كانوا يستريحون إلى ابن باجة وابن طفيل لأنهما يؤمنان بالاشراق والمعرفة التي تستلهم بالتأمل والرياضة . وقد ظهرت توجيهات هذين الفيلسوفين المعتدلين في آراء القديس توما الاكويني والبرت الكبير ، ولم تخف مع ذلك توجيهات ابن سينا نفسه فيما كتبه البرت الكبير عن « المعرفة » على الخصوص . بل بقيت لابن رشد أيضاً توجيهاته القوية في مدارس الفلسفة الأوربية قرونا عدة بعد تحريم كتبه واشهار هذا الحرمان في العالم المسيحي كله ، ولم يزل عزيز المكانة على المفكرين والمتفلسفين إلى عهد النهضة الفلسفية الحديثة بعد موته بعدة قرون . ومن طريف ما يروى في ذلك أن الفيلسوف الألماني فردريك اوبرفيج Friedrich Ueberweg تصدى لتبرئته من تهمة الكفر التي رماه بها بعض المتشددين من فقهاء المسلمين . فقال إن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وقيل على سبعين وقيل على سبعمائة . فاذا وقف العامة عند حرفه الظاهر فلن تخلو الأحرف التي يفهمها الخاصة من موافقة بينها وبين معاني الحكمة الخفية وأسرار الفلسفة العويصة !

***

ويظن ـ والظن من الأوربيين قبل الشرقيين ـ أن الفيلسوف الصوفي محيي الدين بن عربي كان له أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده . فانه نشأ في مدينة مرسية قبل ختام القرن الثاني عشر للميلاد ، وانتقل من دراسة علوم الكلام ومذاهب الفلسفة إلى الرياضة الصوفية والايمان بوحدة الوجود ، وقد حببه إلى المسيحيين أنه وحد بين الأديان كما وحد بين حقائق الوجود ، فقال :

عقد الخلائق في الاله عقائداً
وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وهو القائل :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

فأصبح قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان وديراً لرهبان

وبيتاً لأوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الأسباني Asin Palacios أن نزعات دانتي الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيي الدين بغير تصرف كثير .

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين وهو جوهان أكهارت الألماني قد نشأ في القرن التالي لعصر ابن العربي ودرس في جامعة باريس ، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم ، وأكهارت يقول كما يقول ابن العربي إن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه ، وإن الحقيقة الالهية تتجلى في جميع الأشياء ولا سيما روح الانسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح ، وإن صلة الروح بالله الزم من صلة المادة بالصورة والأجزاء بالكل والأعضاء بالأجسام .

ومن هذه الفلسفة قبسات واضحة في مذهب « سبينوزا » الذي نشأ في هولندة ، وأصله من يهود البرتغال الذين أكرهوا على التدين بالمسيحية . فقد كان كلامه عن الذات والصفات وتجلي الخالق في مخلوقاته وتلقي الخلق نور المعرفة الصحيحة بالبصيرة والالهام نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قليل من التحوير .

وإذا جاز أن يكون أكهارت وسبينوزا قد استقيا بعض هذه المعتقدات والآراء من الافلوطينية الاسكندرية مباشرة ـ فليس مما يجوز فيه الشك أن الفيلسوف المتصوف الأسباني ـ رايموند لول ـ قد اقتبس من ابن عربي خاصة في كتابه

أسماء الله الحسنى ، لأنه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل اسماء الله مئة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذاك .

***

وقد تراخى الزمن بين فلاسفة الدول الإسلامية والفلاسفة العصريين ، وقل من فلاسفة هذا العصر من اطلع على كتب فلاسفة الأندلس وفلاسفة الشرق الإسلامي كما يطلع على الفلسفة اليونانية القديمة في كتبها الأصيلة ، ولكن الآراء الفلسفية التي قال بها أمثال الفارابي والكندي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن طفيل لا تعد غريبة كل الغرابة عن مذاهب العصر الحديث ، لأنها لم تخل من آراء تكلم فيها أساطين الفلسفة الإسلامية وعرضوا لها إما بالاسهاب او بالإيجاز .

فالقائلون قديماً بالعقل الهيولاني والعقل الفعال يذهبون إلى قول قريب جداً من قول كانت عن ظاهرة الأشياء Phenomen وحقيقة الأشياء في ذواتهاNoumena وهي الحقائق التي يستحيل النفاذ إليها بالعقل والتفكير ، وإنما يدلنا عليها « العقل العملي » الذي هو مناط الأخلاق والفرائض والتفكير ، وإنما بحقيقتنا في ذاتها ندرك تلك المجهولات من طريق الالهام الأدبي وهو شيء قريب من الهام المتصوفين .

ودافيد هيوم يقول إن حصول الأشياء في ترتيب معين مرة أو ألف مرة لا يستلزم أن يكون السابق منها علة للمسبوق وسبباً لوجوده ، وهذا بتفصيله ما قد سبق إليه الغزالي حين قال في تهافت الفلاسفة إن « الاقتران بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا اثبات أحدهما متضمن لاثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وحز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، واسهال البطن واستعمال المسهل وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف ، وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوى لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل

للفوت ، بل لتقدير ، وفي المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون حز الرقبة وإدامة الحياة مع حز الرقبة ، وهلم جرا إلى جميع المقترنات » ثم فصل القول في هذا على ثلاث مقامات من أدق ما كتب المفكرون في حقائق التعليل .

واتخاذ المصلحة قياساً للحقيقة مذهب عرض له ابن رشد - قبل وليام جيمز - حين تكلم في ختام « تهافت التهافت » عن الشرائع وحقيقتها ولزومها و« أن الجميع متفقون على أن مبادىء العمل يجب أن تؤخذ تقليداً إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وجوب العمل إلا بوجود الفضائل الحاصلة من الأعمال الخلقية والعملية . . وأن الحكماء يرون في الشرائع هذا الرأي أعني أن يتقلد من الأنبياء والواضعين مبادىء العمل والسنن المشروعة في ملة ملة . والممدوح عندهم من هذه المبادىء الضرورية هو ما كان منها أحث للجمهور على الأعمال الفاضلة حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها ، مثل كون الصلوات عندنا . فانه لا يشك في أن الصلوات تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى ، وأن الصلاة الموضوعة في هذه الشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوعة في سائر الشرائع ، وذلك بما شرط في عددها وأوقاتها وإذ كارها وسائر ما شرط فيها من الطهارة ومن التروك أعني الأفعال والأقوال المفسدة لها . وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد منها هو أحث على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها » .

وسبنوزا يقول بوحدة المادة والروح وهذه هي الفلسفة التي شرحها قبله ابن جبيرول الأندلسي في كتابه ينبوع الحياة ، وأقام الدليل عليها بوحدة العلة والمعلول في الطبيعة أو في بعض أجزائها ، وإلا انتفى تأثير العقل في الجسد أو تأثير الروح في المادة .

ومن المشابهات غير البعيدة أن الأقدمين يقولون بتلازم الزمان والمكان وأينشتين يقول بأن الزمان هو البعد الرابع من أبعاد المكان .

ومنها ما يصح أن يسمى الطور الأول لمذهب التطور ، وقد عبر عنه الفارابي حيث قال في آراء أهل المدينة الفاضلة مفسراً لأقوال المعلم الأول إن « ترتيب هذه الموجودات هو أن تقدم أولا أخسها ثم الأفضل فالأفضل إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه . فأخسها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق وليس بعد الحيوان

الناطق أفضل منه » .

وقد توسع اللاحقون في القول بالتدرج نصاً والاشارة إلى بعض المشابهة بين القرد والانسان فقال ابن خلدون : « أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريجه التكويني إلى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته إليه الفكر والروية بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده . وهذا غاية شهودنا ».

والمشهور عن ديكارت أنه إمام الفلسفة الأوربية الحديثة ، وهو مسبوق إلى ثلاث من أهم قضاياه الفلسفية فيما كتبه الغزالي وابن سينا على الخصوص . فان الغزالي يقول بأن الشك أول مراتب اليقين ، والشك هو مقدمة الفلسفة الديكارتية إلى البراهين اليقينية. وأول هذه البراهين اليقينية عند ديكارت هو قضيته التي يثبت بها الوجود فيقول : « أنا أفكر فأنا موجود » وهي بعينها قضية الانسان المعلق بالفضاء كما عبر عنه ابن سينا حين تصدى لاثبات « الأنية » أي وجود النفس بمعزل عن الموجودات الخارجية . فقال إننا لو علقنا إنساناً في الفضاء لا يتصل عضو منه بعضو ولا تقع حاسة له على موجود لشعر بأنيته ، أو شعر بذاته . وتأتي بعد ذلك مسألة الموجودات وحاجتها بعد وجودها إلى النعمة الالهية لدوام قوة الوجود فيها فهي لا تكسب الايجاد مرة واحدة بل تكسبه على التجدد بنعمة فياضة من الله جل وعلا ، وهذا هو مذهب ابن سينا وديكارت بلا اختلاف .

***

ويخطىء من يرى أن كل ما تركه فلاسفة المسلمين قد نقلوه قبل ذلك بحرفه عن فلاسفة اليونان . فقد وجد من الفلاسفة الاسلاميين من تصرف واستقل برأيه كما وجد منهم من وقف عند النقل والتفسير . وأكثرهم قد تلقوا مذاهب

الأولين على أنها عمل قابل للتعديل والتفنين وليس على أنها قضية مسلمة لا يأتيها الباطل بحال .

فالغزالي مثلا كان على علم وثيق بأصول المنطق ، وكان من أقدر المفكرين السابقين واللاحقين على مناقشة البراهين اليونانية بمثلها أو بما يفوقها قوة ووضوحاً في بعض القضايا العقلية .

وابن سينا لا يرضى عن مذاهب المشائين كل الرضى فيتخذ له منطقاً مقابلا لمنطقهم يسميه « منطق المشرقيين » ويقول في مقدمته : « . . . ولا نبالي من مفارقة تظهر منها لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين ألفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم . . »

وقد أخذ البيروني على أرسطو في أسئلة لابن سينا أنه يعتقد بآراء الأقدمين « وأنه جعل أقاويل القرون الماضية والأحقاب السالفة في الفلك ووجودهم إياه على ما وجده عليه حجة قوية » .

وقال عن أرسطو إنه يرى « أن الشكل البيضي والعدسي محتاجان في الحركة المستديرة إلى فراغ وموضع خال وأن الكرة لا تحتاج إلى ذلك وليس الأمر كما ذكر » فاستصوب ابن سينا انتقاده وذكر له أعذار المفسرين ، ومنها ما رواه عن تامسطيوس في تفسيره لكتاب السماء إذ يوصي بأن يحمل قول الفيلسوف على أحسن الوجوه .

وأشباه هذه المناقضات كثيرة في كتب الفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام ، فليس في أقوال الفلاسفة الكبار ما يسوغ رميهم بالنقل والتقيد بالمنقول ، ولا نستثني منهم ابن رشد ـ وهو أشدهم إكباراً لأرسطو ـ لأنه كان يتناول بعض ما ينقل عنه ببعض التهذيب .

وهنا مجال لكلمة تقال ويتلاقى فيها النقيضان على خطأ واحد . فان الذين يثبتون أخذ الاسلاميين عن اليونان هم كالذين ينكرون ذلك إذا اعتقدوا فيه غضاضة على الآخذين ، كائناً ما كان مقدار ما أخذوه . إذ لا يطلب من أمة أن تبتدع ثقافة جديدة تنقطع عن جميع الثقافات الأولى ، ولا يعاب عليها أنها تحج إلى المعرفة حيثما وصلت إليها ، وإنما يعاب عليها أن تنطفىء شعلة الثقافة

الانسانية في يديها وأن تنقطع عندها السلسلة التي اتصلت من مبدأ التاريخ الانساني إلى أن بلغتها ، وأجمل ما يذكر بالثناء للفلاسفة الاسلاميين في هذا المقام أنهم نسبوا كل مقال إلى صاحبه ، ولم يسكتوا عن الاشادة بفضله كلما عرفوه وحققوه ، خلافاً لما جرى عليه الاغريق فيما أخذوه من علوم الحضارات الأولى ، وأن الفلسفة لم تكن في العالم الاسلامي من عمل الحكماء دون غيرهم . بل كانت عملا مشاعاً بين كثير من المتعلمين وأشباه المتعلمين ، ومن أجل هذا دعت الحاجة إلى المناظرات في مجالس الخاصة وكتابة الرسائل في المساجلات والردود ، مما لم يسبق له نظير بين اليونان ومعاصريهم في الزمن القديم .

***

هذه الفلسفة ـ أو الفلسفة الصوفية على الخصوص ـ هي الطريق التي ظهر منها ما ظهر من آثار التفكير الجديد في العالم المسيحي وفي العقائد الأوربية على الاجمال .

وربما دلت على مصدر هذه الآثار نظرة واحدة في أرقام السنين التي ازدهر فيها اللاهوت المسيحي ، ونجحت فيها دعوة الاصلاح الديني واشتدت فيها الحملة على الرهبانية ، وأعقبها ذلك الترخص المطرد في قيود النسك وقيود الزواج ، فلم يحدث شيء من ذلك كله قبل احتكاك أوربة بالحضارة العربية تارة في الأندلس وتارة في أثناء الحروب الصليبية ، ولبثت المشكلات العقلية والدينية وما يرتبط بها من المشكلات الاجتماعية ـ كامنة في البلاد الأوربية لا تتسع لها فسحة للظهور والتماس العلاج والتعديل .

فلما توالى الاحتكاك بين المجتمع العربي والمجتمع الأوربي ، وتوالى معه الاحتكاك بين العقول والعقائد ، توالى كذلك ظهور الفهم الجديد والنزعة الجديدة إلى التفسير والاصلاح على نمط غير النمط الأوروبي العتيق ، وجاء الباحثون الأوربيون بما يوافق الفلسفة العربية أحياناً ويخالفها أحياناً أخرى ، ولكن المخالفة لا تنفي مصدر التنبيه ولا تدحض الباعث على التفكير الجديد .

فالقديس توما الأكويني أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى ولد في سنة ١٢٢٥ وتوفي في سنة ١٢٧٤ وألف كتبه بعد أن شاعت بين الرهبان

والقسوس دروس الفلاسفة الأندلسيين وفلاسفة المشرق من المسلمين ، ولم يكن في كل ما كتب في الله والروح ووسائل الوصول إلى الحقيقة رأي واحد لم يتناوله قبله ابن سينا والغزالي وابن رشد على الخصوص ، وكل ما استجد من خلافاته فهو تلك الخلافات التي يقضي بها الفارق بين أصول المسيحية وأصول الاسلام ، وقد سمى المسلمون الغزالي حجة الاسلام وسمى دانتي القديس توماس قبساً من نور السماء ، لأنهما قاما بعمل واحد في مناقشة أرسطو وأفلاطون وتغليب العقيدة الالهية على مواضع الشك من الفلسفة المادية ، ولكن المقابلة بين آراء الحكيمين خليقة أن تبدي لنا للوهلة الأولى أيهما صاحب السبق في الزمن والاستقلال ، وعلى الرغم من ردود القديس توما شاعت مذاهب العرب بين الرهبان ولا سيما الفرنسيسكان ، وتحدى عشاق هذه المذاهب قرار الحرم الصريح الذي أصدره مجمع باريس اللاهوتي سنة ١٢٦٩ في حق كل من يردد كلام ابن رشد ـ على الخصوص ـ في النفس والانسان الأول والقدم والحدوث .

واتصلت الدراسات الفلسفية والصوفية بين رجال الكنيسة فكان من آثارها تلك الحملة القوية على نظام الرهبانية ، وتعززت هذه الحملة في البيئات الدينية بحملة أخرى في البيئات الأدبية قام بها أديب إيطالي يدين للثقافة العربية بمؤلفه الكبير الذي نسج فيه على منوال ألف ليلة وليلة وهو « الديكامرون » وعرض فيه الرهبنة للغمز والتشهير .

فلم ينته القرن الخامس عشر حتى كانت مسألة الرهبانية قد وصلت إلى المفترق الحاسم بين مذهبين . فأصدر مجمع « ترانت ١٥٤٥) » قراره بتحريم الزواج على رجال الدين من جميع الرتب والدرجات ، وتزوج « لوثر » إمام المذهب الانجيلي براهبة كاثوليكية قبل ذلك على سبيل التحدي والاحتجاج ، وكان لوثر من أكثر الناس اطلاعاً على فلسفة القرون الوسطى ، لأنه كان أستاذاً للفلسفة في جامعة ويتمبرج ، ولم يكن غريباً عن مناقشات علماء اللاهوت وعلماء الكلام .

ولقد ترجم لوثر التوراة إلى اللغة الجرمانية بعد أن حجرت اللاتينية على لغة الدين والعلم مئات السنين ، ولم يحطم قيودها المرهقة إلا ذلك الاقبال المطرد على دراسة العربية بين من كانوا قبل ذلك منقطعين لدراسة اللاتينية مترفعين

على الكتابة بلغاتهم الوطنية ، وأفرط الناشئون في الاعراض عن اللاتينية حتى شكا من إفراطهم هذا بعض الجامدين ونعى على قومه ذلك التحول الخطير كما جاء في كتاب دوزي عن أسبانيا الاسلامية .

***

وقد أشار الأستاذ نيكولسون في كتاب « تراث الاسلام » إلى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين مثل اكهارت الألماني والمحدثين مثل ادوارد كاربنتر الانجليزي ، وتوسع في مقاله القيم في متابعة العلاقة بين صوفية المسيحية وصوفية الاسلام . . وليس العجب أن تثبت هذه العلاقة التي يستلزمها المنطق والتاريخ ، ولكن العجب أن ينفيها من يعلم أن العرب أقاموا في الأندلس عدة قرون ، وأن دروسهم حضرها رجال الدين والدنيا هناك ، وأن كتبهم قرأها الباحثون في الأديرة والجامعات ، وأن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل هذا الاحتكاك بينهم وبين الأوربيين .

وللمبالغة هنا طرفان متقابلان يتساويان في الضلال عن الحق ومجافاة الانصاف ، وهما أن يقال إن الصوفية التي تلقاها الأوربيون عن العرب هي صوفية أجنبية لا فضل للعرب فيها ولا تشمل في أطوائها على مزية من مزايا الروح العربية ، وأن يقال من الجهة الأخرى إنها عربية محض لا مشاركة فيها للشعوب الأخرى .

فهذا وذاك باطلان على السواء .

لأن أشواق الروح الانسانية قسط مشترك بين بني آدم لا تنفرد به أمة من الأمم ولا تخلو منه أمة من الأمم ، ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية .

والصوفية العربية مازجت صوفية الهند القديمة وصوفية الأفلوطينيين بالإسكندرية ، ولكنها أضافت إليها كما أخذت منها ، ولا حاجة بنا إلى تعقب التواريخ والأسانيد لتقرير هذه الحقيقة البينة ، فان عناصر الصوفية الاسلامية مبثوثة في آيات القرآن الكريم محيطة بالأصول التي تفرعت عليها صوفية البوذية والأفلوطينية ، والمسلم يقرأ في كتابه أن « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس اللاهوت في كتب القديس توما حيث

يقول إن الله مباين للحوادث وإنه يعلم بالتنزيه والابعاد عن مشابهتها أو يعلم « بما ليس هو » ولا يعلم بما هو عليه في ذاته أو صفاته ، أيا كان المصدر الأول الذي استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة .

ويقرأ المسلم في كتابه « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة البوذيين حين يؤمنون بأن ملابسة العالم تكدر سعادة الروح وأن الفرار منه أو الفرار إلى الله هو باب النجاة .

ويقرأ المسلم في كتابه أن الله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » و« كل شيء هالك إلا وجهه » فلا يزيده المتصوفة شيئاً حين يقولون له إن الله أزلي أبدي قديم بغير زمان ولا مكان ، عليم بالكليات والجزئيات .

ويقرأ المسلم في كتابه أن « الله نور السموات والأرض » « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » . . . « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فلا يزيد المتصوفة إلا التفسير حين يقولون إن الوجود الحقيقي هو وجود الله وإنه أقرب إلى الانسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصل له كل كائن « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

والله يخلق ويأمر فهو فعال مريد وليست إرادته مانعة من الخلق كما يرى الفلاسفة إذ يقولون إن الارادة القديمة لا ينشأ منها اختيار حديث أو مخلوق حادث « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ومما يعلمه المسلم من كتابه أن عقل الانسان لا يدرك من الله إلا ما يلهمه إياه لأنه تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » .

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة لأنه يقرأ مثلا واضحاً لهذا الخلاف فيما كان بين الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف . « . . . فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمرا . قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها

قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال لا تؤ اخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري . ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

وهذه آيات بينات يقرأها جميع المسلمين في كتابهم الذي لا يختص به فريق منهم دون فريق ، وبينهم ولا شك أناس مطبوعون على التصوف واستخراج الأسرار الخفية والمعاني الروحانية من طوايا الكلمات . فاذا عمد هؤلاء إلى تفسير تلك الآيات وما في معانيها فليس أيسر عليهم من الوصول إلى لباب التصوف الذي شغلت به خواطر الحكماء في جميع الأجيال وبين جميع الأجناس ، وعندهم من هذا القسط وحده ما يجعلهم أصلاء في الفلسفة الربانية ويجعل لهم فيها شيئاً ينقلونه إلى الأمم ، غير ما استعاروه من حكماء الهند أو حكماء الاسكندرية .

أحوال الحضارة

بعض الكلمات أدل من طوال المجلدات .

ومن هذا القبيل تلك الكلمات التي تنتقل من لغة قوم إلى قوم آخرين ، فتدل على ما انتقل معها من أحوال المعيشة وألوان الحضارة ، وتبسط لنا في قليل من المفردات ذلك الفارق البعيد في شؤ ون الأمة بين ما كانت عليه قبل اقتباس تلك الكلمات المعدودات وبعد اقتباسها وتداولها في أحاديثها اليومية .

وفي لغات الأوربيين كلمات لها مثل هذه الدلالة على أثر المعيشة العربية في المعيشة الأوربية ، بالمعاشرة أو الاتباع في الحكم أو تبادل التجارة

منها الكلمات الدالة على القطن (Cotton) أو على الحرير الموصلي Mousse-line أو الحرير الغزي gause أو الحرير الدمشقي Damas أو الجلد القرطبي Cordevan أو الجلد المراكشي morocco أو الجبة jupe أو المسك musk او العطر attard أو الزعفران saffron أو الشراب Syrup أو الجرة jar أو الصفة بمعنى المقعد الطويل sofa أو الأرز rice أو البرتقال من النارنج Orange أو الليمون Lemon أو السكر Sugar او القهوة coffee أو القنوة Condy إلى أشباه هذه المفردات .

وقد شاعت هذه المفردات في الانجليزية والفرنسية وبعض اللغات الأوروبية الأخرى . أما الذي دخل الاسبانية والبرتغالية من الكلمات الدالة على أحوال المعيشة فقد يحصى بالمئات ولا يقتصر على العشرات ، ومنها القباء gaban والبناء albanil والمخزن almacen والقطران alquitran والسطيحة azotea والطريحة al Tariha والفندق fonda والطاحون tahone والحجر

الكريم او الجوهر alhaja والبراءة albaran والكراء alquiler والقبة alcoba والساقية ıssaquiya وبعض المكاييل كالفنيقة وهي الغرارة fanega والثماني celemines والقطيفة alcatifa والربعة arroba والجيب algibeira والخياط afaiate والرطل arratel وألفاظ كثيرة من أسماء الحاجيات المتداولة أو الأعلام على المواقع والبلاد .

وليس كل الشأن في انتقال هذه المفردات إلى الاسبانية أو البرتغالية أنها صفحات زيدت على معجم اللغتين ، وإنما الشأن الصحيح فيها أنها دليل على صبغة المعيشة العربية التي اصطبغت بها تلك البلاد ، وكل بلد غيرها اقتبس مثل هذه الاقتباس أو بعض هذا الاقتباس ، وأنها مقياس الفارق بين أحوال الأمم الأوربية قبل اتصالها بالحضارة العربية وبعد شيوع هذا الاتصال .

ولم تكن الجزيرة الأندلسية هي المجاز الوحيد بين القارة الأوربية والحضارة العربية ، لأن القوافل التي تنقل البضائع من آسيا الغربية إلى أوربة الشرقية لم تنقطع كل الانقطاع في عصر من العصور ، ولأن الأوربيين قد عرفوا الشيء الكثير عن الشرق في إبان الحروب الصليبية . ولكن الجزيرة الأندلسية هي القطر الوحيد الذي يقال فيه على التحقيق إنه لم يعرف له عصراً ذهبياً في تاريخه كله غير العصر الذهبي الذي رآه في أيام الدولة العربية الزاهرة ، ولا استثناء في ذلك لعهد فيليب الثاني وما كان فيه من مظاهر الأبهة والرخاء ، لأنه كان رخاء مستعاراً من الخيرات التي تدفقت على إسبانيا من مستعمراتها الأمريكية بعد كشف العالم الجديد ، ولم يكن رخاء محمولا على حضارة تزدهر فيها المعارف الانسانية وتتفتق فيها عقول الأمة عن فتح مبتكر ينسب إلى أهل البلاد .

ففي عصر الأندلس الذهبي كانت المدن الأندلسية أعمر المدن في القارة الأوربية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان في قرطبة وحدها دكان نسخ واحد يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة ، وكان في قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب ، وكان سادات أوربة يفاخرون بما يقتنونه من منسوجاتها أو مصوغاتها المعدنية أو آنية الفخار التى لا يعرف لها نظير فى بلد آخر ، وكان عدد سكانها نحو ألف ألف يسكنون نحو مائتين وخمسين ألف بيت ، ولم تكن مدينة في اوربة يأوي إليها أكثر من ثلاثين ألفاً أو خمسين ألفاً على أكبر تقدير .

وإلى قرطبة وزميلاتها غرناطة وأشبيلية وطليطلة ومرسية ومالقة كانت تتجه وفود العواهل الأوربيين في طلب الأدوية أو التحف أو أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء ، وأجمل بعض هذا المؤرخ الانجليزي استانلي لاين بول فقال : « إن حكم عبد الرحمن الثالث الذي قارب خمسين سنة أدخل على أحوال أسبانيا تجديداً لا يلم الخيال ـ على أجمح ما يكون ـ بحقيقة فحواه » . . .

ولا نعرف شهادة لهذا العصر الذهبي أعظم ولا أصدق من ذلك الحنين الذي يذكره به غلاة الوطنيين الأسبان وكبار كتابهم ، حين يلتفتون إلى ماضي بلادهم ويتمنون لها حاضراً كماضيها في أيام الدولة العربية ، فلم تنجب أسبانيا في عصرها الحديث وطنياً غيوراً ولا كاتباً مبرزاً أشهر من بلاسكوا ابانيز الذي توفي منذ بضع سنوات ، ولكنك لا تقرأ لعربي ولا شرقي كلاماً في الاشادة الحماسية بمجد العرب الأندلسيين كالذي تقرأه لهذا الكاتب النابه في أهم مصنفاته وهي « ظلال الكنيسة » حيث يقول : « . . . لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الأفريقية ، وأسلمتهم القرى أزمتها بغير مقاومة ولا عداء . فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب . . وكانت غزوة تمدين ولم تكن غزوة فتح وتدويخ . ولم يزل سيل المهاجرين يتدفق من جانب المضيق وتستقر معه تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ، نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط ، ولدت منتصرة وبث فيها النبي حمية قدسية واجتمع إليها أفضل ما في وحي بني إسرائيل وعلم بيزنطية وتراث الهند وذخائر فارس والصين . وهكذا تسرب الشرق إلى أوربة على نهج غير نهج دارا وزركسيس من قبل أثينا التي قاومته خوفاً على حريتها . وإنما اختار له في هذه المرة نهجاً مقابلا لأثينا من الناحية الغربية وهو الجزيرة الأندلسية حيث سلطان الملوك « اللاهوتيين » والقساوسة المجاهدين . فتلقته مفتوحة الذراعين .

« وفي خلال سنتين اثنتين استولى الغزاة على ملك قضى مستردوه سبعة قرون كاملة في استرداده ، ولم يكن في الواقع فتحاً فرض على الناس برهبة السلاح بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة ، ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب . فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود .

ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد لها ولا راغب في السيادة عليها ، ونمت على هذا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر أجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى ، وفي الزمن الذي كانت فيه أمم الشمال فريسة للفتن الدينية والمعارك الهمجية ، يعيشون عيشة القبائل المستوحشة في بلادهم المتخلفة ، كان سكان أسبانيا يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية ، وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها تاريخ الجماعات البشرية ، فلا نرى لها قريناً تقابله به غير ما نجده في الولايات المتحدة الأمريكية من تنوع الأجناس واتصال الحركة والنشاط . فعاشت في الجزيرة الأندلسية طوائف من النصارى والمسلمين وأهل الجزيرة والشام وأهل مصر والمغرب ويهود أسبانيا والشرق فكان منهم ذلك المزيج الذي تميز منه المستعربون والمدجنون والمولدون ، وعاشت بفضل هذا التفاعل الحي بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات والكشوف العلمية والمعارف والفنون والصناعات والمخترعات الحديثة والأنظمة القديمة ، وانبثقت من تجاوب هذه القوى مواهب الإبداع والتجديد ، ووصل من الشرق الحرير والقطن والقهوة والورق والليمون والبرتقال والرمان والسكر مع هؤلاء الوافدين ، كما وصلت السجاجيد والمنسوجات والبارود والمعادن المنقوشة ، وأخذنا عنهم الحساب العشري والجبر والكيمياء والطب وعلم الفلك والشعر المقفى . ونجا الفلاسفة الإغريق من الضياع في غمرة النسيان حيث تبعوا العربي في فتوحه وغزواته . فتربع أرسطو في جامعة قرطبة التي ذاعت شهرتها في الآفاق ، وظهرت بين العرب الأندلسيين فكرة الفروسية التي تبناها فيما بعد رجال الشمال كأنها ميزة مقصورة على الأمم المسيحية .

« وبينما كانت شعوب الفرنجة والسكسون والجرمان يعيشون في الأكواخ ، ويعتلي ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور في القلاع المظلمة ، ومن حولهم رجال هم عالة عليهم يلبسون الزرد ويأكلون طعام الإنسان الأول قبل التاريخ ـ كان العرب الاندلسيون يشيدون قصورهم القوراء ويرودون الحمامات كما كان سراة رومة يرودتنها من قبل للمساجلة في مسائل العلم والأدب وتناشد الأشعار وتناقل الأخبار .

« وكلما آنس راهب من نفسه رغبة في العلم اختلف إلى الجامعات العربية أو المجامع الإسرائيلية في أسبانيا ، ووقر في اخلاد الملوك والأمراء أنهم مبرأون من

أمراضهم لا محالة إذا أسعدهم الحظ بطبيب أسباني مهما يكلفهم ذلك .

« ثم انفصل العنصر الوطني عن الغزاة وتجمعت القوميات المسيحية الصغيرة ، فاشتبك العرب والأسبان في حروب سجال لا تنتهي الى الابادة والاستئصال بعد الانتصار ، وأضمر كل منهم لصاحبه احتراماً عميقاً فهو يعاهده على فترة طويلة من فترات السلم ، كأنما يحاولون بذلك تأجيل تلك اللحظة التي يحم فيها الفراق الأخير ، ويعاونه خلال ذلك في بعض الأعمال التي تفتقر إلى اشتراك الجهود .

« ولقد عمت الحرية في ذلك العهد أقاليم أسبانيا المسيحية نفسها قبل أوربة الشمالية بزمن طويل ، واستقلت بتنظيم أمورها المالية ، وجعلت الملك أو الأمير بمقام رتبته العسكرية ، وأصبحت المقاطعات كالجمهوريات الصغيرة التي يتولاها حكامها المنتخبون . وكان المتطوعون في المدن قدوة مثلى للجيوش الديمقراطية ، وكانت الكنيسة المسيحية وهي على اتصال بالشعب تعيش بسلام في جوار الأديان المختلفة ، ونجمت في الأمة طبقة وسطى فعالة فأبدعت الصناعات المتعددة وأنشأت على السواحل أعظم قوة بحرية في زمانها ، وراجت المنتجات الاسبانية في جميع المرافىء الأوربية ، وقامت في البلاد مدن تضارع في تعداد سكانها الحواضر الحديثة ، واختصت بعض القرى بمعامل النسيج ، وزرعت الأرض في شبه الجزيرة بأسرها .

« وقد ارتقى العرش ملوك الكثلكة في الوقت الذي بلغت فيه القوى الوطنية أوجها ، وإنما يرجع طول ملكهم إلى موارد القرون الوسطى الفياضة بالابداع المخزونة في ودائع العصور السابقة .

« إلا أنه كان ملكا مشؤوماً بغيض العواقب . لأنه حاد بالسياسة الأسبانية عن سواء السبيل فدفع باسبانيا إلى التعصب الممقوت ونفخ فينا نزعة التوسع في الاستعمار .

« كانت أسبانيا يومئذ تتبوأ المكانة التي تتبوأها انجلترة في عهدنا الحاضر ، ولو أنها اتبعت سياسة التسامح الديني والتعاون بين الشعوب وواصلت عمل العرب الصناعي والزراعي بدلا من مغامرات الحرب ومطامع الاستعمار لكان لنا اليوم غير شأننا الذي وصلنا إليه .

« وإن الطابع الاسباني لأبرز في عصر النهضة الأوربية من الطابع الايطالي الذي اتسمت به إيطاليا بما انبعث فيها من آداب الأمم القديمة وفنون الاغريق ، فان النهضة لم تقتصر على الميادين الأدبية والفنية ، بل أخرجت إلى العالم حضارة جديدة بتقاليدها وصناعاتها وجيوشها وعلومها . وهذا كله من ثمرات أسبانيا العربية والاسرائيلية والمسيحية .

« فالقائد العالم القرطبي الكبير (جون سالفو) رسم خطط الحرب الحديثة ، وتفوق (بدرونوڤارو) في الهندسة واستخدمت الجيوش الاسبانية الأسلحة النارية لأول مرة في التاريخ فكان استخدامها هو الذي خلق فرق المشاة وجعل من الحرب قوة ديمقراطية لأنه قدم الشعب على جماعة الفرسان الذين كانوا سجناء تلك الشكة العسكرية الارستقراطية .

إلى أن يقول :

« أسرعت دونا ايزابيلا بذلك التعصب النسائي الذي امتلأت به فأنشأت محاكم التفتيش ، وانطفأ من ثم مصباح العلم في المسجد والبيعة وخلفته في الدير المسيحي ذبالة العبادة . لأن الساعة ساعة صلاة . وقد ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الاسبانية في غياهب الظلمات حيث ترتعد برداً في عزلتها المضنية وتخبو شيئاً فشيئاً إلى أن تموت وإن بقيت منها بقية فهي تلك التي تنصرف إلى الشعر والمسرح والجدل الديني ، مذ كان العلم يفضي بصاحبه إلى نار الحريق . . . »

هذه الشهادة الاسبانية الصحيحة ـ شهادة أبانيز ـ للدولة العربية في الجزيرة الأندلسية هي خلاصة التاريخ المتفق عليه ، وليست تحية إعجاب وكفى من رجل منصف متوثب الخيال .

ولم يمار في هذه الخلاصة التاريخية أحد من المؤرخين المعول عليهم سواء كانوا من العرب أو الأوربيين أو الأسبان ، إلا أفراداً قلائل زعموا أن الحضارة العربية في الأندلس قامت على أيدي أبنائها الأصلاء دون الغرباء الوافدين عليها ، وهو زعم عجيب يوحي أول ما يوحيه إلى الذهن ، أن يسأل : ولم لا تزدهر العبقرية الاسبانية إلا في ظل الحكومة العربية ، فلا تؤتي ثمراتها قبل وفود العرب ولا بعد ذهابهم وذهاب آثارهم في العلم والصناعة والعمران ؟

وجواب هذا السؤال ينفي كل زعم يلهج به أمثال أولئك المنكرين المتعصبين ، وبخاصة حين يرسلون زعمهم إرسالا لا يؤيده اسم واحد من أسماء أبناء البلاد الأصلاء الذين ساهموا مع العرب في أعمال الحكم والتعمير ، أو كانت مساهمتهم دليلا على مشاركة عامة متسعة النطاق .

وأول ما يستخلص من قيام الحضارة الأندلسية على هذا الوصف المتفق عليه أن آثارها في أوربا كانت أعم وأعمق مما تسجله الكتب المطولة أو الكلمات المقتبسة ، لأننا نرى بأعيننا في عصرنا الحاضر كيف يكون أثر القدوة بالسماع فضلا عن القدوة بالمعاشرة الطويلة بين الشعوب ، وهذه الثورة الفرنسية قد تخللت أوربا وآسيا وأفريقية بمبادئها وحوافزها ولما يتجاوز المطلعون على حقيقتها آحاداً معدودين في كل بلد من بلدان تلك القارات ، فاذا كانت القارة الأوربية لا تغير نظرتها إلى الحياة بعد معاشرة تلك الحضارة الأندلسية على استفاضتها وطول أمدها فالتهمة هنا تتجه إلى العنصر الأوربي ولا تتجه إلى العنصر العربي أو الاسلامي بحال .

وقد أصاب أبانيز حين قال إن عصر النهضة مدين للحضارة الأندلسية قبل الحضارة الايطالية التي أعقبتها . لأن عصر النهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الاغريقية القديمة ولا مزيد على ذلك من عنده ، ولكنه كان عصر تجديد في الحياة

العملية والمرافق الصناعية والتجارية ، وفهم مستحدث للعقيدة وللعالم وللعلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، أو كان عصر معيشة جديدة تناولت بالتبديل والتعديل طبقات الشعوب من العلية إلى السواد ، وأولى أن يأتي ذلك من القدوة الشعبية في جميع الشؤ ون العملية بعد اتصال المعاشرة بين حضارة العرب وأبناء أوربة الغربية عدة قرون .

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن تحصي لنا آثار العرب في بعض العلوم أو بعض الصناعات ، ولكن آثار العرب في الحضارة العامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ ولا هي موقوفة على استقصاء أرقام وألفاظ . لأن زعم الزاعم أنها قد مضت بغير أثر كبير يناقض العقل البشري كما يناقض المشاهد والمحسوس ، وإسناد هذا الأثر إلى غيرها بلا مشاركة منها على الأقل تعسف لا يؤ خذ به في سياق التاريخ .

وقد جاءت النهضة بعد عهد الحضارة الأندلسية ، وجاء الاصلاح الديني بعد النهضة ، وجاءت الحرية السياسية بعد الاصلاح ، ولم ينكر أحد من الأوربيين أثر واحدة من هذه الحركات في الأخرى . فليس في وسع المنكرين المتعصبين منهم أن يقطعوا الصلة بين الحركة الأولى وما تلاها ، مع هذا التلازم في الزمان والأسباب .

الدولة والنظام

من المفارقات في ظاهر الأمر أن يقال إن الحضارة الاسلامية كان لها أثـر في فصل الدولة عن الكنيسة ، وفيما تلا ذلك من حركات التحرير أو دعوات التغيير في معنى الدولة والملك وعلاقة الرعايا والملوك .

وإنما يبدو هذا القول كأنه من قبيل المفارقات لأن المعلوم الشائع عن الاسلام أنه وحد الملك والخلافة الدينية وجمع بينهما في كثير من الدول الاسلامية شرقيها وغربيها وقديمها وحديثها ، فكان لقب أمير المؤمنين وخليفة رب العـالمين من ألقاب الملوك المسلمين إلى زمن غير بعيد ، ولا يزال من هؤلاء الملوك من يتسمى به في مملكته إلى الآن .

لكن الواقع كما أسلفنـا أن المفارقـة في الظاهـر لا في الحقيقـة ، لأن حركة التحرير في هذا الاتجاه بين الأوربيين إنما أتت على خطوات متلاحقـات منـذ القرن الحادي عشر للميلاد إلى عصر الثورة الفرنسية . وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي ثورة الملوك على سلطان الكنيسة ونزوع بعضهم ، كما حصل في انجلترة ، إلى الجمع بين الرياسة الدنيوية والرياسة الدينية ، وكان استقـلال الملك المسلم عن سلطات رجال الدين في الشرق والغرب من أقوى الحوافز التي جالت في خواطر الملوك الأوربيين زمناً ، بعد مقاربتهم الـدول الاسـلامية في الأندلس تارة ، وفي البلاد التي تناولتها الحروب الصليبية تارة أخرى ، فنزعوا بدافع من الغيرة والقدوة الماثلة أمام أعينهم إلى محاكاة أندادهم وأقرانهم والتمرد

على ذلك السلطان الشامل الذي فرضته الكنيسة عليهم وعلى رعاياهم .

فقد كان للأحبار الرومانيين حق الحرمان والغفران يسلطونه تارة على الملوك والأمراء ، وتارة على آحاد الناس ، وربما أعلنوا حرمان الملك وأحلوا رعاياه من الطاعة له ، فتذرع الأتباع الناقمون عليه بهذا الاعلان لنقض طاعته وتمزيق ملكه ، وربما ألفى الملوك أنفسهم مضطرين في كثير من الأحيان إلى تمليق الأحبار في رومة والسعي إليهم لاستغفارهم وطلب المعونة منهم على أتباعهم ومنافسيهم . ونظروا بأعينهم إلى ملوك مثلهم في أوربة نفسها وفي البلاد الشرقية التي عرفوها ، فوجدوهم أحراراً من هذه الربقة آمنين على عروشهم من ذلك السيف المصلت على الرقاب ، فلا جرم تحيك في صدورهم نازعة من الغيرة وطلب المحاكاة ويغتنمون الفرصة الأولى لادراك ما تمنوه وفكروا فيه .

ومهما يكن من تعدد الأسباب التي تقدمت ثورة الملوك على الكنيسة ، فمن أسبابها التي تذكر ولا تنسى هذه القدوة الملكية الماثلة في الأندلس ومصر وبلاد الشرق الأدنى . ولم يتفق عبثاً على ما نرى أن تبدأ الثورة في ألمانيا وانجلترة ، وهي البلاد التي كان لها ملوك وأمراء أقاموا بالشرق في خلال الحروب الصليبية ، فان هؤلاء الملوك جربوا إنشاء الدول بأسمائهم في البلاد الشرقية ، بعد أن غلب على الظن أن هذه الدول ستقام باسم السلطة البابوية ، والحرب حرب صليبية والمرجع فيها إلى رجال الدين وأحبار الكنيسة . . . فلما استقامت لهم التجربة ومثلت أمامهم القدوة وأتيحت لهم أو لخلفائهم الفرصة المواتية ، خرجوا على سلطان الكنيسة فكانت هذه هي الخطوة الأولى في سبيل الفصل بين الدين والدولة ، أو في سبيل عزل الكنيسة عن تدبير الشؤون السياسية في البلاد الأجنبية عنها .

وقد كانت هذه الثورة الملكية ضرورية قبل الثورة الشعبية التي تلتها ، وكانت حرية الشعوب مع ملوكهم على قدر حرية الملوك مع رجال الكنيسة . ولولا أن ثورة الملوك كانت لازمة قبل ثورة الشعوب ، لاستفاد الأوربيون من مقاربة الدول الاسلامية معنى آخر أجل وأسمى من هذا المعنى في فهم حقيقة الدولة وحقيقة الرعاية أو العلاقة بين الراعي والرعية ، لأن أوربة ظلت إلى القرن السابع عشر تعتبر الدولة سيادة للحاكمين على المحكومين ، وظل علماؤها ينكرون حق الشعب في الاشراف على الحكومة ويعتبرون أن هذا الحق طريق

إلى الفوضى والفساد كما قرر جروسيوس في كلامه عن حقوق الحرب والسلام .

وقبل جروسيوس ـ إمام القانون الدولي عندهم في زمانه ـ كان المعري يقول في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، أي قبل جروسيوس بستة قرون :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقبل المعري باربعة قرون كان القرآن يعلم الناس أن أمر الرعية شورى بينها ، وكان عليه السلام يعلمهم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وكان الفاروق يعلمهم أنهم ولدوا أحراراً لايستعبدهم خليفة ولا أمير .

على أن الأوربيين إذا كان قد فاتهم أن يتلقوا عن الدول الاسلامية هذا الدرس الرفيع في معنى الدولة والعلاقة بين الحاكمين والمحكومين فيها ، فانهم قد عرفوا من تلك الدول الاسلامية شيئاً جديداً في العلاقات الدولية ومعاهدات السلم والصلح ، والمتاركة بين الأعداء والمختلفين بالعقائد والعناصر واللغات ، فان الاسلام قد أباح لأتباعه معاهدة المشركين والذميين وأهل الكتاب كما أباح لهم معاهدة إخوانهم في الدين ، وقد كانت نشأة الدول الاسلامية على الأرض الأوربية مناسبة حية لتطبيق هذه المعاملات مع المحاربين والمسالمين ومع الحكومات وآحاد الناس ، وكان الأمير المسلم لا ينقض عهد أمانة لمن آمنهم على أنفسهم وأموالهم ولو كانوا من أعدى أعدائه ، فكان الفرسان المسيحيون يترددون على العواصم الأندلسية لينازلوا أبطال المسلمين ذوي الصيت الذائع في حلبات الفروسية والرياضة البدنية ، فلا يعتدى عليهم غالبين ولا مغلوبين ، وكانت الحكومات المسيحية التي ترتبط بعهود المسالمة أو المتاركة مع المسلمين على ثقة من الوفاء بهذه العهود في أحرج الأوقات وأحفلها بالمخاوف والأخطار . وشاهد الصليبيون في المشرق مثلا آخر من أمثلة هذه القداسة المرعية للمعاهدات الدولية ، وهذه السنة الجديدة في معاملات الحكومات والشعوب ، فتغنى الروائيون والشعراء الانجليز بصدق صلاح الدين وشممه وأريحيته في معاملاته لخصومه ، وسجلوا له بالثناء والاعجاب صدقه الذي لازمه في كل وعد من وعوده ، فلم ينقض كلمة قط ولم يحنث مرة بيمين .

وأعجب من هذا في باب التفرقة بين حدود الخصومة وحدود المعاملة أن قيام الحرب بين العرب والصليبيين لم يكن ليقطع أسباب التعامل بين المتقاتلين في غير ما تستدعيه ضرورات القتال ، ومن ذاك ما رواه الرحالة ابن جبير حيث قال : « ومن أعجب ما يحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عساكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا وهو سرارة أرض فلسطين ، وله منظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية ، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمنة على غاية . وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم على الاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب . هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار : فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه . . . » .

***

وقد كان لفهم الدولة على معناه الصحيح أثره النافع في العلاقات السلمية والحربية بين الحكومات ، فلم يحدث قط في العالم العربي أن دولة حاربت أخرى للمطالبة بحصة أميرة في العرش أو للخلاف على ميراث الأصهار وتركات البيوت الملكية . لأن الحضارة العربية رفعت معنى الدولة من مرتبة الحطام الذي يورث أو ينتقل بالنسب والمصاهرة إلى المرتبة الانسانية التي ارتقت إليها الحضارة الحديثة بعد ذلك ببضعة قرون : وهي قيام الدولة على علاقة حرة بين الراعي المسؤول والرعايا الطلقاء من أسر العبودية والاسترقاق ، فلا جرم

يقال بحق إن الحضارة العربية سبقت أوربة زمناً طويلا في مجال التربية الدولية ، وسلكت المنهج الوحيد الذي يؤدي إلى انتظام المعاملات العالمية على الوجهة القديمة التي يمها دعاة الاصلاح في عهد عصبة الأمم المتحدة ، وما يشبهها من الجامعات .

اثر اوروبا الحديثة
في النهضة العربية

سداد الديون

مضى زمن كانت أوربة فيه ـ كما رأينا في بعض فصول هذا الكتاب ـ تتلقى الحضارة العربية وهي نافرة متبرمة ، أو حائرة مستسلمة ، إذ كان شيوخها وأصحاب زمامها ينعون الزمان ويسخطون على الدنيا ومن فيها ، لأن وجوه الناشئين قد تحولت عن القبلة التي كانوا يأتمون بها ، وعقول المتعلمين قد انصرفت عن المطالب التي كانوا يعكفون عليها . فأصبحوا ولاهم لهم إلا الاقبال على كل ما هو عربي غريب ، والاعراض عن كل ما هو أوربي أصيل .

ثم دارت الأفلاك دوراتها التي تدورها وكأنما هي مستقرة في مكانها ، فاذا بصيحة كهذه الصيحة تسمع من جانب الشرق العربي كأنها منقولة من أفواه أولئك الأوربيين الذين رددوها قبل ألف سنة ، لأن أبناء الشرق أصبحوا ولاهم لهم إلا الاقبال على كل ما هو أوربي غريب ، والاعراض عن كل ما هو شرقي ، أو عربي أصيل !

ذلك سداد الديون

وكثيراً ما يكون سداد الديون غير مقصود وغير مشكور ، ولا سيا ديون الحضارات الانسانية التي تتوارثها الأمم دواليك بين الأخذ والاعطاء . وتعلم الشرق الحديث من أوربة كما تعلمت أوربة من الشرق القديم ولا ضير في التعليم ، لولا أنه كان تعليم قصور .

فان الولع بكل جديد كالولع بكل قديم ، دليل على نقص في التمييز وعلى

اتباع يخلو من الابتداع .

وقد عشنا زمناً في الشرق ومقياس الحرية عندنا أن نقبل على كل جديد لأنه جديد ، وأن نثور على كل قديم لأنه قديم .

فكان ذلك عهد تعليم ، وكان كذلك عصر قصور .

ثم بلغ هذا العصر مداه فبرزت في صفوف الشرقيين طائفة تملك حريتها في وج الجديد كما تملكها في وجه القديم ؛ فلا يفقد الانسان صفة الحرية لأنه يفضل بعض القديم على بعض الجديد ، ولا يكسب الانسان صفة الحرية لأنه يفضل كل جديد على كل قديم . بل يكون مقياس الحرية هو مقياس التمييز لكل ممتاز ، والاختيار لكل ما يستحق أن يختار .

نقلة من عصر القصور إلى عصر الرشد والاستقلال .

تعلمنا مكرهين متبعين ، ثم نتعلم مختارين مبتدعين .

ولم يقتصر ما تعلمناه من قبل أو ما نتعلمه اليوم - على باب دون باب أو فريق دون فريق ، بل شمل المدرسة والبيت والسوق ، وعم الجامدين والمتوسطين والمتطرفين ، ولا يزال علينا أن نتعلم الكثير في كل باب ، وأن نترقب التقدم من كل فريق ، ولكن على سنة الرشد لا على سنة القصور .

وسيبلغ هذا العصر مداه بعد حين ، وستدور الأفلاك دوراتها التي يتشابه فيها المدار بالقرار ، فغير بعيد أن تسمع الصيحة مرة أخرى في جانب من جوانب الكرة الأرضية . . وغير بعيد أن يمليها الشرق في هذه المرة على نحو جديد . . فقد يتسع لها عالم الروح ، إن لم يتسع لها عالم الفكر والعلم أو عالم الحكم والسلطان .

الاجتماع والسياسة

شاع التعليم الحديث في الشرق كما شاعت فيه القدوة المعيشية بكثير من مظاهر الحضارة الأوربية ، وكان لشيوعهما معاً فعل سريع في بعض آداب الاجتماع ومقوماته ، تقابلت فيه المحاسن والمساوىء ، على حكم العادة المألوفة في كل تغير سريع .

وقلما يقع التغير في العرف الاجتماعي دون أن تبدو آثاره ومصاحباته في الأسرة وفي العادات العامة ، وفي العلاقة بين الطبقات .

وقد كانت لذلك التغير السريع آثاره في هذه المناحي الثلاثة ولا سيما الأسرة . فان التعليم وتحرير المرأة وتطور لوازم المعيشة قد اتحدت كلها على تقليل الرغبة في تعدد الزوجات . لأن الرجل المتعلم يطلب الزوجة للمشاركة في الفهم والشعور ويضن ببنته وأخته في الوقت نفسه أن تتعرضا لمتاعب الضر والمنازعة بينها وبين الزوجات الأخريات ، والمرأة المتحررة تنشد الزوج الذي يشاطرها الحب والمودة ويعاملها معاملة الشريكة في حياته البيتية وحياته النفسية ، وتكاليف المعيشة وتعليم الأبناء عبء لا يقوى عليه الزوج الذي يضطلع بهذه التكاليف في أكثر من أسرة واحدة .

وأصبح اقتناء الجواري محرماً بحكم القانون بعد اتفاق الدول على تحريم الرق فبطلت الذرائع إلى تعديد الزوجات بالتسري والاسترقاق ، وكان ضرباً من الوجاهة ترضاه بعض الأسر الغنية على هذا الاعتبار .

وشوهدت في الأسر المصرية عناية بالحفلات البيتية لمناسبات لم تكن شائعة بين الشرقيين قبل الحضارة الأوربية ، وهي ذكريات الزواج وذكريات ميلاد الآباء والأمهات والأبناء ، وغيرها من المناسبات العامة التي يحتفل بها الغربيون كرأس السنة الشمسية وبعض مواسم الفصول . وأبيح في هذه المناسبات ما لم يكن مباحاً قبل ذاك في مجتمعات الأسر كالمقامرة والشراب .

وقد كسبت الأسرة الشرقية من ناحية وخسرت من ناحية أخرى بهذا الازدواج العجيب في آداب المعيشة . فان الأمم الشرقية اقتبست من الغرب كثيراً من عادات الفراغ والنزهة « خارج البيت » ولم تكن كلها مما يوافق حياة الأسرة وواجبات التربية التي تناط بالأمهات والآباء داخل البيوت ، وساء فهم الحرية النسائية في بعض البيئات فسبق إلى الأوهام أن الحرية تحرر من جملة القيود ومنها قيود الوفاء للأزواج والأبناء . فتداعى بنيان الأسر التي فشت فيها هذه البدعة الغربية ، وامتحن المجتمع الشرقي بمحنة خطيرة يحاول اليوم أن ينجو منها ، ولا يزال في محاولاته حتى يتاح له الاستقرار على ملتقى مريح بين دواعي الحاضر ودواعي الماضي ، ودواعي الحرية الفردية ومطالب المجتمع والأسرة .

أما العلاقة بين الطبقات فلم تتغير تغيراً كبيراً في الأمم الشرقية بعد الاحتكاك بالحضارة الأوربية . لأن أوربة منعت قيام الصناعات الكبرى في بلاد الشرق واحتكرت أسواقها لمصنوعاتها ، فوقف الزراع وأصحاب الأرض في موقفهم القديم ، وركدت الصناعة فلم تجتمع عصبة من العمال في صعيد واحد للمطالبة بحقوقها كما تفعل جماعات العمال في العواصم الصناعية الكبرى ، وحالت أوربة دون تجدد الطبقات بحائل آخر لم تقصده ولكنه فعل فعله في جميع الأقطار الشرقية على تنوع مرافقها الاقتصادية . وذاك أنها أرسلت إلى الشرق أموالها ومصارفها وشركاتها لتستغل أغنياءه وفقراءه على السواء ، فأصبحت الطبقات الاجتماعية كلها في حكم الطبقة العاملة أمام هذا الاستغلال ، وتأجل تقسيم الطبقات من جراء هذا الاتفاق بينها في مواجهة رؤوس الأموال الأجنبية .

وفيما عدا نشوء الحركة التعاونية في المدن والقرى على نطاق ضيق محدود لم تتغير علاقات الاقتصاد بين الطبقات تغيراً يناسب الخطوات السياسية التي خطاها الشرقيون ، سعياً إلى التحرير والاعتراف بالمركز القانوني في المعاملات الدولية ، وأهم ما يذكر في باب تجديد الطبقات أن انتشار التعليم وازدحام

المدن قد ضاعفا قوة الطبقة الوسطى فارتفع لها صوت مسموع في توجيه السياسة الوطنية ، ولم تزل الطبقة الفقيرة عالة على الطبقة الوسطى في المطالبة بحقوقها والافضاء بشكايتها ، ولكنها تستقل بالرأي شيئاً فشيئاً خلال هذه السنوات ، ولا سيما سنوات الحرب العالمية وما تخللها وأعقبها من دعوات الانصاف والتقريب بين الطبقات .

وإذا استطرد القول إلى الاقتصاد الاجتماعي ـ أو الاقتصاد الذي له علاقة بروح المجتمع وأخلاقه ـ فمن المستحدثات التي لا تهمل في هذا الصدد أن الشرق الاسلامي ترخص في إنشاء المصارف المالية وقبل التعامل بالفائدة الطفيفة التي لا يعتبرها من الربا الفاحش المحرم بنصوص القرآن .

على أننا ننظر إلى جهود الأمم الشرقية من جميع الاعتبارات فيجوز لنا أن نقول إن الوعي السياسي فيها قد سبق الوعي الاجتماعي شوطاً أو شوطين . . وإن المصلحة القومية تدفع بها إلى الموازنة بين مساعيها في ميدان السياسة وميدان الاجتماع ، بعد أن استنفدت قوتها الكبرى على إثر يقظتها الأولى في تحقيق غاياتها الوطنية وآمالها في الحكومة النيابية .

وقد أجملنا الكلام في غير هذا الفصل على الوطنية والحكومة النيابية . . ونضيف إليه في باب التجديد السياسي أن اصطدام الغرب بالشرق كانت له آثار أخرى في أعمال الحكومات غير هذه الآثار في أعمال الشعوب . فعمدت كل حكومة تملك بعض التصرف في شؤونها إلى تبديل نظامها العسكري وإنشاء المحاكم الحديثة التي سميت بالمحاكم الأهلية أو المحاكم المدنية . ولم يكن لها مناص ـ قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية ـ من اقتباس القضاء الأوربي ومبادىء القوانين الأوربية على الاجمال .

***

ومن الآثار التي لا تغفل في صدد الكلام على التفاعل بين الحضارتين الأوربية والعربية أن سياسة أوربة قوبلت في الشرق العربي بقوة جديدة في عالم السياسة تعرف اليوم بالجامعة العربية ، وهي قوة لا تقتصر على أعمال الساسة وولاة الأمور لأنها في واقع الأمر مستمدة من يقظة الشعوب وإحياء التراث العربي منذ مائتي سنة ، في كل مكان يحتاج أهله إلى معرفة اللغة العربية .

ومن المألوف على ألسنة المتعجلين إذا رأوا موافقة بين خطة أوربية وحركة شرقية أن ينسبوا هذا الحركة إلى تدبير الأوربيين ويحسبوها من المناورات المصطنعة التي لا ترجع إلى سبب غير ذلك التدبير . وكذلك فعلوا في حكمهم على الجامعة العربية حين لاح لهم أن السياسة الأوربية تماشيها ولا تعمل على إحباطها .

وفي هذا ولا شك انحراف عن الفهم الصحيح .

فان السياسة الأوربية كائنا ما كان بأسها واقتدارها على التدبير والتمويه لا تمالىء شبحاً في الخيال ، ولا تخلق شيئاً من لا شيء ، ولا تصطنع حركة من الحركات التي تساهم فيها الملايين تقوم كلها على محض اصطناع .

ومن شأن الدعاة السياسيين أن يستفيدوا من الدعوات في إبانها وفي مكانها ، ولكنهم لا يسبقونها ولا يخلقونها . بل لا يفهمونها قبل وقوعها ولا يتسلفون النظر إليها . فلم يكن أكثر من المؤتمرات الدولية التي انعقدت في القرن الثامن عشر والذي يليه ، ولكنها لم تعرض مرة من المرات للمناداة بحقوق الشعوب أو مبادىء تقرير المصير . ولم يحجموا عن ذلك عجزاً عن الخداع أو كراهة منهم للمناورات ، ولكنهم أحجموا عنه لأن هذه الدعوات لم تكن لها حقيقة ماثلة في حركات الشعوب . فلما وجدت هذه الحقيقة الماثلة كثرت المناداة بها في خطب الساسة وبرامج الوزارات ومباحث المؤتمرات ، وكان من نتائجها فعلا أن عدد الشعوب المستقلة يزداد عاماً بعد عام .

واليقظة العربية حقيقة ماثلة وحركة طبيعية لا شك فيها ، قامت في نشأتها الحديثة على الرغم من السياسة الأوربية ولم تقم باختيارها وتدبيرها ، وعادت إلى التجمع والوحدة بين الحربين العالميتين ، لأنها لا بد أن تعود بعد قومتها الأولى .

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر سئل ابراهيم باشا وهو يناضل الدولة العثمانية : إلى أين تنتهي فتوحاته ؟ فقال : حيث لا يوجد من يتكلم العربية . يريد بذلك أنه ينشىء دولة عربية محضاً ولا يريد أن يتجاوزها إلى بلاد أخرى .

وحوالي هذا الوقت كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد يعلن الثورة على الحكومة العثمانية ويجمع القبائل في جزيرة العرب لتوحيد كلمتها والاتجاه بها إلى

وجهة الاستقلال عن السيطرة الخارجية .

ولم تكن جزيرة العرب يومئذ تعترف بشيء من السلطان الأجنبي غير السيادة الاسمية والرقابة البعيدة التي لا تتعرض لشؤونها الداخلية . فكان أمراء نجد والكويت والحجاز واليمن يأخذون وقلما يعطون في علاقتهم بالدولة العثمانية ، وكانوا على استقلالهم الذي تعودوه منذ القدم في حواضر الصحراء وبواديها ، ولا سيما البوادي التي تحجم عنها جنود الدولة ولا تنفذ إليها بغير إذن من أبنائها ، ولولا قرب العراق من مراكز الحدود التي تحميها الدولة بجيوشها لكان شأنها في جملته كشأن الجزيرة العربية .

وكانت أفريقية الشمالية تعتمد على نفسها في مدافعة الفرنسيين عن استقلالها وحوزة أمرائها وشعوبها .

أما في سورية ولبنان ، فقد رحبت جمهرة الشعب بحركات الوحدة مع الأمم العربية الأخرى وكانت على اتصال دائم بوادى النيل والجزيرة ، وكانت علاقة أمرائها سراً وجهرا بمحمد علي الكبير مثار القلق الدائم للحكام العثمانيين .

وفي كل هذا كانت السياسة الأوربية تقف من حركات العرب موقف المقاومة والتثبيط ، لأنها عملت على بقاء الأمم العربية في حوزة الدولة العثمانية ، محرومة جهد المستطاع من حقوق السيادة والاستقلال .

ولم تفلح هذه المقاومة إلا ريثما استجدت تلك الأمم نشاطها وتحفزت مرة أخرى للوثوب إلى غايتها .

فقامت في مصر حركة المطالبة بمصر للمصريين ، وقامت في السودان حركة الثورة على « الترك » كما كانوا يسمون الأجانب أجمعين ، وقامت في بلاد العرب دعوة واحدة إلى الاستقلال ولكنها كانت تمتحن من آونة إلى أخرى بمحنة المنافسة بين زعماء العشائر وأمراء الأقاليم ، ودخل السوريون واللبنانيون والعراقيون في حزب تركيا الفتاة لأنه الحزب الذي كان يمنيهم بالحكومة « اللامركزية » أي حكومة العرب في بلادهم ، كما يشاؤون وبمن يشاؤون .

وفي هذا الدور أيضاً من أدوار القضية العربية كانت السياسة الأوربية تخذل العرب أو تمنعهم أن يبلغوا من الاستقلال غاية ما يقدرون عليه .

ثم نشبت حرب الأمم قبل ثلاثين سنة ، فتحركت الجامعة العربية من

جديد ، تارة على هدى وتارة على ضلال ، فتسابقت دول أوربة إلى كسب الأنصار من أمم العرب التي استقلت أو التي طمحت إلى الاستقلال ، وانتهت الحرب والأمم العربية جمعاء متفقة على المطالبة بالحرية والمناداة باسم العروبة في جامعة تتوافر لأعضائها حقوق الاستقلال .

وعلى ما كان من موقف أوربة في المقاومة والتثبيط كانت لها فلتات هنا وفلتات هناك تبدر منها حيناً بعد حين ، في سبيل التشجيع والاغراء .

فكان الانجليز مثلا يشجعون المناداة بمصر للمصريين لأنها تفصل مصر عن الدولة العثمانية ، ولكنهم يثبطونها من جهة أخرى لأنها ثورة صريحة على الاحتلال البريطاني ، وما عسى أن يتطور إليه من بسط الحماية البريطانية في صورة من صورها الكثيرة .

وكان الفرنسيون ينشئون المدارس في البلاد السورية كما ينشئون فيها المطابع والمجامع لنشر كتب العرب وثقافة العرب وإحياء التراث العربي القديم . سعياً إلى الفصل بين العرب والدولة العثمانية لا سعياً إلى استقلالهم عن جميع الطامعين ، وكانوا يجتنبون ذلك في أفريقية الشمالية حيث يتفردون بالحكم ولا يستريحون إلى عواقب هذه اليقظة أو هذه الجامعة الثقافية الدينية .

وكان الألمان يقابلون هذا بالتقرب إلى « الجامعة الاسلامية » لأنها تشمل التقرب من الترك والعرب على السواء . ولكنهم كانوا يطمحون من وراء هذه الجامعة إلى بلاد العرب في طريقهم إلى الهند والأقطار الأسيوية ويدفعون السلطان عبد الحميد إلى مد خطوط المواصلات في أنحاء سورية والجزيرة تحقيقاً لأحلامهم ، التي تتلخص في صيحتهم من « برلين إلى بغداد » . . . ثم إلى الهند من هذه الطريق .

فالسياسة الأوربية قد وجدت حركة قائمة فاستفادت منها تارة بالمقاومة وتارة بالتشجيع . أما أنها تخلقها خلقاً فذلك مخالف للواقع ، مخالف لفحوى التاريخ .

وهي تدخل اليوم في طور جديد بفضل كيانها القديم لا بفضل السياسة المصطنعة أو التدبير الخارجي من جانب الانجليز أو جانب الامريكيين .

وقد تكون لبريطانيا العظمى مصلحة في مصادقتها ورغبة في معاملتها ،

ولكنها تجد هذه المصلحة في التفاهم بينها وبين الاغريق أو الايطاليين ، فلا يقول قائل إنها خلقت القومية الاغريقية أو خلقت القومية الايطالية ، أو أنها قادرة على تجاهل القوميتين وإحباط ما ترميان إليه ، إذا تحولت السياسة من خطة إلى خطة في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

فالجامعة العربية حركة طبيعية من قديم الزمن وهي طبيعية في هذا الزمن على التخصيص . لأن العصر الحاضر ينادي باحترام حقوق الأوطان وينادي بالتعاون في الجوار ، وينادي بالتعاون الشامل في المسائل العالمية الكبرى . وأبناء العربية يحبون الاستقلال لأوطانهم ويتجاورون فيحتاجون إلى التعاون فيما بينهم على المرافق المشتركة ، وهي أكثر من أن تنحصر في مرافق الماضي أو مرافق الحاضر أو مرافق المستقبل على انفراد ، وكلهم يودون أن يعانوا وأن يعينوا في المسائل العالمية الكبرى التي تمسهم مباشرة أو تمسهم بنتائجها التي تعم البشر أجمعين .

وللجامعة العربية مستقبل سياسي رهين بأحوال العالم وتقلباته وانتظام العلاقات بين شعوبه وحكوماته ، ولكن اليقظة العربية حقيقة لا ترتهن بالسياسة وحدها ، لأنها مستمدة من طبيعة الأشياء لا من برامج الدولة والرؤساء.

الحكومة البرلمانية

حرم القرآن الكريم الحكم المطلق وأنكر سلطان « الجبارين » في الأرض وفرض الشورى على النبي وخلفائه فقال : « وشاورهم في الأمر » . « وأمرهم شورى بينهم » وقرر المساواة في العدل بين جميع الناس وإن قضي بينهم بتفاوت الدرجات .

ويقرأ المسلم القرآن فيحس إحساساً « شوريا » ويتعلم فريضة الشورى بالايحاء والتلقين ، فضلا عما فيه من الأمر الصريح بالمشاورة وسؤال أهل الذكر واجتناب الطغيان في السلطان والاستبداد بالحكومة ، لأنه يرى أن أول عمل من أعمال الخليقة الانسانية كان حقيقاً أن يسمى بلغة العصر الحاضر عملا « دستورياً » من جانب الخالق جل جلاله ، يقوم على الاقناع ولا يقوم على الاكراه والاخضاع .

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . . » .

فلم يكن الاستخلاف في الأرض بالاخضاع بل بالاقناع ، ولم يصبح الخليفة الموعود أهلا لهذه الأمانة الا بعلم وبعلمه ويجهله سائر الخلائق ممن فضله عليهم الخالق بهذا الاستخلاف ؟

ووحي هذه المعاني المستفادة بالايحاء والاستكناه يلقن المؤمن بالقرآن « حس » الشورى والنفرة من الاستبداد ، لأن الايحاء والاستكناه أقرب إلى التلقين من الأمر الصريح .

فالأمر « بالحكم الدستوري » قديم في الحياة العربية ، أصيل في الدولة الاسلامية ، ولكنه المبدأ الذي سبق الأطوار الشعبية بعدة قرون . فلم تتهيأ له الجماعات الانسانية الا بعد الدعوة المحمدية بألف سنة أو تزيد . لأن الأمر بالشورى ينفذ نفاذه حين يوجد معه صاحب الحق الذي يطالب به من ينساه ويرد إليه من يحيد عنه . وليس صاحب الحق هنا غير « الشعب » الذي يتعلم ذلك الحق ثم يشعر بالحاجة إليه ثم يملك الوسيلة التي تخرجه من حيز « المبدأ » الواجب إلى حيز « العمل » النافذ . ولم يكن تمام هذه الاطوار ميسوراً قبل أجيال تعقبها أجيال وأهوال تتلوها أهوال . ويومئذ تصبح الشورى « نظاماً » يأتمر به الحاكمون والمحكومون ، ويوشك أن يجري في الأمم مجرى الحوادث الطبيعية التي تتقرر بالضرورة الغالبة قبل أن تتقرر بالاختيار والاستحسان .

فلما بلغت هذه الأطوار تمامها كانت الحكومة الشورية أو الحكومة الدستورية نظاماً أوربياً يتلقاه الشرقيون عن الأوربيين ، ولا يتلقونه مذهباً غريباً يحتاج إلى إقناع ولا عقيدة جديدة تحتاج إلى تبشير .

***

نعم إن القارة الأوربية عرفت النظام البرلماني على صورة من صوره الأولى قبل الميلاد بعدة قرون ، فنشأ مجلس الشيوخ في رومة ونشأت المجالس التي تماثله في أثينا وإسبرطة وبعض الأقاليم الاغريقية ، ثم نشأت بعدها مجالس أخرى أدنى إلى نظام المجالس التمثيلية الحديثة وأقرب إلى الحكم الديمقراطي الذي تشترك فيه جميع الطبقات .

ولكنه كان هنا « نظاماً » من النظم الخاصة ولم يكن الأمر فيه أمر المبدأ العقلي والحقوق الانسانية ، فلم يعمل اللاتين والاغريق بهذه النظم تقريراً لحق

الانسان في الحرية أو تعميما « لمبدأ عقلي » يجوز تطبيقه ، أو يجب تطبيقه في جميع المدن وبين جميع الشعوب . ولكنهم عملوا به لأنه حيلة صالحة لسياسة أمة بعينها على أقدار من فيها من رؤساء العشائر ومن يتنافسون على الحكم والسيادة ، ولما تطور الحكم الشعبي في أثينا على عهد كليستين الديمقراطي حتى أصبح حق النيابة حقاً عاماً لمن بلغ الثلاثين في الدوائر الانتخابية المختلفة ، لم يكن هذا « التطور » عقيدة إنسانية قابلة للتعميم ولا تسليما بالمبدأ الذي يقوم على الحرية وتقضي به الأصول الأخلاقية ، ولكنه كان تدبيراً موضعياً يناهض به تدبير الطغاة الذين كانوا ينافسون ذلك الزعيم الديمقراطي بقوة القبيلة أو قوة العصبية ، ولعله قد خطر له الاستنجاد بجماهير السواد لاشراكها في الحكم كما خطر له الاستنجاد بالفرس لانتزاع الحكومة من طغاة القبائل والعصبيات .

فالحضارة العربية قد سبقت الغرب بمبدأ الحكومة الشورية في مجال العقيدة والأخلاق .

والغرب قد سبق الحضارة العربية بحكومة الشورى في مجال النظم الواقعية التي تتمخض عنها حوادث التاريخ .

ولا نظن أن الحكم الدستوري كان ينتقل إلى بلاد الشرقين الأدنى والأوسط بهذه السهولة لو لم يكن له أساس قائم من عقائد الناس واعتراف الحاكمين والمحكومين بمبادئه وأصوله ، فان الأمم الغربية قد ضيعت جهودها الأولى في إكراه الحكام المطلقين على النزول لها عن دعوى الولاية « بالحق الالهي » ودعوى السيادة عليها بتفويض السماء . فكان عليها أن تجتاز نصف الطريق - بل نصفه الأوعر الأطول - في تقرير المبدأ الذي سلمه العرب حكاماً ومحكومين قبل نشأة الحياة النيابية الحديثة بألف سنة ، وهو مبدأ الشورى والمبايعة الحرة والرجوع بالحكومة إلى مصلحة الرعية واتفاق الكلمة بين ذوي الرأي فيها .

والحاكم المطلق - في الشرق أو في الغرب - يأبى أن يشارك في أمره ولا يذعن للحكم الشورى باختياره ، ولكن الفرق عظيم بين حاكم يستطيع أن ينكر أساس الحكومة النيابية وحاكم لا يستطيع إنكاره ولا يجسر على الجهر بذلك الانكار مخافة اتهامه بالخروج على أحكام الدين وعصيان رب العالمين . بل الفرق عظيم بين حاكم ينكر الحكم النيابي وهو يعتصم بالحق الالهي وتفويض السماء ، وحاكم يخاف من إنكاره لأنه يخالف الحق الالهي كما يخالف تفويض

السماء بذلك الانكار .

لذلك كانت معارضة السلاطين والأمراء الشرقيين في الحكومة الدستورية معارضة تقوم على الاعذار الموقوتة ، ولم تكن معارضة قائمة على الأسس والأصول ، وكان معظم هذه الاعذار مما يرجع إلى السياسة الأوربية والعلاقات الأجنبية التي كانت تعوق النظام النيابي في بلاد المشرق ، وتمهد العذر للسلاطين والأمراء في المعارضة أو التسويف .

فكان سلطان الدولة العثمانية يؤمن بواجب الشورى ويسمي الرتبة الكبرى عنده رتبة « المشير » لأنه يخشى أن يصارح رعيته بأنه يستأثر بالرأي ويتولى شؤونها على سنة الاستبداد ، ولكنه كان يمانع في تعميم الحكم النيابي بين رعاياه لأن فريقاً من هؤلاء الرعايا يخالفونه في الجنس والدين واللغة ويمالئون الدول الأوربية عليه ، ولا يخلصون في خدمة الدولة إذا تسنموا مناصبها العليا ، واطلعوا على موضع الأسرار من سياستها الخارجية أو سياستها الداخلية .

وكانت المناظرة بين روسيا وبريطانيا العظمى في البلاد الايرانية تحول دون استقرار الأمر وانتظام السعي في توطيد الحكومة النيابية ، لأنهما تبلغان من بطانة الحكم المطلق مالا تبلغانه من حكومة نيابية تخضع لرقابة الشعب وتكشف له عن تصرفاتها في مسائل الشركات والامتيازات .

وقد نزل المحتلون الانجليز بمصر في أواخر القرن التاسع عشر ، وفيها حكومة نيابية تطورت بها التجارب المتوالية من عهد محمد علي الكبير ، فعطلوها لأنهم لا يستطيعون أن يجمعوا بين إشرافهم على الادارة المصرية وإشراف المجلس النيابي عليها ، ثم اقترن طلب الدستور بطلب الاستقلال فأصبحت الحكومة النيابية مرادفة للحكومة الوطنية في برامج الأحزاب المصرية ، وأصبح الحكم الأجنبي هو الحائل الأكبر دون قيام الحكم النيابي الذي ينشده أحرار المصريين .

وعلى هذا تعتبر الحياة النيابية كما رسمتها الأوضاع الحديثة ثمرة أوربية انتقلت إلى الشرق من حضارة الغرب في العصر الحديث . ولكن الشرقيين عرفوها فاقتبسوها ولم يعرفهم بها الغربيون فيفرضوها عليهم فرض المعلمين دروسهم

على التلميذ الذي يكره ما يفرضونه عليه . لأن مطامع الغرب كثيراً ما عرقلت خطوات الشرق كما رأينا في حركاته الدستورية ، والفضل في تهيؤ الشرق لقبول هذه الثمرة الأوربية راجع إلى عقيدة الحرية والشورى التي بثتها حضارة العرب بعد ظهور الاسلام ، ولم تكن غريبة عن الحياة العربية الأولى قبل ظهور الاسلام .

الوطنية

حب الوطن غريزة معروفة في الانسان من أقدم عصوره الاجتماعية . عرفت في البدو الرحل كما عرفت في سكان المدن وأصحاب الأرض الزراعية ، وبقيت لنا من دلائلها في اللغة العربية هذه القصائد التي يتغنى بها إلى اليوم من يذكرون الديار ويحنون إلى المرابع والأطلال ، ولو طال بهم عهد فراقها وانقطعت عليهم سبيل الرجعة إليها .

لكن الوطنية بمعناها الحديث شيء غير هذه الغريزة . لأنها مجموعة من الحقوق أو الصلات الروحية والثقافية ، قد انفرد بها الانسان في عصره الحديث بعد القرن الثامن عشر على وجه التقريب ، واختلف فهم الناس إياها عن ذلك الشعور الغريزي الذي يتفق فيه الانسان وكثير من الأحياء الأنيسة ، بل يتفق فيه الانسان وبعض الضواري التي تأوي إلى عرائنها وأوجارها وآجامها ولا تستبدل بها غيرها ما استطاعت المقام فيها .

ولم يكن من الميسور أن تنشأ الوطنية بمعناها الحديث قبل القرن الثامن عشر أو قبل الأطوار الاجتماعية التي تقدمتها ، وكانت ممهدة لظهورها وانتقالها من حيز الغرائز المشتركة إلى حيز الصلات الروحية والثقافية التي ينفرد بها الانسان في مجتمعاته . لأن هذه الأطوار كانت تناقض الوطنية في بعض الأحوال وكانت تخفيها في أحوال أخرى ، وكانت على الجملة خطوات سابقة لا بد منها قبل التطرق إلى الخطوات التي تليها .

فكان لا بد من تطور عهد الأقطاع قبل شعور الانسان بوطنه في نطاقه الواسع

ومصالحه المتشابكة . لأن انتماء الناس إلى « إقطاعات » متعددة في قطر واحد يربطهم بضروب شتى من الولاء للسادة المتعددين الذين يسيطرون عليها ، ويعودهم ضروباً من المحالفات والمخاصمات تتغلب فيها الزمرة والطائفة على الأمة أو الدولة نفسها في بعض الأمور .

وكان لا بد من تطور الجامعات الدينية قبل الشعور بمعنى هذه الوطنية . لأن الانسان يرضى في الجامعات الدينية أن يحكمه من ليس من أبناء وطنه ، لاتفاق الحاكم والمحكوم في العقيدة والمراسم الروحية ، ويكره أن يحكمه من لا يدين بدينه ولو كان من بلده وجواره ، ولا يزال كذلك حتى يتعذر حكم الأوطان المختلفة بحكومة واحدة قائمة في مراكزها البعيدة عنها ، لاختلاف المرافق واختلاف النظر إلى الحقوق والتبعات ونشوء الطبقات الاجتماعية التي تتنافس في الأوطان المتعددة ، وإن جمعتها علاقة وثيقة واحدة .

ولما تطور عصر الاقطاع وعصر الجامعات الدينية معاً أو على التعاقب بين جيل وجيل ، قام من بعدهما سلطان الملوك المطلقين الذين ساعدتهم قوتهم المطلقة على قهر أمراء الاقطاعات ، والاستئثار بسلطان العرش وما يرتبط به من الدعاوى والحقوق . فكانت قوتهم كفيلة لهم ببسط كلمتهم على رعاياهم وحصر فرائض الولاء في أشخاصهم أو في أسرتهم ، وكانت « المملكة » سابقة للأمة أو سابقة بطبيعة الحال للحقوق التي تنشأ من الاعتراف للامة بالسيادة على بلادها . ولا يفهم الوطن على أنه بلاد « الأمة » ومناط سيادتها قبل أن تصبح الأمة مصدراً للسلطان كله ويصبح الملك خادماً للوطن ينوب عن الأمة في تدبير مصالحها ، وقبل أن تنبغ الطبقة الوسطى التي تضطلع بالحكم مع تقييد الملوك وزوال السادة الاقطاعيين . وهذه هي العقيدة التي تمخضت عنها أطوار كثيرة من عصر النهضة إلى عصر الثورة الفرنسية ، ولم يكن قد توطد لها الأساس الذي تعلو عليه قبل تمام تلك الأطوار .

ولقد كانت الأمة العربية أولى الأمم أن تنشأ فيها الوطنية بهذا المعنى الحديث قبل نشأتها في أعقاب الثورة الفرنسية ، لأنها كانت تدين بأن الأرض لله ، وأن الملك خادم الشعب يحكمه باختياره قبل ان تتقرر هذه الآراء في أمم الحضارة الغربية . ولكن التاريخ لا يسبق أوانه ، ولا بد للجامعة الدينية من دور تجري فيه وتبلغ مداه . وقد كانت في أوجها وكانت معالم الوطنية في غيبها تنتظر

أسبابها ومواقيتها . فلما حان الميقات المقدور كان من عجائب أطوار التاريخ أن يأخذها الشرقيون عن الغربيين وأن يأخذوها تارة كارهين وتارة مختارين .

نعم أخذوها تارة كارهين وتارة مختارين لأنهم أخذوها بالتعليم والمحاكاة وأخذوها بكفاح الثورة على الاستعمار . فكانت المناداة بحقوق الانسان هي فاتحة الاعتراف بحقوق الأوطان ، وكانت غارة الأوربيين على أوطان الشرقيين محرضاً لأبناء تلك الأوطان على المطالبة بتلك الحقوق ، وأشعل فيهم نار الغيرة الوطنية أن الاستعمار يمسهم في كراماتهم وعقائدهم ومصالحهم ، ولا يرضيهم بحالة واحدة من الحالات التي تسوغ للمرء باختياره أن يحتمل الخضوع لمن يخالفه في الموطن واللغة والدين ، وينازعه الرزق وينكر عليه الحقوق التي ينادي بها في بلاده ويسميها بحقوق الانسان .

نعم إن المغلوبين كانوا يثورون على الغالبين في جميع العصور قبل المناداة بحقوق الانسان ، ولكنهم كانوا يثورون للأنفة من الغلبة والألم من الغضب والمشاركة في الأرزاق ، وهي ثورة لا ترجع إلى الايمان بالحقوق الوطنية ولا إلى إنكار حق الغالبين في تسخير المغلوبين ، بل ترجع إلى كراهة الضيم ومقابلة العدوان بالعدوان ، ويختلف الصراع على الغلبة جد الاختلاف من هذا الصراع بين غاصب الحق والمطالب به ، وهما متفقان معا على حق صاحب الوطن في وطنه . فان الثائر القديم إنما كان يثور لأن حالة السيد المطاع خير من حالة العبد المطيع . ولأن المرء لا ينزل عن رزقه وكرامته وهو قادر على أن يحتفظ بهما لنفسه ، أما الثائر الحديث فهو في موقف « المقاضي » الذي يطالب بتراثه وماله ، ويرد الأقوياء إلى شريعة غير شريعة الغلبة المرفوضة في ضمائر الناس .

وظلت العاطفة الوطنية ممزوجة بالعاطفة الدينية في شؤون السياسة العامة ردحا من الزمن ، بعد الاعتراف بسيادة الأمة وقيام « فكرة الوطن » على هذه السيادة ، وكان شأن أوربة في ذلك كشأن الأمم الشرقية بغير اختلاف كبير . فثارت إيطاليا واليونان في طلب الاستقلال ، وكلتاهما أمة ذات تاريخ عريق في الثقافة والفن وأصول الحضارة الأوربية ، ولكن حماسة أوربة لنصرة القضية الايطالية لم تبلغ قط مبلغ الحماسة الشعبية لنصرة القضية اليونانية ، لأن اليونان كانت تثور على الترك إذ كان الايطاليون يثورون على النمسا أو على الكنيسة البابوية . وفي الوقت الذي كانت فيه أمم كأمم البلقان تظفر من العطف

الأوربي بأوفى نصيب في قضايا المطالبة بالاستقلال ، كانت أوربة تنظر بعين الموافقة أو قلة الاكتراث الى تقسيم الوطن البولوني بين روسيا والنمسا وألمانيا ، وعلى بعضها حكومات تغلغلت فيها جراثيم الفساد والاستبداد ، وأنكرت حقوق الانسان ومبادىء الاعتراف بالأوطان .

وظهرت نزعة الاستقلال عن دعوى الخلافة الدينية بين الشرقيين المسلمين في أوائل القرن الثامن عشر مقترنة بظهور هذه النزعة في القارة الأوربية ، فكان السلطان العثماني الذي يلقب بلقب الخلافة يولي على مصر والياً من قبله ، ويختار المصريون المسلمون والياً غيره كما حدث على عهد محمد علي الكبير . ونادى طلاب الاستقلال « بأن مصر للمصريين » في أواسط القرن التاسع عشر ، وجعلوا هذا المبدأ شعارا لهم في حركة التحرير مع قيام السيادة العثمانية التي زالت بعد ذلك بخمسين سنة . . . ثم ظلت هذه السيادة تتردد في بيئات الأحزاب السياسية إما بفعل الشعور الديني أو بدافع من الرغبة في مقاومة الاحتلال البريطاني بحجة شرعية لا ينكرها . فلم يكن هذا الامتزاج بين عواطف الوطن وعواطف الدين غريبا في عالم الواقع أو عالم التفكير ، لأن العواطف الجديدة في تطور الأمم لا تولد دفعة واحدة خالصة من آثار سوابقها وملابساتها ، وكان على العالم كله ـ بين شرقيه وغربيه ـ أن يقضي زمنا ما قبل أن يفهم أبناء الوطن أن حرمانهم نعمة الحرية والاستقلال هو اعتداء عليهم وعلى كرامتهم ، ولو جاءهم هذا الاعتداء ممن يماثلهم في النحلة أو اللغة أو العقيدة الدينية .

وربما كان الأصح ـ أو الأوضح في تفسير الحقائق ـ أن يقال إن معنى الوطنية الحديث وليد الحضارة العصرية لا وليد الذهن الأوربي أو الطبائع الغربية . لأن قارة أوربة وجدت منذ القدم ولم توجد فيها الوطنية بمعناها الحديث . فلما انتهت أطوار الاجتماع إلى حضارة العصر الحاضر كانت أوربة هي مسرح التاريخ الذي تمثلت فيه هذه الأطوار ، وكان فضل الأمم الشرقية في فهم هذا المعنى الحديث أنها نقلته بشيء من الاختيار والتمييز ، ولم تنتظر به تسلسل الوقائع التي مرت تباعا بالأوربيين قبل أن تفرضه عليهم الضرورات .

الحركات الدينية

تعلم الشرقيون من أوربة ليقاوموها بسلاحها.

ويقال هذا عن الشرق الأقصى كما يقال عن الشرق الأدنى ، مع اختلاف العقائد والبيئات والأحوال الاجتماعية . فان اليابانيين لم يتحركوا لمحاكاة أوربة في حضارتها وعلومها وصناعاتها إلا بعد أن اصطدموا بها وعجزوا عن مقاومتها .

وكان الفضل الأكبر لأوربة على الشرق كله هو الفضل الذي جاء على الرغم منها ، وهو تنبيه أذهان الشرقيين إلى حقائق الحياة وتفتيح أنظارهم على الأسباب الصحيحة التي تقترن بها نهضات الشعوب .

وكان الشرقيون قبل ذلك يعلمون أنهم متأخرون متخلفون ، ولكنهم يفهمون العلل التي أخرتهم وقضت عليهم بالتخلف في سباق الأمم كما يفهم الجاهل علة مرضه وعجزه . فيرجع إلى الشعوذة ولا يرجع إلى الطب الصحيح ويسأل الدجالين والممخرقين ولا يسأل الأطباء والعارفين .

وقد جهلوا دينهم كما جهلوا دنياهم . لأنهم خلطوا بين عاداتهم وعقائدهم وبين خرافات الجمود وحقائق العبادات . فاذا قيل لهم إنهم تأخروا لمخالفة دينهم ونسيان وصاياه وآدابه ، عادوا إلى الخرافة الفاشية ولم يعودوا إلى الدين المهجور .

فلما قهرتهم أوربة مرة بعد مرة في عدوانها عليهم ومقاومتهم لعدوانها ،

فهموا مضطرين أسباب هذه الغلبة ورجعوا بعد حين إلى علومها وصناعاتها ونظم السياسة والحكم فيها . فرجعوا إلى الأسباب الطبيعية وفهموا علل الوقائع الماثلة أمامهم على وجهها المعقول . فكان ذلك أول تدريب للذهن على حسن التعليل وفهم طبائع الأشياء .

وكادت الآراء أن تتفق على منهج واحد للاصلاح : وهو اقتباس العلم الحديث ومجاراة العصر في المعيشة والتفكير .

وأقبل المسيحيون من أبناء الشرق على المدارس العصرية يتعلمون ما تلقيه عليهم من دروس التعليم الحديث ، غير متحرجين من موضوعاتها ولا من نيات التعليم فيها ، وأحجم المسلمون عن المدارس التي فتحت في بلادهم لأنها كانت في أيدي المبشرين وأعوان التبشير ، ولكنهم لم يحجموا عن إرسال أبنائهم إلى أوربة نفسها حيث تنفصل المدارس عن الهيئات الدينية . فجمعت حكومة مصر في عهد محمد علي الكبير مئات من نخبة الطلبة لارسالهم إلى العواصم الأوربية ، وتعليمهم الطب والهندسة والآداب والفنون العسكرية على أساتذتها ، أو لتزويدهم في مصر بما يستطاع تدريسه بها من تلك العلوم على أساتذة من الأوربيين .

ولم ينقض جيل أو جيلان بعد احتكاك أوربة بالشرق حتى اتفقت كلمة المسلمين على نظرة جديدة إلى الدين . وأجمعوا في أنحاء الأرض على أن البدع والخرافات التي شقي بها أسلافهم وشقوا بها في زمانهم ليست من الدين الاسلامي في شيء . ولكنهم سلكوا في علاج الداء مسلكين مفترقين على حسب نصيبهم من العلوم العصرية : فجنحت الأمم التي أخذت بنصيبها منها إلى التوفيق بين الدين والعلم الحديث ، وجنحت الأمم الأخرى إلى نبذ جميع المستحدثات والرجوع بالدين إلى بساطته الأولى كما فهموها ، ونشأت هنا وهناك حركات دينية شتى بعضها على هدى وبعضها على ضلال ، ولكنها كلها كانت من قبيل الحركات الطبيعية التي تتصل بطبائع الأمم وبواعث البيئة في حاضرها وماضيها ، ولم تكن محض اختراع منقطع عن الدنيا محصور في النزعات الأخروية التي يفرغ لها من خرجوا بنسكهم وعبادتهم من معترك الحياة .

ولهذا أخذت هذه الحركات من طبائع الأمم التي ظهرت فيها سواء منها ما

اهتدى أو ضل عن السواء .

فظهر في الهند « غلام أحمد القادياني » فزعم أنه هو عيسى بن مريم وأنه هو المهدي وهو الامام المنتظر في مذهب الشيعيين ، ليوفق بين الاسلام والمسيحية وبين الشيعيين والسنيين ، وادعى فيما ادعى أنه تلبس بروح مريم العذراء ثم تلبس بروح المسيح على النحو الذي يمثل به البراهمة صورة برهما ، وهو يجمع بين الذكورة والأنوثة في جسد واحد . وصدق نفسه وصدقه أناس من مريديه حين خيل إليه انه روح الله حلت في جثمان إنسان ، لانقاذ المسلمين والمسيحيين والبراهمة بدينه الجديد .

ومن اليسير جداً أن يلمس المرء في هذه الحركة بقية من بقايا البيئة الهندية التي نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وتجدد الروح في جثمان بعد جثمان . تارة جثمان ذكر وتارة جثمان أنثى ، ومرة رسم حيوان ومرة رسم إنسان .

وظهر في إيران ميرزا علي محمد الشيرازي ، وزعم أنه الامام المنتظر ثم انتحل عقيدة الاسماعيلية وبث فيها عقيدة وحدة الوجود ، ثم وثب من ذلك إلى القول ببطلان الشريعة الظاهرة والأخذ بالحقيقة الباطنة التي تبيح أصحاب الحلول ـ حلول الاله في الانسان ـ أن يتصرفوا في الأحكام والقواعد الدينية تصرف الوحي الجديد ، لأنهم يستوحون مشيئة الله فيما يقولون ويعملون . ثم جهر بالغاء بعض الشعائر المقدسة التي اتفق عليها المسلمون بنصوص القرآن .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الحركة نزعة البيئة التي نشأت فيها طلائع الباطنية والاسماعيلية ، بل نزعة البيئة التي نشأ فيها الايمان بحلول أورمزد في جسد « مترا » رسوله الأمين في حربه الأبدية لاله الشر أهرمان .

وظهرت في الجزيرة العربية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تنكر الترف في الكساء والبناء ، وتبطل معاني الرموز والاشارات والتوسل بشيء من الأشياء يقع عليه الحس ، من جماد أو ذي حياة .

ومن اليسير جداً أن تلمس فطرة الصحراء في هذه الصرامة الخلقية وهذا الفصل الحاسم بين عالم الحس وعالم الغيب ، خلافاً لتلك الأقاليم الهندية والفارسية التي امتزج فيها الحس بالتخيل واتصل فيها عالم الأرض وعالم السماء .

وظهرت في السودان دعوة المهدية لتحريم الترف والتبلغ بالطعام اليسير ، والاكتفاء بالمرقعات التي يلبسها الدراويش ، وتحريك الشعب لجهاد « الترك » وإخراجهم من البلاد ، وهم عند أصحاب هذه الدعوة كل جنس غير الجنس العربي ، ولا سيما الأجناس البيضاء .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الدعوة ثورة السوداني على مستغليه بالوسيلة التي في وسعه أن يثير بها اخوانه للجهاد ، ومحاولته أن يعالج الفساد بالعلاج الذي يجدي في معيشة السودان البدائية التي كانت يومذاك خلواً من عقد الحياة العصرية ومشكلات المجتمع الحديث .

وظهرت في مصر دعوة الاصلاح التي وجدت إمامها الأكبر في الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فكانت تعليماً جديداً في مدرسة قديمة ، أو كانت تفسيراً للقوانين الالهية لا يخرج بها عن نصوصها ولكنه يحفظها في تلك النصوص ، ويقتبس منها المعنى الذي يوافق معارف العصر الحديث .

ومن اليسير جداً أن نلمس في هذه الدعوة روح مصر التي عرفت نظام الحكم منذ ألوف السنين ، وتعودت أن تدين بنصوص الأمر والنهي من ملك بعد ملك وأسرة بعد أسرة ، فليس فيما تعمله أو تدين به إلا ما هو نص محفوظ أو مستمد من تفسير النص المحفوظ ، بالمعنى الذي لا يخرج عليه . . . أو هي روح مصر التي عرفتها منذ قام فيها بالنبوءة فرعونها أخناتون . . . وهي الأمة الوحيدة التي تلقت نبوتها من عرش وصولجان .

وليست الحركات الجامحة بين هذه الحركات هي الأثر الباقي أو الأثر الشامل الذي أحاط بالعالم الاسلامي في حركة الاضطراب التي جاشت بين أرجائه ، من جراء الصدام بينه وبين الحضارة الأوربية ، ولكنها هي العجاجات التي دلت على قوة الرجة واختلاف مهاب الرياح . أما الأثر الباقي أو الأثر الشامل فهو خلوص الأذهان من أوشاب الخرافات والأباطيل التي كانت تعوقها عن فهم الحقائق وإدراك العلل والأسباب والاستواء على نهج التفكير الصحيح ، والايمان بالدين ايماناً لا يمنع التقدم ولا يعرقل جهود المصلحين ، وتمكين المسلم من أن يرضي عقله ويرضي ضميره ، ويزيل الفوارق ما استطاع بين رضى العقل ورضى الضمير .

وقد صمد الاسلام للرجة الأولى وانتظمت المصالحة بينه وبين الحضارة العلمية ، فلم تعد المشكلة اليوم مشكلة بينه وبين العلم الحديث أو التفكير المستقيم ، وإنما المشكلة اليوم أن يؤدي رسالته ورسالة الأديان عامة في مكافحة اللوثة المادية التي تلغي مطامح الروح ، وتود لو جعلت الانسان حيواناً بغير دين غير دين المعدات والاجسام .

الأخلاق والعادات

من العسير أن يقال إن الأخلاق الأوربية انتقلت إلى الشرق بمحاسنها أو مساوئها بعد احتكاك الشرقيين بالحضارة الغربية . لأن العوامل التي تتولد منها الأخلاق - بين وراثية وإقليمية واجتماعية - لا تنقل من أمة إلى أمة في فترة قصيرة كالفترة التي مرت بالشرق الحديث بالقياس إلى تاريخه الطويل .

لكن التشبه بالأمم الغالبة في عاداتها ومظاهر معيشتها هو نفسه عادة من العادات الأصيلة في طبائع الناس . وقد تعودها الشرقيون كما تعودتها من قبلهم سائر الأمم ، فتشبهوا بالأوربيين في هذه المظاهر منذ شعروا بالافتقار إلى مصنوعاتهم واستكانوا إلى الضعف أمام قوتهم . فلبسوا ملابسهم وأكلوا مآكلهم وسلكوا مسالكهم في أوقات فراغهم ولهوهم ، وكثر ذلك في المدن الكبرى والموانىء المطروقة لضرورة الاتصال بين أهلها وبين الأوربيين في المعاملات والمرافق التجارية ، ثم تسرب قليلا قليلا إلى داخل البلاد جرياً على سنة أهل الريف في محاكاة أهل الحضر والتمثل بهم في سمت الوجاهة وشارات الترف والحضارة . فتجاوزت المحاكاة حدود الضرورة ومقتضيات المعاملة .

وكان من تلك العادات ما هو خير وما هو شر . فمن الخير الاقبال على الألعاب الرياضية والنزهة الخلوية ، ومن الشر الاقبال على المراقصة والمخاصرة بين الجنسين ، مع وجود الرقصات الوطنية البريئة التي يتلاقى فيها الجنسان على نحو لا يخالف آداب المروءة والفروسية ، ولا يصعب تهذيبه وتحسينه حتى

يصبح رياضة من الرياضات التي تحيي النفس والجسد ولا تخل بالأدب والحياء .

وليس من الحق أن الحضارة الأوربية خلقت الفساد في الشرق خلقاً من حيث لم يكن له وجود قبل تمرس الشرقيين بأسباب تلك الحضارة . فان الشرق قد مني في أيام جموده واضمحلاله بضروب شتى من الفساد ، كانت تنخر في عزائمه وتضنيه ، ولكن الحق أن الحضارة الأوربية زودت الفساد بمسحة من الطرافة تستهوي النظر وتنفي عنه الشين الذميم الذي كان يصد عنه أصحاب المروءات ، فاستباحه من لم يكن يستبيحه قبل ذاك .

ولم تسلم أصول الأخلاق من صدمة عنيفة أو مساس رفيق من جراء الالتقاء بين الشرق القديم والحضارة العصرية ، فان أصول الأخلاق تقوم على العرف أو سلطان الجماعة على الأفراد . وقد صدمت هذه الأصول في الصميم عن قصد وعن غير قصد من الأوربيين أو الشرقيين على السواء . وكانت صدمتها من جهتين مختلفتين ، وقد يبدو للنظرة الأولى أنهما متناقضتان .

فالمظاهر الأوربية قد خامرت قلوب الشرقيين بالشك القوي في حقائق العرف الاجتماعي الذي درجوا عليه ، فرجعوا إلى أنفسهم يتساءلون عن قواعد ذلك العرف ومبلغها من الحقيقة والسداد ، واعتراهم هذا الشك في عرفهم القديم قبل أن يخلفوه بعرف جديد يناسبهم ويصلح لهم ويتأتى لهم أن يتواضعوا عليه .

وهذه احدى الصدمتين .

أما الصدمة الأخرى فكانت من قبل الحرية الفردية التي أباحت للفرد فجأة أن يستقل بأهوائه ونزواته وآرائه ، وإن خرج بها عن آداب الجماعة المتفق عليها . فأصبحت الحرية مرادفة لطلب التغيير والتبديل ، أو مرادفة للجرأة على النقد والمعابة . واقترنت قلة الحياء بقلة المبالاة ، كما اقترنت الشجاعة الأدبية أحياناً بالاقدام على المعائب والشهوات .

وإذا كان في هذا التحول مدعاة للتشاؤم والتطير من المستقبل فهو لا يخلو في بعض دلالاته من دواعي التفاؤل والرجاء . لأن عصر الجمود في البلاد الشرقية قد خلف وراءه كثيراً من الانقاض المعطلة والأركان المتداعية . ولا بد من هدم قبل كل بناء ، ولا بد من غبار وسقوط حول كل مهدوم ، ولا بد من تعثر قبل

كل استقامة على السواء . فاذا تكشف الغبار واتضحت القواعد الباقية والقواعد التي يرتفع البناء الجديد على أساسها فقد يهون التشاؤم ويبطل التطير ، وتتراءى للبصائر والأبصار معالم الثقة والاطمئنان .

والحكم للغد فيما يقر عليه القرار .

فليس على الغيب بعزيز أن تنبعث من جانب الشرق رسالة روحية تتجدد بها أخلاق الشرقيين وأخلاق الغربيين .

فكلها في حاجة إلى التجدد في هذا الزمان .

الأدب والفن

تصدى للترجمة إلى اللغة العربية قديماً أناس من غير أهلها.

واشتغل أهلها بالترجمة أخيراً وهم يجهلون لغتهم ولا يحفظون قواعدها أو يحسنون أساليبها .

فوقر في الأذهان أن أسلوب الترجمة علم على الضعف والركاكة ومخالفة الذوق العربي والقواعد اللغوية . لأنه لم يخل في الزمن القديم ولا الزمن الحديث من الدخيل والمبتذل واللحن والتواء العبارة وسقم التركيب .

ولكن النهضة في الشرق العربي صحبت بإحياء الكتب المهجورة وذخائر الشعر والنثر التي تفيض بالبلاغة العربية من معدنها ، فتجددت الأساليب وصقلت العبارات وسلمت الأذواق ، واقترنت معرفة العربية بمعرفة اللغات الأوربية ، فخلصت الترجمة من وصمة الضعف والركاكة وظهرت في اللسان العربي كتب علمية وأدبية تضارع أصولها في صحة تعبيرها وفصاحة ألفاظها ودقة معانيها .

وعادت الترجمة في هذه الكرة بنفع جزيل على اللغة العربية ، لأنها عودت أقلام الكتاب « قصد العبارة » وأن يعني الكاتب ما يقول ويتابع المعنى باللفظ الذي يؤديه ولا يرسل الكلام إرسالا بغير قصد مفهوم .

وكان الكاتب لا يحسب من البلغاء إلا إذا توخى السجع ، وحشا كلامه بالقوالب المحفوظة من أقوال الأقدمين ، وكان على هذا سجعاً سقيماً واقتباساً

يساق في غير موضعه ويند عن السياق الذي وضع فيه ، فبرئت الكتابة العربية من هذه الآفة وتخلصت شيئاً فشيئاً من التقليد ، وثابت إلى الطبع الأصيل حسبما يستوحيه الكاتب من معارفه ومشاهداته .

وكانت الصحافة مما نقله الشرق العربي عن الغرب فساعدت على سهولة الكتابة وشيوع الكلمات الفصيحة وتعدد أغراض القول ، وكانت العلوم الحديثة والكتب المترجمة من الموارد الفكرية التي وسعت مسارح التأليف والتصنيف وأنشأت طوائف شتى من الأدباء في مذاهب الوصف ودراسة الأطوار النفسية وقصص الواقع والتاريخ .

« والقصد » هو الفائدة التي تتلخص فيها النهضة الشعرية كما كان هو الفائدة التي تتلخص فيها نهضة النثر بأنواعه ، بعد احتكاك الشرق العربي بالحضارة الأوربية .

فكان الشاعر يقول ما تعود الناس أن يقال لهم في كل مناسبة من المناسبات لا ما يريد هو أن يقول ، وكان على هذا قلما يحسن المحاكاة أو يتجاوز محاكاة الببغاء لما يقع في سمعها من الجمل الجوفاء .

فنشأ الشعر المقصود ، وبرزت ملامح « الفرد » المستقل في دواوين الشعراء ، وقلت القوالب المطروقة بمقدار ما كثرت المعاني المطبوعة والأغراض المبتكرة ، وضاقت الأوزان القديمة بهذه الأغراض فنجمت الدعوة إلى القافية المرسلة والأوزان الحرة ، وتوسع الشعراء في أوزان الموشحات القديمة فأضافوا إليها كثيراً من المجزوءات والأوضاع الحديثة .

ومن المقابلة بين ديوان قديم وديوان جديد يتبين التغيير العصري الذي تجاوز الصيغ والألفاظ إلى الأغراض والموضوعات .

فلم تكن للديوان القديم سمة يتميز بها بين الدواوين غير نسبته إلى ناظمه بالاسم أو باللقب أو بالكنية ، كديوان جرير أو ديوان البحتري أو ديوان أبي تمام ، ولم يكن للقصائد اغراض غير الأبواب المعهودة في المدح والفخر والوصف والغزل والحكمة والرثاء والهجاء ، ولم يكن للقصيدة عنوان يميزها بين قصائد الديوان الأخرى .

فبرزت « الملامح » المعنوية في الدواوين الحديثة ، وأصبح للديوان اسم يشير

إلى فحواه ، وللقصيدة اسم ينم على موضوعها ، وللنظم أغراض في الرواية والمشاهدات النفسية أو الاجتماعية والرموز الفلسفية أو الفنية ، واعتمد الشعراء على القراء وما يحسونه ويتوقون إلى النظم فيه ، وكان معتمدهم قبل ذلك على الممدوحين وأصحاب الهبات .

وتفاوتت الأقطار العربية في مدى التجديد على حسب تفاوتها في أسباب المحافظة على القديم . وأقوى هذه الأسباب هو الاقتراب من المناسك أو مواطن البداوة أو جامعات العلم التاريخية ، فهي تمنع التجديد أن ينطلق بغير كابح يشتد أو يلين .

***

وراجت الفنون الجميلة في الشرق العربي على قدر نصيب الفن من الطبيعة الاجتماعية ، فسبق التمثيل ولحق به الغناء ثم التصوير ، وكان أروج الفنون ما يجمع بين الرؤ ية والسماع والفكاهة في وقت واحد ، كالعرض (الريفيو أو الاسكتش) والحوار والديالوج . والألقية (المونولوج) لأنها تجمع في المحافل بين التمثيل والموسيقى والرقص في بعض الأحوال ، ولهذا لا تزال صبغة التسلية أوضح وأروع من صبغة الفن المحض الذي يراد لمعناه الرفيع .

***

ومن المفارقات الصادقة أن الاقتباس من أوربة عاق فن التمثيل عن بلوغ شوطه في التقدم والأصالة ، لأن أصحاب المسارح استطاعوا تسلية الجماهير بنقل المناظر التمثيلية التي تقوم على المفاجآت والألاعيب المسرحية ، ولا ترجع إلى طبعة البيئة لتستلهم منها موضوعاتها ونماذجها الشخصية ، ولم تزل آفة التسلية في جميع معارضها أن توكل الفن بالذوق الشائع المبتذل ، وليس هو على الجملة بأفضل الأذواق .

ثم ابتلي التمثيل بمزاحمة الصور المتحركة ، فأصبح من الميسور أن يعمل في التمثيل السينمائي من لا يحسنون الفن ولا يتكلفون جهداً من الجهود الثقافية ، لأن التمثيل السينمائي يجرى في عزلة عن النظارة ، ويستطاع تحضير أدواره قطعة قطعة في أوقات متفرقة كما يستطاع تصحيح أخطائه كلما وقع الممثلون والممثلات في خطأ منها . فبطلت الحاجة إلى الاتقان ودراسة الثقافة الفنية ،

وتيسر الربح الجزيل مع الخبرة الناقصة والجهد اليسير ، فأصيب الفن الصحيح بحبسة في النمو يحاول الخلاص منها ، ولا تسفر هذه المحاولات بعد عن مصيرها .

واستقر الذوق الاجتماعي في الموسيقى والغناء على نبذ الألحان القديمة ، لأنها في جمودها وقعودها وغلبة « التثاؤب » عليها لا تلائم حركة الجيل الحديث ، ولكنه أعرض عن القديم ولم يخلق له نمطاً مطبوعاً يستقل به عن المحاكاة والتلفيق ، فأصبحت الأغاني الفنية الحديثة ترقيعاً لا يعرف له زي مرسوم .

ومن عجيب ما يلاحظ أن التصوير الشرقي على تأخر ظهوره بين الفنون الجميلة كان أسبقها إلى التقدم والاستقلال ، فنبغ في الشرق العربى مصورون من أصحاب الطريقة المدرسية أو الطريقة الاحساسية يضارعون نظراءهم في الأقطار الأوربية أو يحسبون من تلاميذهم المجودين ، ولعل هذا الفن قد نشط في طريق التقدم لأنه يستند إلى ثقافة الأفراد سواء كانوا من المصورين او من طلاب الصور ومشجعيها ، واذواق الافراد في جملتها أسبق من أذواق الجماعات .

***

وحدث ما كان منظوراً أن يحدث من تعديل في طرز البناء وزخارف فن العمارة ، تبعاً لتغير العادات وعوارض العمران . فبعد سفور المرأة لم تعد ثمة حاجة إلى المغالاة في إقصاء زوايا الحريم عن الطرقات العامة والأفنية المكشوفة ، وبعد المراوح الكهربائية وأجهزة التكييف الهوائي لم تعد ثمة حاجة إلى الخوخات والأقبية والمشربيات ولا إلى تعلية السقوف ومداخل التظليل ، وبعد غلاء ثمن الأرض وتقسيم الطرق والميادين تعذر اقتناء الفدادين الواسعة لاقامة القصور في قلب المدينة ، وكان سراة القوم يختارون السكن في قلب المدينة . ليستأثروا بوسط العمار ، فلما انتظمت المواصلات الخاصة والعامة عظم الاقبال على الضواحي النائية وشاعت نماذج « الفيلات » التي اشتق الغربيون اسمها من اسم الريف والخلاء .

ولا يخفى أننا نلم هنا بالخطوط المجملة والخطوط العريضة الناتئة ، ولا نستقصي جميع التفصيلات التي تتشعب هنا وهناك ويقع فيها الاختلاف بين أمة وأمة بل بين إقليم وإقليم في الأمة الواحدة ، حيثما اختلفت دواعي الحضارة والعمران .

الصحافة

نشر الدعوة السياسية عمل من الأعمال التي حذقتها الأمة العربية في إبان دولتها الأولى وهي دولة بني أمية . فبلغ الدعاة العباسيون بالدعوة مبلغ الفن المحكم الذي يحاط بجلائله ودقائقه ومبادئه ومراميه ، ووضعوا فيه القواعد لاختيار أشخاص الدعاة وعلاقة بعضهم ببعض في درجات الرئاسة أو درجات الزمالة ، ورتبوا فيه مراكز الدعاية وموضوعاتها وما يذاع منها وما يضن به على غير الخاصة والصفوة المختارة .

وجاء الفاطميون فتمموا هذا الفن من جميع نواحيه ، وقسموا الدعوة إلى دعوة ثقافية ودعوة دينية أو سياسية ، وتذرعوا بالفلسفة لاقناع بعض العقول ، وبالتصوف لاقناع بعض العقول الأخرى ، وجعلوا لهم حلقات حول الدعوة لا تطلع على سر من أسرارها ولا تفضي إلى غرض من أغراضها ، ولكنها تشايعهم بمودتها فتكون لهم على خصومهم ، ساعة الفتنة التي يدبرون مواعدها ومقدماتها .

ولا بد من التفرقة بين هذا الفن الذي سبقت به الأمة العربية سائر الأمم وبين « المؤامرات » التي كانت تدبر في الخفاء لاقامة دولة وإسقاط أخرى ، فاسقاط الدول بالمؤامرات الخفية تدبير قديم عرفه الطامحون إلى الملك منذ فجر التاريخ الانساني ، وقامت به الدول في كل أرض وبين كل قبيل ، ولكنها كانت « مؤامرات » للاستطلاع والتأليب وتحين الفرص وتجنيد القوى العسكرية والمالية للعمل المفاجىء في الوقت الملائم الذي يرجى فيه النجاح ، ولم تكن

دعوة إقناع أو حملة توجيه منظم للفكر والشعور ، فان تاريخ الدول لم يعرف دولة قامت على مثل هذه الدعوة قبل الدولة العباسية والدولة الفاطمية ، ولم تكن في ذلك خارقة ولا داعية للعجب . . . لأن العباسيين والفاطميين كانوا يعتمدون في مطالبتهم بالخلافة على الحجة الدينية والفتاوى الشرعية . فلا بد لهم من كسب الشعور وكسب العقول ، ومن التوسل إلى ذلك بالدعوة المقنعة ، مع الاستعداد للأمر بعدة الأسلحة والجيوش .

فالدعوة السياسية ـ أو فن النشر ـ قد كانت معروفة قبل ظهور هذا الفن في أحدث صوره العصرية وأروجها وأقواها ، وهي الصحافة الدورية .

ولكن الصحافة مع هذا « توليد » عصري لم يكن من المستطاع أن يوجد قبل أوانه الذي وجد فيه ، وإن كثرت الحاجة قديماً إلى الدعوة والدعاة .

فليس من المستطاع أن توجد الصحافة قبل عصر المطبعة السريعة التي تطبع الالوف من النسخ في كل يوم ، وقبل عصر الأنباء البرقية التي تجعل الاهتمام بقراءة الصحيفة منتشراً في نطاق واسع بين جمهور كبير يتشوق إلى مطالعة تلك الأنباء ، وقبل وسائل المواصلات التي تتكفل بتداولها في أوانها ، وقبل اختراع الصور الشمسية التي تثبت الوقائع وتمثلها وتعرض للقراء فنونا من الملامح والأشكال للتسلية أو للتوضيح .

وإذا توافرت هذه الأدوات جميعها فلا بد معها من الأداة الكبرى التي هي أكبر وألزم لرواج الصحافة من كل أداة ، ونريد بها أداة الجمهور الذي يعرف القراءة ويدخل في حساب الصحفيين والساسة والكتاب .

فقبل وجود هذا الجمهور لا توجد الصحافة بحال ولا تدوم إذا وجدت بمحض الاتفاق . وقد أصبحت الصحافة مخترعا لازما يوم أصبح الجمهور قواما للدولة أو أصبح كما يسمونه في العصر الحديث « رأيا عاما » وأصبح « الرأي العام » مصدر السلطات والقوانين .

وانتقلت الصحافة من أوربة إلى الشرق العربي بعد أن تمهدت لها جمع هذه المقدمات .

انتقلت إليه بخيرها وشرها ، فاستفاد من خيرها كثيراً وابتلي من شرها بكثير ، ولا يزال يبتلى بها ويستفيد .

فمن خيرها ولا شك أنها كانت وسيلة فعالة سريعة الفعل في نشر المعرفة العامة ، وبث الدعوات القومية واستنهاض العزائم لمكافحة السيطرة الأجنبية ، وترقية اللغة ودوام التقريب بين لغة العلم والأدب ولغة البيت والسوق .

ومن شرها ولا ريب أنها شغلت الناس بسفساف الأمور ، وطلبت الرواج والانتشار باثارة الفضول وتزويد القراء بما يرضيهم دون ما ينفعهم من الآراء والأنباء ، وأنها سلمت زمام الجماهير لمن يستطيع أن يشتري أقلامها أو يسخرها ، وأن الاقبال عليها يصرف القراء عما هو أفضل منها وأولى بالانصراف إليه من أنواع المطالعة والتحصيل المفيد .

ومهما يكن من مآخذ الصحافة عندنا وعند غيرنا فهي مآخذ لا تخلقها الصحافة ولا ترجع اللائمة فيها على الصحافة وحدها . لأنها بضاعة لا تنفق ما لم تطلب ويكثر الاقبال عليها ، وإن كانت الصحافة تزيد الاقبال بالترغيب والترديد .

وبنية الأمة التي تروج فيها الصحافة هي المسؤولة عن شرورها ، وهي المطالبة بخلق الترياق الذي يدرأ سمومها ويحتفظ بغذائها الصالح السليم .

والذي تبين من تجارب الأمم الغربية أنها أخذت تقسم الصحف عندها إلى قسمين تتسع الفجوة بينهما عاما بعد عام . وهما قسم التسلية وقسم المراجعة والدراسة . ومن المشاهد المتواتر في أوربة وأمريكا أن صحف التسلية تطبع الملايين في اليوم الواحد ولكنها لا تؤخذ مأخذ الجد والتوقير ولا يحفل الناس ماذا تقول وماذا تبدي من الآراء ، وأن صحف المراجعة والدراسة محدودة القراء أو محدودة النطاق في الأقاليم ، ولكنها مرجع معول عليه في تكوين الأفكار وتلقي المعلومات .

ومعنى ذلك أن الخبر الذي يتلقاه ثلاثة ملايين من القراء ، وتتوخى الصحيفة وقته المناسب وصيغته الشائقة وهدفه المقصود ، لن يخلو من أثر يصيب المصالح العامة ويشيع القلق في النفوس ، ويصبغ السياسة الحسنة بما يشوهها كما يصبغ السياسة الشائهة بما يزخرفها ويحببها إلى الأنظار ، ولا مبالاة في هذه الحالة بمكانة الصحيفة وكتابها في قلوب القراء ، لأن الأثر « الآلي » يسلك سبيله إلى ملايين

القراء بمعزل عن الأثر الأدبي الذي يستقبلونه بالحذر أو الاعراض إذا صيغ لهم في قالب النصيحة والتوجيه .

ولا نعلم اليوم كيف يحل الغرب والشرق مشكلة الصحافة في الجيل القادم ، ولكننا نستطيع أن نعلم ماذا يكون إذا سارت الأمور على استقامة وصلاح ، وماذا يكون إذا سارت على نقيض الاستقامة والصلاح .

فاذا بقي التأثير الآلي مقرونا بالرواج والقوة فهو خطر وبيل العواقب، قد يربى على جميع ما ابتلاه الناس من أخطار الدعاية في أطوار التاريخ .

وإذا خيف من الشر أن يبلغ مداه فقد تعتصم منه الانسانية بالترياق الوحيد الذي يجدي عليها في هذه الحالة ، وهو إسقاط « الدعاية الآلية » من كل حساب ، والفصل بين صحافة التسلية وصحافة الرأي بفاصل منيع لا يأذن لجانب الخطر أن يطغى على جانب الأمان . وقد يكون في ذلك باب للخير الشامل يوفض منه بنو الانسان إلى عالم جديد . لأنهم يعرضون عن « الآلية » بعد استنفادها والانتهاء بها إلى غايتها القصوى ، ولا يقيمون وزنا لغير رسالة الروح إلى الروح وتوجيه الفكر للفكر ، وعقيدة الانسان في إمامة الانسان .

إجمال

غني عن القول أن البلاد الشرقية تلقت دروساً كثيرة في العلوم والصناعات التي تسمى أحياناً بعلوم أوربة وصناعاتها ، إما في مدارس أوربة نفسها وإما في المدارس الشرقية التي أنشئت على غرارها .

وهذه حقيقة واقعة غنية عن الافاضة في شرحها لأنها مفهومة بطبيعتها ، ولأن المهم عندنا في تسجيل آثار الحضارة الأوربية في الشرق هو الآثار النفسية التي كان لها مساس بروح الشرق وضمائر أبنائه ، ولسنا ممن يرون أن العلوم والصناعات المنقولة كان لها في ذاتها مثل ذلك الأثر . إلا من طريق الخطأ في فهمها واستخلاص مراميها ، لأنها تدخل في حيز المنقولات العقلية والمنقولات الآلية التي لا تستتبع بعدها انقلاباً خطيراً في عالم الروح وسرائر الوجدان .

وعلى سبيل التفسير لهذا الرأي نرجع إلى القول بكروية الأرض ودورانها . فهذا القول لم يكن بالجديد على الثقافة الشرقية ، ولكن الأدلة الحسية لم تكن مثبتة له في تصور الدهماء وأشباه الدهماء من أصحاب المعلومات القاصرة ، فاستطاع الجهلاء أن ينكروه وأن يلصقوا إنكاره بما فهموه من ظواهر النصوص الدينية . فلما جاء القول بكروية الأرض ودورانها عن طريق الغرب ، وجاءت الكشوف الجغرافية بما يثبت هذا القول القديم أخطأ الجهلاء فهم الدين ، وفهم العلم الحديث ، زمناً سرى فيه الشك إلى ضمائر المتعلمين ، ولم يسع هؤلاء المتعلمين إنكار كروية الأرض أو إنكار دورانها ، وظل هذا الشك سارياً إلى أن

قرت الحقيقة العلمية في نصابها وعجز الجهلاء عن مقاومتها بالنصوص الدينية ، فزال العارض الذي أصاب الضمائر من خطأ الفهم وخطأ التأويل .

وهذا الذي عنيناه بقولنا إن العلوم والصناعات لم يكن لها مساس جوهري بالحياة الروحية في البلاد الشرقية ، لأنها قد استطاعت أن تستقر في حيز المعارف العقلية أو المعارف الآلية دون أن تقلق بواطن الضمير .

والأولى عندنا أن يقال إن الحياة الروحية في البلاد الشرقية قد تأثرت من طريق ظواهر المعيشة ومن طريق المذاهب الفكرية ، ولم تتأثر مباشرة من طريق العلم أو الصناعة .

فظواهر المعيشة التي حملها الأوربيون معهم إلى بلاد الشرق العربي قد نشرت معها جواً من الاباحة الفعلية والاستخفاف بالقيود الأخلاقية الموروثة . . فقل الحرج من سماع الآراء الطارئة وتوجيه النقد إلى الشعائر المرعية ، وكان أثر هذا كله في الحياة الروحية أعمق جداً من كل أثر سرى إلى الضمائر من معارف العلم والصناعة .

أما المذاهب الفكرية التي لامست عالم الروح في الشرق ، فهي من قبيل مذهب النشوء والارتقاء ومذاهب نيتشه ومذهب التفسير المادي للتاريخ ، وفلسفة المقارنة بين تواريخ الأديان ، وهي ـ على أقوى ما نلحظه من آثارها ـ لم تتجاوز أثر الفلسفة القديمة ولا ومذهب الشيع المعتزلة التي شغلت عقول المشارقة في أواسط الدولة العباسية وما بعدها ، وقد كانت آثارها هذه فردية لا تتعدى المئات من المفتونين بها إلى ضمائر الجماعة بأسرها ، وكان جملة المفتونين بها ممن يتلقفونها ويتخطفون عناوينها ولا يحيطون بأسرارها ومضامينها ، وكانوا في الزمن القديم كما كانوا في الزمن الحديث على غرار الآخذين بمذهب النشوء والارتقاء ممن خيل إليهم أن هذا المذهب قد حل مشكلة الوجود . . . وهو في جوهره على التحقيق لم يزد على أن جعل « خلق الانسان والحيوان » مسألة ملايين من السنين بدلا من مسألة ألوف ومئات ؛ ولم يلمس قط سر الخلق الأبدي الذي لا يزال بابا مفتوحاً للتفكير والاعتقاد ، بعد كل ما قيل في مذهب النشوء والارتقاء .

فالمذاهب الفكرية التي أشرنا اليها لمست روح الشرق في نطاق الأفراد

المعدودين ، ولمسته في هؤلاء الأفراد لمساً عاجلا قريباً لا يستأصل جذور اليقين ، إلا ما كان من هذه الجذور قريب الاستئصال .

والمهم فيما بقي بعد هذا من آثار الحضارة الأوربية على بلادنا وشعوبنا هو الذي عرضنا له في الفصول السابقة ، ويتلخص في انتباه الشرقيين إلى فهم الدين وفهم الوطنية وفهم العلاقة بين الفرد وبين الله والعلاقة بين الفرد والدولة ، فهماً يتحدى أساطير الجمود ومخلفات الجهالة في عصور الضعف والاضمحلال .

وننتهي بالبحث كله إلى عبرتين خالدتين : أولاهما أن الأمم الشرقية والغربية جميعها دائنة ومدينة في تراث الحضارة الانسانية ، وأنه ما من أمة لها تاريخ مجيد إلا وقد أعطت كما أخذت من ذلك التراث .

وثانية العبرتين أن الأمم تستفيد في باب الحضارة على الرغم منها وعلى الرغم ممن يفيدها . فالمستعمرون الغربيون لم يقصدوا تعليم الشرقيين حرية الأوطان ولكنهم تعلموها وهم ناقمون ، والشرقيون قد شحذوا السلاح الذي ضربتهم به يد الاستعمار ؛ وأصيبوا به قبل أن يعرفوا كيف يصيب .

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .
« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »
« وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

عباس محمود

العقاد

الثقافة العربية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

حقيقة مفاجئة

أقدم الثقافات الثلاث

وهذه الثقافات الثلاث هي : العربية واليونانية والعبرانية .

أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية ، قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور الحديثة .

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج إلى عناء طويل في اثباته ، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الأوربيين والشرقيين ، بل عند بعض العرب المحدثين ، موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض .

وقد كان ينبغي أن يكون الجهل بهذه الحقيقة هو المفاجأة المستغربة ، لأن الايمان بهذه الحقيقة التاريخية لا يحتاج الى أكثر من الاطلاع على الأبجدية اليونانية وعلى السفرين الأولين من التوراة التي في أيدي الناس اليوم ، وهما : سفر التكوين وسفر الخروج ، ولا حاجة الى الاسترسال بعدهما في قراءة بقية الأسفار .

فالأبجدية اليونانية عربية بحروفها وبمعاني تلك الحروف وأشكالها ، منسوبة عندهم الى قدموس الفينيقي وهو في كتاب مؤرخهم الأكبر « هيرودوت » أول من علمهم الصناعات .

وسفر التكوين وسفر الخروج صريحان في تعليم الصالحين من العرب لكل من

إبراهيم وموسى عليهما السلام . فابراهيم تعلم من ملكي صادق ، وموسى تعلم من يثرون إمام مدين ، وشاعت في السفرين رسالة « الآباء » قبل أن يعرفوا باسم الأنبياء ، لأن العبرانيين عرفوا كلمة « النبي » بعد وصولهم الى أرض كنعان واتصالهم بأئمة العرب بين جنوب فلسطين وشمال الحجاز .

فيحق العجب ممن يجهل هذه الحقيقة التاريخية المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التي سبقت الكتابة والكتاب .

الا أن الإشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقة المسجلة . ولا سيما الإشاعة التي تحتمي بالصولة الحاضرة وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة . وقد أشاع الأوربيون في عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم الى العلم والحكمة ، واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قدم التوراة بالنسبة إلى الإنجيل والقرآن ، وقدم الإسرائيليين بالنسبة الى المسيحيين والمسلمين ، فتوهموا أن العبرانيين سبقوا العرب إلى الدين والثقافة الدينية ، وكتابهم نفسه صريح في حداثة إسرائيل وحداثة ابراهيم من قبله بالنسبة الى أبناء البلاد العربية .

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التي تظهر هذا الظهور .

ليس أعجب من هذا الجهل إلا أن تكون الأوهام المشاعة بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم والثقافة .

فلو لم يكن في الصفحات التالية إلا أنها تكشف هذه الأعجوبة في ناحية من نواحيها لكان ذلك حسبها من سبب يوجب علينا كتابة هذه الرسالة . فهي تفصيل لما في هذه الأسطر القليلة من إجمال ، وأيسر تفصيل كاف في مجال كهذا المجال .

من هم العرب

وجد العرب في ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها وتمضي على سنة التطور عصراً بعد عصر ، الى أن تبلغ الطور الذي عرفناه منذ أيام الدعوة الإسلامية .

وهذه هي القاعدة العامة في تسمية الأمم وفي تطور اللغات ، فليس العرب بدعا فيها بين أمم المشرق والمغرب .

فالهند ـ مثلا ـ كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل ان يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها .

والحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ، ويقصدون به بلاد الأحباش أي السكان المختلطين ، وقبل أن يسميها اليونان باسم « أثيوبية » أي بلاد الوجوه المحترقة وقبل أن يسميها العبرانيون باسم بلاد الكوشيين لأنهم ينسبون أهلها إلى كوش بن حام بن نوح .

وكانت بلاد السكنداف معمورة قبل أن يسميها أهل الجنوب بلاد « النورديك » أي الشماليين .

وكانت انجلترا معمورة بطائفة من السكان بعد طائفة ، يوم أطلق عليها اسم انجلاند أو انجلترا ، أو أرض الأناجلة angles الذين قدموا اليها في القرن الخامس بعد الميلاد ، ومن ملوكها من كان يحلو له أن يسميها بلاد الملائكة Angellykes لأن البابا غريغوري اختاره لها بدلا من اسم بلاد الاناجلة الذي

يشبهه في نطقه Engeliscé . . . فراح بعضهم يرسم صورة « ملائكية » على عملتها الذهبية ، والتبس الأمر على أتباعهم فأوشك أن يخلط عليهم الحقيقة لولا قرب العهد باسم الأناجلة واسم موطنهم المعروف .

***

وكل هذه الأمم كانت لهم لغات يتكلمونها قبل ألفي سنة ولا يتكلمها اليوم أبناؤهم على النحو الذي كان يفهمه آباؤهم ، ولا يشذ عن ذلك أمة من الأمم ولا لغة من اللغات .

***

وقد مضى على العرب أكثر من ألفي سنة وهم معروفون بهذا الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم ويطلقه عليهم غيرهم ، ولا يزال أصل التسمية وتاريخ اطلاقها غير معروفين على التحقيق إلى اليوم .

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث في بعض اللهجات ؟

هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف أو الصحراء في لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟

هل أطلق عليهم نسبة الى يعرب بن قحطان أو نسبة إلى « عربة » من أرض تهامة كما يقول ياقوت ؟

إن مؤرخي العرب يختلفون في ذلك كما يختلف فيه غيرهم . ويقول ياقوت في معجم البلدان بعد أن أشار إلى ذلك : « إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عرباً باسم بلدهم العربات . وقال أبو تراب إسحاق بن الفرح : عربة باحة العرب ، وباحة العرب دار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . . . أما النبطي فكل من لم يكن راعياً أو جندياً عند العرب من ساكني الأرضين فهو نبطي . . » .

وكما قيل إن العرب سموا بهذا الاسم لأنهم نزلوا إلى الغرب من منازل غيرهم ، يقال إنهم سموا شرقيين Saracena عند قوم من اوربة ، وإن الاسم في أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن إلى الشرق من جبل السراة . ولعلهم

سموهم « سراتيين » نسبة إلى الجبل نفسه وتحرف الاسم بلغات الأوربيين إلى سراسين . !

نذكر هذه الخلافات لنقول إن وجود العرب في ديارهم سابق لها متقدم عليها ، وإن الثقافة العربية ينبغي أن تنسب إلى أمتها قبل أن تسمى بهذا الاسم أو بذاك من الأسماء المختلف عليها . فلا اختلاف على نسبة الثقافة إلى الأمة كائنا ما كان الاسم الذي عرفت به عند جيرانها وعند سائر الأمم التي تتحدث عنها . وتختار لها اسمها على حسب مصادره ومناسباته في عرفها .

***

ولا خلاف في علاقة العرب الأقدمين بالجزيرة العربية ، ولا في قدم العمران بهذه الجزيرة .

ولا خلاف كذلك في قدم اللسان العربي فيها ، ولا في أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ، ولم يعرف لهم لسان قبله يخالف له في أصوله وخصائصه التي تميز بها بين اللغات العالمية .

أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرناً مقيمين بالجزيرة العربية أم كانوا مقيمين في موطن آخر ثم هاجروا إليها ؟

هنا تختلف الأقوال بين مواطن ثلاثة ، هي الحبشة وبادية الشام وأعالي العراق .

لكن الحبشة ليست مصدر الحاميين والساميين في جهة واحدة . فالساميون أحرى أن يكونوا وافدين إليها على قلة محدودة ، وليس من الموافق للأوضاع التاريخية ولا للمألوف من الهجرة هناك أو في جهات أخرى أن يكون الساميون المتنقلون من الحبشة أكثر من عشرات أمثالهم في موطنهم الأصيل بالبلاد الحبشية . ولم يحدث في عصور التاريخ المعروف أن كان المهاجرون من الحبشة إلى جنوب الجزيرة يزيدون عدداً على الذين يهاجرون من جنوب الجزيرة إليها .

كذلك لم يحدث في حدود التاريخ المعروف أن ترحل الجماعات الكثيرة من بلاد الهلال الخصيب أو من أعالي العراق إلى الصحراء العربية . فليس هذا مما

حدث في الواقع ولا مما يوافق المعهود في بواعث الهجرة وحركاتها المألوفة .

فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجدب في البلاد الصحراوية فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة في هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم والمرعى الموفور ، ولكنه لم يؤلف ولم يحدث قط أن ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجاً أفواجاً من أرض الماء والمرعى إلى أرض تتخللها الصحارى الواسعة ، ويطرأ عليها الجفاف والجدب في عهود متلاحقة ، تكاد أن تنتظم في مواعيدها وأدوارها .

فمن الثابت أن جنوب الجزيرة كان مأهولا قبل ثلاثة آلاف سنة ، وكانت له عمارته ومبانيه التي لا تنشأ في قرون قليلة ، فهل كان وفود هؤلاء إلى الجنوب بعد سكان آخرين سبقوهم ثم انقرضوا أو انهزموا وخلفهم الوافدون على بلادهم ؟ فمن هم أولئك السكان الأولون ؟ وما لغتهم ؟ وما الداعي إلى افتراض وجودهم ؟ ومن أين جاءهم الوافدون اللاحقون وتغلبوا عليهم بالقوة التي تهزمهم ؟ وما هي لغتهم وعلاقتها بالعربية ؟

كل ما يمكن أن يقال عن ذلك إنه تخمين لا دليل عليه ولا موجب له ، ولا موافقة بينه وبين تجارب الواقع في أماكن الهجرة المطروقة من قديم الزمن ، داخل الجزيرة العربية أو من حولها .

ولا صعوبة في تصور الهجرة من الجنوب إلى الشمال على حسب التجارب الواقعة ، فلا تضطرنا وقائع التاريخ إلى السؤال عن أبناء البلاد الأصلاء في العراق أو بادية الشام أين ذهبوا ومن هم في أصولهم وما هي لغاتهم وأنباؤهم ، فإن التاريخ يدلنا عليهم وعلى بقاياهم ، وآثارهم حيث أقاموا قريبة من مواطنهم سواء كانوا من السومريين أو من الآريين أو من الطورانيين على التخوم الفارسية أو تخوم الصين ، بعضهم لبث في الأرض ، وبعضهم جلا عنها إلى ما وراء حدودها ، وكلهم ترك من مخلفاته ما يتركه المغلوب المقيم أو المغلوب الذي زال عن البلاد .

فالثقافة العربية إذن هي ثقافة الأمة التي نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة في كل دور من أدوارها على سنة التطور في جميع اللغات .

وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثا بين جنوب الجزيرة وشرقها إلى الشمال وغربها إلى الشمال ، وهي : اليمنية والآرامية والكنعانية ، مما يدل على أنها نبتت في الجزيرة من الجنوب إلى مواطن الهجرة التي درجت عليها القبائل منذ فجر التاريخ ، في طريق بحر العرب شرقاً إلى وادي النهرين ، أو طريق البحر الأحمر غرباً إلى فلسطين .

ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر هذه اللهجات وتفرعت منها النبطية التي اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز . ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية أو الحميرية وعن الكاتبين بالحروف النبطية أو حروف المسند . فكان المقيمون والراحلون بين هذه الأرجاء يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم في القطر الواحد ، أو كما يتخاطب أبناء وادي النيل اليوم من الإسكندرية إلى الخرطوم ، مع اختلاف اللهجات والألفاظ في بعض المفردات .

ونحن نعلم أن مؤرخي العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى « إرم » ويسمونهم بالأرمان كما جاء في تاريخ سني الملوك لحمزة الأصفهاني . ويجوز أن يكون الآراميون من سلالة هؤلاء الأرمان هاجروا إلى وادي النهرين في تاريخ مجهول ، ولكن تاريخهم المعلوم يرجع إلى عهد دولتهم التي حكمت بابل ، وقام منها بالأمر حمورابي صاحب التشريع المشهور (سنة ٢٤٦٠ ق م) حيث سادت اللغة الآرامية وادي النهرين وبادية الشام وأرض كنعان وبلاد الأنباط ، وظهرت لهجتها العامة ـ كلاماً وكتابة ـ في كل قطر من هذه الأقطار .

يقول صاحب كتاب « الأبجدية : مفتاح تاريخ الإنسان » : « الآرامية فرع كبير يرجع إلى الهجرة السامية الثالثة ذكرت في مصادر التوراة وفي الكتابة المسمارية . ويطلق اسم آرام الذي ورد في التوراة على سلالة عنصرية كما يطلق على الإقليم الذي تسكنه تلك السلالة ، وجاء في أسماء الأمم بسفر التكوين أن آرام جد الآراميين وقيل عنه إنه ابن سام ، وجاء في موضوع آخر أنه حفيد ناحور أخي ابراهيم ، ويقال عن يعقوب إنه آرامي تائه ، وعن أمه وزوجاته إنهن آراميات . وباستثناء لفظة غامضة في الحفائر الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد ، تعتبر رسائل تل العمارنة المسمارية في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد أقدم إشارة إليهم باسم اخلام Akhlami أو

Akhlamn أي الأحلاف الذين يظن أنهم هم أحلاف آرام المذكورين في وثائق القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وهم يسمون في المصادر الآشورية (أروميو) أو (أراميو) وجمعهم آرامي » .

إلى أن يقول : « إن موطن الآراميين الأول غير معروف » . وهم يوصفون في ألواح تل العمارنة التي تقدم ذكرها بأنهم أفواج مترحلة مغيرة ، ويرجح أنهم قدموا من جهة الشرق الشمالي لبلاد العرب إلى بادية الشام من طريق ، وقدموا من الطريق الآخر إلى العراق . وعند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتهى سلطان الحيثيين والمتنيين Mitanni على تلك الأرض . وظهرت الإمارات الآرامية الصغيرة في الشمال الشرقي والشمال الغربي من وادي النهرين ، ثم طرأت على توزيع السكان في سورية الشمالية بعد استقرار الموجة الآرامية بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد طوارىء واسعة النطاق . . . . . واغتنمت قبائل الآراميين فرصة هذه الطوارىء فأقامت بقوة السلاح ووفرة العدد سلسلة من الممالك الصغيرة في أخصب المواقع من شمال العراق وجنوبه إلى شرق البادية السورية ، وأمكن بفضل تدجين الجمل العربي حوالي نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، تيسير طرق القوافل تيسيراً كبيراً . فأقيمت في جوانب البلاد مراكز للتجارة الغنية ، أشهرها تدمر أو بلد النخيل » .

وبعد الإشارة إلى أدوار الضعف التي انتابت الآراميين بعد ذلك قال :

« إن فقدان الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الآرامي ، بل كان هذا الضعف الذي أصاب الحكومة فاتحة التفوق في الثقافة الآرامية ومسائل الاقتصاد الذي عم آسيا الغربية . . . فاصطبغت سورية كلها وجانب كبير من وادي النهرين بالصبغة الآرامية ، وأصبحت اللغة الآرامية هي اللغة الدولية في ذلك العهد ، وأصبحت على عهد الدولة الأخميدية الفارسية إحدى اللغات الرسمية في الأمبراطورية ، ولساناً عاماً يتكلم به التجار من مصر إلى آسيا الصغرى إلى الهند . وبلغ من قوة اللغة الحيوية أنها شاعت في الاستعمال بعد ألف سنة من ذهاب الدولة الآرامية ، وعاشت اللهجات التي تفرعت عليها قروناً أخرى في بعض القرى النائية[1] » .

---

1 — The Alphabet. A Key to the History of Mankind. by David Diringer.

وتمام هذا الكلام عن غلبة الآرامية أنها كانت تنازع العبرية بين اليهود وهي لغتهم الدينية . ومن ذلك ما جاء في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين « أنهم أخذوا حجارة وعملوا رجمة ودعاها لابان (يجر شهدوتا) . . . وأما يعقوب فدعاها جلعيد ، وقال لابان : هذه الرجمة شاهدة بيني وبينك اليوم » .

ومعنى « يجر شهدوتا » بالآرامية حجر الشهود ، وهي قريبة من لفظها ومعناها باللغة العربية الحديثة ، أو هي اللغة العربية كما كانت تنطق في ذلك الدور من أطوارها .

ثم غلبت الآرامية على العبرية في المعابد والكتب الدينية ، فترجمت إليها كتب التوراة والتلمود ، وكتبت بها بعض الأسفار اصلا من عهد عزرا ودنيال . فلما كان عصر الميلاد كانت الآرامية هي اللغة التي يتكلمها السيد المسيح ويجري بها الخطاب بينه وبين تلاميذه وبينه وبين المستمعين إليه في عظاته ووصاياه .

جاء في الاصحاح الخامس من إنجيل مرقس حكاية عن السيد المسيح : « وأمسك يد الصبية وقال لها : طليثا قومي ، وتفسيره . . . لك أقول قومي » .

وجاء في الاصحاح الرابع عشر : « وقال يسوع : يا أبا ـ الأب ـ كل شيء مستطاع لك » .

وجاء في الاصحاح الخامس عشر منه : « وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم : الوي . الوي . لما سبقتني ، وتفسيره : إلهي . إلهي . لم تركتني ؟ . . . ومعنى سبقتني هنا « جاوزتني وتخليت عني » كما يمكن أن تعني اليوم بالعربية التي نتكلمها .

وعلى ذلك يصح أن نقول : إن الآرامية هي عربية تلك الأيام في مواطنها ، وإنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة ، لا يستغرب أن يحدث فيها مثل هذا الاختلاف في نطق الألفاظ وتركيب بعض العبارات .

قال صاحب كتاب الكنز في قواعد اللغة العربية وهو يتكلم عن الآرامية ويسميها البابلية : « ثم انظر فيما يكون من التشابه الظاهر بين العربية والبابلية ولا سيما في الإعراب وحركاته ، كالتنوين مثلا . . فهو في البابلية ميم وفي

العربية نون ، وهذان الحرفان من أحرف الإبدال ، ونحن نعرف أن من العرب من يجيز إبدال أحدهما بالآخر ، ومنها علامة الجمع : فهي في البابلية الواو والنون كما أنها في العربية الواو والنون أيضاً ، وفي السريانية الياء والنون ، وفي العبرية الياء والميم ، ومنها أن جميع الأفعال في البابلية أقرب إلى صيغها في العربية . فصيغ الأفعال التي وجدوها في هذه اللغة تبلغ اثنتي عشرة صيغة ، وأكثر هذه الصيغ مشهور معروف في العربية والعبرية والسريانية[٢] » . . .

***

وجملة القول إن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى . فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

---

٢ ـ كتاب الكنزل لمؤلفه الدكتور محمد بدر .

أسماء أخرى

بعد تحقيق المقصود باسم العرب في الزمن القديم نستطرد إلى تحقيق أسماء الأمم والبلاد التي عاصرت العرب في تلك الحقبة كما عرفها اليونان وانتقلت منهم إلى الأوربيين والشرقيين بعد شيوع الثقافة اليونانية . فإن تحقيق هذه الأسماء لازم لمعرفة المدى الذي انتهت إليه علاقات اليونان بتلك الأمم ، وتحقيق ما استفادوه منها أو استفادته منهم على اختلاف الروايات والدعاوى في الأزمنة المتأخرة .

فاليونان يتوسعون كثيراً في تسمية البلاد والأمم وإطلاق الاسم على موضعه وعلى المواضع التي تجاوره في بعض الأحوال . وقد يتفق لهم عكس ذلك في تخصيص جزء من الأرض بالاسم الذي يعمها ويشملها مع غيرها ، لرابطة المشابهة والجوار .

ومن ذلك أنهم أطلقوا اسم سورية على الأقليم المشهور بين شواطىء البحر الأبيض الشرقية وبلاد الروم وتخوم العراق ، ثم توسعوا بها حتى شملت « اشورية » وأصبح اسم السريان عندهم علماً على الآراميين في الرقعة الواسعة التي يسكنونها من وادي النهرين إلى سيناء وأطراف الحجاز .

وهم يطلقون اسم فينيقية على شاطىء فلسطين إلى الشمال والجنوب من مدينة صور التي اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باسم الفنيقيين ، ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت اسماً لبلاد النخل في الإقليم كله ، من كلمة فينقس

عندهم بمعنى النخلة φοινιξ وتقابلها عند الرومان كلمة palmyra التي أطلقت على مدينة « تمر » أو « تدمر » في شرق البقاع . . . و « تمر » هي الكلمة السامية التي تقابل كلمة Palm بمعنى النخلة في بعض اللغات الأوربية إلى اليوم . . . ولا يخفى أن أرجح الأقوال عن أصل الفينيقيين الأقدمين أنهم نشأوا عند الخليج العربي في بلاد النخيل وتحولوا منه الى فلسطين يوم كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيها من النخيل . . واسم مدينتهم « قرطاجة » التي بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين إلى شاطىء الأبيض الجنوبي قريب جداً ـ في أصله ـ من الكلمة الآرامية « قارة حداثة » أي القرية الحديثة ، وتحريفها إلى قرتاشة وقرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد إسقاط الحاء التي لا ينطق بها الغربيون .

واليونان وضعوا اسم « أثيوبية » ـ ومعناه الوجوه المحترقة ـ وأرادوا به البلاد التي عرفها العرب قديماً وحديثاً باسم الحبشة ، ثم شملوا بها اليمن وسموها بأثيوبية الآسيوية ، وأوشكوا بعد ذلك أن يعمموا اسم الأثيوبيين على الأفريقيين السود جميعاً ، وهم الكوشيون في عرف اليهود والناقلين عنهم من شراح الكتب الدينية .

ومصر القديمة سماها اليونان باسم مدينة كبتوس « قفط » ثم أطلقوا اسم « جبتوس » على القطر كله ، وهو الاسم المشهور الآن في اللغات الأوربية .

والهند سميت كلها باسم نهرها المعروف في الغرب الشمالي منها ، وما زالت حتى أصبح يقال عن « الأندوس » إنه نهر في الهند ، وهي منسوبة إليه .

وعلى هذا يحدث أحياناً أن يتكلم اليونان عن أثيوبي وهو يمني ، أو عن فينيقي وهو سوري ، وعن أشورية assyria وهم يقصدون سورية Syria وعن هؤلاء جميعاً وهم يقصدون المتكلمين بالآرامية التي كانت أوسع اللغات انتشاراً بين جميع هذه البلاد .

الكتابة العربية

ثبت من الآثار المحفوظة أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور إلى رسم المقاطع إلى رسم الحروف التي تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين عامة بحروف « الألف باء تاء » alphabet نقلا عن العربية .

وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهي حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التي تطورت بعد ذلك في مختلف اللغات .

إلا أن الحروف المصرية القديمة كانت مقصورة على الكتابة الدينية وكتابة الدواوين وما شابهها من المراجع الرسمية ، وإنما انتشرت في المعاملات العامة بعد أن نقلت من سيناء إلى البلاد الواقعة على طرق التجارة الشرقية ، بجميع مواصلاتها براً وبحراً من الهند إلى شواطىء البحر الأبيض وحدود البلاد المصرية .

وقد كانت مراكز التجارة الكبرى على هذه الطريق في بلاد العرب ، من خليج العرب إلى عدن إلى خليج العقبة ، إلى مدن فلسطين ومدن الحدود الشرقية في مصر القديمة .

ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر في لغة العرب خطوط الحرف المسماري وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطي بين شمال الحجاز

وجنوب فلسطين .

فإن التجارة التي تحتاج إلى المعاملة الكتابية تجري على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهذه هي على التوالي مواطن الخط المسماري والخط المسند النبطي وما تفرع عليه .

وتجري المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادي النهرين وشواطىء البحر الأبيض ، فليس من المصادفة المجهولة أيضاً أن توجد على طريق هذه المواصلات بقايا الكتابة الصفوية والكتابة اللحيانية والثمودية في حوران وتدمر والحجر من ديار ثمود . ففي هذا الطريق يتقابل أصحاب القوافل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، كما يتقابلون بين الحجاز والشام وبين الشام والحجاز .

والغالب على التجارة العربية أنها تسلك طريق البر على ظهور الجمال ، ولكنها لم تكن معزولة عن البحر كما يتوهم الكثيرون لاعتقادهم أن أصحاب سفينة الصحراء لا يعرفون سفينة غير الجمل ، ولا يركبون مطية البحر أو يحسنون قيادتها كما يحسنون قيادة المطايا على الرمال . فإن العرب زكبوا البحر قديماً في المحيط الهندي وسبقوا الملاحين إلى شواطىء أفريقية الشرقية في الجنوب ، ووجدت في بلادهم صناعة بناء السفن عند العقبة وعمان ، ولم يكن سليمان الحكيم ـ بطبيعة الحال ـ أول من بنى سفناً بجوار العقبة ، ولكنه وجد هذه الصناعة وعمل سفنه فيها كما جاء في سفر الملوك الأول . « وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب أيله على شاطىء بحر سوف في أرض أدوم » .

وسميت هذه الجهة قبل الاسلام بفرج الهند كما قال الطبري ، لأنها كانت ولا شك تتلقى التجارة من طريق البحر والبر . ولا تزال على اتصال بالملاحة البحرية مع اتصالها بالقوافل على ظهور الجمال .

ويقول المسعودي إن الملاحين العرب كانوا يديرون قيادة السفن ويدونون تجاربهم في الكتب المتوارثة عن آبائهم من زمن قديم ، وكان في بحر الهند كما قال : « مشائخ ولدوا ونشأوا من ربابين وأشاتمة ووكلاء وتجار ، ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها » .

ومثل هذه الصناعة لا تنشأ في سنوات ولا في أجيال قليلة . فلا بد لها من أجيال بعد أجيال طوال .

على أن الأمر المهم في هذا التاريخ أن المواصلات كانت قائمة دائمة على هذه الطرق القديمة من أوائل عصورها ، وليس بالمعقول أن يكون الأمر غير ذلك بحكم الموقع وحكم العلاقة بين المشرق والمغرب . فإذا استخدم الناس الكتابة في معاملاتهم التجارية فليس في العالم المعمور يومئذ موقع أولى باستخدامها من البلاد العربية ، وليس من المصادفة كما تقدم أن تكون الخطوط المسمارية وخطوط المسند وخطوط الحروف النبطية أول ما تطور من حروف الأبجدية بعد مرحلتها التي بلغتها في ألواح سيناء .

ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة في بلاد العرب وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها في البحرين : الأبيض والأحمر . وانما توجد صناعة السفن حيث تتيسر وسائلها من الأخشاب والمعادن ومواد اللحام والطلاء ، وحيث تتيسر إلى جوارها مراسي السفن للبناء والاصلاح والمأوى ، ولهذا كانت شواطىء البحر الأبيض الشرقية أعمر الشواطىء بمراكز هذه الصناعة ومراكز الملاحة معها . لأنها نهاية الطرق البرية من قبل آسيا ، وبداية الطرق البحرية إلى القارتين الأوربية والأفريقية ، وإلى جوارها غابات الشجر الذي يصلح لبناء السفن وموارد المواد المنوعة التي تدخل في صناعتها . فكانت شواطىء فلسطين ولبنان أعمر الشواطىء الشرقية بأسباب الملاحة والملاحين ومراكز التجارة التي تصدر من البلاد أو ترد اليها من خارجها ، وكانت هذه الشواطىء هي التي اشتهرت عند اليونان باسم « فينيقية » ونسبوا إليها كل ما استوردوه من بلاد العرب على طريقها ، وتواتر عندهم أنها البلاد التي تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة كما سيأتي في الفصول التالية .

الأبجدية اليونانية

تعلم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من « قدموس » الفينيقي كما قالوا في تواريخهم ورووا قبل ذلك في أساطيرهم المتواترة ، مما يدل على قدم العهد باعتمادهم في ثقافتهم على المصادر الفينيقية .

وأيا كان قول المؤ رخين والرواة فهذه المسألة ـ مسألة الأبجدية ـ من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية . لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية ، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب .

فالأبجدية تسمى عند اليونان بالـ « ألفابيتا » وتبدأ بالألف والباء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب .

وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العربية العصرية ، فضلا عن اللهجات العربية الغابرة .

وأقرب هذه الحروف إلى المعاني العربية الشائعة في أيامنا حرف الباء من بيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف العين من عين ، وحرف الفاء من فم ، وحرف الكاف من كف ، وحرف الميم من ماء ، وحرف الياء من يد .

وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى في شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم ، وغيرها من الأشكال .

وإذا رجعنا إلى نطق أسماء الحروف كما شاعت أول استعمالها في البلاد العربية تبينت العلاقة بين أشكالها ومعانيها جميعاً بغير استثناء حرف واحد من الحروف ، فكلها أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية التي ترسم الشكل كله وتأخذ من الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف .

وليس من اللازم ان تكون الحروف كلها قد شاعت وعمت على صورة واحدة في وقت واحد ، إذ من المحقق أن حروف العلة تأخرت زمناً طويلا بعد الحروف الساكنة كما نرى من كتابة المبتدئين الى اليوم . فإن الطفل الناشىء الذي يتعلم الهجاء لا يكتب حروف المد اذا سمع الكلمة ممن يمليها عليه .

كذلك يثبت من تاريخ الكتابة أن الحروف المتشابهة نشأت على التدريج ، لتميز الأصوات المتشابهة أو التي يسهل الابدال بينها ، كالتاء ، والثاء ، والحاء والخاء ، والدال والذال ، والعين والغين ، وغيرها من المتشابهات في نطقها ورسمها ، فإنها تتبدل في لفظها اليوم كما كانت تتبدل منذ مئات السنين ، ويتبين من تاريخ التدرج في الكتابة أن الحروف المتشابهة وضعت حيناً بعدحين للتمييز بينها بعد التباس النطق بها ووضوح الحاجة إلى تمييزها ببعض العلامات ، كعلامات النقط والتذييل .

ولهذا يرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم من البلاد العربية جميعاً ولم يقتبسوها كلها دفعة واحدة من الفنيقيين . ويرى من كتاب خيرشوف Kirchoff عن الأبجدية اليونانية أن حروف الجيم واللام والسين Σ. Λ. Γ. أقرب إلى حروف المسند أي الحروف اليمنية في الجنوب ، منها إلى الحروف الفينيقية أو حروف النبط في الشمال .

وقد يعزى الاقتباس إلى رواد الرحلات من اليونان في بلاد « العربية السعيدة » أو بلاد اليمن كما عرفوها . ومن الباحثين من يرجع بها إلى عهد سابق لعهد الرحلات اليونانية بزمن طويل . . ويخطر لهؤلاء الباحثين أنها أثر من آثار حضارة عربية موغلة في القدم وصلت إلى بلاد اليونان ، كما وصلت الحضارة العربية إلى الأندلس في الأزمنة الحديثة بعد الميلاد .

يقول مرجليوت في الصفحة الحادية عشرة من كتابه عن الصلات بين العرب وبني اسرائيل :

« يرد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التي تظهر على خريطة اليونان القديمة كعسكرا : أي المعسكر ، وفندس : أي الجبل من الفند وهو الجبل العظيم باللغة العربية ، ولاريسا : أي العريش أو الخيمة ، إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامي ، فيبادر إلينا السؤال : ألا تشير هذه الأسماء إلى حضارة عربية عريقة وصلت إلى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل إليها الفينيقيون بحروف تخالفها[3] » .

وليس هذا الاحتمال ببعيد ، لأن آثار الكتابة العربية شوهدت في جزر الأرخبيل بحروف عربية على غير رسم الحروف الفينيقية ، ولأن تاريخ الاحتلال الفينيقي لبلاد اليونان على قدمه ، يدل على سبق الهجرة إليها من البلاد الشرقية ، كما يدل على تتابع الهجرة قبل ذلك من الناحية الآسيوية ، حيث وصلت .

وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف في أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة هي الأبجدية العربية التي تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها .

وإذا كانت هذه الحقيقة غنية عن أقوال المؤرخين والرواة فلا بد معها من حقيقة أخرى مثلها في الثبوت والوضوح بغير حاجة إلى أسناد من التاريخ أو الرواية .

تلك الحقيقة الأخرى هي انتقال لوازم الحضارة وصناعاتها الأولية على الأقل مع انتقال الكتابة وانتقال أساليب استخدامها في المعاملات ، فإن الأمة المتعلمة لا تأخذ الكتابة من معلميها وتترك ما عندهم من صناعة السفن والملاحة ، ومن معارف الفلك والجغرافية التي يعتمدون عليها في السياحة ، ولا مناص لها من الشعور بالحاجة إلى أدوات الحضارة التي يجلبها إليهم أصحاب السفن التي تدل ببنائها وبما تحمله من بضائعها على التقدم في العلم ومرافق العيش ومطالب الحياة .

فلو لم يذكر التاريخ شيئاً عما استفاده اليونان من صناعات البلاد العربية

---

3 — Relations between Arabs and Israelites by Margolioth.

ومعالم حضارتها لكانت هذه الفوائد من حقائق البداهة التي تستغني عن التاريخ ، ولكن التواريخ اليونانية ، بل الأساطير الشعبية ، تسجل هذه الحقيقة وتذكرها كما تذكر الحقائق المسلمة التى لا داعية لتمويهها ولا للمغالطة فيها ، ولعلهم كانوا يذكرونها بشيء من الفخر لأنهم تعلموا حيث وجدوا العلم الضروري ولم يهملوه .

ومن العرب الأقدمين
تعلم اليونان صناعات الحضارة

يقول هيرودوت في الكتاب الخامس من تاريخه :

« والآن نذكر أن الفينيقيين الـذين جاؤ وا مع قدمـوس وإليهـم ينسـب الجفيريون ، قد أدخلوا معهم إلى اليونان بعد قدومهم إلى بلادهـم صناعـات كثيرة منوعة ، منها : صناعة الكتابة التي كانوا يجهلونها على ما أحسب ، قبل ذلك . فنقلوا حروفهم ـ أولا ـ على مثال الحروف الفينيقية بغير تصرف . ثم تغيرت مع الزمن لهجاتهم فتغيرت معها رسوم حروفهم ، وقد كان الآيونيون أكثر الاغريق الذين كانوا يومئذ يقيمون في تلك البلاد حيث نزل الفينيقيون ، فاقتبسوا الحروف الفينيقية مع تعديل قليل في رسم بعضها . وما زالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها إليهم ، وقد كان الآيونيون يسمون الورق بالقديد لأنهم كانوا يكتبون على الجلود عند ندرة صحائف الكتابة . وما برح البرابـرة يكتبـون عليهـا إلى هذه الأيام . وقـد رأيت بنفسي كتابـة بالحـروف القدموسية محفورة على بعض القوائم المثلثة في معبد (أبولون أسمنياس) بثيبة البوطية ، رسومها تحكي الرسوم الآيونية ، وعلى إحداها هذه العبارة :

« أقامني أمفتريون من عهد مقدم التلبوية » . . فهي قريبة من عهد لايوس ابن لا بداكوس بن بوليدورس بن قدموس . . وعلى قائمة أخرى نقشت هذه العبـارة من شعـر العـروض السـداسي : وهبنـي سكاوس الملاكم للشـمس الساطعة بعد فوزه : هبة جميلة معجبة . . ولعله سكاوس بن هيبوكون ! فإن

كان هو الذي وهب القائمة ولم يكن أحد آخر يسمى بمثل اسمه فتاريخ الهبة يرجع إلى عهد أوديب بن لايوس . . .

« ورأيت على القائمة الثالثة كتابة نظمت من العروض السداسي يقول كاتبها : إن الملك لاودامس وهبها للشمس النافذة عند جلوسه على عرشه هبة جميلة معجبة . . .

« وفي عهد لاودامس هذا ـ ابن أتوكليس ـ أخرج القدموسيون من بلادهم ولاذوا ببلاد الأنشيليين ـ على الشاطىء الغربي من البانيا الحديثة . . »

ونحن ندرك قول هيرودوت إن الأيونيين ـ أي اليونان ـ نقلوا الكتابة بغير تصرف حين نعلم أنهم نقلوها بطريقتها ومادة صحفها ، كما نقلوها برسوم حروفها وألفاظها . فقد ظلوا يكتبون السطور من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية اليوم ، وبقيت هذه الطريقة متبعة عندهم في نقوش الآنية المزخرفة إلى ما بعد اقتباس الكتابة بعدة قرون ، ولم تظهر لهم نقوش من الشمال إلى اليمين قبل أيام بسماتيك في القرن السابع قبل الميلاد .

ولا شك أن اليونان غبروا زمنا طويلا وهم يتلقون ثقافتهم وصناعتهم من القدموسيين بأوطانهم المختلفة من آسيا الصغرى إلى حدود بلاد الألبان العصرية في الجنوب ، فلا بد أن يكون هذا الزمن موغلا في القدم عدة قرون كي تمتزج أخباره التاريخية بروايات الأساطير المتداولة على ألسنة الجماهير ، فإن أساطيرهم تضيف إلى أخبار التاريخ التي تنسب إلى قدموس فضل تعليمهم الكتابة وبنائه لمدينة بوطية أنه كان من أصحاب المعجزات الذين تعينهم الآلهة ، وتملي عليهم مكائد الحرب والخديعة . ومنها أن قدموس قتل التنين الحارس لبعض الينابيع في بوطية ، ونثر أسنانه على الأرض فنبتت منها شرذمة من المردة المسلحين أحاطوا به ليقتلوه ، فأوحت إليه الربة أثينا أن يلقي اليهم بجوهرة كريمة بهرتهم فتركوه واقتتلوا عليها حتى أفنى بعضهم بعضاً ، ولم يبق منهم غير خمسة لم يقدروا عليه لأنهم خرجوا من المعمعة منهوكين مهزولين . ومن هنا يقال عن النصرة التي تنال بالثمن المرهق والخسارة الفادحة ، إنها نصرة قدموسية او قدمية ، ويجري هذا في التعبيرات المجازية بين المحدثين من الأوربيين .

ويقول المعجم الأثري إنهم كانوا يعبدون هرمز رب الحكمة والمعرفة عندهم

باسم قدموس ، « وانه كان يقال عنه : إنه مخترع الزراعة والحدادة وصناعات الحضارة على التعميم ، وإن الشعراء الأقدمين لم يكن لهم علم بمقدمه أكان من الشرق أم من مصر أم من فينيقية . ولما قيل أخيراً إنه من فينيقية قرنوا اسمه باختراع حروف الأبجدية التي يعرف الإغريق جيداً أنهم أخذوها من الفينيقيين[4] .

والثابت بعد هذا كله من الواقع ـ فضلا عن أخبار التاريخ ـ أن الحروف اليونانية القديمة كالحروف العربية ، وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية اليوم ، وأنها بأشكالها وأسمائها ذات معنى في اللغات السامية ، ولا معنى لها في لغة من اللغات الأوربية ، وأن انتقالها كان مقروناً بانتقال صناعات الكتابة وأدواتها وما يتصل بها من الصناعات الأخرى ، وأن اليونان تعلموا الملاحة وفنونها ممن سبقوهم : أي من أمم البحر الأبيض الشرقية ، وأن النقوش وأسماء المواقع في البلاد اليونانية ترجح وصول العرب بحضارتهم إلى تلك البلاد في زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء « لاريسا » : أي العريش و « عسكرا » : أي العسكر وفندس Pindus أي الجبل العظيم .

على أن اقتباس اليونان من العرب يظهر لنا من تشابه الكلمات في اللغتين ولا سيما الألفاظ التي تدل على أصل متشعب في العربية ، أو تدل على نظام المعيشة الغالب على الأمة وطول العهد به في موطنه ومستقره .

فالبرج في اليونانية برجوس πύργος ومادة الباء والراء ومثيلتهما أصيلة في الدلالة على الظهور والعلو : كبرز وبرض وبرع وبرق . ومعنى البروج والتبرج والأبراج شائع في المادة العربية .

ولا شك في سبق العرب إلى الفرس والسيف والقناة .

والفرس في اليونانية Φοράδα والسيف Ξίφος

والقناة أخذوها واخذوا منها القانون بمعنى المقياس ، ولا تخفى علاقة القناة

---

٤ ـ صفحة ١٠٦ من معجم الآثار السلفية تأليف سيفيرت

Dictionary of Classical Antiquities by Oskar Seyffert

والقصبة بالمقاييس في كل لغة . ومنها الرول Rule بمعنى القاعدة ، والرولر بمعنى المسطرة في اللغة الانجليزية .

ومن الكلمات التي تلحق بالمقاييس كلمة القسطاس δικαστής وكلمة القالب καλοπούς

ولا تخفي العلاقة بين كلمتي « قلم » و « قصبة » وبين المصدر العربي لكلمة كلموس Κάλαμος وكلمة كسمبة Κάσαμπα اليونانيتين بمعنى قصبة ، وإن يكن تاريخ استعمالها غير معلوم .

وتلحق بكلمات الكتابة الخارطة والخرطة ، والأولى عربية من خراطة السائل الذي يؤخذ من أصل ورق البردي ، ومن الخرط وهو قطع الجلد أو الصحاف التي يكتب عليها . . وتسمى الخارطة والخرطة في اليونانية χάρτης ومنها الكرتيس أو القرطاس .

وتلحق بكلمات الملاحة كلمة سير وهي باليونانية (سيرا) σειρα وكلمة غراء وهي σύρος وهما أشبه بصناعة السفن وبالصناعة على الإجمال ، وليس أبعد من الفرض الذي يجعل هذه الكلمات منقولة عن اليونانية إلى العربية ، مع العلم بسبق العرب في الملاحة والكتابة وقياس ما ينقل في السفن ووزنه وتقديره .

ونظير ما تقدم في الدلالة على اقتباس اليونان دائماً من العرب في أمثال هذه الألفاظ التي ترتبط بالمعاملات وشؤون المعيشة ـ أنهم حولوا أسماء أيام الأسبوع إلى الترتيب العددي أسوة بأسمائها العربية ، وغيروا منها اسم السبت والأحد بعد ظهور المسيحية ، وهل كان اقتباسهم من المسيحية إلا اطراداً في هذه القاعدة وجرياً على هذا القياس ؟ .

والفلسفة

والفلسفة ليست بالاستثناء من هذه القاعدة العامة في تاريخ الثقافة الشرقية اليونانية ، خلافاً لما يظنه القائلون بأن فلسفة اليونان قد نشأت في منبتها نشأة منقطعة عن ثقافة العالم في جملتها .

إن طاليس هو أبو الفلسفة اليونانية كما قال عنه أرسطو الملقب بالمعلم الأول . وقد ذكره في كتاب ما بعد الطبيعة وقال عنه : إنه مؤسس الفلسفة ، واستشهد بقوله : إن الماء مصدر جميع الأشياء ، وذكره في كتاب السماء واستشهد بقوله : إن الأرض جسم يطفو على الماء . وذكره في كتاب النفس واستشهد بقوله : إن المغناطيس ذو حياة لأنه يقدر على تحريك الحديد . وذكره في كتاب السياسة ، وروى من أخباره أنه أدخل بعض التحسين على معاصر الزيتون وجمع ثروة حسنة بهذا الاختراع .

وفي الأخبار التي جمعها عنه كتاب « المرشد إلى من قبل سقراط من الفلاسفة » أنه عرف أسباب الكسوف والخسوف ، وأنه كشف منزلة الدب **الأصغر** من منازل الفلك ، وأنه أدخل الفلسفة من مصر الى بلاد اليونان ، واهتدى إلى قواعد تمكنه من قياس مسافة البعد بين الشاطىء والسفن في البحر ، وتمكنه من قياس ارتفاع الهرم بقياس ظله ، كما اهتدى إلى بعض النظريات في حساب المثلثات والدوائر ، ويقول الكتاب بعد ذلك : إن المصادر المختلفة تنبئنا بأنه تعلم الهندسة من المصريين وأنه وخلفاءه كانوا تلاميذ للمصريين والكلدانيين . وكان ولا ريب مدينا بالكثير مما عرفه في هذين العلمين اللذين اشتهر بهما . . .

وإن كان المفهوم أنه استخدم الأساليب العلمية في تنظيم هذه المعرفة[5] .

ومما له معناه الظاهر في نسبة المعارف التي استخدمها طاليس إلى مصادرها أنه كان معدوداً من « حكماء اليونان السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه « بهيئة مستقلة » لا تنقص عن هذا العدد ، ويضاف إليها بديل ممن يخرج منها إذا ثبت أنه أقحم نفسه على الهيئة بسلطان لإمارة أو الرئاسة .

ولا يخفى أن « نحلة السبعة » في كل اقتراناتها ترجع إلى مصدرها الأول من بلاد ما بين النهرين ، حيث يتكلمون عن السيارات السبع وعن الأيام السبعة وعن السوابيع المتعددة في أعمار الأكوان ، وقد كان طاليس يعيش في ليديا من بلاد آسيا الصغرى ، ويتلقى معلوماته من قبلها في مسائل الفلك ومسائل النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذاً للمصريين في العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه .

فإذا قيل إن الفلسفة ليست بالاستثناء في شؤون الثقافة التي نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذي تتفق عليه مصادر التاريخ ومراجع الفلسفة ، وإن كانت الفلسفة اليونانية قد تطورت كثيراً بعد طاليس ونظرائه من الحكماء ، حتى أصبحت في عصر أرسطو وتلاميذه الأولين جديرة بالانتساب إلى اليونان دون غيرهم من أمم الثقافة والحضارة في الأزمنة الغابرة .

فلا نكران لفضل الفلسفة اليونانية على الفلسفة القديمة بمدارسها المختلفة ، ولكن الادعاء الذي ينكره كل منصف أن اليونان قد امتازوا بفلسفتهم لأنهم أبناء القارة الأوربية وأصحاب « الذهن » الإنساني المتفرد بين أذهان البشر بمزايا البحث الطليق وحب الاستطلاع لمحض العلم والاطلاع .

فاليونان لم ينفردوا بهذه الفلسفة في جميع عصورهم ، ولم يزد عصر فلسفتهم الممتازة على ثلاثة قرون ، منها مائة سنة على الأكثر تفرغت فيها فلسفتهم للبحوث الخالصة في حقائق الوجود وأصول الأشياء على قدر المستطاع من تفرغ الفكر الإنساني لهذه الأمور .

وسبب ذلك راجع الى ظروف خاصة تتغير فيتبعها التغيير في نتائجها حيثما

---

5 — Companion to Pre-Socratic Philosophers by Kathlesm Freeman.

كانت وحيثما كان التغيير .

نشطت حركة الفلسفة اليونانية في العصر الذي شاعت فيه الكتابة على الورق وتيسرت فيه المواصلات بين بلاد اليونان وما حولها من البلاد الآسيوية والأفريقية .

ولم تنشط مع ذلك إلا لأنها قد نشأت في بلاد لم تحكمها دولة عريقة ، ولم تكن فيها إلى جانب الدولة الحاكمة دولة من دول الكهانة التي تتأصل في البلاد وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث في أصول الخلق والحياة ، أو في المسائل الإلهية التي يستأثر بها الكهان ورؤساء الدين .

فالبلاد التي تجري فيها الأنهار الكبيرة تقوم عليها الدول المتمكنة ، وتقوم معها إلى جانب الدولة الحاكمة دولة دينية من الكهان ورؤساء الدين يسيطرون على شؤون العقيدة ومباحث الفكر في أسرار الطبيعة وما وراءها من الغيب المجهولة . وعلى هذه السنة قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادي النيل فانفرد الكهان بالمعرفة الغيبية ولم يأذنوا لغيرهم ـ خارج المعبد ـ في بحث هذه المعرفة ودراسة « الفلسفة » التي تقوم على تحقيق « الوجود » لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات المقدسة التي كانوا ينعتونها باسم الأرباب .

ولم تكن في اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة ، فاتسع أمامهم مجال البحث غير متحرجين فيه ولا محاسبين عليه ، وعمدوا إلى العلوم التي استفادوها من الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث بما يشاء كما يشاء .

على أنهم ما لبثوا جيلا أو جيلين حتى اصطدموا بسلطان الدين وسلطان الدولة ، فقتل سقراط وتشرد أفلاطون وقضى أرسطو بقية حياته في عزلة وإهمال ، وكان عدد الهاربين من فلاسفتهم أكثر من عدد المقيمين الآمنين .

وكذلك حدث في القارة الأوربية بين صميم الأوربيين بعد قيام السلطة الدينية بينهم وانفرادها بالتفكير في المسائل الإلهية ، فإن القرون الوسطى لم يظهر فيها فيلسوف أوربي واحد ، ولم يظهر فيها من ظهر بعد ذلك من فلاسفتها غير تلاميذ الشراح من العرب **الأندلسيين** .

ونحن لا نعلم من آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا « فلسفة » تبحث في أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية ، ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم في هذه البحوث ولا بقصورهم عن إدراك مداها ، لأنهم لم يتركوا لنا كذلك كتباً مفصلة عن علوم الفلك والرياضة والكيمياء التي لا شك في اشتغالهم بها ، وتطبيقهم لها في بناء الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب وسياسة الأنهار ، وكل ما نستطيع أن نجزم به أنهم لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم له على جهلهم إياه .

ولسنا نريد بإثبات فضل الشرق أن نبخس فضل اليونان في ترقية الفلسفة ، ولكننا نقرر الواقع حين نقول : إن الذين يتخذون الفلسفة اليونانية ذريعة إلى اتهام الشرق بالقصور ينحرفون عن سنة الإنصاف ويتورطون في ادعاء لا دليل عليه .

تلاميذ أبديون

إن الموقع الجغرافي أنفع لنا في المساعدة على تمحيص الروايات التاريخية التي لا تسلم ـ مع طول الزمن ـ من الخرافة ومن الاضافة ، أو من الخلط وسوء النقل والحكاية . فإن للموقع الجغرافي مقتضياته التي نفهم منها ما يجوز ، وما يمتنع ، وما يحتاج الى السند أو يستغني عنه أو يكتفي منه باليسير .

وموقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التي توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، أو توجد بينه وبين حركات الأمم في أدوار هجرتها ـ واستقرارها منذ فجر التاريخ .

فلم تنقطع علاقتها بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقتها بالشرق في هذه العصور إلا علاقة التلمذة المتابعة على الثقافات المتابعة فيه ، ولا سيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأتي بعدها ثقافة المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة .

ونحن اليوم نسمع كثيراً عن المناظرة بين الجنس الآري والجنس السامي ، وعن مزايا كل من الجنسين في التفكير ومبادىء الأخلاق ، وعن اقتدار كل منهما على إنشاء الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية . ويدور هذا البحث كله أحياناً على مزايا اليونان في طلب المعرفة لأنهم آريون وأوربيون ، مكانهم من ثقافة أوربة الحديثة مكان الرواد الأسبقين ، والباكورة التي تدل على الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها في كل أوان .

فإذا ابتدأنا بالمسألة كلها من البداءة فالأرية نفسها صفة لم يكسبها اليونان من غير الشرق ، ولم تظهر فيهم مزية من مزاياها بغير العلاقة التي اتصلت بينهم وبينه بعد انفصالهم عنه في زمان الهجرة الآرية .

فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى التي انتقلت من أواسط آسيا إلى أوربة الشرقية والوسطى ، وقد يكونون سكاناً أصلاء في أوطانهم غلب عليهم أولئك الآريون المهاجرون وصبغوهم بصبغتهم فلم تبق لهم لغة غير اللغة الآرية ، ولا عقيدة غير عقيدة الآريين الأولى في الدين والاله والخليقة .

فهم على الحالين منتسبون الى الشرق في ثقافتهم ، ونسبتهم هذه هي سر امتيازهم على إخوانهم الآريين الذين ذهبوا في الهجرة إلى أواسط أوربة وما وراءها .

إن الآريين الذين استقروا في القارة الأوربية وراء بلاد اليونان إلى أقصاها غرباً وشمالا قد عاشوا مئات السنين على همجيتهم الأولى ، فلم تنفعهم مزاياهم الآرية في ابتداع ثقافة خاصة تنتسب إليهم ، ولا في اقتباس ثقافة من الشرق بعد ارتقائه وامتداد عمرانه ، لأنهم فارقوه وانقطعت صلات العلم والتجارة بينهم وبينه .

فليست « الآرية » إذن منبع الثقافة اليونانية وسر الامتياز والتفوق الذي يخصهم به خلفاؤهم من الأوربيين المحدثين ، ولكنها الصلة بالشرق والاستفادة منه والتلمذة عليه ميزهم بها موقعهم الجغرافي فرجحهم على سكان المواقع النائية من إخوانهم الآريين .

وفي المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون من القارة الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفي منها ذكر اسم الاله عندهم « ذيوس » وهو من الهندية القديمة ، وذكر أبي الأرباب عندهم وهو اسم مركب من كلمتين بتلك اللغة وهما : « داوس باتر » : أي أبي الأرباب (جوبيتير) . . . وما بقي من تفصيلات ديانتهم المنسية ومعبوداتهم الأخرى فهو مركب على اعتقادهم برئيس جميع المعبودات وأبي الأرباب .

والمرحلة التالية لمرحلة الهجرة القديمة هي مرحلة الكتابة والصناعة ، سواء جاءتهم من هجرة قدموس وزمرته الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها في مصدرها ،

فإنها من ثمرات الموقع الجغرافي . الذي قربهم من أسباب التلمذة على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه .

وتأتي المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فليس دخول اليونان في المسيحيةإلا مرحلة في السبيل المطروق من مراحل التلمذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية أو روحية .

ولم تكن مرحلة المسيحية خاتمة المراحل في هذه التلمذة العريقة فإن الفتوح العثمانية أوشكت أن تفتتح في بلاد اليونان وما جاورها عهد ديانة جديدة ، لولا اشتداد شيوخ الإسلام في فتاواهم على الدين . الصريحة التي حرموا بها على السلاطين إكراه أهل الذمة .

وهذا هو حكم الموقع الجغرافي إلى جانب حكم التاريخ وحكم الآثار الباقية :

حكم الموقع الجغرافي ان اليونان تلاميذ « طبيعيون » لكل ثقافة شرقية ، كلما كانت للشرق ثقافة غالبة . فإذا وقف هذا المورد عند حد من الحدود أو وراء حاجز من الحواجز ، فذلك هو الحاجز الذي يصد السيل عن مجراه ويتحول به إلى ينبوع سواه .

ثم الثقافة العبرية

إن سبق العرب للعبريين في ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم لليونـان في ثقافة المعرفة وصناعات الحضارة . ووقائعه وقرائنه أقرب سنـداً من الوقائـع والقرائن التي ألممنا بها في الصفحات السابقة ، لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ومن أحوال المعيشة التي لا محل للخلاف عليها .

وقد أوجزنا القول فيما تقدم على العلاقات القديمة بين ثقافة العـرب وثقافـة اليونان بالقدر الذي تتسع له هذه الصفحات القليلة .

وسنجمل القول فيما يلي على بيان العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافـة العبريين في الناحية الدينية ، ونبدأ هذا البيان بما لا بد منـه من تحقيق أصـل العبريين وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العـربية إلى ما بعـد ظهـور الأنبياء والرسل في بني إسرائيل . فمن هم العبريون ؟ وما هو أوثق الأقوال عن نشأتهم الأولى قبل أيام إبراهيم عليه السلام ؟

إن أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرناً على وجه التقريب أنهم قبيلة بدوية صغيرة عاشت زمناً في جنوب بلاد العرب إلى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الاقامة والترحل إلى مسافات قريبة حتى انتقلت ـ مع ملازمتهـا الشاطىء ـ إلى جنوب وادي النهرين .

ويستدل على تاريخ هذه القبيلة من تاريخ الدابة التي كانت تعتمد عليها في الرحلة وحمل الأثقال ، وهي الحمار **asinus Asinv** فهذا الحيوان كان يوجد في

حالة الوحشية على مقربة من السهول الرملية في جزيرة العرب ، ويصل أحياناً في قطعانه المجفلة من السباع إلى أرض حوران .

ويظهر أن العبريين استخدموا هذا الحيوان وهو قريب من حالته الوحشية ، لأنه كان في تلك الحالة يميل بلونه إلى الاحمرار على اقتراب من ألوان الرمال التي يعيش فيها . ومن هنا اسم « الحمار » واسم اليحمور الذي يطلق على الحمار الوحشي في اللغة العربية .

ويظهر أيضاً أنه بقي عندهم زمناً طويلا على هذا اللون حتى تغير لونه بعض الشيء وتولدت منه الحمر البيضاء ، بعد طول التدجين والعناية « المدنية » : أي بعد انتقال العبريين من البادية إلى جوار المدن ، وترددهم بين معيشة البداوة ومعاهد الحضارة ، فأصبحت الحمر البيضاء مطية لذوي الرئاسة والثروة من القوم . وفي ذلك يقول سفر القضاة من اصحاحه الخامس مخاطباً أولئك الرؤساء : « قلبي نحو قضاة إسرائيل المنتدبين في الشعب : « باركوا الرب أيها الراكبون الأتن الصحر الجالسون على الطنافس » : أي إناث الحمير المبيضة اللون .

واستخدام الحمار يدل على كثير من أحوال العبريين إلى جوار القبائل التي تستخدم الجمال للسفر إلى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمال الثقيلة ، ونزول المراعي المنيعة التي لا تستباح لغير ذوي القوة والكثرة من قبائل الجزيرة . . فإنما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة بالقياس إلى أحمال الجمال ، ويسير الحمار في غير المفاوز الرملية التي تسلكها الابل ، ولا يبتعد وقتاً طويلا عن موارد الماء الميسرة بغير عناء مجهد وبغير حاجة إلى الحماية القوية أو إلى كثرة العدد ووفرة السلاح .

فالعبريون في نشأتهم قوم ضعاف قليلون في العدد ، مضطرون إلى الاكتفاء بالمعيشة التي يتركها سادة الصحراء زهداً فيها واستغناء عنها ، ونكاد نعلم من ذلك مواقع نشأتهم الأولى قبل وفودهم إلى العراق وبعد مقامهم فيه إلى أيام الخليل إبراهيم .

فهذا الموقع لا بد أن يكون قريباً إلى الشاطئ قريباً إلى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبداوة في جوف الصحراء ، ولم يتفرغوا للاقامة في الحواضر

العامرة ، ولكنهم عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون الأعمال التي تتطلبها الحاضرة من البادية وتتطلبها البادية من الحاضرة ، وهي في الغالب أعمال وساطة وسمسرة هادئة لا تضطرهم إلى الاقتحام والغلبة في معاملة أهل المدينة ولا في معاملة أهل الصحراء ، ولا تضطرهم إلى الحوزة القوية لتحصيل القوت لهم وللدواب التي يستخدمونها . فإنهم يأخذون ما يحتاجون إليه من المدن جزاء أعمالهم في الوساطة بينها وبين البادية ، ولا يحتاجون إلى كثرة عدد ولا وفرة سلاح لاقتحام مراعي الصحراء البعيدة ، إذ كانت دوابهم تقنع بالقليل من العلف والمرعى وبالقريب من موارد الشرب والسقاية ، وهم في وساطتهم المتبادلة يعولون على الرضى والطلب ولا يعولون على القهر والاغتصاب .

وفي هذه المعيشة البدوية الحضرية يكمن كل سر من أسرار التاريخ العبري من فجر التاريخ إلى العصر الحاضر ، وإليها يرجع تعليل المشكلات والأزمات التي تعرض العبريون أو عرضوا لها أنفسهم ولا يزالون معرضين لها حتى هذه الأيام .

فهم قبيلة لم تتطور ، وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ، ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعباً « مدنياً » يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها عادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدم إلى آخر الشوط في تثمير أعمال البدو ولا في تثمير أعمال الحضر ، فهي في حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة « العصبية » بالدم والسلالة .

ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هي هذه المشكلة : هي مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة « العصبية » بالدم والسلالة . وعقيدتهم في جوهرها هي عقيدة عصبية منعزلة ، تؤمن بإله تعبده لأنه إلهها ، وهو الإله الذي يرعاها لأنها شعبه الذي يحابيه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة فيه غير أنه شعبه المختار لديه .

وهذه حالة من العزلة « المتعصبة » لا بد أن تسوق القوم إلى اصطدام عنيف بينهم وبين جيرانهم من جانب البادية ومن جانب الحاضرة ، ولا بد أن يقع فيها ذلك الشعور النافر بين صاحب المال وبين الوسيط والسمسار ، كلما تحركت المطامع وتعسرت المنافع ، ونشبت المنازعات في البيئة ، ولو كان نشوبها لسبب

غير السمسرة والاستغلال .

ولا يدرى على التحقيق هل سمي العبريون بهذا الاسم لأنهم ينتسبون إلى عابر بن سام ، أو لأنهم عبروا نهر الفرات بعد قدومهم إلى وادي النهرين . ففي سفر يشوع يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان » .

إلا أنهم ـ لضعفهم ـ كانوا يلوذون في كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التي تلتقي بهم في أصولهم ويحتمون بمصاهرتها من أعدائهم . ففي سفر التكوين أنهم انتسبوا إلى الأصل الآرامي حين أرسل إبراهيم عليه السلام رسوله لخطبة رفقة بنت بتوئيل الآرامي . فقال له : « إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني . . . » .

ولما نزلوا أرض كنعان جعلوا لغتهم لغة كنعانية . وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر إنه « في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان » .

ولم يزالوا في هجرتهم من موطن بعد موطن بين العراق وحوران وكنعان يعيشون إلى جوار القبائل ، ولا يتغلبون على واحدة منها في وقعة فاصلة حتى لجأوا إلى مصر وعادوا منها بعد عدة قرون إلى الأرض التي سموها بأرض الميعاد ، ولم يتفقوا على حدودها حتى ملكوا أسباب القوة التي أطمعتهم في الغلبة عليها .

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً « تقليدياً » بالأيام التي قضوها في مصر ويحسبونها بلية البلايا ، ومحنة المحن في تاريخهم كله من عهد الخليل إلى عهد النازية الهتلرية في القرن العشرين . وقد مرت بهم محنة السبي إلى وادي النهرين ولكنهم لا يتشاءمون بها كما تشاءموا بالمقام في مصر ، ولا يجعلون الخروج من بابل عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادي النيل .

أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض ما قدروه وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد الأعياد .

فإنهم لم يستفيدوا قط من هجرة في تاريخهم كله كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ، لأنهم نعموا بالعيش الرغيد في جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط الصحة ما زاد في عددهم ، وزاد في خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم . فأصبحوا يعدون بمئات الألوف ، ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزرع والحصاد ، ويصلحون لنزال القبائل البادية التي أعياهم أمرها قبل خمسة قرون وتركوا لها الأرض اعتصاماً بمصر وهم بضع مئات أو بضع عشرات .

وليس الفضل في هذه الزيادة وهذا التقدم لطول الزمن بين دخولهم إلى مصر وخروجهم منها ، فإن القبائل التي تركوها في البادية بقيت كما كانت قبل خمسة قرون ، ولم تبلغ في زيادتها ولا في تقدمها بعض ما بلغوه وادعين قانعين بجوار النيل .

ولولا هذه الزيادة في عددهم وفي خبرتهم لما استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التي كانوا يهابونها ويهربون منها ، ولا استطاعوا أن يهزموها ويطردوها من مواقعها إذا اجترأوا على قتالها ، ولا تأتي لهم منْ دواعي الاستقرار في أرض كنعان ما يعينهم على إقامة الملك وبناء الهياكل من الحجارة بدلا من العرائش والخيام ، ومهما يكن من بلاء أصابهم في مصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا أضعافه في بلاد العالم القديم شرقية وغربية .

ثم لازمتهم آفتهم الخالدة بعد اقامة المملكة وتعاقب العروش زهاء أربعة قرون ، فلم يفارقوا نظام القبيلة بعد محاكاتهم لجيرانهم في نظام الدولة ، ولبثوا في دولتهم كما لبثوا في هجرتهم قبيلة معزولة عن الأمم ، بل سبطاً معزولا عن سبط في داخل القبيلة ، وظلت لهم شريعة « العصبية القبلية » دستوراً يصلح لهم وحدهم في تقديرهم ، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التي تجمعهم بغيرهم في كل تقدير .

فلم يزالوا من قيام المملكة إلى ما بعد ميلاد السيد المسيح يحرمون بينهم ما يحلونه بينهم وبين غيرهم ، ويعملون بما جاء في سفر التثنية حيث يقال : « للأجنبي تقرض الربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك » . . . فهو ربه وإلهه وليس برب ولا إله للآخرين .

وظلوا يحصرون العصبية في أضيق حدودها بين الأسباط في القبيلة الواحدة

ويتشددون في حصر كل سبط بميراثه إلى أعقاب الأعقاب .

ففي الاصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد أنه « لا يتحول نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط . بل يلازم بنو إسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي يرث بنو إسرائيل كل سبط نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط آخر ، بل يلازم كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى » .

***

ولا ضرورة للبحث الطويل في سبب الفشل الذي يلحق بدولة من الدول تقوم على مثل هذا النظام ، وتقوم من ورائه على مثل هذا الشعور ، فإنه نظام يقف عند حدود القبيلة ويقصر عن التقدم وراء ذلك خطوة في طريق الحياة القومية ، فضلا عن الحياة العالمية .

ومن فضول القول أن يتحدث نقاد التاريخ والمعقبون على أطوار الاجتماع عن « رسالة عالمية » يستفيدها العامل من هذه « العصبية القبلية » بعد تطور الأمم والشعوب وتطور العلاقات العالمية وتطور العقائد والآداب . فإن « الفكرة العالمية » لا تتولد في طور من أطوارها من مثل هذه الدعوة الدينية أو العنصرية ، بل يكون تقويض أساس هذه الدعوة شرطاً لازماً لمجرد تصحيح النية وتوجيه الرغبة إلى الفكرة الإنسانية العامة والثقافة التي تستفاد لجميع الشعوب ولا تكون وقفاً على شعب واحد دون سواه .

العبرية والعالمية

نعم إنه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة دينية محصورة في هذا الحيز المحدود إنها رسالة عالمية ، أو إنها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول إلى فقدان الحياء حين يقال : إن العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بني الانسان ، وأن تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادي النيل وفي وادي النهرين وفي شبه الجزيرة العربية . فيقال : إن تلك الحضارات جميعاً لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والجنود .

ولا موجب ـ فيما نرى ـ لتفصيل الكلام على آداب الحضارات قبل ظهور العبريين وقبل شيوع تلك الحضارات بين الشعوب والأقوام الذين تقدموا وراء آداب العصبية المحدودة أشواطاً لا يتسع لها هذا المجال . فربما كان استقصاء المدى المعروف الذي بلغته الدعوة العبرية من أيام الخليل إلى أيام السيد المسيح تصحيحاً كافياً لتلك الدعوى التي يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة العالمية » من قبل العبريين .

إن طاعة الإله في عرف العبريين ليست مسألة فضيلة وأخلاق تحمد من كل إنسان فاضل وكل آدمي ذي خلق كريم ، بل هي مسألة علاقة بين رب « عبري » يختص نفسه بشعب يختاره ويغار عليه ، وبين شعب يدين لذلك الإله

بين آلهة الأمم لأنه يخافه ويشعر بقوته وانتقامه ، ويرى أنه أقدر على الانتقام من جميع الأرباب .

ويقول هذا الإله كما جاء في سفر التثنية : « أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

ويقول كما جاء في سفر الخروج : « رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » .

ويقول أنبياؤهم تارة : إنه شعب ثقيل الاثم ، وتارة : إنه شعب لا يفهم . ويعيد كل نبي ما سبقه إليه الأنبياء من وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء . . . ولكن هذا الشعب يعلم ـ مع كل ذلك ـ أن الله يختاره لأنه شعبه وعصبته . . . وأنه كما جاء في سفر التثنية « ليس لأجل بركة يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة » .

أما هذا الشعب فإنه يدين لهذا الاله ويختاره من بين الأرباب لأنه : « إلهكم وهو إله الآلهة ورب الأرباب ، الإله العظيم الجبار المهيب » .

ويناديه الإله فيقول له كما جاء في سفر الخروج : « لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء ، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي . . . » .

نعم : كما تسري شريعة الثأر في الجاهلية من الآباء إلى الأبناء ، ومن الإخوة إلى الإخوة ، ومن الجار إلى الجار .

ويتكرر النذير من الإله الغضوب غير مرة « لأن الرب إلهك هو نار آكلة . إله غيور » . . فلا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الرب إلهكم إله غيور » . . ويجري هذا النذير من الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام إلى الأسفار التي كتبها آخر الأنبياء من بني إسرائيل .

ولم تنفرج حلقات هذه العصبية بعد توالي الضربات على القوم من جراء تعنتهم بالأثرة وإنكار الحقوق الانسانية على الأمم ، أو على « الجوييم » كما يسمونها بمعنى الغرباء أو الدخلاء ، بل كانت هذه العصبية تنحصر من دائرة إلى دائرة أضيق منها وأشد في التمييز والاستئثار من سوابقها . فكانت صفوتهم

المختارة أبناء إبراهيم إلى أبناء أبنائه وحفدته فاذا هي تنحصر بعد ذلك في أبناء اسحق بني إسرائيل ويدعو القوم أنفسهم من أجل ذلك بأبناء إسرائيل ، ثم انحصرت صفوتهم المختارة في بني هرون آل موسى الأقربين عليه السلام ، ثم انحصرت في أبناء داود عليه السلام بعد قيام المملكة . وقيل من أجل ذلك إن المسيح المنتظر لا يكون من غير ذريته وورثة عرشه ، وكانت الوعود السماوية المزعومة تنتقل على هذا المثال جيلا بعد جيل تبعاً للتنقل في مراكز الرئاسة والقدرة على مرضاة كهان الهيكل ودعاة النبوة .

وكان بعض انبيائهم من حين إلى حين يفطنون لوبال هذه العصبية ويعترفون للأمم بشيء من الحق في النعمة الالهية ، إنذاراً لقومهم بعاقبة التمادي في مساوئهم ونزواتهم واتكالهم على اختيار الإله لهم دون سواهم بغير فضيلة فيهم ولا اجتهاد من جانبهم ، ولكنها فلتات تعرض لأولئك الأنبياء كلما أزعجهم مصير قومهم وصدمتهم فوارق المقابلة بينهم وبين الأمم التي تفضلهم وترجح عليهم ، ثم تذهب الصيحة بغير صدى وتعقبها نوبة من نوبات العصبية أشد وأعنف من نوباتها الغابرة ، وانتهت رسالات أنبيائهم وتلتها الدعوة المسيحية وهم على أشد ما كانوا تعصباً للدم والسلالة وإنكاراً للحقوق الانسانية على كل من عداهم من « الجوييم » المنبوذين في اعتقادهم .

وقد استهل السيد المسيح رسالته بتوجيه الدعوة إلى « خراف إسرائيل الضالة » وإيثار « البنين » بالخبز على الغرباء ، فأعرضوا عنه ورفضوه ، وكادوا له المكايد واتهموه ، فاتجه آخر الأمر بالدعوة العامة إلى المستمعين إليها من سائر الأمم ، وضرب المثل بصاحب الدار الذي دعا الأقرباء وأبناء الأسرة إلى وليمة عرسه فتعللوا له بالمعاذير وقاطعوه في داره ، فأرسل غلمانه يدعون إلى الموائد المهجورة كل عابر سبيل .

وظلوا إلى عهد الرسولين بطرس وبولس ينكرون على العبري أن يتناول الطعام مع غير العبريين ، ويحتدمون غيظاً إذا قيل لهم إن دعوة الهداية تتجه إلى الأمم كما تتجه إلى بني اسرائيل ، فجاء في الاصحاح الحادي عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد إلى أورشليم لأنه دخل بيوتاً لغير المختونين وأكل مع أهلها .

وجاء في الاصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل أن بولس الرسول كان

يصلي في الهيكل فقال لمن فيه إن الله امره ان يذهب إلى الأمم لأنه سيرسله إلى الأمم بعيداً . . » فسمعوا له حتى هذه الكلمة ثم رفعوا أصواتهم قائلين : خذ مثل هذا من الأرض لأنه كان لا يجوز أن يعيش ، وإذ كانوا يصرخون ويطرحون ثيابهم ويرمون غباراً إلى الجو أمر الأمير أن يذهب به إلى المعسكر » وأن يضرب ليعلم لأي سبب كانوا يصيحون به هذا الصياح ويشقون الثياب ويثيرون الغبار سخطاً عليه .

***

والثقافة الدينية التي من هذا القبيل ليس من شأنها أن توحي إلى أصحابها برسالة عالمية ، وإنما شأنها عندهم كشأن حقوق الميراث في أقرباء الدم والعصبية ، لا ترى أحداً من أصحابها يدعو الناس إلى مقاسمته فيها ، بل كل همه إذا استطاع أن يحتجزها لنفسه ويقصي الناس عنها ، وهذه شيمة نعهدها في سلالة العبريين إلى وقتنا هذا فلا نرى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه وهداية « الأجنبيين » إلى ملته ، كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع أبناء عصبته على تباعد الديار .

وإذا تركنا جانب الثقافة الدينية والتفتنا إلى جانب الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيباً من هذه الثقافات يفيدون به العالم باختيارهم أو يفيده العالم على الرغم منهم .

فهم في أدوار حياتهم الثلاثة - دور البداوة ودور المملكة ودور الشتات في أنحاء البلاد - لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة ، فلم يخرجوا للعالم من أيام الخليل إلى أيام المسيح عالما ولا أديباً ولا فيلسوفاً ولا رحالة مشتغلا باستطلاع التواريخ أو بحاثة مشتغلا بدراسة الأحياء والنباتات ومسائل التاريخ الطبيعي كما عرفت من قبل وكما عرفت اليوم ، وكل محصولهم من الكتب المقروءة فإنما هو تلك المواعظ والترانيم التي وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكمة والدراسة العلمية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطراهم إلى المعيشة بين تلك الأمم في المشرق والمغرب .

ولما قامت لهم دولة لم تنهض لهم مع الدولة ثقافة أدبية . . . ثم ذهبت الدولة

ولم تعقب بعدها أثراً من آثار الفكر أو الوجدان أو الذوق والخيال كتلك الآثار التي حفظها التاريخ لكل دولة من الدول القديمة والحديثة .

أما في دور الشتات بعد دور البداوة ودور الدولة فلم يكن لهم مجتمع واحد تنسب إليه ثقافته ولا تنسب إلى غيره ، ولكنهم ظلوا في دور الشتات عالة على ثقافات الأمم كلما نبغ منهم نابغ بين أبنائها ، فليست لهم ثقافة مستقلة عن ثقافات العرب والمصريين في العصر القديم ، ولا عن ثقافات الألمان والفرنسيين والانجليز والأمريكيين وسائر الأمم المثقفة في العصر الحديث .

وإذا أحصينا نوابغهم ونوابغ الأمم الأخرى وجب أن يكونوا أضعاف ذلك عدداً وكفاية كما يكون المستفيدون من عشرين أو ثلاثين ثقافة منوعة بالقياس إلى المستفيدين من ثقافة واحدة في مكان واحد . ولكنهم على خلاف ذلك أقل مما ينبغي أن يكونوا بهذه النسبة وبنسبة أخرى غير النسبة العددية ، وهي أنهم يتعاونون بالتضامن - بل بالتعصب - في جميع البلدان ، ويبذلون جهدهم للتنويه بنوابغهم والاعلان عنهم وإهمال من عداهم من أقرانهم ونظرائهم ، ولا يخفى ما يعمله « التضامن » في إظهار الخفي وتكبير الصغير وتفخيم الضئيل ، فإن عشرة متضامنين متفاهمين على التعاون يملكون من أساليب الشهرة والتنويه مالا يملكه ألف متفرقون .

ولنا أن نقول بالتعبير الشائع في عصرنا إن هؤلاء العبريين منذ بداوتهم إلى هذا القرن العشرين قد كانوا مستنفدين ولم يكونوا قط منتجين ، وإن محصولهم في الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول المالك العامل الذي يعطي وينتج ما يعطيه .

الدين

فيما عدا احتكار النعمة الالهية وعزلة العصبية في أضيق حدودها ـ لم يبدع العبريون شيئاً في ثقافة الدين ، وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم « مستنفدين » غير متصرفين في عقيدة من عقائده الكبرى ، الا ما تصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطلسم والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البادية .

وكان أكثر ما أخذوه منقولا عن قبائل العربية الكبرى بين اليمن في الجنوب وقبائل الآراميين والكنعانيين في الشمال .

فلم يعرفوا كلمة « النبي » قبل اتصالهم بكنعان في الزمن الذي ظهرت فيه النبوءات العربية ، مما ذكره القرآن الكريم ومما ذكروه هم عرضاً في أسفار العهد القديم .

وعرف العبريون نبوءات السحر والكهانة والتنجيم كما عرفتها الشعوب البدائية « وابتكروا منها ما ابتكرت على سنة الشعوب كافة ، واقتبسوا منها ما اقتبست بعد اتصالهم بجيرانها في المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة ، ولكنهم على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين قد تعلموا النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض (مدين) . . فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ،

وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم ، ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر في مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام في تفسير القرآن الكريم .

ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher والأستاذ شميدت Shmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت في اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، إلا أن الأمر غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات . فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى النبوة في اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائي والنبي . وتاريخ النبوات العربية التي وردت في التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبي بدلا من كلمة الرائي والناظر . وتلمذة موسى لنبي مدين مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات الاسرائيلية ، وإن موسى الكليم ولا ريب لهو رائد النبوة الكبرى بين بني إسرائيل » :

« والمطلع على الكتب المأثورة بين بني إسرائيل يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعاً ، وأنهم بعد ارتقائهم إلى الايمان بالنبوة الالهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ، ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحاناً لصدق النبي في دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع كبار أنبيائهم ورسلهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال بالتنجيم . ففي أخبار صموائيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجرة على ردها . . (خذ معك واحداً من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأتن . . . فقال شاول للغلام : فماذا نقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدي ربع شاقل فضة) ويؤخذ من النبوءات التي نسبوها إلى النبي يعقوب جد بني إسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه في صناعة التنجيم . فإن النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير إلى أبراج السماء وما ينسب إليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوي أنهما أخوان سيوفهما آلات ظلم في مجلسهما لا تدخل نفسي ، لأنهما في غضبهما قتلا إنساناً وفي رضائهما عرقبا

ثوراً . . وهذه إشارة إلى برج التوأمين . وهو برج إلـه الحـرب زجـال عنـد البابليين . ويصورون أحد التوأمين وفي يده خنجر ويصورون أخاه وفي يده منجل ، وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذي يتعقبه التوأمان . ومن الأمثلة في هذه النبوءات المنسوبة إلى يعقوب مثل يهوذا (جرو أسد جثـا وربض كأسـد ولبؤة ، لا يزول غضب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب . . . وهذه إشارة إلى برج الأسد ، وهو عنـد البابلـين برجان يبدو أمام أحدهما برج يشير إلى علامة الملك الذي تخضع له الملوك[٦] إلى آخر ما شرحه الأستاذ أريك بروز Burrows في كتابه عن تنجيات يعقوب Oracles of Jacob

***

وقد عبرت هذه الأطوار في فهم النبوة شوطاً طويلا في حياة القبائل العبرية ، وتتلمذوا في كل مرحلة منها لأستاذ من هداة العرب نسـاكاً ورسـلا مبعوثـين بالرسالة أو أنبياء غير مبعوثين بها ، كما جاء في كتب التوراة وكما جاء في القرآن الكريم مما لم تذكره كتب الاسرائيليين ، وكله من شواهد التاريخ المعلوم عن سبق العرب إلى فهم النبوة وارتقائهم في الاستعداد لدرجاتها المنزهة عن شوائب الوثنية ، فضلا عما يفوتنا العلم به حتى اليوم من شواهد التاريخ المجهول .

٦ ـ من كتاب حقائق الاسلام وأباطيل خصومه لمؤلف هذه الرسالة .

ابراهيم وموسى وداود
يتعلمون

نحن نعلم أسماء بعض الأنبياء وأسماء الأمم التي بعثوا فيها ، ولكننا لا نعلمهم جميعاً ولا تحصيهم لنا كتب الأديان الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن . وفي ذلك يقول تعالى من سورة المؤمن : ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . » .

ونعلم من سير الأنبياء في التاريخ وفي الكتب الدينية أنهم يتعلمون من عباد الله الصالحين ، وفيهم من تنبأ وأرسل ومن لم يكن من الأنبياء أو المرسلين .

وفي سورة الكهف عن موسى عليه السلام وفتاه « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على مالم تحط به خبراً » .

وبين أكبر الأنبياء المعلومين عندنا ثلاثة من الذين بعثوا في العبريين وهم ابراهيم وموسى وداود عليهم السلام ، نعلم من أخبارهم في أسفار التوراة كما نعلم من أقوالهم فيها أنهم تتلمذوا لأناس من الأمة العربية ، وأن أساتذتهم سبقوهم ـ بداهة ـ إلى ثقافة الدين وإلى المعرفة الالهية التي يطلبها الأنبياء ويبحثون عنها .

وعلى أحد القولين يسمى إبراهيم عبرياً لأنه من نسل عابر بن سام .

وعلى القول الآخر يسمى عبرياً لأنه هو وقومه عبروا النهر إلى أرض كنعان

وعلى كلا القولين ينتمي إبراهيم إلى قبيلة سامية من الجزيرة العربية ، ويتنقل بين أرض آرام في المشرق وأرض كنعان في المغرب ـ وكلتاهما موطن المتكلمين بالعربية على أقرب لهجاتها وأطوارهـا إلى اللغـة العـربية الحديثـة ، فالعـرب العاربة كما تقدم تنتمي كلها إلى الأرمان ، وأبناء كنعان ينسبـون إلى أرضهـم الواطئة على أشهر الأقوال . وهي من مادة « كنع » . تشبهها في لغتنا الحديثة مادة « قنع » ومادة « خنع » في الدلالة على الخفض والاطمئنان .

وقد تحول إبراهيم من أرض النهرين إلى أرض كنعان فروى لنا سفر التكوين من التوراة في إصحاحه الرابع عشر أنه تلقى البـركة من ملـكي صادق . . . « وكان كاهناً لله العلي ، وبـاركه وقـال : مبـارك ابـرام من اللـه العلي مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك » .

وقد أعطاه ابراهيم العشر من كل شيء قرباناً إلى الله .

ويقول الانجيل في رسالة العبرانيين إن السيد المسيح صار « على رتبة ملـكي صادق رئيس كهنة إلى الأبد » .

ويقول بعد ذلك في الاصحاح السابع عن ملكي صادق : « إنه لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله . هذا يبقى كاهنـاً إلى الأبـد . ثم انظروا ما أعظم هذا الذي أعطاه إبراهيم رئيس الآباء . . » .

فالتوراة والانجيل معاً يصفان الكاهن الكنعاني بصفة الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذي لا يحده الزمان ، ويرفعانه إلى المنزلة التي يتلقى منها إبراهيم بركة الاله العلي : إله السماوات والأرض . ولا يكون ذلك لانسان تعلم من إبراهيم ديناً لم يكن يعرفه ، وإنما يكون لاستـاذ متقـدم في العلـم بدينـه يتعلـم منـه إبراهيم .

وليس بين الأنبياء الذين دان لهم العبريون بعد إبراهيم من هو أكبر مقاماً من موسى عليهما السلام ، ومن الناس من يقدم موسى على من عداه من أنبيائهم بفضل الشريعة والقيادة الظافرة إلى أرض الميعـاد ، وأنهـم على مكانتـه هذه ليثبتون عنه في سفر الخروج أنه تعلم من نبي « مدين » العربي الذي يدعونه يثرون وجوآب ، ويدعوه العرب باسم شعيب . . ولا التباس في أمـر نسبتـه

العربية بجميع الأسماء .

ففي الاصحاح الرابع من سفر الخروج أن موسى عليه السلام استأذنه في العودة إلى مصر قبل رسالته : « فمضى موسى ورجع يثرون حميه وقال له : أنا اذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء . فقال يثرون لموسى : اذهب بسلام » .

وفي الاصحاح الثاني عشر بعد رواية أخبار موسى من ذهابه إلى عودته : « أن يثرون أخذ محرقة وذبائح لله ، وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاماً مع حمي موسى أمام الله » .

ومعنى هذا أن شعيبا كان يقرب القرابين إلى الله ويتبعه موسى وهارون وجميع شيوخ إسرائيل .

ثم يستطرد الكتاب قائلا : « وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضي للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء . فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب . قال : ما هذا الأمر الذي أنت صانع للشعب ؟ ما بالك جالساً وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء ؟ فقال موسى لحميه : إن الشعب يأتي إلي ليسأل الله إذا كان لهم دعوى يأتون إلي ، فأقضي بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال حمو موسى له : ليس جيداً هذا الأمر الذي أنت صانع . إنك تكل أنت وهذا الشعب الذي معك جميعاً . لأن الأمر أعظم منك ، لا تستطيع أن تصنعه معك . الآن اسمع لصوتي فأنصحك ، فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله ، وقدم أنت الدعاوى إلى الله ، وعلمهم الفرائض والشرائع ، وعرفهم الطريق الذي يسلكونه ، والعمل الذي يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوي قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة ، وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ، فيقضون للشعب كل حين ، ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها إليك ، وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها ، وخفف عن نفسك ، فهم يحملون معك إن فعلت هذا الأمر وأوصاك الله تستطيع القيام ، وكل هذا الشعب أيضاً يأتي إلى مكانه بسلام . فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال ، واختار موسى ذوي قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء

خماسين ورؤساء عشرات ، فكانوا يقضون للشعب كل حين . . » .

ومعنى هذا أن شعيبا تقدم موسى إلى عقيدته الالهية ، وعلمه تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء في قومه ، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبي العربي ولم يكونوا معلمين .

***

ويأتي داود ، عند العبريين ، بعد إبراهيم وموسى في مقام النبوة ، وهو رأس البيت المالك الموعود بالملك الأبدي في هذا العالم ، ورب الأسرة التي ينتظرون الخلاص على يدي ملك من ملوكها يعود إلى صهيون آخر الزمان . وقد كانت الصلة بينه وبين البلاد العربية متجددة متبادلة كما يفهم من قصة ابنه سليمان وصاحبة عرش سبأ في جنوب بلاد العالم ، ولكننا لا نملك من الوثائق ما نستند إليه في تقدير آثار هذه الصلة من الناحية الدينية ، وإنما نعلم من الوثائق التاريخية التي سجلها المؤرخون الأوربيون عن آثار اخناتون أن المشابهة قريبة جداً بين مزاميره وصلوات ذلك الملك الذي تقدم بالدعوة إلى التوحيد في مصر القديمة . . .

« وقد عقد كل من هنري برستيت وارثر ويجال Weigall مقارنة بين بعض الصلوات وبعض المزامير فاتفقت المعاني بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات ، ومن أمثلتها قول اخناتون :

« إذا ما هبطت في أفق الغرب اظلمت الأرض كأنها ماتت فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها » .

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه : « إنك تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ولتلتمس من الله طعامها » .

ويمضي المزمور قائلا : « تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض . والانسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء . . ما أعظم أعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت . والأرض ملآنة من غناك وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف . . . وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار . هناك تجري السفن ، ولوياثان ـ التمساح ـ خلقته ليلعب فيه . . »

« ومثله في صلوات اخناتون : (ما أكثر خلائقك التي نجهلها أنت الاله الأحد الذي لا إله غيره . خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالانسان والحيوان الكبار والصغار . . . تسير السفن مع التيار وفي وجهه وكل طريق يتفتح للسالك لأنك أشرقت في السماء ، ويرقص السمك في النهر أمامك وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار ، وتضيء فتزول الظلمة . . . وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك ويمضي سكان العالم يعملون » .

وأيا كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع المقرر أن اخناتون سبق داود بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن العبريين لم ينشئوا هذا المذهب في الصلوات الدينية قبل شعوب العالم في جوارهم ، ولا في غير ذلك الجوار .

***

على أن الجوار الملاصق لمساكن العبريين حيث تنقلوا بين أرض آرام وأرض كنعان لا يشير إلى غير علاقة واحدة بينهم وبين جيرانهم ، وهي علاقة التابعين بالسابقين عليهم في الثقافة الدينية على التخصيص وفي الثقافات الفكرية على الاجمال .

فمن قبل أيام موسى كان النبي العربي « أيوب » في أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبادة الكواكب والأوثان ويدعو إلى المساواة بين الحر والعبد قائلا متسائلا : أليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحد في الرحم ؟

والشراح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه إلى نزاهة التوحيد وتفضيل كتابه في هذا المعنى على كتب الأنبياء أصحاب الأسفار في العهد القديم . ومن هؤلاء الشراح إسرائيليون كالمستشرق مرجليوت الذي يقول في كتابه عن العلاقات بين العرب والاسرائيليين « إن أسلوب المتكلمين عن التوحيد في هذا السفر أنزه من أسلوب الأنبياء الاسرائيليين الذين كانوا يضطربون في بيئة وثنية ، خلافاً للمتكلمين في سفر أيوب فإن البديل من الوحدانية عندهم هو الالحاد والجحود » .

ويحقق بعض المؤرخين زمان أيوب عليه السلام بمراصد الفلك مما ذكره في أسماء النجوم والمنازل كالنعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب وعين الثور ، وقلب العقرب ، فيرجحون على رأي أشهرهم هالس Hales أنه وجد قبل الميلا

بثلثمائة وألفي سنة . وقد أدخله جامعو التوارة في العهد القديم لأنهم حسبوه تارة من كلام موسى وتارة من كلام سليمان ، وكان جامعو النسخة السريانية من التوراة يضعون كتابه بعد كتب موسى وقبل كتاب يشوع ، ولكنه أقدم من ذلك ولو لم نأخذ بتقدير الفلكيين . . . لأنه لم يذكر شيئاً عن قصة الخروج من مصر وهي أهم القصص في تاريخ العبريين ، فلا يسكت عنها من سمع بها في برية بلاد العرب ، ولا بد أن يسمع بها من أقام هناك بعد خروج العبريين من مصر إن كان زمان أيوب بعد زمان موسى عليهما السلام .

***

وفي أيام موسى عليه السلام كان العبريون يحتكمون إلى نبي من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه بلعام ، ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان . ويقول سفر العدد إنه حكم للعبريين على الموآبيين وأيد نبوءات يعقوب .

وما لم يذكره العبريون في كتبهم عن النبوءات في بلاد العرب أكثر مما ذكروه ، فإنما عناهم في سجلاتهم أن يذكروا التزكية والتأييد ، ولا يذهبوا مذهب الاستقصاء في تسجيل جميع النبوءات التي سمعوا بها . وقد يكون هنالك ما لم يسمعوا به ولم يكن مما يرتضونه لو أنهم سمعوه .

فليس سكوتهم عن هود وصالح وذي الكفل الذين ذكرهم القرآن الكريم بحجة على خلو البلاد العربية من الأنبياء غير من ذكروه ، وما كانت قبائل عاد وثمود لتخلو من رسل الدين . وقد قام هؤلاء الرسل بالدعوة في مدين وتيماء قبل الدعوة الموسوية ، وإنما أعرض العبريون عن ذكرهم لأنهم جعلوا مصيرهم بعد قيام مملكتهم مرتهناً بمصير بيت المقدس ، وسكتوا قصداً عن « الجنوب » بعد أن كانت قبلتهم كلها إليه .

فهم قد درجوا من أرض الجنوب في الجزيرة العربية ، وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون إلى مواطنهم الأولى ويترقبون الحكمة منها .

فإبراهيم توجه إلى جيرار ، وموسى توجه إلى مدين ، وكان أرميا يهتف في مراثيه سائلا : ألا حكمة بعد في تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ » . . . وتيمان تقابل في لغتنا الحديثة كلمة يمن بجميع معانيها .

بل بقيت عادة التوجه إلى الجنوب عند رسل القوم إلى ما بعد قيام المسيحية .

فكان بولس الرسول يقول في كتاب غلاطية إنه ذهب إلى بلاد العرب قبل مسيره إلى دمشق .

أما تركيز القداسة في أورشليم فهو شيء جديد طارىء بعد أيام موسى بزمن طويل ، فبقيت أورشليم في أيدي اليبوسيين بعد موسى بقرون عدة ، ولم يطردهم منها أبناء بنيامين بعد نزولهم بجوارها ، وبعد أيام داود جاء ملك من ذرية إبراهيم - يسمى يهواش - فهدم سورها وأخذ ودائع الذهب والفضة من خزائنها . وقال سفر الملوك عنه : إنه مات فاضطجع مع آبائه ، أي مات مرضياً عنه في اصطلاحهم المألوف

إنما تحول القوم باتجاههم من الجنوب إلى بيت المقدس بعد ارتباط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعليق أملهم في الخلاص بعودة الملك إلى ذلك البيت في آخر الزمان .

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون به ويتعلمون منه ، ولم يأخذ منهم الجنوب شيئاً من ثقافته الدينية في أيام دولتهم ولا بعد أيامها . ولن تكون الدعوة المحمدية التي ارتفعت من بلاد العرب فرعا من هذا الأصل الذي لم يتأصل قط في الوحدانية . فإن الدعوة إلى عبادة رب العالمين دين لا يلتقي بدين العصبية المنعزلة في طريق واحد ، وإن نبوة الداعي الذي لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز من النبوة لا يختلط بالتنجيم .

اللغة والكتابة

وفد العبريون من جنوب الجزيرة ـ على القول الراجح ـ إلى وادي النهرين ، ثم هاجروا من جنوبه إلى شماله ، وانحدروا ـ من ثم ـ إلى أرض كنعان ، وكانت لهم لهجة من لهجات اللغة السامية الكبرى قريبة من سائر هذه اللهجات التي كان يجري الخطاب بها بين قبائل آرام وكنعان ، ويسهل التفاهم بها في جملتها مع اختلاف يسير كاختلاف المتكلمين في القطر الواحد بين اقليم وإقليم .

ومن الواضح أنهم كانوا يبتعدون عن مصدرهم الأول في اللغة كلما ابتعدوا عن موطنهم القديم في الجنوب ، فأصبحوا بعد هجرتهم الطويلة يتداولون من الأسماء والأعلام مالا يفهمون معناه ولا وجوه تصريفه ، وهو في لغة « سبأ » من جنوب الجزيرة مفهوم المعنى والمصدر الذي تصرف منه بلفظه واشتقاقه ، ويقول مرجليوت في كتابه المتقدم ذكره عن العلاقة بين العرب وبني إسرائيل : « ومن المحقق أن هذه الكلمات لم تأت من فلسطين إلى سبأ ، ولعلها قد جاءت من سبأ إلى فلسطين » .

ولم تزل لهجة العبريين تنعزل عمن حولها كلما أمعنوا في اعتزال الأمم بعبادتهم واعتقادهم التفرد بينها بنعمة الله ورجائه ، بل باعتقادهم أن « يهوا » إنما يحقق لهم ذلك الرجاء بتدمير جيرانهم وتمكينهم من رقابهم ، فلا سبيل إلى المشاركة باللغة مع هذا الحاجز القائم بين الفريقين ، وأصعب ما يكون التفاهم باللغة حين تستخدم هذه اللغة في العبادة والشعائر المقدسة حين تكون العبادة

والشعائر حكرا لمن يدينون بها ولا يقبلون من غيرهم أن يشاركهم فيها .

وقد تحجرت اللغة العبرية في هذه العزلة واستطاعت مع هذا التحجر أن تعيش في عصر المملكة وفي إبان الشوكة والسيادة برعاية الملوك والكهان ، ولكنها كانت تعيش في الهيكل وتوابعه من « الكنيسات » التي يشرف عليها الأحبار المتعلمون المزودون بالثقافة ، وكان أصحابها يتكلمون مع غيرهم خارج المعابد فيضطرون إلى مخاطبتهم تارة باللهجات السامية الأخرى وتارة باليونانية العامية ، وقد يتعلمها بعضهم ويتعلم الكتابة بها على خلاف هوى المتعصبين من الهيكليين والغلاة .

وكانت هذه العبرية حين تحجرت ووقفت عن التطور لهجة ساذجة قليلة العدة ناقصة التصريف . ويقول فولتير في المعجم الفلسفي تحت كلمة آدم : « إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جداً وقرأوا قليلا جداً ، وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعيات ، فلم يعرفوا شيئاً من تواريخ الأمم ولم يأخذوا في التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حيث شرعوا في اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجاً من الفينيقية القديمة والكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها أنها لا تحتوي كثيراً من الأزمنة في أفعالها » .

ومن المسلمات المفهومة بين العارفين بالعبرية والعارفين بتاريخها أنها أخذت من اللهجات السامية ولم تعطها شيئاً جديداً من فنون التطور في قواعدها أو آدابها . فوقفت حيث بدأت وتركتها اللهجات السامية واقفة في مكانها وهي تتطور وتترقى إلى الشأو الذي بلغته في الأزمنة الحديثة ، ولم يكد عصر المملكة اليهودية أن ينقضي حتى كانت اللغة العبرية منقضية بين أهلها في الخطاب وفي الكتابة ما خلا الصلوات والعبادات ، ثم انهزمت بين جدران المعابد وعلى ألسنة الأنبا وانكهان ، وخلفتها اللغة الآرامية في معاملات الدين ومعاملات المعيشة اليومية ، ثم مضى العصر بعد العصر إلى زماننا هذا فأصبح قراء التوراة بالعبرية أقل عدداً من قرائها بأصغر اللغات .

ولا يعزى هذا إلى مجرد سقوط الدولة اليهودية ولا إلى نقص في عدد العبريين الذين يدينون بكتبهم المقدسة . فإن الدولة الآرامية في وادي النهرين سقطت وسقطت بعدها دول الآراميين المتفرقين بين أنحاء البادية ، ولم تزل لغتهم الآرامية تنتشر وتتغلب على نظائرها من اللهجات السامية واللهجات الأجنبية التي تسربت إلى مواطنها من سائر الأقطار . وإنما يعزى سقوط العبرية إلى

عجزها عن « الانتاج » الذي ينفع الناس ، فلم يكن عندها ما تعطيه ولم تكن وعاء صالحاً يستودعه خدام الفكر والمعرفة ما يعطون .

***

أما الكتابة فهي من أبرز المسائل التي تمتحن بها قدرة العبريين في تاريخهم القديم على الانتاج والتصرف في شؤون الفكر والثقافة ، وهي كذلك من أبرز المسائل التي تمتحن بها بواعثهم الفكرية التي تدعو الأمة المنتجة إلى اختراع الوسيلة للافضاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات الانسانية وأماناتها .

أقام العبريون في مصر عدة قرون وأقاموا في سيناء عدة سنين .

وفي مصر ـ كما هو معلوم ـ كانت نشأة الكتابة بالصور ، وفيها تطورت من الكتابة التصويرية إلى الكتابة المقطعية ، ثم تطورت من الكتابة بالمقاطع إلى الكتابة بالحروف التي يستقل كل حرف منها بصوت يدل عليه في كل كلمة مكتوبة .

ولقد كان ينبغي أن يسبق العبريون غيرهم من القبائل السامية إلى اقتباس الكتابة على أنواعها ، سواء أكانت بالصور أم بالمقاطع والحروف ، بل كان ينبغي أن تكون ألواح الشريعة التي تلقوها في سيناء باعثاً لهم على استكشاف الألواح المكتوبة في مناجمها بما عليها من الخطوط والحروف .

ولكن الواقع الذي يسجله تاريخ الكتابة أنهم لم يبتدئوا قط عملا من أعمال اقتباس الكتابة ، ولا من أعمال ترقيتها ونشرها ولا من أعمال التوفيق بينها وبين مخارج النطق في كلماتهم الملفوظة ، وإنما كانوا في كل مرحلة من هذه المراحل مستنفدين يأخذون مما سبقهم ويتحجرون عليه ، حتى تقسرهم على تغييره ضرورات المعاملة فيسري التغيير قهراً ـ مع الزمن ـ إلى كتابة الشعائر والعبادات .

فالكلمات العبرية التي وجدت في رسائل أمراء فلسطين إلى فرعون مصر منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت تكتب بالحرف المسماري كما حقق ذلك الأستاذ جمن Gimmun من أساتذة دار الفنون بليبزج[٧] .

---

٧ ـ كتاب الكنز في قواعد اللغة العبرية للدكتور محمد بدر .

ثم وجدت حروف عبرية تشبه الحروف التي وجدت على ضريح ميشاع ملك موآب .

وظل العبريون يكتبون بهذا الحرف إلى أيام سبي بابل ، فنقلوا الحروف المربعة عن الحروف البابلية ، وزادوا عليها حروف الحلق التي كانت شائعة على ألسنة الساميين بين بابل وكنعان ، وكلها من مصدر عربي كما لا يخفى ، لاختصاص النطق العربي بأكثر هذه الحروف .

وقد حفظ لنا المزمور التاسع عشر بعد المائة أسماء الحروف التي احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة ، لأنه جرى على طريقة التطريز في ابتداء كل مقطوعة بحرف من الحروف الأبجدية وهي في هذا المزمور على ترتيب (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) . . . إثنان وعشرون حرفاً منها خمسة يتغير نطقها بإغفالها من الاعجام أو بنقلها من اليمين إلى اليسار وهي الجيم والواو والكاف والشين .

ومن آثار الاقتباس من النطق العربي أن حرف الغين لم يكن موجوداً بين حروف المزمور ، فلما وجد بعد اختلاطهم بمن ينطقون العربية أضافوه وسموه غيمل أي على وزن جيمل . ويلاحظ أن (جيمل) بمعنى جمل عندهم . . أما غيمل فلا معنى لها غير المحاكاة اللفظية ، وإنما قاسوها إلى أقرب المخارج فكتبوها كما تكتب الجيم وحذفوا نقطة الاعجام للتمييز بينهما .

ولم يكن في نطقهم تمييز واضح بين الخاء والكاف ، فلما كثر التمييز بينهما على أسماعهم أيام تعلموا الكتابة جعلوا للخاء حرفاً سموه الخاف على وزن الكاف ، وكتبوه كما تكتب الكاف بعد حذف نقطة الاعجم .

ولما اتصلوا بأعاجم الشمال الذين ينطقون الواو « فاء » كما يقول بعض الطورانيين « فلا الضالين » بدلا من « ولا الضالين » ـ نطقوها مثلهم وجعلوا لها حرفاً كالواو في رسمه بعد حذف نقطة الأعجام .

كذلك أخذوا السين الآرامية المسماة بالارامية سمخ حين كتبوا بهذه اللغة ، لورودها في كلمات كثيرة من أسفار التوراة ، وهذا مع احتفاظهم بالسين ، لاختلاف النطق قليلا بين اللهجتين في أحرف الذلق وأحرف الصفير .

وليس في العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ولكنهم يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتفون بما يشابهها من حروفهم فيحدث الالتباس أحياناً في نقلها

إلى العربية . ويشتبه الأمر في البحث عن مصدر الكلمة من جراء هذا الالتباس ، كما يحدث في كلمة الناصرة هل هي من النصر أو من النذر أو من النظر . . ؟ وكلها مميزة المعاني والمخارج في العربية ملتبسة كما نرى في العبرية ، ويزيد الالتباس أن البلدة كانت قريبة من موقع نصر وكانت مسكناً للكثيرين من المنذورين للعبادة ، وكانت مرقباً يسهل النظر منه إلى ما حواليه .

وقد نقحت الكتابة العبرية مرة أخرى حوالي عصر الميلاد على هدى الكتابة الآرامية ، فلم تنجع الحيل في إحياء هذه اللغة التي قضي عليها بالموت لعزلتها وفراغها من مادة البقاء التي تكفل الحياة للغات بما تؤديه للعالم من رسالة انسانية وعقيدة عامة ، ثم هدم الرومان هيكل بيت المقدس فتفرق الكهان في الأرض واتخذوا اليونانية لغة لهم في مصر وأوربة ، واعتمدوا على ترجمة التوراة إليها أو إلى الآرامية للذين تخلفوا عن الهجرة في بلادهم ، وقد شاعت يومئذ تسمية الآرامية بالسريانية للتفرقة بين المتكلمين بها من المسيحيين ، والمتكلمين بها من أبنائها الذين لم يدخلوا في المسيحية ، ثم اندمجت السريانية المتطورة بعد ذلك في العربية القرشية على أثر ظهور الاسلام .

***

ولما كان القرن العاشر للميلاد أيقن أحبار إسرائيل ورؤساهم بضياع العبرية وقلة صلاحها للبقاء بالتعليم والتلقين في نطاق المعابد المحدودة ، فإنها لم تكن صالحة على حالتها في ذلك العهد للتعليم لخلوها من القواعد والأصول التي تحفظ اللغة من جيل إلى جيل . . فرجع الأحبار إلى النحو العربي يقيسون عليه ويستعيرون منه : وكتبوا « اجروميتهم » الأولى باللغة العربية مقرونة في بعض الأحيان بالترجمة العبرية وكان أول من اجتهد منهم في تحرير كلماتها وجمعها سعيد بن يوسف الفيومي - أو سعديا - صاحب معجم الأجارون وكتاب الفصاحة (٨٩٢ م) . وتلاه الرباني بن تميم البابلي ، والرباني يهودا بن قريش والرباني مناحم بن سروت الأندلسي ، والرباني سكوم بن جبيرول وغيرهم وغيرهم من تلاميذ العرب في المغرب ومصر والعراق.

***

وتتلمذ القوم على العرب في علم الكلام الاسرائيلي أو فلسفة اللاهوت ، فكان كل من فيلسوفهم ابن جبيرول (١٠٢١ - ١٠٥٨) الملقب بافلاطون اليهود وابن عزرا الغرناطي (١٠٧٠ - ١١٣٨) صاحب الغزل الصوفي ، وابن

ميمـون ارسطـو اليهـود (١١٣٥ ـ ١٢٠٤) تلاميذ للمدرسـة الرشـدية بالأندلس . وكان ابـن ميمـون يرى كما قال : أن وصـايا النـاصري ورجـل إسماعيل يعني محمداً عليه السلام تهدي الانسان إلى الكمال . ولهذا ثار عليه المتعصبون من قومه وسموا كتابه دلالـة الحائـرين بضلالـة الحائـرين . وأول هؤلاء ـ ابن جبيرول ـ وضع منظومة في النحو العبري على مثال النحو العربي فيما عدا قواعد الاعراب ، لأن الكلمات العبرية إما ساكنة أو مبنية ، لا تجري في تحريك أواخرها على قواعد الآرامية ولا على قواعد العربية الحديثة .

وأهم كتبه في اللاهوت « ينبوع الحياة » منظور فيه إلى التصوف الاسلامي في كثير من التفصيلات .

* * *

ولم ينبغ بين اليهود من الفلاسفة العالميين من هو أشهر من باروخ سبنوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) الذي نشأت أسرته في البلاد الألمانية ، وتوفر في صباه على دراسة كل من ابن ميمون وابن عزرا ، ثم خلفه المشتغلون بالفلسفة من اليهود بعد ظهور الفلاسفة الكبار من الألمان . فكان القوم كعادتهم مستفيدين في هذا الفرع الواسع من فروع الثقافة الانسانية كشأنهـم في كل ثقافـة تلقوهـا بـين الأقدمين والمحدثين .

وكانوا حيثما اشتركوا مع العرب في ناحية من نواحي المعرفة والعقيدة تابعين مسبوقين ولم يكونوا قط سابقين لهم أو مرشدين .

الشعر

إذا كان في نشأة الشعر العربي من الحداء بعض الشك ، فليس هنالك أقل شك في الصلة الوثيقة بين الحداء والشعر في تطور تركيبه وتوفيق أوزانه وتقسيم أعاريضه . لأن أوزان الشعر التي نظم فيها شعراء الجاهلية تنتظم فيها الأعاريض جميعاً مع حركة من حركات الابل في السرعة والأناة . فلا خفاء بهذه الحركة السريعة في هذا البيت .

أنـا النبي لا كـذب

انـا ابن عبـد المطلب

ولا خفاء بالحركة المتمهلة في هذا البيت :

ما للجمـال مشيها وئيـداً

أجندلا يحمـلن أم حديدا

ولاخفاء بحركة الابل على اختلافها وما يناسبها من أوزان الحداء في كل بيت ينتظم من أمثال هذه التفاعيل .

والحداء نفسه مناسبة شعرية تستوحي الغناء في ليالي البادية القمراء ، بين الحنين إلى الموطن الذي بارحه الركب ، والأمل في المنتجع الذى يتنقل إليه ، وليس لترديد الغناء ـ بمعانيه الشعرية ـ مجال أقرب إلى الحياة البدوية وألصق بها من مجال الحداء .

فلا نزاع في الصلة الوثيقة بين الحداء ووزن الشعر العربي ، فإن لم يكن كل ما نظمه العرب حداء يتغنى به الحداة فعلا ، فهو وزن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغماته وأعاريضه .

والمرجح إلى جانب هذا أن حداء الابل كان له عمله المحسوس في التزام القافية ، سواء بدأت القافية في سجع الكهان كما يرى الكثيرون ، أو كان ابتداؤها في غناء الحداة .

فالمشاهد من أشعار الأمم في لغات متعددة أن القافية تلتزم في الشعر المنفرد ، أي الشعر الذي يتغنى به ناظمه وراويه ، ويصغي إليه المستمعون دون أن يشتركوا في الغناء ، ويلاحظ هذا في أغاني المنشدين الحماسيين أو المتغزلين التي يسمونها Ballads (بللاد) في بعض اللغات الأوروبية ، كما يلاحظ في الموشحة Sonnet التي يتغنى بها العاشق لمعشوقته في البلاد اللاتينية حيث كان منشؤها الأول ، وقيل إنهم استعاروها من الموشحة العربية .

وتهمل القافية غالباً في أناشيد الجماعات سواء كانت مسرحية أو دينية كما يرى في أناشيد اليونان والعبريين ، وسر ذلك ظاهر لمن يريد أن يختبره في حالة الاصغاء ، أو حالة الاشتراك في الغناء . .

فإن السامع المصغي إلى ترتيل غيره يحتاج إلى تنبيه السمع وانتظار مواضع الوقوف والترديد ، فيعرفها من القافية المتتابعة في مواضعها .

أما المنشد المشترك في الغناء فهو يعلم مواضع الايقاع ومواضع الابتداء والانتهاء ، فيغنيه الاشتراك في الايقاع عن انتظار مواضع الوقوف ، وعن تنبيه غيره له بالقافية إلى تلك المواضع ، وقد نتبين هذا الفارق فيما ننشده بأنفسنا ولو كان من الكلام المنثور ، فإننا نتبع الوزن في هذه الحالة ولا يعنينا أن نترقب القافية بل لا يعنينا أن نترقب شيئاً غير الاسترسال في النغم إلى نهاية الكلام ، كيفما كان منتهاه مقفى أو بغير قافية ، شأنه في ذلك شأن اللحن الموسيقي الذي خلا من الكلمات ، فلا يلتفت فيه إلى غير امتداد النغمة حسب أوزان الايقاع .

وكثيراً ما خطر لنقاد الغرب أن هذه القوافي والبحور في وزن الشعر خاصة من خواص الأمزجة السامية خالف الساميون بها الأوربيين لمخالفتهم إياهم في تكوين الفطرة وخصائص العناصر البشرية .

لكنهم فهموا بعد تواتر البحث في أشعار اللغات السامية أن القافية غير ملتزمة في جميع تلك اللغات ، وأن كثيراً من الشعر المنظوم فيها خال من البحور والأعاريض ذات التفعيلات المتكررة ، كأنه فواصل النثر التي تنقسم إلى جمل متقاربة ولا تنقسم إلى شطور متساوية في حركات الأسباب والأوتاد على اصطلاح العروضيين .

فلا بد إذن من البحث عن سبب غير الأمزجة العنصرية ، ولا بد أن يكون اختلاف الانشاد هو سبب هذا الاختلاف بين العرب وسائر الشعوب السامية . فإن شعوب وادي النهرين ألفت أناشيد الكهان في الهياكل فترخصت في القافية كما ترخصت فيها الشعوب الآرية التي يتغنى فيها الناس مجتمعين ، وقد ألف العبريون العبادة معاً منذ كانوا قبيلة واحدة تنتقل بحذافيرها ، وتبتهل بحذافيرها إلى معبودها في حظيرة واحدة . ولم تألف قبائل البادية العربية نوعاً من أنواع الأناشيد المجتمعة ، فغلبت على شعرها أوزان القصيد المفرد وقوافيه .

ويرى بعض علماء اللغات السامية أن الكلمة التي تفيد معنى الشعر فيها واحدة مأخوذة من أصلها العربي مع قليل من التحريف طرأ عليها بعد انتشار الساميين في وادي النهرين وبادية الشام وأرض كنعان . ويقول العالم القس الأب مرمرجي في كتابه المعجميات : « إن لفظة الشعر كانت تدل قديماً على الغناء وإن لم ترد بهذا المفهوم في المعاجم التي بين أيدينا . ويمكن الاستدلال على ذلك بوسيلة المقارنة الألسنية السامية . إذ اننا نجده في أقدم اللغات السامية من حيث الآثار المكتوبة ، أي اللغة الأكدية كلمة (شيرو) الدالة على هتاف الكهان في الهياكل ، ومن الأكدية انتقلت اللفظة إلى العبرية بصورة (شير ، وشيره) ومعناها النشيد ، ومنها صيغ الفعل المرتجل (شير) بمعن أنشد وغنى ، ثم إلى الآرامية بصورة (شور) بمعنى أنشد ، رنم ، غنى . ومن ذلك جاء اسم سفر من أسفار العهد القديم وهو (شير هشيريم) أي نشيد الأناشيد ، وقد ورد الفعل العبري (شير) في أقدم أثر للغة العبرية وهو نشيد النبية دبورت ، يليه مرادفه (زامر) وكلاهما بصيغة الحاضر (اشيره) أي أنشد وأزمر . والجدير بالملاحظة كما أشار إلى ذلك لانجدون **Langdon** أن العبارة الأكدية (زامار شيري) تطابق كل المطابقة العبارة العبرية (مزمورشير)

ومفرداهما في العبرية (مزمور ، نشيد ، أو شعر) . . هذا ومعلوم أن أغلب الأحرف الحلقية ، ومنها العين ، قد سقطت في الأكدية ، أو أنها كانت تلفظ دون أن تمثلها علامة في الكتابة ، لأن الرسم المسماري المستعار للأكدية السامية من الشمرية غير السامية ـ كان خالياً من العلامات للحلقيات ، لخلو الشمرية منها ، ولهذا جاز لنا افتراض أن كلمة (شيرو) كان أصلها أو لفظها (شعرو) إلا أنها ولجت العبرية والأرامية وهي خلو من العين كما كانت مصورة في الرسم المسماري . أما العربية فقد ظهرت أو بقيت فيها العين الأصلية . . على أن العربية والعبرية قد احتفظتا بالكسرة المحركة بها الشين في الأكدية (شيرو) فجاء في العبرية (شير) وفي العربية (شعر) والكلمة (شيرو) مشتقة حسب معناها في الأكدية والعبرية أي معنى الهتاف ثم الغناء . . » .

ولا غرابة في أن تكون كلمة (الشعر) في لغة الجزيرة سابقة لمرادفاتها في وادي النهرين وأرض كنعان ، لأن الجزيرة كانت مصدر الهجرات المتوالية إلى تلك المواطن كما تواتر في أشهر الأقوال .

على أن المعلوم لنا الآن من أطوار الشعر في اللغات السامية أنه تحول في الآرامية والعبرية من الفقرات المسجوعة على نحو أسجاع الكهان إلى السطور المتوازية على نسق قابل للترنم والانشاد ، ثم توقف به التطور عند هذه المحاولة لارتباطه بالشعائر الدينية . وهذا بينما تطور النظم في بلاد الجزيرة العربية حتى أصبح (فنا) مميزاً بأوزانه وأقسامه التي تعرف بأسمائها دون أن تنسب إلى ناظم معلوم ، على حين أن القصائد العبرية لا تعرف باسم فني يدل عليها ، وإنما تعرف بأنها قصيدة كالتي نظمها هذا الشاعر او ذاك من شعرائهم المشهورين ، وتميز بعلامات خاصة ولا تميز على قاعدة عامة تغني عن الاشارة إلى ناظميها .

وبعض اللهجات السامية توقفت عند السطور المتوازية ، ولم تتطور بها إلى تقسيم الأوزان والتفاعيل الواضحة . فكان كثير من شعرها يخلو من التفاعيل والقوافي اعتماداً على مضاهاة السطر بالسطر والترنيم بالترنيم .

يقول الأستاذ جلبرت موري في بحثه عن الأوزان والأعاريض : « إن احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة . ففي اللغتين اليونانية واللاتينية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فيهما واضحة ، وإنما تدعو

الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف ، وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتغمض ، ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال ، بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور ، وقد اختلف الطابعون هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه إلى النسبة العددية . . وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم لا يلتزمون الأوزان . وأن انتشار القافية في أغاني الريف الانجليزية يقترن بالترخص في التزام الأعاريض » .

ويستطرد العلامة الناقد الأديب إلى الشعر الفرنسي فيقول : « إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد إحصاء المقاطع وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة . . . . نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القافية فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار الغربيين ذلك السبب الذي ذكرناه آنفاً ولم يذكره العلامة جلبرت موري : وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ الذي يحفظه المغنون جميعاً بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته . فإنهم في هذه الحالة ينساقون مع الايقاع بغير حاجة إلى القوافي عند نهاية السطور ، ولهذا نرى أن شعراء هذه اللغات بعينها يلتزمون القافية في أناشيد الأفراد ويكثرون من القافية في المقطوعات التي يرتلها المنشدون المعروفون باسم الـ Bards أو اسم (Minstrals) وكلهم يرتلون أو يترنمون بما ينشدون . . . فلا شعر في لغة من اللغات بغير إيقاع ، وقد يجتمع كله من وزن وقافية وترتيل في القصيدة الواحدة ، ولكنه اجتماع نادر في لغات العالم ميسور في لغة واحدة على أكمل الوجوه ، لامتيازها بالخصائص الشعرية الوافرة في ألفاظها وتراكيبها وهي اللغة العربية .

فالكلمات نفسها موزونة في اللغة العربية ، والمشتقات كلها تجري على صيغ محدودة بالأوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب ، وأفعال اللغة مقسومة إلى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والأمر ، وفي الأسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الأوزان ، ولا نظير لهذا التركيب الموسيقي في

لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا في كثير من اللغات السامية . فالذي يميز اسم الفاعل وزن متفق عليه في الأفعال الثلاثية والأفعال الرباعية أو الخماسية ، ولكنه في اللغات الأوربية يأتي بإضافة حروف لا يعرف لها وزن مقرر قبل الاضافة ولا بعدها .

ويجب أن لا نتعجل فنحسب أن هذا الفرق في الخصائص الموسيقية يرجع إلى الاختلاف بين الأمم الآرية والأمم السامية كما توهم بعض المستشرقين وبعض المتعجلين من كتابنا الشرقيين .

فاللغة العبرانية كما أسلفنا لغة سامية في أصولها ولكنها على ما رأينا خالية من الوزن والقافية ، وتستعيض منها بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر الأول وما يليه . وقد كان العبريون يجهلون فنون العروض عندهم حتى انكشفت للباحثين اللاهوتيين بعد ترجمة التوراة والانجيل واطلاع علماء اللاهوت على أصول اللغات التي كتبت بها أسفار العهدين القديم والحديث ، فانكشف للأسقف لوث Lowth في القرن الثاني عشر أن أشعار الكتابين لا تجري على وزن محدود وأن قوام الشعر عند العبرانيين سطر يرددونه لأغراض ستة ، وهي : المجاز والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة .

ومن أمثلة الترديد لمقابلة المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي قول المزامير : (من السيف أنقذ نفسي ، ومن يد الكلب أنقذ وحيدتي) .

ومن أمثلة الترديد للاستطراد قول أيوب : (هناك يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون فيستريحون ،

ومن أمثلة الترديد للتفسير قول المزامير : (من هو الانسان الخائف من ربه ؟ هو الانسان الذي يهديه الرب إلى طريق يرتضيه) .

وهكذا سائر الأمثلة في الأسطر المتوازية وإن زادت على سطرين ، وقد تزيد بعدد الحروف الأبجدية على طريقة التطريز في اللغة العربية كما يلاحظ في وزن المزمور التاسع عشر بعد المائة فإنه يتألف من اثنين وعشرين حرفاً ـ عدد أحرف الأبجدية ـ كل حرف منها يقترن بسطر من المزمور .

وعلى هذه القاعدة بني النظم في العبارات الموقعة التي ترددت في العهد الجديد ، وقد أتينا بأمثلة منها في كتابنا (عبقرية المسيح) نكتفي منها بهذا المثل

من وصايا السيد المسيح :

« أسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟

« ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

« فاذا كنتم وأنتم أشرار تحسنون العطاء للأبناء فكيف بالأب الذي في السماء ؟ » .

***

فالخواص الشعرية التي امتازت بها لغتنا العربية ليست من خواص اللغات السامية ، وليس لها نظير في العبرية ولا في الكلدانية ولا في معظم اللهجات التي تفرعت على أصول الكلام عند الساميين ، ولكنها خواص ممتازة تنفرد بها هذه اللغة لأسباب كثيرة لا داعي لاحصائها في هذا المقام ، ولا نحب أن نعرض منها للأمور التي يطول فيها الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والأهواء . إذ كان امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال ، فالأذن العربية تميز بين الظاء والضاد ، وبين الذال والدال ، وين الحاء والخاء والهاء وبين الصاد والسين والشين ، وين الجيم والغين والعين ، وبين القاف والكاف والخاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الأخرى بين هذه الحروف ، وإذا وجدت في تلك اللغات حروف لا تنطق بالعربية كالفاء والباء الثقيلتين فهما في الواقع حرف يصدر من مخرج واحد بين التخفيف والتثقيل ، وليست ذات قيمة موسيقية مستقلة كالحروف التي ذكرناها في اللغة العربية .

ومن العلامات الموسيقية المركبة في بنية الكلمة أننا نميز بين الحركة وحرف العلة على خلاف اللغات غير السامية ، فعندنا الواو والضمة وعندنا الياء

والكسرة ، وعندنا الألف والفتحة ، وعندنا السكون وما يشبهه من التنوين . . وأدل من ذلك على الموسيقية الطبيعية بناء المشتقات على الأوزان واختلاف معنى الكلمة باختلاف الصيغة التي تبنى عليها .

ويماثل هذا من الدلائل البدائية التي تحسب من حروف الأبجدية في علم الموسيقى أن الغربيين يسقطون (الكوما) من الأصوات المحسوسة ، وأن الموسيقى الشرقية تحسب الصوت الذي يسمع من ربع (الكوما) وهو همزة تأتي من نصف مليمتر في الوتر الذي يبلغ طوله متراً كاملا ، وتسمى لهذا في اصطلاحهم بالذرة الموسيقية .

***

ونستخلص مما تقدم أن فن الصياغة الشعرية سلك في تطوره ثلاثة مسالك متفاوتة في أمم شرقية وغربية لا تنتمي إلى سلالة واحدة ، وبينها من الاختلاف كما بين الصين وأوربة الحديثة ، أو كما بين الشعوب السامية واليونان في العصور الغابرة .

ففي بعض الأمم يتوقف هذا الفن عند السجع الذي يتردد في الفقرات القصيرة كسجع الكهان ، فإذا طالت القصيدة روعي فيها تنسيق الأسطر المتوازية يترنم بها الجماعة في أناشيد العبادة أو التمثيل ولا تراعى فيها القافية .

وفي أمم أخرى تراعى القافية ولا يراعى الوزن إلا بالمقدار الذي يسمح بمساوقة الغناء والترتيل . ويلاحظ ان شعوب الصين التي غلب عليها هذا التطور وظهرت القافية في صياغة شعرها قد عرفت الجمل والخيمة ولا يزال مسكنها المعروف « بالباجودا » مبنياً على أشكال الخيم البدوية وأوضاعها .

وفي الأمة العربية وحدها تم التطور فانتظم الوزن بتفعيلاته وأسبابه وأوتاره وروعيت فيه القافية ، وقامت صياغة الشعر فناً خالصاً مستقلا عن الغناء ، يعرف بأسماء بحوره وقواعد أوزانه ولا يلحق بشخص هذا الناظم أو ذاك في تعريف أساليبه وتمييز أقسامه .

ولا يعزى هذا الفارق النادر إلى الحداء وحده أو إلى انفراد الحادي بالغناء ، بل يعزى إليهما معاً مقترنين بتلك الحساسة السمعية التي تفرق بين مخارج الحروف ودقائق النغم ، وهي مشتركة غير مميزة في لغات كثيرة .

ولسنا هنا بصدد البحث في موضوعات الشعر ولا في مذاهب الشعراء ، فإنه معرض من البحث لا سبيل فيه إلى ترتيب السابق والمسبوق ، إنما يعنينا السبق المحقق بشواهد الحس والواقع وهو السبق إلى فن الصياغة الشعرية ، فلا نزاع هنا في تطور هذا الفن بين عرب الجزيرة قبل تطوره بين العبريين من القبائل السامية ، وبين اليونان من الشعوب الهندية الجرمانية .

. . . ونهاية المطاف

ولعلنا في نهاية المطاف قد اتضح لنا المقصد الذي توخيناه وأجملنا بيانه في كلمة التمهيد لهذه الرسالة . فهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية في ميادين الثقافة والحكم عليها أبداً ، وفي جميع الأحوال ، بأنها تبع مسبوق يقتدي باليونان في ثقافة الفكر ، وبالعبريين في ثقافة العقيدة ، وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون .

وقد لج الأوربيون في هذه الدعوى لجاجة بغيضة تتكشف عن سوء نية ، ويبدو عليها كأنها تتعسف في البحث عن أسباب التجني والانكار فتخلقها خلقاً وتحيد عن الطريق السوي حيداً ، لكي تنتهي من ذلك إلى قدح في الطبيعة العربية وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سواها ، حيثما تكون .

فقد يترخصون أحياناً في نسبة الفضل القومي أو العنصري إلى سلالة هندية ، لأن الأوربيين يدخلون في الجامعة الهندية الجرمانية ، إذا دعت الضرورة .

وقد يترخصون في نسبة الفضل القومي أو العنصري إلى سلالة صفراء أو طورانية ، لأنهم قد يعادونها اليوم ولكنهم لم يرثوا من أجدادهم عداوة لها من عصبيات القرون الوسطى .

وقد يترخصون في نسبة الفضل القومي أو العنصري إلى العبريين ولو كان المترخصون ممن يعادي اليهود في المنافسات الاقتصادية أو العملية ، لأنهم لا

يعدمون بينهم وبين هؤلاء اليهود صلة قديمة حين كانوا يوماً من الأيام شعب التوراة ! . .

أما الأمة العربية فلا رخصة معها من هذه الرخص التي يصطنعها أعداؤها المتعصبون عليها ، بل تختفي كلها ويحل محلها عداء الميراث التاريخي ، وعداء الاستعمار ، وعداء الجهل ، وعداء الأنانية التي تغري الجماعات أحياناً بالتحزب والأثرة كما تغري الآحاد من الناس . فليس أيسر من تصديقهم لكل فرية تفترى عليها ، وليس أسرع من إنكارهم لكل محمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب إليها .

هذه اللجاجة البغيضة هي التي نريد أن نقضي عليها ونقضي على آثارها في أذهان المتأثرين بها من صرعى المذاهب الأجنبية بيننا نحن الشرقيين ، وهم ـ للأسف الشديد ـ غير قليلين .

ولكننا لا نريد أن نقضي عليها ونضع في مكان الخطأ المنكر خطأ آخر من قبيله .

لا نريد أن نمحو فضلا لصاحب فضل ، ولا أن نبخس حقاً لصاحب حق ، ولا أن نبطل احتكار المزايا الانسانية على أناس لكي ننقل هذا الاحتكار إلى أناس آخرين .

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدي المفترى عل أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الانسانية ، ويرجى أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهي في مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات .

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات « نصيب الأسد » إن صح هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر نصيب تصاب به الأمم ، منذ أيام الشعوبية إلى أيام الاستعمار والتبشير والآرية والشيوعية ! .

كان يقال عن العرب إنهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا بالدنيا .

وكان يقال « إنه لا يفلح عربي إلا ومعه نبي » .

وكان يقال إنهم لا يصلحون في دولتهم وفي غير دولتهم إلا محكومين .

وقالوا إن العرب لا يحسنون صناعة الحكم ولولا ذلك لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون .

وقالوا إنهم لا يحسنون فنون الحضارة ولولا ذلك لكان لهم فن جميل غير نظم القصيد .

وقالوا إنهم لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه في البادية من رعي الأبل والماشية ، ولولا ذلك لما غلبهم طراق بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة .

وكل أولئك الدعاوى الكبار أضعف من أن تثبت على النظر المتأمل لحظات ، فضلاً عن الثبات في مجرى التاريخ .

فمن هم أصحاب الدولة الذين داموا في مستعمراتهم أطول من دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهم أثراً أبقى على الزمن من آثارهم ؟

أهم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطان سادة الاستعمار الحديث ؟

إن الرومان خرجوا من كل وطن دخلوه ، ولم يستطيعوا أن ينشروا ديانتهم في أمة حكموها ، بل كانوا هم الذين انقادوا آخر الأمر لديانة المحكومين .

أما الانجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد أن سكنها منهم معظم المهاجرين إليها ، وقد خرجوا من الهند بعد أن استقروا في كل بقعة من بقاعها أكثر من قرنين ، ولم يمكث سادة الاستعمار القديم ولا سادة الاستعمار الحديث في مستعمراتهم كما مكث العرب في الأندلس .

والانجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثراً يقارب الأثر الذي أبقاه العرب في الأندلس وفي القارة الأوربية على الاجمال ، ومنه أثرهم في عصر النهضة وعصر الاصلاح .

وقصور الحمراء والزهراء وما يماثلها من القصور التي قامت في الشرق على نماذج الفن البيزنطي جواب ماثل للعيان لمن ينكر على الذوق العربي فناً جميلا غير فن القصيد . فكل هذه القصور مميزة بذوقها العربي على القلاع القوطية والأواوين الفارسية والعمائر الرومانية أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى إلى قيام الدعوة الاسلامية .

وطابع الذوق العربي هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ، وفروعها التي تتلاقى في عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة في هندسة البناء ، حيثما طبعته بطابعها على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى .

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء ، ولكن العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية ، فسمي البحر كله باسم بحر العرب ، وسمي الشاطىء الشرقي من سواحل أفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الافريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون .

والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذي بلغ بها ما بلغه العرب في الهند وأندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

إنما بلغت على أيديهم أن تكون فتحاً في عالم الروح ، ولم تكن فتحاً في عالم المال وكفى ، إذ أصبح في تلك البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك التجار الناجحين .

هذه الوقائع تصحيح بين لدعوى العصبيات الجنسية يرشد العقل البشري إلى الصواب في مسألة من أخطر المسائل العالمية ، ذات الأثر المتشعب إلى كل زاوية من زوايا العالم ، وكل علاقة من علاقات بني الانسان .

نعم ، هي تصحيح للعقل البشري يأتي في أوانه وليس قصارى الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة لهم من أقاويل دعاة العصبية المستعمرين والشعوبيين والمرددين لأصداء الغابر المهجور .

والرأي الجلي في هذه الدعاوى العصبية إذن أنها من قبيل « الاشاعات » التي تروجها المصالح إلى حين ، ولكن هل هي إشاعات تبتدىء وتنتهي حول النزاع على المصالح ومفاخر الأنساب ؟ وهل نفهم من بطلان الدعاوى العنصرية أن عناصر السلالات تتساوى في ملكات العقول ومزايا الأخلاق ؟

إن من يقول بذلك ينقض الواقع الشاهد في الحاضر كما ينقض الواقع الذي حفظته التواريخ ، فلا نكران لاختلاف الأمم في التفكير والسلوك ، وإنما ينكر الباحث المنصف أن يعزى هذا الاختلاف إلى أسباب أصيلة ينفرد بها عنصر من

عناصر البشر دون سائرها ، وينصف الأجناس جميعاً حين يعزو كل مزية إلى أسبابها الطبيعية التي تتأثر بها كل أمة تعرضت لمؤثراتها ، ولا يقصر مزية من المزايا على قوم يحتكرونها في جميع الأحوال .

والمثلان البارزان اللذان يذكران في معرض التمييز بين الخصائص الجنسية كفيلان بابراز هذه الحقيقة في نصابها الذي يستقر عليه البحث عن مزايا العقول والأخلاق بين جميع الشعوب .

هذان المثلان هما مثل اليونان واليهود : أولهما يضربونه بطلب العلم ، وثانيهما يضربونه بطلب المال .

فعندهم أن اليونان قد امتازوا بحب المعرفة حباً للمعرفة ، لأنهم نموذج العقل الأوربي المطبوع على الفهم وحب الاستطلاع . وأن اليهود قد امتازوا بالمهارة الاقتصادية فلا يضارعهم فيها شعب من شعوب العالم منذ عهد بعيد .

والواقع أن شعوب العالم العريقة قد طلبت المعرفة كما طلبها اليونان ، ولكن الشعوب التي عاشت في أودية الأنهار الكبار ـ كما تقدم ـ قامت فيها الكهانة القوية إلى جانب الدولة القوية فتحولت المعرفة إلى الكهانة ، وأحاط بمعارفها ما لا بد أن يحيط بها من أسرار الكهانة وقيود التقاليد ، وهكذا حدث في القارة الأوربية نفسها يوم قامت فيها السلطة الدينية القوية ، وحجرت على المفكرين أن يتعرضوا لمباحث المعرفة في أصول الأشياء وحقائق الوجود .

والواقع أن اليهود لا يفوقون غيرهم في القدرة على تحصيل المال ، وقد تسابقوا بميدان واحد في وادي النيل مع الأرمن واليونان والجاليات الشرقية فلم يسبقوها في تحصيل الثروة ، ولا في تنويع مواردها ، ولعلهم لولا تضامنهم في بلاد العالم التي ينتشرون فيها يرجعون إلى ما وراء الصفوف الأولى في المهارة الاقتصادية وفي تدبير المال على الاجمال .

فلا احتكار لمزية قومية بغير سبب ولا فرق بين الأمم إذا تشابهت الأسباب .

وأمة العرب بين هذه الأمم لم تقصر ولن تقصر عن أمة سابقة في مضمارها حيث تتهيأ لها أسباب العلم وتتمهد لها السبل إلى الغاية ، ولن تقف هذه الغاية دون أمد من الآماد .

***

وإذا كان من حقنا نحن الشرقيين جميعاً أن نؤمن بهذه الفكرة الصالحة ، فمن واجبنا أن نحترس من مغبة الاغترار بها ومن سوء الفهم الذي يخشى أن تسوقنا إليه .

فمن سوء فهمها أن نفهم أننا مبرأون من العيوب معصومون من الخطأ ، أو نفهم أن عيوبنا هينة لا تكلفنا المشقة في إصلاحها ، وأن أخطاءنا قليلة لا تعاودنا في كل آونة من حياتنا مع أنفسنا أو حياتنا مع أقوامنا .

كلا بل لنا عيوب غير هينة ، ولنا أخطاء غير قليلة ، غاية ما يعزينا فيها أن نؤمن بأننا قادرون على تصحيحها وعلى اجتنابها ، وأنها ليست بالأبدية التي لا تفارقنا كما زعم المفترون علينا .

أما تلك العيوب التي تفترى علينا فهي التي تفرض علينا القصور كارهين وطائعين كما يزعمون ، وهي التي نعرفها أو نجهلها على حد سواء ، لأن الحيلة فيها عبث ، والأمل في الخلاص منها مفقود .

تلك العيوب ننكرها ونشتد في إنكارها ، وليس قصارانا في تبرئة أنفسنا منها أننا نحب أنفسنا ، وأننا نشتهي أن نحمدها بحقها أو بغير حقها ، وإنما ننكرها ونشتد في إنكارها لأننا نستند إلى خير سند من الواقع الذي لا ريب فيه ، ولأننا نعلم من هذا الواقع أننا سبقنا السابقين إلى ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة قبل أربعين قرناً ، وأننا أعطينا العالم حظاً منهما لا يزول منذ أربعة عشر قرناً ، وأن ما كان في ماضي الزمن غير مرة ليكونن غير مرة في الزمن القريب ، وفي الزمن البعيد .

عباس محمود
العقاد

القرن العشرون

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

اقتربت مطالع القرن العشرين وأبناء القرن التاسع عشر يحسبون أنهم مقتربون من عصر خامل الى عصر يشبهه في خموله ، وكانوا قد عبروا الأعوام العشرة الأخيرة من القرن وهم يمرون بها مرور الملل وقلة الاكتراث : ركود لا يستغربونه لأنهم أطلقوا عليه كلمة « آخر القرن Fin de Siècle كما نقول نحن في اللغة العربية « آخر زمن » ونفسر به كل فعل منتظر على غراره ومن معدنه : معدن الاسفاف والابتذال ، فلا اكتراث له ولا غرابة فيه ، لأن الشيء من معدنه لا يستغرب ، كما يقال ويعاد .

وليس أدل على جهل الناس بغدهم القريب من هذه الغفلة في نهاية القرن التاسع عشر عن ضخامة القرن العشرين بين قرون التاريخ القديم والحديث منذ عرف التاريخ ، فلم يكد هذا القرن ينتصف حتى التفت العالم من جميع اركانه وأقطاره الى هذا القرن الذي خيل اليه أنه بقية العكارة من أعقاب التاريخ الأخير ، فاذا هو عصر العصور في حوادثه وفي مكتشفاته ومخترعاته ، وفيما يتوقع بعده من جلائل الآمال . نعم ، وجلائل الأهوال .

حربان عالميتان من عشرته الثانية الى عشرته الرابعة ، واقتحام للفضاء ، وفتح للقمقم عن مارد الطبيعة الأكبر ، وهو القمقم الذي يحتويه أصغر ما فيها من ذرات لا تدركها الأبصار .

هل تعجل الانسانية الى النصر على الطبيعة أو تعجل الى الدمار على يدي

الانسان بما كشفه من أسرارها ؟ وهل اقترب الانسان حقا من الحرب التي تختم الحروب فلا حرب بعدها ولا محاربون ، أم هو يقترب شيئا فشيئا من يوم النصر على الطبيعة ، وعلى ما في طبيعته هو من بوائق الشر والدمار ؟

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة : ذهبت نشوة الفتح والانتصار على المارد المكنون في ذرات المادة وانجلت المفاجأة عن حساب طويل لهذا الفتح المبين ، بل حساب عسير .

ماذا في وسع العلم أن يهب لنا من علانيته وسره ؟ ماذا عنده من الوعد وماذا عنده من الوفاء ؟ وماذا فيه من الخير المأمون ؟ بل ماذا في الخير المأمون من محذور يتستر وراءه النفع المنظور ؟

ان غلبة الانسان على الطبيعة سوف تؤتيه الغلبة على السقم والوباء ، وسوف يزداد الناس ببركة العلم ، فماذا عند العلم لهؤلاء الناس من الأزواد ومن الشواغل والأعمال ؟ أعنده الكفاية لهم من القوت والمأوى أم هو مرسلهم الى عالم يتغالبون عليه ثم يلتمسون الغلب بذلك السلاح الجديد : ذلك السلاح المبيد ؟

وعاد الباحثون الى نذير « مالثوس » يدرسونه وينقدونه وينقصون منه او يزيدون عليه . فوضح لهم أن نذير الأمس قد أصاب في كل شيء الا فيما اعتمد عليه من معلومات وأسانيد . ولم يخطىء حين أنذر بالخطر من زيادة الأحياء على الكفاية في الأرض من الطعام ، ولعله قد ذكر بعض المخاوف ونسي بعضها الذي توارى عنه فلم يبلغ في زمنه مبلغ الخطر الملموس ، وهو زيادة الآلات والأدوات على ما يلزمها من غذائها المدخر في الأرض ، وهو مناجم الوقود .

ولجأ الباحثون الى نبوءاتهم يستخبرونها عن الغد المخبوء قبل نهاية القرن العشرين ، ولكنها نبوءات تتسم بطابع القرن وصبغة العلم والصناعة ، كأنها نبوءة المتحدث عن سيار في السماء أو في الأرض ، يعرف مداره ويعرف كم يدور .

نبوءات أقرب الى التقديرات والاحصاءات ، ليست من نبوءات الطوبى ولا من نبوءات الأحلام ، ولا من نبوءات العصور الذهبية ، ولكنها أشبه بأرصاد الفلك ، لو لم يكن فيها شيء من الغيب المجهول قد يخطىء فيه الحساب .

ماذا عند هذا العصر ـ عصر الصناعة ـ من وعود ؟ ومـاذا من هذه الوعـود حقيق أن يتبعه الوفاء ؟ وماذا يحول دون وفائه بوعوده مما يقع في الحساب ، ومما يقع وراء كل حساب .

هذه هي الأسئلة التي تدور على جوابها فصول هذا الكتاب ، ونرجو أن نوفق للاجابة عنها غاية ما تلهمنا ظواهر الأمور ، وغاية ما نهتدي اليه بهداية تلك الظواهر ، وهداية الأمل المصدوق .

وسنحاول أن نجيب عنه جوابين متلاحقين لا متقابلين ولا متناقضين ، يضيف أحدهما الى الأخر ، ولا يزحزحه عن مكانه ليلغيه أو يطغى عليه .

فمن حيث انتهى بالقرن العشرين تطوره الصناعي يبتدىء النظر الى ما يليه من الممكنات وما يعترض تلك الممكنات من العوائق والعراقيل ، وهـذا هو الشطر الأول من الكتاب الذي نعول فيه على خبراء الصناعة حيث بلغت الصناعة غايتها واستعدت للمضي في تقدمها الى ما بعد تلك الغاية ، في حدود القرن العشرين وفيما يليه ، وسننقل في هذا القسم خلاصة كافية للمشكلة التي أحدثتها الصناعة والمشكلة التي تعالجها الصناعة ، ومدارها على تقدير سعة الأرض من المؤ ونة ومن السكان ، وعلى ما يشتبك بذلك من قضايا السلام وقضايا السلاح ، وبخاصة في القرن العشرين .

وننتقل بعد العرض الموجز لتقديرات الخبراء الى الشطر الثاني من الكتاب ـ شطر التعقيب والمراجعة فنأخذ فيه بحق العلـم الـذي تحراه أولئك الخبراء الثقات ، ونضيف اليه واجب العلم الذي لا يسقط عنه ولا يخليه منه الحفاظ على حقه . فمن واجب العلم ان يفرض وأن يستكشف ، وأن يجمع بين أشتات اليقين كلما وسعه أن يجمعها الى فكرة مقبولة تهدي الى مزيد من اليقين ، ومن واجبه ان يفتح أبواب الاحتمال فلا يغلق منها بابا يفضي الى المجهول ، ويربط بين الماضي والمستقبل بسبب موصول ، وعلى أضواء هذا الواجب العلمي ننظر الى مشكلات الانسانية ، والى أكبرها في القرن العشرين مشكلة الصناعة ، لنقابل بين ماضيها وحاضرها ونحاول أن نضعها في مكانها من تاريخ الانسان ، هل هي فلتات مبعثرة في غياهب من الفوضى وأخلاط من الطوارىء والمصادفات ، أو هي سلسلة متلاحقة تتبعها ـ أو تتبع المعلوم من حلقاتها ـ فنفهمها على اتصال بين ماضيها وحاضرها ، ثم نفهمها على اتصال بين حاضرها

وما يليه من لواحق الغد المنظور ؟

والذي نفرضه ـ على أساس الفرض العلمي ـ أن المقابلة بين مشكلات الانسانية وبين أدوار الصناعة في تاريخها تسفر عن معنى يفهم ، ولا تتيه بالذهن في فراغ مبهم خلو من كل معنى مجرد من كل نسق . فمشكلات الانسانية جزء من معالم الطريق لم ينفصل عن فتوحها وأطوار انتصارها وارتقائها ، والصناعة ـ منذ وجدت الآلة البدائية ـ هي السمة الأولى التي غيرت بين ملامح الحيوان الأعجم وملامح الحيوان الناطق منذ أقدم الأزمان ، وعلى هذه الصورة لا ينقطع المستقبل ولا تزال الصورة آخذة في التمام على استقامة واطراد ، وان تخللتها الفجوات والظلال .

ودعوانا التي نؤكدها ولا نتردد في توكيدها أن نظرة التفاؤل والرجاء الى الغد قائمة على أسبابها التي توازن أسباب التشاؤم والقنوط ، وان القول بعبث التاريخ أصعب دليلا من القول بمعنى التاريخ ، واننا نختار معناه ـ على بصيرة بينة ، دون معانيه التي يؤثرها المتشائمون القانطون ، وبحسبنا منه أن يكون معنى واضح المدلول ، أسبابه التي تعززه أوضح من الأسباب التي تنفيه .

البَابُ الأوّل

عَرْضٌ وبَيَان

المحتـــويـــات

يشتمل هذا الشطر من الكتاب ـ وهو الباب الأول منه ـ على الفصول الآتية :

١ ـ فصل عن الطعام والطاقة في العالم ، ملخص من كتاب « مائة السنـة التالية ـ موارد الانسان الطبيعية والصناعية » تأليف هاريسون براون ، وجيمس بونر ، وجون وير من أعضاء مؤسسة كليفورنيا للمباحث الفنية :

The Next Hundred Years by Harrison Brown,
James Bonner. John Weir...
California Institute of Technology.

٢ ـ فصل عن التعليم ، ملخص من الكتاب المتقدم وبعض المراجع .

٣ ـ فصل عن الفضاء منظور فيه الى مراجعه المذكورة فيه .

٤ ـ فصل عن حكم العالم منظور فيه الى كتاب برتراند رسل « آمال جديدة » وكتاب هانزكون عن القرن العشرين .

٥ ـ فصل عن العالم الى مليون سنة ، ملخص من كتاب مليون السنة التالية تأليف شارلز جالتون داروين .

٦ ـ بين تعقيب وتمهيد .

١ ـ الطعـــام والطاقـــة

طعام الانسان يؤخذ مباشرة أو بالواسطة من النبات ، وهو ذو خاصة تمكنه من تحويل ثاني أكسيد الكربون من الجو الى المركبات الكيمية الضرورية لتغذية الانسان ، ونحن نأكل بعض النبات كالحبوب والخضر مباشرة ، ونأكل بعضه بعد تحوله الى اللحم واللبن والبيض في الحيوانات المدجنة . ويمكن أن يقال بعبارة أخرى : « كل لحم نبات »

ولا بد للفرد الانساني ـ ليعيش عيشة صحيحة عاملة ـ من ثلاثة آلاف سعر حرارة في اليوم ، وعليه اذن أن يستنفد كل يوم ما يساوي نحو رطل وثمانية أعشار الرطل من النبات يحتوي سبعة أعشار الرطل من الكربون ، وهو داخل على أشكال كثيرة في التركيبات التي يتكون منها النبات . فلا بد للفرد الانساني اذن من مائتين وستين رطلا من الكربون كل سنة . . . ويتحول على ظهر الأرض في كل سنة نحو مائة وخمسين بليون طن كربون من ثاني أكسيد الكربون الى مادة نباتية ، وهو مقدار اذا استنفده الناس وخلصت فائدته كله للتغذية كان كافيا لتموين عدد من السكان يساوي خمسمائة ضعف الموجودين على الأرض في الوقت الحاضر . ولكن مصدره من ضوء الشمس يذهب كثير منه ـ لسوء الحظ ـ الى ماء البحر . ولا ينتفع به الانسان في طعامه ، ولو بقي ما يقع على اليابسة من مصدره الشمسي وقفا على الغذاء لكان كافيا لعدد من الناس يساوي خمسين مثلا من سكان الأرض الموجودين . اذ كان من عادات الانسان في التغذية أن يقصر

طعامه على النبات المزروع والحيوان الذي يتغذى به ، ولا يستنفد هذا ولا ذاك أكثر من ربع مصادر الغذاء الضوئية التي تنصب على سطح الكرة الأرضية . على أن هذا القسط ـ لو خلص أيضا للتغذية ـ لكان كافيا لعشرة أمثال سكانها .

« فمحصول الأرض الزراعية لا يكفينا الآن لما يصاب به من ألوان النقص في نظام تدبيرنا للأطعمة . اذ يستخدم نصف المحصول على وجه التقريب في اطعام الحيوانات الداجنة ، وانما يأكل الحيوان جزءا من النبات ويعطينا منه أغذية حيوانية كاللحم واللبن والبيض ونحوها مما يتألف منه عشر أسعار الحرارة ، أي أننا نعطي الحيوان مائة سعر يستنفد تسعين منها ويعطينا عشرة .

« ويعرض للمحصول نقص آخر من أن الانسان لا يأكل جميع النبات . بل يأخذ حبة القمح مثلا ويدع القشور والجذور ويقدر ما يأكله بنحو عشرين في المائة من جملته . وليس الغذاء بعد هذا خالصا للانسان والحيوان الداجن ، لأن الأحياء الأخرى من الحشرات وجراثيم الأوبئة تلتهم نحو الثلث من محصول النبات الذي كان للانسان أن يستأثر به لولا ذاك ، ولهذه العوارض لا يبقى من محصول الأرض الا ما يكاد يكفي سكانها الموجودين .

« والعالم في الواقع يربى محصوله من المادة الغذائية الصالحة على الحاجة الضرورية ، اذ هو ينتج مائة وخمسين طنا لكل فرد انساني لا تزيد حاجته منها على ثلاثة أعشار الطن الواحد ، فلولا تلك العوارض لكان لدينا وفر من الطعام .

« ويجري توزيع الطعام على حسب المواقع الأرضية . فيبلغ على الأرض الآن بليونين وأربعة أعشار البليون من الأفدنة المزروعة ، أي فدان على وجه التقريب لكل انسان ، ولكن سكان الأرض موزعون توزيعا سيئا على هذه المساحة ، فيخص الساكن في الولايات المتحدة فدانان مزروعان ، ويخص الساكن في كندا حيث تتسع الأرض ويقل السكان ثلاثة أفدنة وستة أعشار الفدان لكل ساكن ، على حين أن الساكن في اليابان لا تزيد حصته على خمسي فدان من الأرض المزروعة ، ولا تزيد حصة الساكن في القارة الأسيوية على خمسي فدان . أما في أوروبة الغربية فحصة الانسان الفرد أقل من فدان .

« وتستخرج المحاصيل من الأرض الزراعية في العالم على أساليب متفاوتة في

الانتاج ، فنحن في الولايات المتحدة نحصل يوميا على نحو أربعة آلاف سعر من مادة الغذاء من الفدان الواحد ، وهو مقدار يزيد على انتاج آسيا الذي يبلغ أربعة آلاف سعر مع الفرق بين تربة الشرق والجنوب الشرقي حيث تزيد الأولى على الثانية . وتحصل أوروبة الغربية بوسائلها المركزة على مقدار يتفاوت بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وأشد ما يكون تركيز الوسائل الزراعية في اليابان حيث يؤتي الفدان ثلاثة عشر ألف سعر ، أي نحو ثلاثة أمثال ونصف المثل من متوسط انتاج الفدان في العالم ، وهو ثلاثة آلاف وثمانمائة .

« . . . والأمريكي يطعم حيواناته معظم محصول أرضه من القمح والشوفان ولا يستنفد طعام الانسان منهما على حالتهما الطبيعية غير النزر القليل . اذ يأخذ الأمريكي نحو الثلث من أسعار غذائه من اللحم واللبن والبيض ، وعلى خلاف ذلك الآسيوي الذي يأكل معظم نباتاته ولا يزيد غذاؤه من المواد الحيوانية على خمسة في المائة ، ويأتي الأوروبي وسطا بينهما فيعطي الحيوانات ما يزيد على النصف بقليل ، ويأخذ عشرين في المائة من أسعار الغذاء من المواد الحيوانية . وترتبط عادات التغذية بنسبة مساحة الأرض المزروعة فلا يقدر السكان على ترف استخلاص الغذاء من الحيوان الا حيث تزيد حصة الفرد الواحد من الأفدنة .

« ولا يبدو أن الاختلاف في مقادير المحصول راجع الى أسباب تتعلق بالخصب والاقليم ، وانما يرجع على الأرجح الى درجة المعرفة الفنية ووفرة السكان . فنحن في الولايات المتحدة نعلم كل ما يعلمه اليابانيون من أساليب الزراعة ولا نعنى مثل عنايتهم بتركيزها لأن هذا التركيز لا تدعو اليه الضرورة بعد ، مع زيادة حصة الفرد من الأفدنة . أما في آسيا ـ عدا اليابان ـ فالناس يجوعون ، والحاجة تدعو الى مضاعفة الانتاج ، ولكنهم لا يستخدمون وسائل التركيز لنقص المعرفة الفنية وصعوبة الحصول على أدواتها التي يحصل عليها في أوروبة الغربية .

« ويستعمل الأوروبي مقدارا من المخصبات يساوي أكثر من ضعف ما يستعمله الأمريكي ، وما يستعمله الياباني يساوي ضعف ما يستعمله الأوروبي منها ، وقلما تستعمل المخصبات في الهند لندرتها وقلة ما يعلمه الفلاح الهندي عنها . ويقال مثل ذلك عن الخبرة بتحسين النبات على حساب

وسائل انمائه وتربيته ووقايته من الآفات والأوبئة ، مما يجهله أبناء الأمم المتخلفة . . وقد ساعد ارتقاء الآلات كما ساعد ارتقاء وسائل التربية والوقاية على توفير محاصيل النبات . ولكننا حريصون ألا نبالغ في جدوى الآلات فيما يتعلق بغلة الفدان ، فان أكبر ما تجديه الآلات أن تزيد المحصول بنسبة اليد العاملة وتنقص ساعات العمل ، فيخلو الوقت للاشتغال بأعمال الصناعة ، وتلاحظ في الواقع علاقة وثيقة حيث تتقدم الصناعة بين نسبة التركيز وعدد الأيدي المتفرغة للزراعة . ففي اليابان التي تبلغ نسبة التركيز فيها أقصاها يستخدم نصف قوتها العاملة في انتاج هذه النسبة ، ويستخدم في أوروبة الغربية عدد يتراوح بين الربع والثلث ، ولا يزيد عمال الزراعة في الولايات المتحدة على تسعة من كل مائة عامل . فلا غنى لتركيز وسائل الزرع من تركيز القوى العاملة .

« ويفهم من المقارنة أن المقصود هو أن يكون من المتيسر رفع نسبة الانتاج في الأرض الصالحة للزراعة ، وأن يتيسر ذلك بنشر المعرفة الفنية ونشر أدواتها بين أبناء البلاد المتخلفة ، وينبغي أن تتيسر المضاعفة - وأكثر من المضاعفة - برفع نسبة الانتاج هناك الى مثل نسبتها في بلاد أوروبا الغربية .

« ولنسأل : ما مبلغ السرعة التي تترقبها نتيجة لنشر المعرفة الفنية وأدواتها الفعالة ؟ فعلينا لمواجهة هذا البحث أن نراجع مدى التقدم حيث تستخدم هذه الأدوات الآن . فاليابان بدأت فيها الثورة في أساليب الزراعة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وظل عدد سكانها من قبل سنة ١٨٧٠ ثابتاً ، كما ثبتت مثله مقادير انتاج الأرز ومقادير انتاج المواد الغذائية ، ويمكن الرجوع الى الاحصاءات منذ سنة ١٨٧٨ الى الآن . . . فمن عشرة السبعين ارتفع محصول الأرز ارتفاعا بطيئا مطردا حتى زاد على الضعف خلال فترة من خمسين الى ستين سنة ، وجاء ذلك نتيجة لزيادة غلة المحصول من كل فدان ، تبعا لزيادة المخصبات وزيادة العناية بتوليد النباتات ، وقد قوبلت زيادة الغلات اليابانية خلال ربع القرن الأخير - من القرن التاسع عشر وربع القرن الأول من القرن العشرين - بما يوازنها في غلات أوروبة الغربية . فكانت نسبة الزيادة هنا وهناك بمقدار اثنين في المائة كل سنة تؤدي الى ضعف المحصول بعد خمسين أو ستين سنة ، مما يفهم منه أن زيادة الزراعة بطيئة بالقياس الى زيادة الصناعة ، اذ قد علمنا أن محصول الحديد والصلب في اليابان كان يتضاعف كل خمس سنوات

خلال هذه الفترة . ولنلاحظ أن الانتاج الزراعي يترقى من مستوى هابط الى حده الأعلى ، فلم تتغير النسبة الا قليلا في اليابان منذ سنة ١٩٣٥ على الرغم من جهود التركيز الفنية .

« ففي الماضي اذن كانت زيادة الانتاج الزراعي بنسبة اثنين في المائة كل سنة ، سواء في آسيا أو أوروبة الغربية . فهل ينتظر الوصول الى نسبة أكبر من هذه النسبة في المستقبل بعد تقدم المعرفة الفنية وتقدم وسائل النشر والتلقين ؟ وجواب هذا السؤال أننا نعلم فعلا كيف نزيد مقدار الغذاء وكيف نزيد سرعة انتاجه ، ولكن زيادة غير كبيرة . ففي الولايات المتحدة ـ مثلا ـ زاد الانتاج الزراعي خلال العشرين سنة الأخيرة بنسبة اثنين في المائة كل سنة ، بعد ما توافر لدينا من المعرفة بعلوم الحياة وعلوم الزراعة ووسائل الارشاد والمشورة ، وتكاد نسبة الزيادة في الطعام ـ على هذا ـ تضارع نسبة الزيادة في عدد السكان . ومن المعلوم أن سكان الولايات المتحدة يحصلون على الكفاية من الغذاء فلا تلح الحاجة بتعجيل النظر في مضاعفة المنتجات . فلنوجه النظر اذن الى بلد معرض لنقص الأرزاق والثمرات .

« لقد أفاد برنامج حسن التحضير من مؤسسة روكفلر في زيادة الانتاج بأرض المكسيك بنسبة ثمانين في المائة خلال عشرين سنة ، تعادل أربعة في المائة كل سنة . وقد ارتفعت نسبة الطعام بحساب الفرد الواحد ارتفاعا مناسبا مع تكاثر عدد السكان بنسبة ثلاثة في المائة كل سنة ، وهذه الزيادة الملحوظة انما تيسرت بتوسيع مساحة الأرض المزروعة نتيجة لتحسين الري وتعليم الزراعة وشتى المباحث الفنية ، وحصلت المكسيك في أثناء ذلك على معونة فنية من الولايات المتحدة ساعدت على انجاز هذا التطور ، ومنه نرى مبلغ ما نترقبه ـ حدا أقصى ـ للتقدم الزراعي على الأقل في حالة الافتقار الى التطورات الاجتماعية .
أما البلاد الآسيوية فقد كان التقدم فيها دون هذا في السرعة ولم تتجاوز نسبته نسبة الزيادة في عدد السكان الا بشيء يسير . ويصدق هذا حتى على بلاد كالهند بذلت فيها ولا تزال تبذل مجهودات قوية لتحسين أحوال التغذية ، اذ يبلغ المال المخصص للزراعة في مشروع السنوات الخمس نحو خمس نفقات المشروع كله ، فتقررت أعمال الري وأنشئت معامل السماد ونشرت دروس التعليم ، وأدت هذه الجهود الى زيادة نحو خمس عشرة في المائة ، أي بمعدل ثلاثة في المائة

كل سنة ، ولا يزال نصيب أهل الهند من الغذاء مع هذا اقل مما كان قبل الحرب العالمية الثانية ، اذ بقي انتاج الطعام على حاله اثنتي عشرة سنة قبل الابتداء في مشروع السنوات الخمس على حين كان عدد السكان مستمرا في الزيادة .

« . . . . وقد علم من جداول الاحصاء والمقابلة أن زيادة الانتاج بوسائل الزراعة التقليدية لا تزال ترتفع حتى تنتهي الى مستوى يصعب المزيد عليه . فمما يسوغ لنا الأمل في مضاعفة الغلات أن كثيرا من المساحات الزراعية في العالم لا تزال بحالتها الهابطة قابلة للمزيد من التحسين . فكم من الناس على ظهر الكرة الأرضية نستطيع أن نزودهم بالمؤونة الكافية بعد الانتهاء الى الحد الأقصى ؟

« . . . بعد تذليل الصعوبات الاقليمية في مناطق الأرض المختلفة يمكن تقدير المساحة التي يتم استصلاحها بنحو بليون فدان تظهر فوائدها الكبرى في القارتين الأمريكتين حيث تزداد المساحة بمقدار خمسين أو ستين في المائة ، وأقل من ذلك فوائدها للقارة الآسيوية حيث تقدر الزيادة بثلاثين في المائة . فاذا تم ارتفاع الانتاج في هذه المساحات على النسبة المعهودة بالقارة الأوروبية بلغ محصولها نحو ضعفي محصول الكرة الأرضية في الوقت الحاضر واحتاج اتمام العمل فيه الى زمن يتراوح بين ثلاثين وخمسين سنة ، والى مقدار من المال يبلغ نحو خمسمائة بليون دولار ، تنفق لأقامة مراكز الارشاد على جوانب الكرة الأرضية وانشاء معامل السماد ونشر التعليم . . . ويكفي المحصول ـ متى تمت جميع هذه المجهودات ـ لتموين عدد من السكان يتراوح بين اربعة بلايين او خمسة ، وهذا على اعتبار أن سكان آسيا يظلون في تغذيتهم مكتفين بنسبة قليلة من المواد الحيوانية ، وأن سائر سكان العالم يظلون مكتفين بتمثيل عشرين في المائة من أسعار الحرارة في الأغذية الحيوانية ، وهو مقدار مناسب ملائم للصحة ، وان لم يكن على أحسن ما يشتهى في ألوان الطعام .

« . . . ولكن ماذا ينتظر متى بلغت غلة الفدان في العالم ما يقارب غلته في أوروبة الغربية ؟ هل لنا أن نأمل مزيدا من ارتفاع النسبة على أساس التجربة في اليابان ؟ قد نجازف بجواب عن هذا السؤال وننتظر مضاعفة النسبة بالاعتماد على مزيد من التركيز واستخدام التجارب العلمية والاكثار من جهود الأيدي العاملة . فاذا تأتى لنا بهذه الوسائل أن نرفع النسبة في ثلث المساحة المزروعة من

الكرة الأرضية وأن نبلغ بثلثيها ما يعادل النسبة الحاضرة في أوروبة الغربية أمكننا ـ نظريا ـ أن نزود بالمؤ ونة عددا يتراوح بين سبعة بلايين وثمانية على معدل مناسب من التغذية الصالحة .

« والخلاصة أن توفير الأزواد الغذائية مستطاع بالتوسع في تطبيق الأساليب الفنية ، وأن مضاعفة الغلات الزراعية تتأتى بزيادة الري ، وزيادة المخصبات ، وزيادة المطهرات من الحشرات وجراثيم الآفات ، وزيادة التحسين في أنواع النبات ، وزيادة التركيز على المثال المتبع في اليابان . ونسبة هذه الزيادة في السنة بين اثنين وأربعة في المائة كل سنة ينبغي أن تجري على وتيرة الزيادة في عدد سكان العالم ، ومتى وصلنا الى هذا المستوى في زمن يقدر بما بين خمس وسبعين سنة ومائة سنة يكون عدد السكان قد بلغ مستوى الاستقرار .

وكل هذا عن الأطعمة التقليدية ووسائل التحضير الشائعة في الري والزراعة .

« غير أننا نستطيع أن نعالج بالكيمياء أجزاء من النبات تنبذ ولا تؤكل من قبيل الخشب والهشيم . ومن الممكن أن تعالج هذه النفايات بالأحماض الحارة فنجني منها شراباً عسلياً بمقدار النصف من زنتها ، ويكلفنا ذلك عشرة أمثال تكاليف العسل الذي نستخرجه من السكر والبنجر ، بل يمكن بعد ذلك أن تعالج هذه الأشربة بالخمائر لنجني منها مادة غنية بالبروتين ، كما أن الخمائر المستخرجة من العسل تصلح لتغذية الانسان .

« والخطوة العملية التي تجدي في تحقيق الغاية الثابتة من تنمية الغذاء العالمي ينبغي أن تتصل بتدبير الماء . اذ هناك بقاع شاسعة تثمر الغذاء الوافر اذا استطيع تخصيبها بالأمواه الكافية . فالبقاع المزروعة الآن بالوسائل التقليدية تساوي مساحتها نحو أحد عشر في المائة من الأرض المزروعة ، وهي تزداد زيادة سريعة في أمريكا الجنوبية وآسيا ، ويقدرون أن أربع عشرة في المائة من الأرض يروى بتلك الوسائل التقليدية اذا حسن تصريف أمواه الأنهار في أرجاء العالم ، وقد يرتفع هذا المقدار الى عشرين في المائة ، يجري ريها وزرعها بالنفقات العادية ، وقلما تكفي مياه الأنهار والينابيع لزراعة مساحة أكبر من تلك المساحة ، فلا أمل اذن في تخصيب الصحارى والسهوب بالوسائل التقليدية وهي تزيد في اتساعها

على مثلي سعة الأرض المزروعة ، وعلينا أن نلجأ الى ماء البحر لاستخدامه في اصلاح الأرض البور وزرعها . فكيف يتأتى ذلك بالطرق الاقتصادية ؟ ان تكاليف الفدان الواحد من ماء البحر بعد تصفيته واعداده للري تساوي ضعف ثمن الغلة التي تجنى منه ، فضلا عن تكاليف الأقنية والقناطر والأنابيب الموصلة للماء ، ولكن اصلاح الصحارى البور يظل مع هذا بابا مفتوحا عند الاضطرار .

« . . . أما عن الطاقة اللازمة فان الوقود الذي يستنفده العالم - اذا بقي على حاله ولم يطرد في الزيادة - يظل كافيا الى زمن غير محدود ، حتى لو نفدت جميع موارد الفحوم والحفريات ، وذلك باستخدام القوى المائية والانتفاع بأحطاب الغابات ، ولكن هذا الوقود اذا ازداد عليه الطلب كما رأينا ، وامتد الازدياد بعد نفاذ البترول فلا مناص للانسان من اللجوء الى أنواع من الطاقة غير أنواعها التقليدية . ونعرض لأنواع هذه - الطاقة المحتملة - فنرى أن ما كان منها من قبيل حرارة الأرض وقوى الرياح والتيارات المائية - على أحسن ما يرجى منها - محدود الفائدة ، اذ المواقع التي يستفاد فيها من تسخير هذه القوى قليلة اليوم بين أرجاء المسكونة ، وهي متى حسبت تكاليفها تبين أنها أقل بكثير مما يتطلبه سكانها ، ولنذكر على نطاق واسع أن معولنا الأكبر يزداد شيئا فشيئا على الطاقة المستمدة من الشمس والطاقة النووية ، وكلتاهما كما نعلم الآن من الوجهة الفنية ميسور الاستغلال ، وانما المسألة في أيهما اوفر نفعا تؤ ول الى المسألة الاقتصادية . . وقد وضعت تركيبات شتى لتحويل الطاقة الشمسية الى كهرباء ولكنها كانت كلها كبيرة النفقة . ففي الأقاليم الحارة يستطاع استبدال الطاقة الشمسية بوقود الحفريات في توليد الكهرباء من تسخين الماء ، وينبغي لتحقيق ذلك أن تقام الصفائح المعدنية لاستجماع الأشعة ، وربما بلغت نفقات العدد المقامة على كل فدان نحو عشرين الف دولار ، تربى تكاليف كهربائها على جميع التكاليف المعهودة . ويمكن توليد الكهرباء أيضا من تسليط الأشعة على ما يشبه الموصلات الكهربائية **Semi Conductors** ، وينتفع بها في بعض الصناعات الصغيرة ، ولكن توسيع العمل بها يقتضي من النفقات ما لا يطاق .

« وبين وسائل الانتفاع بالطاقة الشمسية غرس الأشجار في الشمس واحراق أحطابها ، أو تخمير السكر الذي نحصل عليه من غرس القصب والبنجر ،

ويستخرج منه الكحول أو الغازات والسوائل لاستخدامها في توليد الكهرباء ، ولكن الحاجة الى الأرض المزروعة لتدبير الطعام لا تبقي من مساحاتها بقية تذكر لغرس أشجار الوقود وثمة وسيلة بارعة وضعت أخيرا لتوليد الطاقة من طحلب يربى في مناطق مشبعة بثاني أكسيد الكربون ، ويجمع الطحلب ويخمر لتكوين الميثين والهيدروجين ، ثم تحرق هذه الغازات لتوليد الكهرباء ، ثم يرد ثاني أكسيد الكربون لتربية الطحلب ، ويتأتى بهذه المثابة في الاحوال الملائمة أن يتحول من واحد الى ثلاثة في المائة من الطاقة الشمسية الى كهرباء ، والجهاز الذي يقام على هذا الأساس يمكن أن نحصل منه على الكهرباء بسعر يتراوح بين سنتين ونصف سنت وبين خمسة سنتات للكيلووات في الساعة ، وتقدر قيمة الوقود السائل المستخرج منه بمائة وخمسين دولارا للطن الواحد ، ومع الشك في امكان مزاحمة الطاقة الشمسية للطاقة النووية في توليد الكهرباء في نطاق واسع يلوح لنا أنها نافعة جدا في النطاق المحدود . . والأرجح أن أهم وجوه النفع من الطاقة الشمسية في المستقبل انما يقوم على تدفئة الفضاء ، ونحن نعلم أن المنازل يمكن أن تبنى في الأقاليم الحافلة بالسكان بحيث يعتمد في تدفئتها على الطاقة الشمسية دون غيرها الى ما يوازي مدينة بوسطن في الشمال ، وربما حالت التكاليف الاضافية اللازمة لتشييد المساكن دون استخدامها على سعة ، ولكن المأمول عندما تعلو أسعار الوقود أن يبنى معظم المساكن بحيث تنتفع غاية الانتفاع بالطاقة الشمسية .

« واننا لعلى يقين معقول الآن من امكان الحصول على الكهرباء من الطاقة النووية بسعر يقل عن سنت واحد للكيلووات في الساعة ، (عشرة ملات Mills) . . . وفي مؤتمر المصالح السلمية للطاقة النووية الذي انعقد بمدينة جنيف سنة ١٩٥٥ هبط التقدير الى أربعة ملات ، والمنظور في الولايات المتحدة أن يساوي في المستقبل من أربعة ملات الى ستة . وقد درس سابير Sapir ، وفان هيننج Van Hyning حالة الطاقة النووية في اليابان فتبين لهما أنه من الممكن الحصول على الكيلووات في الساعة بسعر عشرة ملات حوالي سنة ١٩٦٠ وبسعر سبعة ملات حوالي منتصف سنة ١٩٧٠ تقارب تكاليفه خمسة ملات . ويقابل هذا السعر ستة أو سبعة ملات لما يستخرج من الفحم حديثا في الولايات المتحدة وثمانية عشر ملا في اليابان . ويرى ـ من ثم ـ أن الطاقة النووية قد تنافس الفحم في مستقبل غير بعيد وأنها وشيكة أن تعم أقطار العالم

في حينها .

« وتختلف الأحوال في معظم بلاد العالم عما هي عليه في الولايات المتحدة فيما يتعلق بوفرة الوقود . . فاذا اضيف الى هذا الاختلاف بعض العوامل الأخرى كان للفارق مظهر أدعى الى الالتفات ، وأحد هذه العوامل فرق العملة الأجنبية . فان البلاد التي تعاني ازمة التوريد وتتكلف الكثير لمقابلة الواردات من الفحم والبترول بما يساوي قيمتها من محصولاتها ـ قد ينتهي بها الأمر الى تفضيل الاعتماد على الطاقة النووية مع ارتفاع سعرها . وهناك عامل آخر من عوامل الاختلاف يرجع الى اجتهاد كل امة في تدبير وسائل الكفاية الذاتية ، وليس تدبير أمر البترول بالأمر الموثوق به ، اذ كان شطر كبير من ينابيع بترول العالم كامنا في الشرق الأوسط حيث تغلب الحساسية لأطوار العلاقات الدولية ، وكثير من الأمم تحتمل التكاليف العالية لاستخدام الطاقة النووية وتفضل ذلك على مورد أرخص منها ولكنه غير مضمون .

« ويظهر أن الاتحاد السوفيتي له حالة خاصة فيما يتعلق بلوازم الطاقة الذرية . فان بلاد الاتحاد ـ على ما تملكه من مناجم الفحم الغنية ـ يقع فيها معظم هذه المناجم بين أرجاء سيبريا ، وتظل بقيتها مفتقرة الى الوقود ، ولهذا يستورد في كل سنة على ما يظهر نحو خمسة عشر مليون طن من الفحم من قره غنده وقازاقستان الى روسيا الأوروبية ، وهي مسافة تبلغ من ألف وخمسمائة ميل الى ألفي ميل ، وهذا أحد الأسباب التي حملت الحكومة السوفيتية على الاهتمام بتصنيع سيبريا ، وهو كذلك احد الأسباب التي دعت الى اقامة خمس محطات لتوليد الطاقة النووية في موسكو ولننجراد وجبال الأورال . ومن خلاصة ما تقدم يرى جليا .أن الطاقة النووية سيكون لها دور هام في بقاع كثيرة من العالم وبخاصة في أوروبة وأمريكا الجنوبية والشرق الجنوبي من آسيا واليابان ، وان ذلك يتم حالما يتهيأ اعداد الأجهزة الصالحة لتوليد الكهرباء بسعر عشرة ملات للكيلو وات الواحد في الساعة أو أقل من ذلك . ومن سخرية المصادفات أن الولايات المتحدة التي تملك ـ على الأرجح ـ أتم المعدات الفنية لاستخدام الطاقة النووية لا تشعر بالحاجة اليها في الوقت الحاضر الا فيما يلزم للمقاصد العسكرية ، وانها عندما تشعر بالحاجة اليها سوف يأتي ذلك على بطء بالقياس الى الكثير من بلدان العالم .

« . . . وكلما قاربت ودائع العالم من البترول أن تنفد ـ كثر الاقبال على استخراج الوقود السائل من الصفائح الصخرية ورمال القطران وتقطير الفحم ، ومن حوالي سنة ١٩٧٥ ينتظر أن تتسع الفجوة بين البترول والفحم باعتبارهما ينابيع أولية لتوليد الطاقة ، وينبغي بعد سنة ١٩٨٠ ان تكون للطاقة النووية نسبتها المحسوسة باعتبارها بديلا للوقود المستخرج من الحفريات في توليد الكهرباء ، وقد تبلغ هذه النسبة ثلث المستنفد من الطاقة حوالي نهاية القرن العشرين . . فاذا قارب القرن المقبل منتصفه ، فالغالب أن يكون المعول على الطاقة النووية في أكثر ما نحتاج اليه مع الاحتفاظ بودائع الفحم لتوليد الوقود السائل وبعض المواد الكيمية .

« ولنسأل الآن : كم من الزمن ننتظر أن تبقى في الكرة الأرضية ذخائرها من عنصر الأورانيوم وعنصر الثوريوم صالحة لتزويد هذا العالم الصناعي بالوقود ؟ . . . ان هذين العنصرين هما ـ كالفحم والبترول ـ من وقود الحفريات ، تكونت كلها مع تكوين العناصر الأرضية ولا يتكونان الآن من جديد ، فمقدار ما نحصل عليه منهما محدود ، ولكنهما ـ على هذا ـ ينتجان من الطاقة أضعاف ما يحتويه الفحم والبترول ، ويرجع ذلك الى أن العنصرين موجودان في الطبقات السفلى بمقادير وافرة من بقية القشرة الأرضية .

« وتحتوي القطعة العادية من الصخر المحبب ـ الجرانيت ـ أجزاء عنصر الأورانيوم بنسبة أربعة من المليون وأجزاء عنصر الثوريوم بنسبة اثني عشر من المليون ، الا أن كلا من العنصرين في الطن المتوسط يحتوي ما يساوي طاقة خمسين طنا من الفحم ، ومن الطبيعي ان هذه الطاقة ليست كلها ميسرة للانتفاع بها لما تستلزمه عملية اخراج العنصرين من التكاليف بين كسر الحجارة وسحقها ونقل صفوتها الى المعمل الكيمي ، ولا حاجة الى القول بأن هذه العملية لا تجدي شيئا اذا تساوت تكاليف الطاقة اللازمة لها وتكاليف الطاقة التي تستمد بعد ذلك من العنصرين .

« على أنه قد تبين أن العنصرين يوجدان في الصخر على نحو يجعل الطاقة اللازمة لاستخلاصها جد قليلة ، ويستطاع لهذا أن يستخلص من طن الصخر ما يعادل الطاقة المستمدة من خمسة عشر طنا من الفحم بتكاليف معقولة من الوجهة الاقتصادية ومعنى هذا أن الانسان غير مفتقر الى استخدام أجود أنواع

الأورانيوم والثوريوم لتوليد الكهرباء ، اذ يستطيع أن يعول على الموجود منهما في القشرة الأرضية .

« ويحتمل على طول المدى أن تتولد الطاقة من تفاعل الحرارة والطاقة النووية ، أي من التحام الهيدروجين باعتباره عملا مستقلا عن انشقاق الأورانيوم ، ولا يعلم الى الآن كيف تجري هذه العملية وان كان امكانها حقيقة مسلمة ، فاذا تمكن العلم من تذليل المصاعب الفنية ، فكل ما على الأرض من البحار مدد صالح للانتفاع به في توليد هذه الطاقة . وقد تكون هذه العملية أكبر كلفة من عملية شق الأورانيوم . الا أنها حاضرة للانتفاع بها في حينها يوم يحتاج اليها .

« . . . ويتضح في الختام أن ذخائر الطاقة التي يعتمد عليها الانسان موفورة الى زمن بعيد ، وعلينا أن نحول هذه الذخائر من قوة مخزونة الى قوة فعالة ، وأن السؤال عن امكان هذا التحويل في الوقت المناسب لسؤال حقيقي بالتوجيه والتأمل . اذ يتوقف جوابه على خليط مشتبك من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية »[1] .

---

١ ـ هذا الفصل ملخص بتصرف من كتاب « مائة السنة التالية » .

٢ ـ التعـــــليم

أخذ الغربيون اسم المدرسة من كلمة يونانية بمعنى الفراغ . لأن طلب العلم كان في الزمن القديم شاغلا من شواغل الفراغ يستطيعه من يستغني عن العمل أو يعجز عنه . فمن علامات الزمن أن تصبح المدرسة مدار العمل كله ، لا يستغني عنه أحد في جميع الوظائف الاجتماعية ، وتدعو اليه ضرورات المعيشة كما تدعو اليه مطالب الفهم والتهذيب .

لابد من المصانع لتزويد العالم بمعرفة المعيشة ، ولابد من الخبراء والصناع لادارة المصانع ، ولابد من المدرسة لتخريج الخبراء والصناع . ويكاد المختصون بتدبير مطالب التعليم الفني في الحاضر والمستقبل أن يشعروا بأن الحاجة أكثر من العدد المطلوب .

يقول مؤلفو كتاب مائة السنة التالية :

« تعتبر الولايات المتحدة في الوقت الحاضر أدق المجتمعات تركيباً صناعياً في العالم . اذ تمهد الفرص التي تكاد لا تحصى للتعليم من شتى فروعه مع الحرية في اختيار الوظائف والأغراض الفنية . فاذا درسنا الموارد التي تؤخذ منها القوى الفكرية دراسة نقد وتحليل تسنى لنا أن نلم بمثال حسن لقضايا العرض والطلب في مسألة تدبير المهندسين والعلماء مع الحرية الاقتصادية .

« ومنذ سنوات عدة يلاحظ النقص في عدد العلماء والمهندسين ، وهو نقص

يزداد حرجا ولا نرى له الآن نهاية قريبة . وبلغ من حرجه أن المنظمات الصناعية تحد من جهود البحث والتحسين لقلة العاملين المدربين . .

« . . . وتتباين الآراء عن السبب الصحيح لهذا النقص الحاضر ، فيرى بعضهم أنه راجع الى نقص المواليد في سنوات الكساد وما تلاه من نقص الاقبال على معاهد التعليم العليا حوالي سنة ١٩٥٠ ، ويرى آخرون أن كثرة الطلب على الخبراء من جراء النفقات الكبيرة على شؤون الدفاع هي التي أدت الى الشعور بذلك النقص . وسنرى على أية حال ان النقص انما جاء من دقة التركيب الصناعي في الولايات المتحدة وقصور وسائل التدريب والتحضير عن مداركة الطلب على حسب الحاجة » .

وبعد الافاضة على هذا النحو في شرح وجوه الحاجة الى الطاقة الفكرية وازدياد هذه الحاجة على توالي الأيام عقد مؤلفو الكتاب فصلا بعنوان « مدى الطاقة الفكرية المدخرة » بدأوه بهذا السؤال : ما هو أقصى ما يتيسر لنا من ذخيرة الطاقة الفكرية ؟ ثم أجابوا عنه بما يلي :

« اننا نستطيع أن نحصل على ضعفي عدد العلماء والمهندسين اذا أزلنا العوائق التي نتعرض من جرائها لنقص التعليم بين الفئة الصالحة لاتمام تعليم الكليات في العلوم والهندسة . ويتضاعف هذا العدد مرة أخرى اذا فتح باب التعليم الفني للنساء وامكن اغراؤهن بالاقبال عليه وشجعن على هذا الاقبال . وهذه الزيادة المضاعفة تعطينا أربعة أمثال العدد الذي نخرجه الآن من العلماء والمهندسين دون أن نمس بمطالب الصناعات الأخرى . وكذلك يزداد نفع ذوي الكفايات الفنية اذا نحن أحسنا استخدام قواهم كما ينبغي وشجعناهم على المزيد من الانتاج والابتكار . فتصبح ذخيرتنا من الطاقة الفكرية ثمانية أضعاف ما نحصل عليه الآن . وقد تقدم أن لاحظنا أن المحصول السنوي وعدد المتخرجين من العلماء والمهندسين يبلغ عشرة أضعافه كل خمسين سنة في الولايات المتحدة منذ سنة ١٨٠٠ وتساءلنا هل يمكن تكرار ذلك في نصف القرن الباقي منذ اليوم الى سنة ألفين ؟ فنقول ان تكرار ذلك مرجح ، وإنه فيما يتعلق بالولايات المتحدة يستطاع الوصول الى عشرة أضعاف ما لدينا من المحصول الفني وعدد العلماء والمهندسين . وربما كان ذلك هو الختام .

« ومن المهم أن ننبه أن هذه النتيجة ميسرة بغير حاجة الى حمل الطلاب على

ترك الدراسات الأخرى التي تساوي هذه الدراسات في اللزوم والفائدة . فليس في تقديرنا أن يزيد عدد الخريجين من العلماء والمهندسين وأن تتغير نسبتهم المطردة منذ ثلاثين سنة بل تبقى على حالتها الى نهاية القرن العشرين .

« ومن المهم كذلك أن نذكر أن المدد الذي يتوافر لنا من العلماء والمهندسين لن يظل على ازدياد الى غير نهاية في المستقبل على نسبة هذه الزيادة فيما مضى . . وفي أوروبة ـ كما في الولايات المتحدة ـ ينقص مدد الطاقة الفكرية ، فيبلغ عدد العلماء والمهندسين في أوروبة الغربية أربعمائة وخمسة وعشرين ألفا من مجموعة السكان الذين يبلغون مائة وأربعة وخمسين مليون نسمة ، ويقابل ذلك في الولايات المتحدة سبعمائة وستون ألف مهندس من عدد السكان الذي يبلغ مائة وثمانية وستين مليون نسمة ، وينطبق على الحالة في القارة الأوروبية كل ما ينطبق عليها في الولايات المتحدة ، مع ملاحظة الفارق بين التعليم الجامعي هناك والتعليم الجامعي عندنا ، ففي الولايات المتحدة يلاحظ أن ثلاثين في المائة من كل طبقة من طبقات السن ينبغي أن يتمموا التعليم في الكلية ، على حين أن التعليم العالي في أوروبة مقصور على النخبة القليلة ولا تزيد نسبة المتممين للتعليم بالكليات على خمسة في المائة ، وسيزداد عدد العلماء والمهندسين زيادة كبيرة كلما اتسع نطاق التعليم الحر وتمكن الطالب من المضي فيه الى غاية استعداده .

« على أن الحالة في الاتحاد السوفيتي تختلف عن كلتا الحالتين وتتيح لنا بابا نافعا من أبواب المقارنة بين النظم والاجراءات . ففي الاتحاد السوفيتي ينظم التعليم العام بحيث يوافق حاجة الدولة وينظر الى مهمة التعليم نظرة عالية ، والشاب الروسي يشجع على الترقي في درجات التعليم الى أعلى ذروتها وينال من الامتيازات والوظائف بقدر ما ينال من محصول الدراسة ، وينتقل الطالب من درجة الى درجة في مراحل الدراسة حسب نجاحه في امتحانات المسابقة ، وتتكفل الدولة بنفقات التعليم وقد يمنح بعض الطلاب معونة في أثناء سنواته المدرسية ، وتتجه العناية في التعليم العالي الى العلوم الفنية كما تتجه الى الطب والزراعة وصناعة التدريس . ونحو نصف طلاب المعاهد العليا يتفرغون لهذه الدراسات ، وستون في المائة منهم متخصصون للدراسة الفنية والعلوم الطبيعية .

« فالاتحاد السوفيتي يشعر بمسيس الحاجة الى التعليم الفني لمتابعة التقدم السريع في سياسة التصنيع ، وينجم عن ذلك أن يلاحظ في نظام التعليم أن يجور عدد الفنيين على عدد المتخصصين للمباحث الذهنية ، واذا تخرج الطالب من المدرسة العليا يكون قد أمضى ست سنوات في علم الحياة (البيولوجي) وخمس سنوات في العلوم الطبيعية وأربع سنوات في الكيمياء وأربعا في الرياضيات ، يقابل ذلك عندنا أن الطالب الذي يريد أن يتخصص للعلم يمضي سنتين في دراسة علم الحياة وسنة في العلوم الطبيعية وسنة في الكيمياء وثلاث سنوات في الرياضيات . والطالب الروسي في مستوى تعليم الكلية يعتبر من السعداء المجدودين اذا استطاع أن يصل الى مدرسة فنية ، لأنه يتمكن بذلك من الارتقاء الى الطبقة الممتازة في البلاد الروسية اليوم ، وفي وسعه بوظيفته العلمية أو الهندسية أن يقتني سيارة ويسكن في جناح مستقل ويحصل على مرتب حسن ويشغل مركزا من مراكز التقدم والنفوذ ، وعلى هذا نجد أن الروسيين قد عملوا بكثير من النظم والاجراءات التي بحثناها فيما تقدم ، ورأينا أنها مجدية في الاستكثار من المهندسين والعلماء في الولايات المتحدة . فالاتحاد السوفيتي اذن قدوة يحتذى بها فيما يمكن ادراكه اذا روعي في نظام التعليم كله أن يدار لغرض واحد ، وهو تخريج أكبر عدد مستطاع من العلماء والمهندسين والأطباء والمدرسين مع التضحية القريبة بالدراسات الأخرى من قبيل العلوم الانسانية والأشغال والتجارة . وقد كان من نتيجة هذه الخطوة أن الاتحاد السوفيتي يسبق الولايات المتحدة ويخرج ضعف ما تخرجه من المهندسين والعلماء .

ويلوح لنا من المحتمل أيضا أن هذه الفجوة ستتسع فترة أخرى من الوقت . ويضاف الى هذا أن جميع المهندسين والعلماء في الاتحاد السوفيتي يعملون في صناعاتهم على حين أن الذين يعملون في صناعاتهم عندنا حوالي ثلثي المهندسين وثلث العلماء ، وأن نحو الثلث من الفنيين في الاتحاد السوفيتي نساء ، ومعدل النسبة في تخرج المهندسين والعلماء هناك توحي الينا أن الأمة التي تريد أن تقتدي بالاتحاد السوفيتي وتتخذ لها خطة كخطته الصارمة في التهوين من شأن الدراسات غير الصناعية سوف تصل الى نتيجة أكبر من النتيجة التي أشرنا اليها آنفاً ، ولكن مع تضحية ذات بال بالحرية .

وفي وسعنا عند تقدير الطاقة الفكرية المدخرة في الأمم المتخلفة أن نجري على المنهج الذي توخيناه عند الكلام على الولايات المتحدة . لأن توزيع الملكات الذهنية على قدر ما نعلم مشابه لتوزيعها بيننا ، ويكاد أن يكون المتوسط من ثلث أبناء الأمة الى نصفهم قادرين من وجهة الملكات الذهنية على كسب معرفتهم في معاهد التعليم العليا .

« وهنالك كما لا يخفى عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية يرى معها أنه من البعيد - ان لم يكن من المستحيل - أن تقدر تلك الأمم اليوم على تخريج المتعلمين في الكليات بهذه النسبة . فليس ثمة دلائل على التقدم الذهني ظاهرة في المجتمعات البدائية أو في تلك المجتمعات التي لابد لها من تركيز جهودها المباشرة لتحصيل ضروراتها من الطعام والمأوى ، مما يسمح لنا - نظريا - أن نقدر وجود ودائع من الطاقة الفكرية لم تمس الى الآن في أرجاء العالم ، وبينما تتناقص هذه الودائع في الولايات المتحدة وأوروبة الغربية تظل في العالم بجملته ودائع عظيمة منها . فاذا استطاعت الهند بما فيها من سكان يبلغون ثلثمائة وستين مليونا أن تخرج من المهندسين والعلماء عددا يضارع في نسبته أقصى ما نستطيع تخريجه - أي أربعة أمثال عددهم الحاضر - ففي وسعها أن تخرج أربعمائة وخمسمائة ألف كل سنة ، وهو عدد يكاد يساوي عدد المتعلمين من حاملي البكالوريا العلمية عندنا في الوقت الحاضر .

« وظاهر - من ثم - أن رصيد الطاقة الفكرية العالمية عظيم جدا . وكلما مضت الأمم الأخرى في التصنيع تضاعف العمل الذي يبقى على الطاقة الفكرية أن تنجزه ، وقد يتيسر لنا في الولايات المتحدة أن نستورد الخبراء من الخارج ونعتمد على الاستيراد كوسيلة موقوتة الى حين ، اذ لابد أن يأتي الزمن الذي يوجب استبقاء هؤلاء الخبراء في البلدان التي نشأوا بين ظهرانيها ، ومتى نظرنا الى الأمد الطويل جاز لنا أن نقدر أن العالم سيعتمد على محصوله من الطاقة الفكرية في أعمال التصنيع كما نعتمد نحن على طاقتنا الفكرية الآن » .

وبعد عرض هذه التقديرات عن مطالب العالم من الطاقة الفكرية استجابة لضرورات التصنيع والتموين ، عرج مؤلفو الكتاب على تقدير عوامل النكسة التي قد تعرض لبرامج التنظيم في المجتمعات المصنعة على احتمال وقوع الحرب

أو توقعها ، وما يستدعيه هذا التوقع من صرف الجهود الى أعمال الدفاع والتسليم .

قالوا من فصل عنوانه : نظرة الى الأمد البعيد :

« ان المجتمع المصنع أشد استهدافا للخلل والتهدم مما يخطر للكثيرين . لاشتماله على شبكة متوشجة من المناجم والمصانع يصل بينها مباشرة - وغير مباشرة - نظام متماسك من المواصلات ، مما ينجم عنه شل الحركة في المجتمع كله اذا أصيبت مفاتيحه المحكمة ، ويتبع ذلك امتناع وسائل الاصلاح بعد وقوع التعطيل ، فلا تتأتى اعادة الشبكة الى العمل قبل تعريض المجتمع كله للهلاك » .

واستطرد المؤلفون من ذلك الى بيان أثره في البلاد التي لم يتم تصنيعها فضربوا المثل باقليم كجزيرة سيلان وقالوا : « انها اذا حدث - مثلا - انها لم تستطع أن تحصل على المادة المطهرة المعروفة بالدي دي تي فقد يفضي هذا النقص الى تفشي الوباء وزيادة الوفيات فجأة زيادة جائحة تمتنع معها أساليب الوقاية السهلة ، فيسري الوباء الى البلاد التي تجاورها وتأوي مئات الملايين كالهند والصين ، وتتعرض هذه البلاد للدمار الجائح كما تعرضت له مجتمعات وافية التصنيع » .

قالوا : « وأهم من ذلك أن القدرة على الحرب تزداد بازدياد القدرة على التصنيع ، فالأمة التي تملك معدات الحرب لابد أن تملك نظاما صناعيا واسع النطاق أو أن تزود بهذه المعدات ممن يملكونها . وكلما امتدت حركة التصنيع زاد عدد الأمم التي تقدر على الحرب وعلى تزويد نفسها بأسلحتها من المدافع والطائرات والقذائف النووية ، وقد رأينا ان اليابان وبلاد الاتحاد السوفيتي كانت بين أحدث الأمم التي دخلت ميدان التصنيع وآل بها الأمر الى المواقف الخطرة كلما تهيأت لها معدات القدرة على شن الحروب الحديثة . . ترى ماذا عسى ان يحدث اذا تسنى لأمم كالهند والصين أن تملك هذه المعدات ؟

ومن جوانب الخطر التي تواجهنا ذلك التلهف المعقول من قبل الشعوب على تحسين أحوالها . فالتصنيع عمل بطيء عند النظر الى عمر الانسان ، ومدة سنوات خمس او عشر ، تبدو من حيث التصنيع خطوة سريعة جدا من خطى

النمو والتقدم . ولكن الانسان الفرد يحتاج الى أمد من الزمن كي يشعر بالتحسن في معيشته ، ويعود سبب من اسباب ذلك الى أن الجهود الأولى من محاولات التصنيع ينبغي أن تخصص لاقامة العدد والمعامل التي تستعد للانتاج بعد ذلك . فتبنى المعامل التي تصنع الآلات والأدوات ويقصر انتاج السلع والبضائع المستنفدة على أقله وألزمه . ومعنى ذلك بلغة الاقتصاد أن يكون هناك ادخار ورأس مال متجمع يترتب عليه تأجيل انتفاع المستنفد بالصناعة الى حين ، ثم يترتب على هذا التأجيل في المدن الناشئة على الخصوص شعور بالقلق يؤدي الى الاضطراب والعنف ، ويشتد هذا القلق مع ابطاء تهيئة المطلوب من الأغذية على حسب الاستعداد الحاضر . وقد رأينا أنه من الممكن في السنين الخمسين التالية زراعة وجه الأرض للحصول على غذاء يكفي سكان الكرة الأرضية المتكاثرين اذا استطعنا تجويد العمل الذي نقوم به الآن ، وقد يتسنى لنا تدبير الغذاء في القرن المقبل اذا توخينا في الانتاج وسائل أفضل من بعض الوسائل غير الاقتصادية التي نتوخاها الآن . ولكن مما يؤسف له أن انتاج الطعام الكافي لا يمنعه مانع من الوجهة النظرية ، في حين أنه من وجهة التنفيذ لا يستطاع سنة بعد سنة حسب الزيادة في عدد الأنفس خلال تلك السنة . وما لم يتيسر لنا اقلال النسل أو التعجيل بالانتاج فعلينا أن نتوقع من أعمال التصنيع أن أقاليم يجوع سكانها ويظلون زمنا طويلا في المستقبل جائعين . وثمة خطر آخر نواجهه اذا افضى قلق الشعوب المتخلفة الى اقامة الحكومات المستبدة محاكاة للاتحاد السوفيتي أملا في التعجيل بخطوات الادخار والتصنيع وتعميم الزراعة . وقد وقع ذلك فعلا في الصين ، وتحاول الهند ان تحقق برامج التصنيع على أساس النظم الديمقراطية في بيئة اقتصادية بعضها على نمط اشتراكي وبعضها خاضع للولاية الخاصة . فاذا استمر التصنيع واستمرت زيادة السكان وقلت الأطعمة واشتد القلق والتذمر فلا ندري هل تقوى الديمقراطية هنالك على مقاومة الطوارىء التي خلقتها ويجوز ان تقضي عليها ؟ ففي هذه الأيام التي يتأتى فيها قلب النظام الديمقراطي بين ليلة ونهار يتعذر التحول من الاستبداد الى الديمقراطية ، لما يتوافر للحكام من ذرائع الاقناع والاخضاع .

« فاذا امكن في الحقبة التالية أن نتجنب الحرب النووية ، وأمكن الأقاليم المتخلفة في الوقت الحاضر ان تحقق برامج التصنيع ، فقد اقتربنا من الزمن الذي يتم فيه تصنيع العالم ويستطاع فيه أن نقيم أودنا باستخدام الأردأ فالأردأ من

المواد الصالحة ، حتى نلجأ أخيرا الى صخور القشرة الأرضية والى غازات الهواء وأمواه البحار ، ويومئذ تكون صناعة المناجم قد زالت وخلفتها مصانع كيمية متشعبة الأغراض ، تتزود من الصخر والهواء وأمواه البحار وتفيض منها موارد تشمل الماء العذب والقوى الكهربائية ومواد الوقود السائل والمعادن . ومتى أفضى الانسان الى هذه المرحلة من ثقافته فقد بلغ الى الطريق التي لا رجعة فيها ، فلا استئناف بعدها للطريق اذا وقع الخلل والانتقاض في نظم التصنيع العالمية . فان السير على برامج التنظيم انما سهل الابتداء به والمضي فيه بما كان في حوزة الانسان من موارد الحديد والفحم والنحاس والنفط والكبريت وغيرها من المواد النافعة ، وكلها صائرة الى النفاد بعد حين ، ولكن معارفنا النفيسة تتيح لنا ان نستغني عنها ما دامت حضارة التصنيع قائمة . أما اذا وقعت الواقعة واختلف صوت الحضارة ، فمن المشكوك فيه أن نقدر بعد ذلك على النهوض فوق طبقة المعيشة الزراعية .

« ان المصادر اللازمة لاعادة الانتفاع بالصخر وماء البحر واعادة تركيب النظم المتشابكة من برامج التصنيع قد تكون أعظم جدا مما يستطاع السيطرة عليه . وتصور مثلا أن القوة اللازمة لاعادة الشبكة الصناعية لابد ان تستمد من مصادر نووية ، وان هذه المصادر لابد أن تقام بوقود غير وقود الفحم والنفط وكل وقود عدا الصخور ، ففي هذه الحالة ـ مع فقدان الطاقة الصالحة ـ يتعذر الانتفاع ببقايا الحضارة الصناعية ، وسيأتي اليوم الذي قد تنسحب فيه المعرفة الفنية وتجنح الى الاحتجاب ، وقد حدث في القرون الوسطى أن أمناء تلك العصور استخدموا وجهات الرخام الرومانية في المباني الجديدة حقبة من الدهر ، بعد نسيان الكثير مما عرفه الرومان من هندسة البناء ، وان الذي يحدث غدا في مثل هذه الحالة لأعظم مما حدث من قبل بكثير .

« وكذلك نرى أن مشكلات الغد كثيرة خطيرة ، وأننا من الوجهة النظرية قادرون على تدبير حلولها بما نملكه من القدرة الفكرية ، ومثال ذلك أن بعض الأخطار يسهل اتقاؤها باقامة الهيئات الدولية التي يراد بها منع الحروب كهيئة الأمم المتحدة وسائر الهيئات التي تشرف عليها ، وغير هذه الأخطار قد يسهل اتقاؤه ببذل الجهد في الاقلال من ظروف التعرض والاستهداف ، وغيرها قد يسهل اتقاؤه بالاتفاق بين المجتمعات المصنعة على تمهيد دور الانتقال الى

التصنيع في المجتمعات المتخلفة بأقل ما يستطاع من المشقة ، ويتم هذا الانتقال باعارة رأس المال والاعانة بالخبرة الفنية ، كما يتم ايضا بابتداع أساليب مستحدثة في الصناعة والزراعة والتعليم وتحديد النسل ، وهي أساليب لم تستخدم في الغرب حتى الآن لقلة الحاجة اليها ، ولكنها قد تجدي كبير الجدوى في البلاد التي لا تزال آخذة ببرنامج التطور .

« وقد شرعنا منذ خمس وعشرين سنة في جمع المعلومات النافعة للاهتداء الى أفضل الأساليب لمعونة البلاد المتخلفة على انتاج طعامها ، وأخذنا ندرك بعض العقد والعوائق التي تحد من محاصيل الزراعة ، ورأينا أن سير العمل بطيء في مشروعات الزراعة لأنه يستدعي تعليم العدد الكبير من الزراع وتعديل طرائقهم وأساليب تفكيرهم وآرائهم الثقافية ومأثوراتهم التقليدية ، وهي جميعا مما يعسر تغييره في وقت قريب . واننا لفي مسيس الحاجة الى مزيد من الفهم والاحاطة بعوامل نشر الأساليب الزراعية الجديدة ، وتشجيع المجتمعات المتخلفة على قبول المعرفة المستحدثة ، وكذلك ينبغي النظر في أمر تحديد النسل عند البحث في ترقية الأحوال الاقتصادية ، ولعل الصعوبة في تحديد النسل في المجتمعات الزراعية ترجع الى الآراء والمعتقدات . على أن تحديد النسل عندها يفيد في التطور الاقتصادي ويعتبر بمثابة الزيادة في محصول الزراعة والصناعة ، ومن الواضح أن الشعوب التي تريد المحافظة على نقص نسبة الوفيات ينبغي ان تقابل ذلك بنقص المواليد ، ومؤدى ذلك قبول تحديد النسل وان تكون الحيطة لاتقاء الجوع والفاقة بمقدار قبوله في أوسع نطاق .

« بيد اننا امعنا النظر وابعدناه الى اقصى المدى فيما نترقب للعالم الواسع من الأطوار خلال القرن المقبل ـ فالمشاكل الكبرى من قبل الصناعة أهون من مشاكل العلاقات بين الناس ودواعي التفاهم بينهم على التعاون والاتفاق ، وان ينظموا انفسهم بحيث تنصرف عبقريتهم وتصورهم الى المشكلات التي تواجههم ، وتتلخص مشكلتهم الكبرى في موالاة قوانا الفكرية بالتوسيع والتوفير والتحسين والتعبئة والتجهيز .

« ان العلماء السلوكيين والأخلاقيين اخذوا يكشفون الغطاء عن بعض مبادىء السلوك الانساني ، وسيزدادون بها علما ويعولون عليها في تربية أطفال أهم وأسلم ، وفي تمكين الناشئين من الانتفاع ـ أتم انتفاع ـ بملكاتهم

ومواهبهم ، ولنا أن نأمل الاهتداء الى آراء خير من آرائنا الحاضرة في ادراك طبائع الانسان وأسرار التفكير المنتج واسرار التخيل والبصيرة الباطنة ، وكلما ازددنا علما بدوافع حركات الجماعات وبواطن السلوك الاجتماعي والسياسي ، اعان هذا العلم على توجيه العواطف والأحاسيس الى العمل البنائي والأهداف الصالحة ، وعلى صرفه عن أعمال الهدم والعدوان ، والاكثار شيئا فشيئا من عدد الشبان القادرين على الابتكار والابداع . ولكن هل تتوافق المساعي الموجهة الى الاصلاح الحيوي والسلامة البدنية والمساعي الموجهة الى تنمية الادراك وسلامة التفكير ؟ وهل يتخذ الانسان الخطوة اللازمة في الوقت اللازم لحسن التصرف في مسائل التصنيع التي تفتأ تتشابك وتتركب على الدوام ؟ هل يسوس الانسان دوافع شعوره قبل أن تهلكه وتقضي عليه ؟ ذلك هو محور المشكلات جمعاء .

« لقد رأينا أن الانسان قادر ـ من حيث المبدأ ـ اذا أراد أن يعيش عيشة الوفر والانشاء في نطاق الحرية ، وظاهر أن الصعوبات جمة والأخطار كثيرة ، ولكن الأمر الواضح هو ما ينبغي على الانسان أن يقوم به لتذليل العقبات ، ويبقى علينا أن نرى غدا هل يدرك هذه المشكلات في حينها ليبلغ الى حظ من السلامة اوفر واعلى ، او يسمح بضياع حظه الراهن من الحضارة وذهابه الى حيث لا نجاة ولا مآب . ومصير المجتمع الصناعي يدور حول السؤال عن اقتدار الانسان على العيش مع أخيه الانسان » .

***

هذه البحوث التي لخصنا بعضها وترجمنا بعضها بقليل من التصرف ، قد ألمت بمستقبل التعليم فيما يواجه ضرورات التموين والتصنيع ، وفيما يواجه ضرورات التفاهم والتعاون بين الأمم خلال الفترة التي تنقضي في تعميم هذا التعليم والترغيب فيه ، ويرى الخبراء أن اعداد العالم للمعيشة الحرة الرخية امر مستطاع ميسر الأسباب اذا صحت عزيمة الانسان عليه .

وليس أوسع من آفاق التعليم وأغراضه عند الكلام على اثره في حاضر العالم ومستقبله ، ومن هذه الآفاق الواسعة أفق التعليم فيما يحدثه الان وما يحدثه غدا من الأثر السريع في تكوين المجتمع وتأليف طبقاته وهيئاته التي تتولى شؤون معيشته ومعاملاته ، وهو ذلك التكوين الذي يرتبط بكل مصير قريب نتصوره

لسياسة الأمم في داخلها وسياسة الأمم المشتركة بينها . ومن أهم البحوث التي اطلعنا عليها أخيرا بحث للخبير الاقتصادي الأمريكي الأستاذ بيتر دراكر Druker عن تكوين الكثرة الاجتماعية من أصحاب المرتبات ونتائج هذا التكوين فيما يتعلق بمذاهب الاجتماع وأطوار الشعوب وخطط السياسة الكبرى . وقد افتتح الأستاذ بحثه مشيرا الى الزيادة المطردة منذ سنوات ثلاث في عدد ابناء الطبقة المكونة من ذوي المهن الصناعية والفنية والادارية بين سكان الولايات المتحدة ، وقال انه يعني بها الطبقة التي تجملها كلمة الطبقة الوسطى من أصحاب المرتبات ، ثم قال :

« منذ ثلاث عشرة سنة ـ يوم خرجنا من الحرب العالمية الثانية ـ كان عمال الصناعة لا يزالون أكبر طائفة من طوائف المجتمع الأمريكي ، ينتمي اليها واحد من كل أربعة في المجتمع ، وكان ذلك ختام فترة بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر حين نشأت عندنا معامل المصنوعات . . اما الآن فواحد من كل خمسة ينتمي الى طائفة اصحاب المرتبات المختصين بالفن والادارة ويقرب عددهم من ثلاثة عشر مليونا » . . الى أن قال : « وفي سنة ١٩٧٥ اي بعد سبع عشرة سنة فحسب ـ نترقب ان يبلغ نتاجنا الصناعي ضعفي نتاجنا في الوقت الحاضر وان يزداد عدد الصناع بيننا بمقدار الثلث ، ولكن الطائفة التي تعلو نسبة زيادتها على نسبة الصناع ونسبة السكان جميعا هي الطبقة الوسطى من أصحاب المرتبات ، ومتى تمت دراسة الصبية والبنات الذين يدخلون المدارس الآن ، ومضت سبع عشرة سنة . . تضاعف عدد ابناء هذه الطبقة ضعفين ووجب أن تكون نسبتهم نحو الخمسين من جملة القوى الصناعية » .

ثم لاحظ الأستاذ دراكر ظواهر الزيادة في انواع المصنوعات التي صاحبت نمو هذه الطبقة فقال انها تتمثل على الخصوص في زيادة المطبوع والمتداول من الكتب الشعبية ، وان أثر هذه الطبقة ينجلي شيئا فشيئا في ثقافة الأمة وسياستها وقيمها وعلاقاتها الاجتماعية . . الى أن قال بعد الاشارة الى نظريات كارل ماركس : « انه قد مضى عليها الآن قرن من الزمان ، وانما كانت تقوم على نظرة جريئة تنبىء عن ظهور الصانع وعامل المكنة قوة نامية محركة في المجتمع . ومضت بعد ذلك خمس وسبعون سنة كان الصناع وعمال المكنات فيها حقا اكثر الطوائف نموا ، وان لم يبلغوا قط نصاب الكثرة في مجتمع من المجتمعات

الصناعية ، غير انهم كانوا على حدة اكثر الطوائف عددا في كل مجتمع منها ، مما اكسب الماركسية قوتها ونفاذها باعتبارها عقيدة وفلسفة على الرغم من مواطن ضعفها . واليوم ـ في الولايات المتحدة وغيرها ـ تنجم طبقة جديدة وتسرع في نموها الذي يجعلها أكبر طائفة مستقلة بين مختلف الطوائف ، وهؤلاء هم الفنيون أصحاب المرتبات الذين لا هم باصحاب رؤوس الأموال ولا بالصعاليك ، ولا هم بالمستغلين ولا بالمستغلين » . . .

***

وفي بحث آخر يجمل الأستاذ دراكر احصاءات التعليم بالنسبة الى هذه الطبقة ، فينقل عن احصاءات مكتب العمل ان حملة الشهادات العليا اصبحوا في السنة الماضية ـ ١٩٥٧ ـ هم الكثرة الغالبة بين المشتغلين بالصناعة في الولايات المتحدة . قال : « انني لما بدأت العمل منذ نحو ثلاثين سنة كان التعليم الثانوي هو الندرة المستثناة ، وكنت أنا يومئذ منفردا وحدي باتمام هذا التعليم بين الكتبة الشبان في مكتب من مكاتب التصدير ، ولم يكن رؤسائي يكتمون عني ان هذا التعليم كان عقبة ـ لا عدة صالحة ـ في سبيل الأعمال التجارية . وكان الذهاب الى الجامعة في ذلك الحين مقصورا على القلة النادرة جدا بين المتعلمين ، ولعلها كانت اكثر يومئذ من مثيلاتها في بلاد أوروبة الغربية . . » .

***

والنتيجة الطبيعية لتعميم التعليم الصناعي على هذه السعة ، وبهذه السرعة ، ان تصبح الكفاءة البدنية اقل الكفاءات المطلوبة لتدبير لوازم المجتمع وتنظيم معاملاته وعلاقاته ، وأن تتوزع الأعمال بين كفاءات كثيرة ، فكرية ونفسية وذوقية ، لا يتأتى حصرها في طائفة واحدة ولا يتأتى ـ من ثم ـ أن تطغى على المجتمع لتسليط مشيئتها عليه دون أن يلحقها شيء من الضرر الذي يلحق سائر الطوائف ، وقد يأتي اليوم الذي تناط فيه الجهود الانسانية بالأعمال التي يغنى فيها الانسان على تفاوت ملكاته ، ولا تؤديها الآلات مستقلة بها او باشراف من يديرها . فلا يتولى الفنيون عملا تقوم به المكنات في الوقت الحاضر والمكنات

التي تترقى وتبلغ غايتها من الدقة بافتنان المخترعين والمقترحين من نوابغ الفكر والصناعة في المستقبل . وبعض هذه المكنات يقال عنه اليوم انه « يفكر » على سبيل المجاز ، ويجري العمل فيه على نسق يشبه عمل الدماغ الانساني في تلقي الاشارة ونقل التنبيهات وتنفيذ المقترحات ، وكلما استدقت معارف العلماء بالكهربية الدماغية ، وروقبت حركات الدماغ اثناء انفعالاته وتوجيهاته لحركات الأعضاء تبين الفارق بين عمله العقلي الخاص بالانسان وعمله الجسدي من قبيل رد الفعل الذي تستطاع محاكاته في المكنات . وسيكشف الغد عن حدود هذه المكنات في أداء الأعمال التي لم توكل قبل الآن لغير الانسان العاقل ، فليس من المنتظر أن تجمع المكنة بين وظائف الأمر والتنفيذ ووظائف الابتكار والتقليد ، ولكنها ستؤدي ـ ولا شك ـ كثيرا من المساعدات الفكرية التي تستنفد الآن جهود الملايين من حذاق المتعلمين .

يقول الدكتور جورج تومسون Dr. George Thomson من اصحاب جائزة نوبل في العلوم من فصل بعنوان الفكر الصناعي والطبيعي في كتاب المستقبل المكشوف The Foreseeable future :

« من السائغ ان نترقب زمنا تحل فيه المعرفة الحقة بعمل الدماغ محل هذه المعرفة المترددة ، واصعب من ذلك ان نقدر أثر هذه المعرفة في الحياة الانسانية . واتكلم عما اعلم فأرى ان قليلا من المعرفة السطحية قد ارتفعت ارتفاعا عظيما باعجابي وتقديري للانسانية . فان هذه المكنة المعقدة التي نملكها جميعا ـ أو التي هي نحن ان شئت ـ بما احتوته من دقائق تبلغ عشرة آلاف الملايين ، وبما بينها من خيوط الاشتباك في العمل ـ لتفوق كل حد ترتقي اليه أية صنعة نقدر عليها وتخالف كل ما نعهده من هذه الكائنات التي ندرسها نحن الطبيعيين مخالفة الصور في طلاء الجدران للبلورات الحقيقية » .

- ثم قال : « ان عرفاننا كيف نشعر قد يكون اعظم اثرا في اعمالنا من عرفاننا كيف نفكر ونتصور . وقد يدهشنا كيف يمكن ان نبقي نوازع العصبية الجامحة بعد العلم ـ من الوجهة الكهربية ـ بمجراها الذي جرت عليه عند تكوينها .

لننظر الى الفكاهة مثل هذه النظرة فانما النكتة ـ كما هو ظاهر ـ مسألة انطلاق تيار او افلات مجموعة من الدوافع المتناقضة لتتخذ لها نسقا آخر ، فهل تبقى فيها اعجوبتها اذا علمنا بهذا النسق الآخر : ما هو وكيف يكون ؟ انني لأرجو

ذلك حقا ، فلا ينقص من متعتنا بالمسرحية او القصة علمنا بانها مؤلفة . ولعل الأمور التي يجب على الناس أن يكبروا من خطرها هي التي تصاب اشد المصاب من جراء ذلك . فان المبادىء ليعسر الثبات عليها بعد العلم بانها اشبه شيء بالدورة الكهربية . وقد ينجم من ثمة ضرر على الخصوص لتلك العقول - غير القليلة - التي يخيل اليها ان الرجوع باصول الانسان الى اصول الاحياء الدنيا يغض من كرامة البشرية . وانه لمن المهم عند من يحرصون على استبقاء المبادىء - وليس منا من لا يحرص عليها - ان يوطنوا انفسهم على ما يكون من هذه الحقيقة ، وان يتعلموا كيف يحافظون على ما نشعر الآن انه جدير بالمحافظة عليه وان تبدلت منه الصورة دون الجوهر ، وانه لمن الخطأ أن يرد على الخاطر ان العلم والقيم شيئان مختلفان لا يؤثر احدهما على الأخر ، فان الكون الذي يحيط بأفكارنا واحاسيسنا واحد ، وليس فيه جزء ينفصل كل الانفصال عن سائر اجزائه . . . » .

❊❊❊

الى هذا الأمد يمتد الأمل في التعليم والصناعة ، وتتعدد الامان فتتفق ولا تتفق ، ولكنها على الحالين لا ينتفي منها الأمل في انتفاع الفكر بالصناعة وانتفاع الصناعة بالتفكير .

٣ ـ الفضـــاء

كان السؤال الشائع بين المشغولين بأمر الطيران في مطلع القرن العشرين : هل من الممكن أن يطير في الفضاء جسم أثقل من الهواء ؟

وكان المرتابون في امكان ذلك كثيرين بينهم فئة معدودة من العلماء وخبراء الصناعة . غلب على اعتقادهم وتفكيرهم ان الطيران لا يتأتى بغير وسيلة واحدة ، وهي وسيلة المناطيد التي تحملها القباب مملوءة بأنواع من الغاز أخف من الهواء ، وما عدا ذلك فهو خرق لقانون الطبيعة كما فهموه .

وتقدم القرن العشرون الى منتصفه ، ثم جاوز منتصفه بسنوات فأصبح السؤال الشائع بعد نيف وخمسين سنة : هل من الممكن ان نستغني عن الهواء في تسيير الطيارات ؟

لم يتغير شيء في هذه السنين من قوانين الحركة ولا من العلم الذي يرصدها ويتولى تطبيقها ، وانما تغير التطبيق فأصبح خبراء العلم نفسه يسألون عن امكان الاستغناء عن الهواء بعد ان كان السابقون لهم في مدى سنوات يحسبونه « وسطا » لا يصلح للطيران .

وجواب الثقة عن هذا السؤال : نعم ! ان تزويد الطائرة بالأجهزة التي تدفعها في فضاء لا هواء فيه ممكن ، وان استخدام الوسائل الكيمية والكهربية يذلل الصعوبة التي كانت قبل الآن عصية على التذليل بغير الدفع الجوي ، فليس من المستحيل ولا من البعيد في الواقع ان تصنع الطيارة التي تجوب

الأفلاك العليا فوق جو الأرض وبين آفاق السيارات ، ولا تعرف الآن صعوبة فنية تحول دون الرحلة الى الكواكب اذا استطاعها الانسان ، اما استطاعة الطائرات ان تصمد لتلك الرحلة فليس فيها الآن خلاف .

يقول سير جورج تومسون صاحب جائزة نوبل في الطبيعيات : « ومهما تكن الطريقة المتبعة فان تسارع الصاروخ على مهل بعد مجاوزته جو الأرض امر لا يعرف له مانع ولا يعارض قاعدة من القواعد الطبيعية ، ورد الفعل النووي كفيل بتدبير الطاقة الطرفية ، ولا خوف من الافراط في التسخين مع استخدامه على مهل ، في حين ان المواد اللازمة ليست مما يمتنع تدبيره ، مع الدفع بهذه السرعة . وقد يحوم هذا الصاروخ في مدار المنظومة الشمسية ويطيف بالسيارات وبالقمر ، ويعتمد على الأجنحة عند عودته الى الأرض لنقص السرعة بمقاومة الطبقات العليا من الجو ».

ويرى هذا العالم المحقق ان اتخاذ المراكز من الأقمار الصناعية لتجديد الاندفاع الى الآفاق العليا يدخل في نطاق المعلومات الصناعية الميسرة للخبراء في العصر الحاضر ، قال : « وهناك مشروع يهتم به فون برون Von Braun الذي رسم القمر المسمى بالراند الثاني ٧.٢ في الولايات المتحدة يرمي به الى ادارة قمر دائم حول الكرة الأرضية ، ويمكن اتخاذه محطة وسطى للسفر الى السيارات ، ويحتاج تركيبه الى اطلاق اجزاء صغيرة بالصواريخ تتجمع في الفضاء على النحو الذي قدمناه . . . ويستطاع تزويد هذا القمر بجاذبية مصنوعة اذا تم تركيبه على شكل اطار يدور دورة سريعة تطرد كل شيء في وسطه بالقوة المركزية الى جداره »[1] .

وبعد أن شرح الاستاذ تومسون كل ما يرد على خاطر العالم من مصاعب السفر الى الكواكب قال : « ان الظاهر من هذه العجالة ان صعوبات السفر بين الكواكب كثيرة عدا صعوبة الافلات من أفق الأرض ، ولكن لا يرى ان هناك صعوبة اساسية ولا يسعنا الا ان نطمئن على ثقة بان براعة المهندسين تتغلب عليها خلال الخمسين او المائة السنة التالية ».

---

١ ـ المستقبل المنظور تأليف سير جورج تومسون

The Foreseeable Future by Sir George Thomson

واحدث ما اطلعنا عليه في هذا الموضوع كتاب عنوانه « صاروخ الى القمر » ألفه المهندس النرويجي اريك برجوست ، وخبير الطيران والقذائف الأمريكية سبروك هل ، وقدم له فون برون مهندس الاقمار الصناعية ـ المتقدم ذكره ـ عجل فيه المؤلفان بالموعد المنتظر من خمسين سنة الى سبع سنوات وقالا في الفصل الأول منه : « ان الخطوة التالية ـ بغير ركب انساني ـ تحتاج الى أجهزة من الأقمار الصناعية افضل وأكبر ، ثم الى أقمار تحمل الحيوانات ، ثم الى اقمار تحمل الحيوانات وتعود بها سالمة الى الكرة الأرضية ، ومتى تم ذلك استطاع الانسان ان يذهب الى الفضاء ، ولكن الفتح العظيم الذي يقارن باطلاق القمر الصناعي الأول انما هو استطاعة الانسان ان يهبط على سطح القمر ويرجى ان يتم ذلك ـ بل قد يتم فعلا ـ قبل سنة ١٩٦٥ في اقل من سبع سنوات »[١] .

ويقول مهندس الأقمار الصناعية في مقدمته لهذا الكتاب ان تحقيق المخترعات الصاروخية المطلوبة لا يعوزه شيء من معرفة المبادىء العلمية والصناعية ، وكل ما يحتاج اليه عزيمة ومال .

والمؤلفان يستهلان كتابهما ببيان الأغراض التي توجب على ابناء العصر الحاضر متابعة النظر في تحقيق رحلات الفضاء ، فيذكران في مقدمتها حب الاستطلاع ويستشهدان بكلام للمهندس الكبير فون برون يقول فيه : « ان سببا من اول اسباب البحث في كل كشف او ارتياد جديد يتلخص في مجرد التشوف وحب الاستطلاع ، وليس من الحكمة ولا من الخبرة الواقعية ان نصر ـ سلفا ـ على المسوغات لكل بحث من هذا القبيل على أساس المنفعة العاجلة والنتائج العملية المحتملة . فان تاريخ الفنون والمعارف الصناعية زاخر بالأمثلة التي تثبت انها لا تقدر على دراية الانسان بالأنباء عما تسفر عنه الكشوف والمخترعات . . » .

ويلي هذا السبب المفروض في جميع البحوث والمحاولات سبب معروف النتيجة يقوم على غريزة حب الحياة والدفاع عن الذات ، ويكفي ان يكون الاختراع صالحا لاستخدامه في هجوم امة على أمة كي يكون العلم به واجبا لاتخاذ الحيطة والدفاع ، ويقول المؤلفان : ان تنظيم البعثات المشتركة لارتياد

---

١ - Rocket to the Moon by Erick Bergaust and Seabrook Hull.

الفضاء فوق القمر محتمل ، بل قريب الاحتمال ، ولكن الاتفاق على احتلال القمر بعيد لأن استخدامه في الأغراض الحربية يغري السابقين اليه بالاستئثار واجتناب المشاركة فيه جهد المستطاع .

اما السبب الذي لا شك فيه ولا اختلاف عليه فهو جمع المعلومات وكشف الحقائق عن أسرار العناصر المادية ، واسرار الضوء والطاقة المغناطيسية والجاذبية وما اليها من الأسرار التي تتفتح مغاليق الطبيعة امام من يعلمها ، وتزيده عرفانا بحقائق الكون وما فيه ومن فيه من الأحياء العاقلة ، ان كان فيه احياء عاقلة غير الانسان . وقد يشهد البشر يومئذ شهادة العيان أمورا من خفايا الغيب ظلت آلاف السنين حيرة للأفكار ومسبحا لشوارد الظن والخيال .

٤ ـ حكم العالم

يتفق الراسخون في علوم الاجتماع ـ من أصدقاء السلم والانسانية ـ على رأي واحد في أنظمة الحكم التي تصلح للعالم بعد القرن العشرين ، قوامه أن يمتنع طغيان الدول القوية على السياسة العالمية ، وأن يكون تدبير مصالحه موكولا الى هيئة دولية ، لا يضيع فيها صوت أمة من الأمم ولا تنسى فيها مصالح المتخلفين والمستضعفين .

ويكتب الجلة من ذوي الخبرة والنية الصالحة عن هذا الرأي كأنه المخلص الوحيد من شواجر النزاع والصدام بين الأقوياء ، وبينهم وبين الضعفاء . فاذا جعلوه أملا مرموقا فهم لا يجعلونه كذلك لانهم على ثقة بينة من بلوغه وامكانه ، وانما يتعلقون به لأنه المخلص الوحيد من اخطار الحكم في المستقبل . فينبغي أن يكون الأمل الوحيد لأنه المخلص الوحيد .

وهؤلاء الثقات المتعلقون بهذا الرجاء يقاربونه على منهجين : منهج اقرب الى الفلسفة العلمية ، ومنهج آخر اقرب الى السياسة والاحصاء ، ولعلهم على هذين المنهجين يتمثلون على أحسن الوجوه في كاتبين من أبرز كتاب العصر في هذه الموضوعات ، وهما الفيلسوف الرياضي برتراند رسل ، والمؤرخ الاجتماعي هانس كون ، وكلاهما معدود اليوم في طليعة الكتاب العالميين .

آراء برتراند رسل في الحكم العالمي ومصير الانسانية مبسوطة في كتبه الكثيرة ، ملخصة في آخر ما صدر منها عند منتصف القرن العشرين ، وهو الكتاب

الذي سماه « آمال جديدة لدنيا متغيرة »[١] وجمع رؤوس موضوعاته في بضعة أسطر يقول فيها : « ان الحياة في العصر الذري معنية بوسائل العلاج الثلاث من المشكلات التي طالما ابتلي بها نوع الانسان ، وهي مشكلة النزاع بين الانسان والطبيعة ومشكلة النزاع بين الانسان وسائر الناس ، ومشكلة النزاع بينه وبين نفسه . والمشكلة الأولى من شأن العلم ، والثانية من شأن السياسة ، والثالثة من شأن الدين والدراسات النفسية » .

وعنده أن الفقر لم يعد في عصر الصناعة الحديثة ضربة لازمة ولا محنة محتومة على الأكثرين من بني الانسان ، وانما يعود الاخفاق في علاج مشكلته الى رسيس من العقائد والعادات البالية لا موضع لها من الحياة الحديثة ، وان هذه الحياة الحديثة قد أبطلت الحاجة الى المزاحمة على الأرزاق ، وجعلتها اقل ما يكون لزوما لمن كانوا يتزاحمون عليها ، وان المخاوف الرثة التي خامرت النفوس دهرا طويلا لا ضرورة لها الآن ، وان الانسان العصري في وسعه ان يزيل وساوس الخوف والقنوط .

واستطرد الى الفريضة التي يتطلبها تحقيق هذه الغاية فيما تتولاه انظمة الحكم فقال : « ينبغي أن تكون هناك هيئة عالمية تشرف على تدبير الأغذية والخامات ، وان يكون في وسعها منع الأساليب الزراعية التي استنفدت التربة في افريقية الشمالية والولايات المتحدة . فلا يسمح للزراع بالاستكثار من الثراء بتبديد موارد الرزق التي تعول عليها الأجيال المقبلة » .

ثم قال عن النزاع بين الانسان وسائر الناس « ان الخطر الاول هو خطر التهديد بالحرب . فلا قرار لشيء من الأشياء مع بقاء الناس على خوف من نشوب القتال ولا سيما القتال بآلاته الحديثة . وما من وسيلة تعصم الانسان من هذا البلاء أنجع من تزويد العالم بقوة عالمية واحدة تملك المحاجزة بين الدول ، ولا ضرر من قيام الجيوش المحلية التي تحفظ الأمن في بلادها بالوسائل الميسرة للشرطة ، ولكن الأسلحة الوبيلة جميعاً ينبغي أن تعهد الى القوة العالمية التي لا تنفرد بها دولة واحدة ..

ثم يعرض الفيلسوف لمسألة التعليم فيقول انها ينبغي ان تقوم على مبادىء

---

١ - New Hopes for a changing World by Bertrand Russell.

عالمية وان يمتنع التعليم الذي يغري بالعدوان وينفخ في جذوة البغضاء والنقمة بين الشعوب . . « وينبغي ان نتدرج الى تعميم التجارة الحرة وان تباح حرية السياحة على النحو الذي كان شائعا قبل الحرب العالمية الاولى ، وان تتبادل الأمم طلابها لكيلا يتعرض الكثيرون في شبابهم لآفة التحجر على العادات والتقاليد » .

ثم يعرض للشخصية الفردية فيقول : « انه من اللازم ان يحمى الفرد من طغيان الجماعة كما يحمى من المخاوف التي تساوره في قرارة وجدانه ، وهما ضرران بينهما من الارتباط اشد مما يخطر للكثيرين . اذ يغلب على طغيان الجماعة ان يكون وليد الوساوس والخوف » .

قال : « وينبغي اجتناب القسر في التنسيق والتوحيد بين الشخصيات الفردية مما يحق للمجتمعات المصنعة ان تخشاه ويجب عليها ان تتقيه بما استطاعت من تدبير . ولا بد من فسح المجال للأفذاذ الموهوبين كالشعراء والفنانين الذين لا يظفرون بالتأييد من أصحاب التقاليد » .

واختتم فصوله قائلا : « ان الانسان في أدهاره الطويلة منذ هبط الى الأرض من أغصان الشجر قد تقحم الفجاج المرهوبة وتركها وهي محفوفة بعظام الهالكين ممن سلكوها قبله ، يداخله جنون الجوع والضنك والفزع من الضواري والرهبة من الأعداء : اعداء من الأحياء ومن الأشباح التي تساوره وتتعمق في وجدانه بما تغلغل فيه من الأوجال والأوهام . وبعد لأي جاوز الصحراء الى الأرض الباسمة ولكن بعد ان نسي كيف يبتسم ، وأصبحنا نرتاب ولا نصدق بالصباح البهيج والنهار المنير ، نحسبه من الوهم الكاذب ونتشبث بالخرافة البالية والأسطورة الكامنة التي تملي لنا في حياة الخوف والكراهية ، ولا سيما كراهية ذواتنا والنظر الى أنفسنا كأننا بقية من المذنبين الخطاة . تلك حماقة . . فما يحتاج الانسان اليوم لخلاص نفسه الا ان يفتح قلبه لفرح الحياة ويدع الخوف يتسرب في ظلمات الغابر المهجور » .

***

وقد استوفى الأستاذ هانس كون ـ بحث الموضوع من ناحيته التاريخية السياسية ، فاستهل كتابه عن القرن العشرين بتفصيل أطوار الأمم التي سلفت

منذ ثلاثة قرون ، وكان لها أثرها في ظهور القومية والعنصرية وحركات الاستعمار ومذاهب الحكم المطلق ومعارك الطبقات ، وسائر هذه الأطوار التي تعد من بعض وجوهها حواجز بين الأمم وتعد من حيث النظر الى نتائجها مقدمات لا بد منها لتطور العلاقات بين الأمم من العزلة الى العالمية . وانتهى به المطاف الى تلخيص المعقبات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية فقال في الفصل الرابع عشر من الكتاب : ان هذه الحرب قد جددت للديمقراطية قوتها الحيوية ، وانه لا خطر على الأمم التي تدين بها من طغيان مذاهب الاستبداد على أنواعها ، وان حماية الأمم الديمقراطية لا تتم باعداد السلاح وحده لأن سلاح التفكير لازم لها لزوم العدة العسكرية ، وقد تعلم الأمريكيون في العشرين سنة الأخيرة ان يحرروا انفسهم من العزلة المريحة وفهموا ان حدودهم لا تنتهي عند شواطىء بلادهم ، وان ذلك لا يعني ان تفرض الدولة مشيئتها على الأمم لأن عبرة الماضي القريب قد أبرزت خطر هذه السيادة على سلام العالم وعلى الدولة التي تحاولها . قال « ان الأمريكيين حريون ان يعلموا ان الحضارات المنوعة والتقاليد المتعددة تعيش معا في هذا العالم ، وان ثروة التنوع اهم عناصر التاريخ والتقدم ، ومن المستحيل في دور الانتقال ان يتطور العالم على نظام واحد . . وفي هذه المرحلة من التاريخ لا يتأتى الاتفاق التام بين اجزاء العالم ولا يقتضي ذلك حتما وقوع القتال ، وعلى الأمم الغربية ان تعيش خلال هذه الفترة دون اتفاق ودون حرب جنبا لجنب مع الأمم الشيوعية . وهو أمر يتطلب القوة والصبر وبعد النظر ، ولكنه لا يعوض بالحلول السريعة ولا بالطريق المقتضب ولا بالترياق السريع ».

٥ ـ إلى مليون سنة

توفرت المباحث التي لخصناها من قبل على بيان « حالة العالم » عند نهاية القرن العشرين وفيما يليه من زمن قريب . وأحجم الباحثون عمداً عن الخوض فيما وراء ذلك ذهاباً مع الزمن المتطاول ، ايثاراً منهم للوقوف عند حدود الاحصاء وما هو أشبه به من ضروب التقدير ، ولم يجدوا في التقديرات المحسوبة معيناً لهم على تقدير المصير « الانساني » الذي يتصل بنفس الانسان أو طبيعة الانسان .

تلك هي حالة العالم في شؤون المعيشة وفي موارد الصناعة والطبيعة . تلك هي معيشة الانسان بعد مائة سنة ؟ فكيف يكون الانسان نفسه في تلك الحقبة ؟ كيف يكون الانسان روحا وخلقا وضميرا في ذلك العالم الموعود ؟ ان صحت جميع المواعيد ؟

وكيف يكون بعد السنين المائة وبعد القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين ؟ كيف يكون بعد خمسة قرون وبعد عشرة قرون ؟ وبعد الدهر الطويل الذي يحسب بآلاف السنين .

ان هذه الاسئلة لم تترك بغير جواب يفهم من خلال السطور ، وان لم يرد لها جواب مقصود على سؤال مذكور ، ومن الباحثين العلميين من أطلق فكره من قيود الاحجام العلمي وجازف بالنبوءة وراء القرون الى الدهور ، ونظر الى الانسان كما سوف يكون بعد مليون سنة ، فاذا هو ينطلق من احجامه في عداد

السنين ويكاد يتعثر في القيود كلما زحف زحفة واحدة في تلك الآماد الطوال . فلم يكن في حسابه أن مليون سنة قد تنفسح يوماً من الأيام لطارىء غير مألوف من طوارىء الغيب أو تسمح بشيء من التغيير يخالف التغيير الذي سمح به للأعوام التي تعد بالألوف أو بالمئات .

***

في كتاب صورة الغد لمؤلفه « جورج صول » أمل يرجى « للانسان » من طريق التقدم في مجمل أحواله وأعماله ومعاملاته ، يناط كله بالتعليم الذي لا بد منه لترقية الصناعة وتدبير مطالب المعيشة .

ليس للانسان أمل في عالم يحكمه القلة من الأذكياء والخبراء وينقاد فيه للحكم المطلق جماهير الرعايا المسخرون على كره أو على طواعية . فقد أفلس حكم كهذا الحكم منذ القدم في دولة الرومان .

وليس للانسان أمل في عالم تستغرق أوقاته في الكد والهم ولا يتسع فيه بعض الزمن لعمل من أعمال الفراغ يقضي على اختيار وشوق بعد قضاء مطالب المعدات والجلود : مطالب الحيوان .

انما الأمل للانسان ـ لروح الانسان ـ في عالم تتكفل فيه الصناعة بأكثر المطالب في أقل الأوقات ، ويبقى فيه شطر من اليوم يقضيه الانسان فيما يختاره ، ويختار فيه ما يرتضيه العارف المدرك الآمن على الكفاية فوق الكفاف .

يقول المؤلف في ختام فصوله : « ان علوم التصنيع تبدل من حالة العالم الذي نعيش فيه تبديلا قوياً خليقاً أن يبدل من وجهات العقول . فليست الآمال ولا الأحكام التي كانت ملائمة للمجتمع قبل بضعة أجيال بالتي تصلح لهذه العقول . ولنجمع هنا طائفة من وجهات التغيير التي تجري الآن والتي يرى أنها وشيكة أن تجري في الزمن القريب ، كي نبني عليها « تخمين » وجهات الفكر بعد التبديل المنظور .

« ان بعض أبناء هذه البلاد لا يقدرون على الكفاية من القوت والكساء والمسكن الصالح ، ولكن الظاهر من نمو الدخل الفردي أن هذه الحالة قريبة الى النهاية في الولايات المتحدة ، وينتهي بانتهائها أقدم خوف للانسان وهو الخوف من الفاقة . . . وكلما اقتربت الحالة من اشباع مطالب الكفاية تحولت هذه

المطالب الى غير الماديات ، وانها لمطالب حاضرة نحسها جميعاً ، وانما يتناول التغيير المنظور أن نتمكن من تخصيص مزيد من الوقت والسعي للحصول عليها .

« وقد أدى ارتفاع مستويات المعيشة المادية في الولايات المتحدة الى التقدم السريع نحو المساواة في الدخل والمورد . . ويؤخذ من الاحصاءات منذ سنة ١٩٣٠ أن فئات المشتركين في الدخل الواحد والمعيشة الواحدة تنقص عل عجل ، ويصح هذا حتى بعد تعديل الاحصاءات من جراء ارتفاع الأسعار . وعلى حسب قيمة الدولار سنة ١٩٥٠ يحصل نحو الخمس من تلك الفئات على دخل يقل مقداره عن ألف دولار ما بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ . فهبط هذا العدد الى أقل من العشر سنة ١٩٥٠ . . . ومعظمنا على تفاوت مواردنا نلبس من أصناف متشابهة من الكساء كما نأكل أصنافاً متشابهة من الطعام ونسكن في حجرات تتقارب عند المقارنة بينها ، ولا تزال السيارات الرخيصة تدنو في مظهرها وسرعتها من ذوات الأثمان الغالية عاماً بعد عام ، ويرتفع عدد العائلات التي تملك سيارة واحدة على الأقل الى نسبة تضارع ثلاثة أرباع عدد العائلات في البلاد . وهذه حالة تختلف كثيراً عما كان مشهوداً قبل فترة من الوقت ولا يزال مشهوداً في كثير من البلاد حيث يعتبر اقتناء السيارة والتفرغ للرياضة والاستمتاع بالأطعمة الحسنة مزية من المزايا الاجتماعية النادرة .

« ويشكو بعض النقاد من أن هذه التسوية مفضية الى صورة من المشابهة على نمط واحد لا تنوع فيه ، ان لم تفض الى نمط من المماثلة الجامدة ، وهذا خطر ولا ريب . الا أن النتيجة أشبه أن تكون انتقالا الى التمييز بين الأفراد بغير المزايا المادية ، من أن تنتقل بنا الى فقدان الشخصية واختفاء التنوع في الأذواق . فيكثر عدد الأفراد الذين ينفقون أوقاتهم في مرضاة أذواقهم وتعبيراً عن ذواتهم ولا يفرغون للمنافسة على مظاهر الثروة المادية . ومن كانت الوجاهة لديه بغية غالية كان أحرى أن يلتمسها بانماء ما عنده من ملكات المهارة والذوق والمزايا الأدبية ولم يلتمسها في المظاهر والأعراض ، ولا ينتظر أن تزول المنافسة بين الناس ولكنها تتحول على نحو أوسع وأشمل من الماضي الى منافسة على السبق في خصلة من الخصال غير النجاح في كسب المال والمغانم الاقتصادية .

« . . . وتدل اتجاهات العمل على أن عدد العمال المشتغلين بانتاج السلع

المادية في التعدين والزراعة والمصنوعات آخذ في النقصان ، وان الزيادة تطرد في عدد العمال المشتغلين بتوزيع تلك السلع وادارة المواصلات وسائر الخدمات ما عدا الخدمة المنزلية التي تميل كذلك الى النقصان، وبعض هذه الخدمات قد دعت اليه الحاجة من ترقي العناية بالصحة وكثرة الطلب لمن يطببون المرضى ويشرفون على أسباب الوقاية ، وبعضها قد دعت اليه الحاجة من كثرة طلب المتعلمين للاقبال على المدارس الثانوية والكليات ، وينجلي الواقع في كثرة الطلب على المعلمين والمدرسين من أن عدد الموظفين الحكوميين يربى على عدد المستخدمين في المرافق الخصوصية ، وان وظائف الحكومة انما تخصص لتوفير أنواع من الخدمات التي تقتضيها حياة الحضارة الصناعية . ومعنى التحول من انتاج السلع الى أداء الخدمات أن هناك تحولا من مزاولة الأشياء الجامدة الى مزاولة المعاملات مع الناس ، وتوكيد العلاقة المشتركة بينهم والبواعث العاطفية التي تتولد منها ، ومنها بواعث الشعور بقضايا الاجتماع التي تتميز بها حضارتنا . . وأبرز التغييرات وأحراها بالالتفات اليه أن عدد العاملين غير الفنيين ينقص على العموم ، ولا يقف النقص فيه عند قلة النسبة الى مجموعة السكان ، ومغزى ذلك استئصال المشاق التي تضعف القدرة عليها بعد تجاوز الأربعين وتقل أجورها ويكثر فيها التعرض للبطالة .

« . . . ولما كان الناس يعملون من عشر ساعات الى اثنتي عشرة ساعة كل يوم ، كان لا بد لهم من وقت للراحة وتجديد النشاط للعمل كي لا تكون أعمارهم سلسلة متلاحقة من الكد والمشقة ، أما وأسبوع العمل الذي يكتفى فيه بأربع وأربعين ساعة يوشك ان يعم وأن ينقص الى أقل من ذلك قريباً ـ فالوقت متسع أمام كثير من الناس لقضاء الفراغ في الشواغل الجدية لا لمجرد الراحة والاستجمام . . . وكلما اقترب أسبوع الساعات الأربع والعشرين من التحقق فكر ذوو الفطنة في طريقة يشغلون بها ستة أسباع أوقاتهم . . . وليس الكسب الذي ينتظرونه من ذلك مالا يشترون به مزيداً من بضائع السوق ، بل أحرى أن يكون وسيلة لاشباع ما يروقهم مما يفضلونه على المشتريات بعد استيفاء الضروريات ، ومن ذلك الرياضة الصحية ، واللهو السائغ ، والمرح الجياش بالشعور ، والمتعة باتقان بعض الهوايات ، وتذوق الفنون ، ولذة المعرفة ، والقيام بالخدمات النافعة في الحياة السياسية والاجتماعية ، وان المجتمع الذي يتاح لكل فرد فيه على وجه التقريب أن يختار ما يشاء أن يشغل به معظم

أوقاته ولا يساق اضطراراً الى العمل الذي يجده كائناً ما كان ـ لهو مجتمع خليق أن يوصف بالمجتمع الحر على مثال أفضل وأوفى من كل مجتمع عرفناه فيما سلف . وهذه حرية تقترن كسائر الحريات بتبعة الاختيار الحسن كما يجوز أن يساء استعمالها . ومتى شعر الناس بالحاجة الى اجتناب هذا الاستعمال السيء لنشدان السعادة ، كان شعورهم هذا حافزاً هاماً لابتكار الجديد من النظم الاجتماعية وأساليب العرف والعادة .

« والمعلوم أن النوع الانساني ينفرد بين الأنواع بصفة حيوية هي حاجته الى الحضانة الطويلة ، وتمتاز الثقافات المتطورة على ما دونها من الثقافات بطول الوقت الذي تستلزم قضاءه في التعليم والاستعداد ، وليست الحضارة الفنية المتطورة بالاستثناء لهذه القاعدة ، ففي سنة ١٩١٠ كان نحو ٨٦ في المائة من أبناء الولايات المتحدة بين السابعة والثالثة عشرة منتظمين في المدارس ، وهي سن يفرض فيها التعليم الالزامي الآن ، وفي سنة ١٩٥٠ كانت نسبة المنتظمين في هذه السن نحو ستة وتسعين في المائة ، ويتضح الفرق كلما ارتقينا في السن بعد ذلك الى الرابعة عشرة والخامسة عشرة اذ تبدأ الدراسة العالية . فان النسبة وثبت من خمسة وسبعين في المائة سنة ١٩١٠ الى نحو اثنين وتسعين في المائة سنة ١٩٥٠ . . . والنتيجة التقريبية أن نحو ثلاثة أرباع عدد الشبان والشابات قد أتموا دراستهم العالية أو هم موشكون أن يتمموها .

« . . وليس أمام مجتمعنا في المستقبل مسألة أهم من مسألة التعليم وبغير انجازها على الوجه الأمثل لن يكون لدينا الخبراء المختصون اللازمون لادارة دولاب المجتمع المترقي في الاقتصاد الصناعي ، ولن يكون لدينا الظهارة التي لا غنى عنها ، للتعليم الحر المطلوب لفهم المشكلات المعقدة ومعالجتها حق علاجها ، مما يرتبط بذلك التطور ويسايره في أحوالنا القومية وعلاقاتنا الدولية .

« على أن التعليم لا يتوقف بجملته على المدارس وحدها . فان المفكرين الكفاة يثابرون على تعليم أنفسهم زمناً طويلا بعد نهاية السنوات المدرسية ، ولكن لا بد من اقتدار المدرسة على تربية الأذواق وتوليد الميل الذي يعين على كسبها . وان النجاح في هذه المحاولة يؤدي الى اتقان العمل في الصنعة كما يؤدي معه الى حسن استخدام الوقت بعد الفراغ من العمل المطلوب لكسب الرزق ، وقد نصل الى الثقافة الناضجة في حضارتنا الصناعية من طريق

المساعي التي نبذلها طلباً للفطنة النافعة في تكوين أفكار ومبادىء تعيننا على المساهمة في مقاصد الفعل التي لا حد لها ومحاسن الفنون وسائر ما يهذب الشخصية الانسانية ويهذب معها المجتمع الذي تعيش فيه ، ولا يكون قصارى الأمل من تلك المساعي المبذولة أن تجلب لنا الثروة والمظاهر المادية .

« ومن الجانب الآخر يخشى الخطر الجائح من الاخفاق في استخدام السيطرة على الطبيعة التي أتاحتها لنا الخبرة الصناعية استخداماً يهدف الى الغايات الانسانية : اما من التطوح الى الحروب أو من اقامة المجتمع على أنصاب من الآدميين محيت ملامحهم الشخصية . فما استطاع من قبل - حتى الرومان - أن يضمنوا طول البقاء لمجتمع يقوم على نخبة من العلية الأذكياء وجمهرة من الرعية تراض على السكينة بالخبز وحلقات الألعاب ، وان المجتمع الغني الديمقراطي لينوط أكبر الرجاء بما لجميع أبنائه من الكفايات والأخلاق »[1] .

***

على هذا النمط يسبق الكاتب الغد بنظرته الى عواقب اليوم ، فيخطو على مهل ويتجنب الوثبة ولا ينسى مواطن الزلل مع عثرات الأمل ، فلا نبوءة في الواقع هنا وانما هو ترتيب لسلسلة من الحلقات يتبع بعضها بعضاً ولا تأتي بجديد على غير انتظار . فالصناعة تقارب بين الأعمال والأرزاق وتمهد السبيل لكسب الوقت الذي يبذله من يشاء في تحصيل المزايا والأذواق التي توفر ثروات العقول والنفوس ولا تحصر التقدم الصناعي في توفير المال والعتاد ، وهذا ان شاء من يملكون سعة الوقت أن يبذلوها في مقاصد الفكر والروح .

وذلك هو مصير « الانسان » كما تنبئنا به هذه « النبوءات » الوئيدة على حذر لا يخلو من رجاء ورجاء لا يخلو من حذر .

وفي حدود هذه الخطوات الوئيدة ينظر كاتب علمي آخر الى مصير « الانسان » في عصر الصناعة ، أو ينظر - كما قال في عنوان كتابه - الى الناحية الانسانية من العلم فيعلق مصير الانسان كله على « تربيته الشخصية » ويربط بين تربيته

---

١ - ترجمت ببعض الاختصار من كتاب صورة الغد لمؤلفه جورج صول

The Shape of Tomorrow by George Soule

الشخصية وشواغل المادة ومطالبها فلا يراهما منفصلين ، ولا يراهما مع ذلك شيئاً واحداً تستغرقه الماديات وتستأثر به كله مطالب الرغد والرخاء .

وخلاصة تقديراته أن الانسان يمكن أن يكون انساناً تاماً بشخصية تامة ، ولكنه لا يكون كذلك الا اذا التفت الى كل جانب من جوانب « الشخصية الانسانية » ولم يقصر التفاته، الى جانب المادة أو جانب البدن منها . لأن الشخصية الانسانية عاطفة وعقل وضمير وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب ، ولو عرف الانسان كل شيء من تركيب بدنه لما أحاط بأسرار قواه الشخصية ولما نفذ الى حقيقة سر الحياة . فاننا لا نعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التي تدخل في تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ويلاحظون مثلا أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنقص أو تزيد : لاحظوا أن الفارة التي يقل المنجنيز في غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه الى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء . ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هي مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم في هذا الرأي كخطأ القائل : ان نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار ، وان نقص الغذاء لينقص حركة الجسم وحركة الدوافع الحية ، ولكن مادة الغذاء وعاطفة الحياة شيئان مختلفان ، ومن الواجب أن نعرف تركيب الجسم وتركيب كل مادة فيه ، ولكننا لن نعرف الشخصية الانسانية من معرفة هذا التركيب . لأن هذه الشخصية الانسانية تكوين عجيب يعجزنا الآن لأن نسبر أغواره ، ولكننا قد نلمحها لمحاً اذا لاحظنا الفوارق التي لا نهاية لها بين انسان وانسان ، أو بين شخصية وشخصية . فلكل انسان صوته ، ولكل انسان ملامحه ، ولكل انسان خطوط أصابعه ، ولكل انسان كتابة لا يكتبها غيره ، ولكل انسان تركيبه في فصيلة الدم وخلايا البروتين ، ولكل انسان قابليته للصحة والمرض وللمقاومة والاصابة . . . وهذا كله في المحسوسات التي ندركها بأيسر نظرة . أما الخفايا فمنها ما يجهله الانسان نفسه في وعيه الباطن أو في وعيه الذي لا يتضح للشعور ، ونعلم أن أدواتنا العلمية لا تمكننا من كشف هذه الخفايا اذا علمنا أنها تكمن كلها في الخلية التي يولد منها الانسان ، وأن جميع الناسلات التي يولد منها النوع الانساني يمكن أن توضع في فنجان . وسيبقى الانسان محجوباً عن نفسه ما دام محجوباً عن أعماق هذه الشخصية وما

دام منصرفاً عن جانب الضمير منها ، أو ما دام متجهاً الى الخلط بين مادة جسمه وبين العوامل الحية التي ترتبط بتلك المادة ، لأن ألحان الموسيقى لا توضع ولا تفهم ولا تتذوق بمعرفة الأخشاب والأوتار . كلا ، ولا بمعرفة العلامات والاشارات التي تضبط بها الألحان والنغمات ، وهنا ينبغي أن نسأل : ما هي حقائق الضمير ؟ والجواب أننا لا نعرفها جميعاً ، وأن ما نعرفه قد يختلط عند بعض الناس للجهالة أو للهوى والضلال ، ولكن ما نجهله أو نخطىء فيه لا نتركه ولا نحتقره بل نثابر على طلبه لنصحح خطأه وننفي جهله ، ولو أننا تركنا كل حقيقة وجهلناها وأخطأنا فيها لما بقيت عندنا معرفة بالمادة ولا بالضمير .

وهنا يضرب المؤلف مثلا بالطفل الذي يبيت ليلة عيد الميلاد وهو يحلم بالهدايا التي يضعها القديس نيقولادس ـ أو سانت كلوز راعي الأطفال ـ الى جانب وسادته . فان هذا الطفل ولا ريب يحلم بخيال ، ولكنه خير من الطفل الذي لا يتخيل شيئاً عن فرحة عيد الميلاد ولا عن هدايا الغيب ولا عن شوق الانتظار الذي يخامر جميع النفوس في أمثال هذه الأوقات. فما دام عيد الميلاد موجوداً فالطفل الذي يدركه على صورة من الصور ـ حسبما يستطيع في خياله وفكره ـ أصح ادراكاً من الطفل الذي لا يدركه ادراك الصغار ولا ادراك الكبار ، وعلينا في هذا العصر خاصة أن نعلم أن معرفة المحسوسات الظاهرة لا تستدعي انكار الغيب ولا انكار ما وراء المحسوسات ، لأن علمنا بالمادة المحسوسة قد انتهى بنا أو كاد أن ينتهي بنا الى عالم كعالم الغيب وراء المحسوس أو وراء المعقول .

ويقول المؤلف بحق : ان كبار العلماء لا ينكرون الغيب وان أناساً لا يزالون معدودين من أكبر العلماء كانوا يؤمنون بما وراء المحسوس : كان نيوتن مكتشف قانون الجاذبية يصلي ويؤدي فروضه الدينية في مواعيدها بغير انقطاع ، وكان جاليليو مكتشف دوران الأرض يؤمن بالله والدين ، وكان اينشتين يقول : انك اذا أردت أن تعرف غاية الحياة فمعنى ذلك أن تكون متديناً ، وكثير من خلفاء هؤلاء العلماء في العصر الحاضر يرجعون الى الغيب كلما أوغلوا في العلم بالمحسوسات .

ويردد المؤلف قول القائلين : ان الخوف كبير في عصرنا من شطط الانسان في استخدام معلوماته . ومن الجائز أن يكون حتف النوع الانساني في هذه الطاقة المخيفة اذا أساء استخدامها في الحروب ، ولكن المؤلف يعود فيقول : ان

هؤلاء المتشائمين يبالغون في الخوف من عوامل الشر والهدم التي ينطوي عليها طبع الانسان ، ولا يعطون عوامل الخير والبناء حقها من الامل والثقة ، مقاساً على الماضي في أحوال كأحوال العصر الحديث ، ولقد كان اختراع النار يكفي للقضاء على عمران الانسان كله في زمانه ، ولكنه عزز هذا العمران وعلمنا أن نخترع أنواعاً من النار لم تكن معروفة في عهد أجدادنا الغابرين ، وكل ما اخترعناه من انواع الوقود فهو توسع في استخدام النار ، ولكنها قد حسن استخدامها في أوقات وساء استخدامها في أوقات ، وكلها في النهاية قد أضاف الى العمران ولم يكن سبباً للقضاء عليه . ولا خطر على الانسان في الغد على هذا الاعتبار ، ولكننا لا نقنع بالأمان من الخطر اذا استطعنا أن نتمم أنفسنا ، ونحن قادرون على اتمامها اذا عشنا بشخصية متوازنة بين عوامل العقل والعاطفة والضمير .

وهل معنى ذلك أننا سنعرف كل ما في أنفسنا من الخفايا والأسرار ؟ . . . لا ريب أننا نزداد علماً بتلك الخفايا والأسرار جيلا بعد جيل . الا أننا لا يلزمنا أن ننتظر طوال الأجيال لنعرف منها كل ما يستطاع . لأننا نعرف مطالب العقل والعاطفة والضمير : نعرف التطلع الى الحقيقة ونعرف الشوق الى جمال الطبيعة والفنون ، ونعرف كرامة المبادىء الرفيعة والأمثلة العليا في الأخلاق والآداب ونعرف مطالب الضمير من العقيدة الروحية ، وما نعرفه من هذه الجوانب المتعددة في الشخصية فهو حسبنا للموازنة بينها وبين مطالبنا البدنية ، وحسبنا في الحذر من مسخ طبيعتنا بالاستسلام الى جانب منها دون سائر الجوانب وهو حسبنا للتقدم في طريق التمام .

وعند المؤلف أن هناك غاية أعلى من غاية الموازنة بين جوانب البدن وجوانب العقل والعاطفة والضمير ، فان عباقرة العالم كلهم يتوازنون في جميع الجوانب ، ومنهم من تغلب عليه نزعة تغطي على جميع نزعاته ، وبها يمتاز على سواد الناس ويتمكن من خدمتهم بالفتوح الجديدة في ميادين العلوم والفنون والأخلاق . الا أن االعبقريين يوسعون شخصيتهم بهذه النزعة الغالبة ولا يضيقونها . وانهم يتمون بها ولا ينقصون ، وهم الاستثناء في هذه القاعدة ولا تخلو قاعدة من استثناء .

وسؤ ال المبدأ والختام عند المؤلف : ماذا يمكن أن يكون الانسان غداً ؟ وليس

جواب المؤلف أنه سيعلو على الانسانية الى طبقة السوبرمان التي حلم بها دعاة القرن التاسع عشر ، وانما جوابه أن الانسان يتمم نفسه غداً فلا يحاول التحليق بجناح واحد ، وان المستقبل لانسان يعرف حق البدن ولا ينسى حق العاطفة وحق الروح والضمير .

***

والعالم الطبيعي شارلز جالتون داروين ـ حفيد داروين الكبير ـ يثب وثبته البعيدة في حساب السنين الى ما بعد مليون سنة ، ولكنه لا يجاوز في وثبته ذلك المدى الذي ذهب اليه زملاؤه من القانعين بالنظر الى مدى القرن العشرين أو القرن الحادي والعشرين ، فيكاد أن يقضي بالأمل في مصير الانسانية دونهم ، ويكاد أن يقول ان العصر الذهبي يمضي ولا يقبل ، وان التنازع على البقاء خليق أن يعود بالعالم الى معاركه العنيفة يوم كان العالم المعمور يضيق بساكنيه ويضن عليهم بالكفاف الذي يكفيهم جميعاً فيتقاتلون أو يدفع بعضهم بعضاً الى الهجرة والابتعاد ، وسيأتي اليوم الذي تضيق فيه موارد العالم عن سكانه ولا يسعهم يومئذ أن يعتصموا بالهجرة لامتلائه بالسكان وضيق منادح الخلاء في جميع بقاعه ، الا أن يقع ما ليس في الحسبان من أمر الأرزاق والسكان .

ويرى العلامة حفيد صاحب النشوء والتطور أن الناس يتغيرون ويتطورون مع الحضارة ، ولكن الانسان في دخيلته لا يلوح عليه أنه استراح الى التطور الذي جاءه من قبل الحضارات المتوالية ، لأنه يكن في طواياه بقايا الأزمنة المتطاولة التي سبقت تلك الحضارات ، ويستريح الى معاودتها كلما وجد بين يديه متنفساً للمعاودة ، وقد ينكشف منه الحنين الى الماضي في كثير من عادات الجد واللعب التي تشملها أعماله السلمية ، كأنها البديل الحاضر عن سوابقه في العراك والنزاع .

ولا ينسى داروين الحفيد أن الانسان يتعلم وانه أقدر الحيوانات العليا على التعلم والاستفادة من التجارب المتعاقبة ، والفرق بينه وبين أنواع الحيوان في

---

١ ـ ملخص من كتاب « ماذا يكون الانسان » لمؤلفه جورج رسل هاريسون

What man may be, by G. Russell Harison.

هذه الخصلة عظيم لا مثيل له في الفوارق المتعددة بين نوع منها ونوع آخر . الا أن الحيوان يورث أبناءه تجاربه الطويلة لأنها تتمثل في الغريزة التي تنتقل في لبابها بالوراثة ، وليس علم الانسان المكتسب بالعلم الموروث أو القابل للتوريث .

وهناك وراثة تكاد أن تكون خاصة بالانسان تعوض النقص في وراثته لمعارف آبائه وأجداده ، وتلك هي وراثة العقائد من طريق الجماعة التي يولد فيها . فلا يولد الانسان بعقيدته العامة ولا يخلقها لنفسه ولكنه ينشأ عليها بتلقين من الجماعة يشعر به أو يتقبله على غير شعور منه ، وتدور هذه العقائد قرابة عشرة أجيال ، ثم تضعف وتخلفها عقائد أخرى مشتقة منها أو مناقضة لها في بعض الأحايين ، ومن هذا التوارث في العقائد العامة يعود على الناس خير محمود العاقبة اذا بنيت العقيدة على صلاح ، لأن وراثة الاعتقاد ووراثة الحماسة له تؤديان الى القصد في جهود الجماعة فلا تحتاج في تجديد بواعثها الى العمل كل جيل .

ويشير الدكتور داروين الى الفرق بين الطبائع الانسانية في أمر الاعتقاد ، ويقتبس للتفرقة بينهما اصطلاحاً شائعاً يقسم الناس في هذا الأمر الى قسمين : قسم الخراف وقسم المعز ، أو قسم المنقادين في القطيع ، وقسم المفرقين من هنا وثم تارة على استقامة وتارة على انحراف ، وكلا القسمين لازم لحياة العقيدة في استمرارها على وتيرة واحدة او في استعدادها لقبول التنويع والتنقيح .

وليس من اللازم عند الدكتور داروين أن تكون العقيدة ديانة من ديانات العبادة الكبيرة التي ينتمي اليها عشرات الملايين من مختلف الشعوب ، بل هو يعني بالعقيدة كل مبدأ يؤمن به صاحبه ويستلهم منه الهداية في غاياته ومعاملاته لأبناء قومه أو أبناء نوعه ، ولا غنى عن هذه العقائد الآن ولا بعد آلاف السنين .

فاذا أراد المصلحون تهذيب الانسان فوسائل الاصلاح المعروفة الآن ثلاث : أن يتولى المصلح تعليم أتباعه بالاقناع والتفهيم ينتهي سعيه بانتهاء حياته ، ولا يجتذب اليه غير القليلين ممن يعملون بآرائهم ويتغلبون بالفهم على التقاليد والبواعث الموروثة . فان لم يعتمد المصلح المهذب على الاقناع والتفهيم فسبيله أن يعتمد على التحسين « البيولوجي » أو تحسين الطبيعة على الطريقة التي تتبع في تحسين النبات والحيوان ، وقد تنقضي الأجيال قبل أن تظهر لهذا التحسين

ثمرة تدعو الى المضي فيه والمثابرة عليه ، فلا يبتدىء العمل به حتى يدب اليه الاهمال ويتوقف السير فيه الى غايته المرتجاة ، وقلما يتعاقب مصلحان اثنان يتمم أحدهما عمل صاحبه على نسق واحد ، وقلما تتيسر له أسباب التنفيذ بعد حياته على النمط الذي يتوخاه وينظر الى عقباه .

فلم تبق من وسائل التهذيب المجربة غير وسيلة العقيدة الموروثة ، وهي عند سريانها تمتد بأثرها عدة قرون ، أو عشرة أجيال على التقدير المألوف .

وغاية ما يبلغه حفيد صاحب المذهب النشوئي ملخص في ختام كتابه اذ يقول : ان الأمل كله مرهون بامكان تقرير القوانين العلمية التي تسيطر على الحياة بما يقارب الدقة التي تقررت عليها قوانين العلوم الطبيعية ، ثم يقول : « ان من حق غيري ممن يعرفون عن التجارب البيولوجية ما أجهله أن يمهدوا لتقرير تلك القوانين ، ولكنني ـ مع التواضع البالغ ـ اجترىء على بيان الأسس التي أحسبها صالحة لأن تقام عليها ، فاما أن نأخذ في هذه الأسس بقول القائلين ان الانسان ـ باعتباره حيواناً ـ خاضع لقانون تنوع الأنواع الذي يحكم على الانسان بالبقاء بغير تبديل يذكر الى مدى مليون سنة ، وفي ذلك قضاء على فكرة الكمال الانساني وآمال المتطلعين والمترقبين من ذوي الضمائر النبيلة والمطامح العالية . واما أن نأخذ في تلك الأسس بقول القائلين ان الانسان حيوان آبد لا يسري عليه ما يسري على الحيوانات المدجنة ، واما أن نأخذ فيها بقول القائلين ان الصفات المكتسبة لا تورث ، وهو قول مقرر في شؤون الحيوان ولكنه قليلا ما يؤبه له في الشؤون الانسانية . فاذا بني العمل على هذه الأقوال أو على ما يقابلها ويستبدل بها أمكن أحياناً أن نزن بها صلاح السياسة المتبعة في قيادة الشعوب وأن يلاحظها السياسي الحكيم في عمله فلا يضيع جهده عبثاً ، لأنه بذلك دون سواه يستقيم على جادة التوفيق

فما التدبير الذي ندبره اذن لمستقبل النوع الانساني ؟ أخشى أن يسفر الجواب عن قليل ، وذلك لسبب جد بسيط وهو قلة اكتراث الناس لما سوف يجري في المستقبل البعيد ، ومعظمهم انما يكترث للغد الذي يمس أبناءهم وحفدتهم ويلوح له ما وراء ذلك كأنه شيء بعيد من الواقع ، وقد ينظر المفكرون الى المستقبل البعيد ويرون في الوقت نفسه أن الشكوك والريب أكبر من أن تتضح خلالها خطة مقررة . ولنضرب لذلك مثلا نفاد الوقود في الأزمنة المقبلة . فانني أعلم أن أبنائي لا يصادفون منه أزمة ذات بال ، وقد أعلم أن الجيل الخامس عشر بعد أبنائي لن

يجدوا عندهم فحوماً على الاطلاق . أتراني أكف عن ايقاد الفحم في الليالي الباردة خوفاً من اليوم الذي يبحث فيه أبناء الجيل الرابع عشر من نسلي عن الفحم فلا يجدونه ؟ ان هذه الأمور تلوح لنا في ابتعادها من الواقع المحسوس بالمكان الذي يجردها من الوزن والخطر . وان الحياة لعلى خطر التقلب في كل حين ، ومن العسير أن نتيقن من البقاء ولو الى عشر سنوات ، فلا جرم لا نرى أحداً يبالي جد المبالاة ما سيكون بعد قرن من الزمان . وما من خطب من خطوب الدنيا يشغل الانسان أمداً أطول من ذاك .

« بيد أن المستقبل البعيد قد يعمل له الآن ما لم تجر العادة بعمله قبل الآن . ومن ذاك أن مساعي الاصلاح كانت فيما مضى تنحصر في تحسين أحوال الانسان ولا تعنى كثيراً بتحسين طبيعته . فما هو الا أن تتبدل الأحوال حتى تذهب المساعي الى ضياع . وانما الأمل الوحيد أن تنصب تلك المساعي على خطة من الاصلاح لا تنقضي بانقضاء الأحوال والظروف . وستكون أصول الوراثة المقررة في علم الحياة مرساة يستقر عليها كل نفع وثيق يرجى لنوع الانسان .

« وأعبر في الختام عن ميولي الخاصة فأقول انني شديد الاهتمام بمصير العالم وأود حق الودادة أن يكون لذريتي دورهم فيه ، ومهما يكن من نزارة العلم بالمستقبل فليس مما يقنعني أن يكون مستقبلا تنقطع الصلة بيني وبينه ، وأيا كان مصير الحياة الى السعادة أو الى الشقاء بعد أجيال ـ ولا مفر من الشقاء على أية حال ـ فانها لتجربة تستحق العناء »[1] .

---

١ ـ ملخص من كتاب المليون السنة التالية لمؤلفه شارلز جالتون داروين

The Next Million Years by Charles Galton Darwin.

٦ ـ تعقيب وتمهيد

من نماذج البحوث التي أسلفنا ايجازها وتلخيصها نتعرف الى شكل من الأشكال الخاصة بالقرن العشرين في بحوث علمائه التي يستفتحون بها مغاليق الغيب ويتطلعون فيها الى مجاهل المستقبل القريب والبعيد . فان للقرن العشرين طابعا منفردا في هذه البحوث بين بحوث العلماء في بابها قبل بضعة قرون .

هناك نظرات الحكماء الى المستقبل من قبيل الطوبيات Vtopiasاو المدن الفاضلة كما سماها الفارابي في ترجمته لجمهورية أفلاطون ، وطريقة الطوبيين حين ينظرون الى المستقبل أن يتفطنوا لعيوب الحاضر ، ثم يرسموا للمستقبل مجتمعا يتنزه عن تلك العيوب ويصلحها بما يستطاع من اعمال الانسان او اعمال العناية الالهية ، ولا سبب عندهم يدعوهم الى انتظار الطوبى الموعودة الا انها افضل من المجتمع الحاضر وينبغي ان يكون مفضلا عليه في عرف الناس ، ولا يدرون بعد ذلك اقريب هو ام بعيد ؟ وموجود بعد حين هو أم غير قابل للوجود ؟

وهناك أحلام اليقظة التي يتعلق بها فكر الحكيم ويصوغها على ما يرتضيه ، وكأنه ضرب من القصص التي تجمل الواقع بحلية مستعارة من الرؤ يا والخيال .

وهناك الفراسة التي يستعان بها على كشف المجهول في الغد كما يستعان بها

على كشف المجهول في هذا الزمن : ظنون ألمعية كالتي عناها شاعرنا العربي اذ يقول في وصف ممدوحه :

الألمعي الذي يظن بك الظـ ـن كأن قد رأى وقد سمعا

وأتم ما تكون هذه الفراسة حين تترقب الممكن وتتجنب الشطط في الحدس والرجاء .

وهناك العصور الذهبية التي يلفقها الفكر والخيال معا من وقائع الماضي وأمثلة الحاضر وأماني المستقبل ، وقد يتوهم بعضهم انها صفحة مطوية يعاد نشرها او انها صفحة يكتبها الغيب وتستطلع منها السطور بعد السطور .

نظرات الباحثين عن المستقبل في القرن العشرين ليست في طابعها الخاص به على نموذج من هذه النماذج : ليست هي من الطوبيات ولا من الأحلام ولا من فراسة الحدس والفطنة ولا من صور العصور الذهبية ، ولكنها اشبه ما تكون بحساب المهندس لحركات الجهاز المعروف بسرعته وطاقته ، يمشي في أرض مرسومة على الورق كما ترسم الخرائط على البيد ، وقد يكشف العيان منها عن خلل في التفاصيل ، وان لم يكن بها خلل في الأبعاد .

هي حساب : فهي تصيب كما يصيب الحساب وتخطىء كما يخطىء ، ولا يمتنع ان يكون خطؤها من وراء الحسبان أشد من خطأ الظن والفراسة .

ونحن تراجع « التقديرات » التي يبسطها لنا الباحثون في القرن العشرين كما ننظر الى الخائض على قدميه في البحر اللجي الى مقربة من الشاطىء ، ونعلم انه يخوض الموج على أرض ثابتة راسخة ، ولكن ماذا يحدث يا ترى اذا أخذ في العوم والسباحة بعد المشي على قدميه ؟ وكيف يتغير البحر اللجي عليه بين قوة الموج وقوته هو على السباحة ، وبين الساحل القريب والقرار العميق ؟

سيحدث الخلاف في التقدير لا محالة ، ولكن التقدير مع هذا يظل لدينا تقديرا صحيحا على أصدق ما يكون في حيز الامكان ، وقد نلمحه نحن كما يلمحه الخائض السابح ، وقد نجهله جميعا ولا لوم علينا أو عليه .

ومما يتسم به هذا الطابع الخاص بتقديرات القرن العشرين الى المستقبل أنه مصحوب الحذر والتحفظ ، يؤثر أن يتريث في مكانه خطوتين على أن يتقدم

خطوة واحدة لا يعلمها ، وتلك سمة من سمات البحوث العلمية في مختلف الدراسات . لا نريد أن نقول انها أصدق في العلم وأقرب الى الأمانة العلمية ، ولكنا نريد أن نقول بحق انها مأمونة عند الحساب قليلة الكلفة عند المطالبة بالدليل . فاذا لاحت للعالم صورة مشكوك فيها ثم سكت-عنها أمن المحاسبة وخلص من المطالبة بأدلة الاقناع أو أدلة الترجيح ، ولعله لا يناقض العلم اذا قرر ما يراه وأبان عن شكه فيه ، بل لعله لا يناقض العلم اذا قرره كما تقرره النظريات التي لا غنى عنها قبل الاثبات القاطع بالبرهان أو بالعيان .

وعلى هذا الحذر والتحفظ من المتطلعين الى المستقبل في القرن العشرين نرى أن التفاؤل بالغد شيء يبيحه لنا مد النظر الى غاية مداه ، فانه تفاؤل لا يدخل بنا في عالم الطوبيات ولا في أحلام اليقظة ، وليس من قبيل الحنين الى العصور الذهبية ولا من قبيل الفراسة التي تتأمل على البعد قبل أن تلمس البوادر مما تراه .

علم القرن العشرين فيه وعد كبير ، أوشك من كبره أن ينقلب في بعض نواحيه الى وعيد .

فمن وعده الكبير انه يهيىء للأمم المتقدمة والمتأخرة شروط المعيشة الصحية ، ويعلمها فنون العلاج والوقاية ويوفر لها انواع المطهرات والمبيدات التي تدفع الامراض وتستأصل جراثيم الأوبئة ، فتكثر المواليد وتقل الوفيات ويتضاعف سكان الكرة الأرضية على نسبة لم تعهد في القرون الغابرة ، وذلك كله علامة خير وبشير أمان ، ولكنه ـ بما فيه من الخير والأمان ـ ينطوي على نذير بالشر غير مأمون العاقبة ، بعد اجيال .

ونذيره بالشر انه يربى بعدد السكان على الكفاية من الأقوات والأرزاق ، فيتناحرون ويلجأون في حروبهم الى أسلحة جائحة لم يعهد لها كذلك نظير من قبل في الابادة والتدمير .

ويسمعنا القرن العشرون وعده الآخر بعد هذا الوعيد المحذور : يسمعنا وعده بالقدرة على استدراك النقص في الأقوات والأرزاق بما يستطيعه الآن ، وما يهدي اليه في المستقبل ، من تسخير العلم والصناعة في استخراج الأقوات والأرزاق من الأرض البور ومن المواد المستصلحة للغذاء ، ومن ذخائر الطبيعة

التي أهملها الانسان قبل الآن عجزا عن تسخيرها وجهلا بما تحتويه ، وقد يتقي انسان المستقبل غوائل ذلك النذير بتدبير نفسه في شؤ ون نسله واسرته ، فلا يضيق بالرزق له ولذريته على قدر مقدور .

ويعود المنذرون المتشائمون فيتساءلون : ترى هل تتم الوقاية قبل الخطر ؟ وهل من ضمان لتأجيل الخطر وتعجيل الوقاية قبل فوات الأوان ؟

ومناط الأمل كله في دفع الخطر انه خطر عظيم ، بل انه الخطر الأعظم والخطر الاخير الذي لا خطر بعده ولا استدراك لجرائره ومعقباته . فان لم يكن في وسع الانسان ان يتعقل ويعمل رويته في هذا المأزق الذي لا مأزق قبله ولا بعده فالآفة في جهله شر من الآفة المحذورة من كل مصاب ، وبليته واقعة محتومة قبل البلية باسلحة .

ومن وعود القرن العشرين التي يرجى ان تنجزها الايام على مهل ، وعلى درجات ، انه سوف يتأدى الى صلاح الانسان نفسه وصلاح الجماعة الانسانية بما يمهده لها من حسنات العلم والصناعة .

وأقرب هذه الحسنات الى التحقيق ان تتقارب الأمم وتتقارب الطوائف والطبقات في المجتمع الواحد . فان اشتباك العلاقات والمعاملات ، بين أمم العالم يسوقها الى التعاون باختيارها وعلى كره منها ، وانتشار الصناعة يؤ دي الى توزيع الأعمال والأرزاق بين الطوائف والآحاد ، كما يؤ دي الى توزيع الكفايات والمواهب ، فلا تتحكم طائفة واحدة في غيرها ولا تعجز طائفة من الطوائف عن صيانة حقوقها ، ولا تنفصل هذه الحقوق كل الانفصال بين فريق وفريق من ابناء الأمة الواحدة ، ويشفع هذا التقدم في حق الفرد وحق الطائفة ان يتسع الفراغ للمطالب الكمالية ـ مطالب الذوق الجميل والفطنة المتفتحة والرياضة المقومة للأبدان والأذهان ـ فيتقدم الانسان في خلقه وادبه ولا يقف به تقدم الصناعة عند تقدم الآلات والمصنوعات . وبين الوعد والوعيد من طوالع القرن العشرين تسوغ لنا الموازنة على الغيب فلا نغلو في التفاؤ ل اذا رجحنا جانب الوعد على جانب الوعيد . فانه جانب له اسبابه الملموسة ومقدماته الراجحة ، ودعائمه التي تستقر على الأرض ولا تطير الى اشباه السحاب من دعائم الطوبيات والأحلام .

***

فيما يلي من فصول هذا الكتاب تعقيب يضيف الى ما تقدم من التمهيد ولا يخالفه في أساسه ولا في سياقه ، لانه لا يفارق قواعد العلم التي تحراها الباحثون واصحاب الآراء ، ولكنه يتحرى التفسير والأمل ـ حيث يتحرون الاحصاء والحذر ، وكلاهما جائز لنا ـ بل واجب علينا ـ اذ اردنا ان نأخذ من علم هذا القرن كل ما يعطيه .

ليس العلم مجعولا للأخبار وحدها ، ثم ينقلب بعدها جهلا لا فائدة فيه .

انه لمجعول كذلك للفروض او لما يسميه العلماء المتحرجون بالنظريات ، وانها لتلحق بكل علم من علوم اليقين وتسبق كل علم يتبعها ، وان لم يبلغ بعد مبلغ اليقين .

ونحن فيما يلي من التعقيب لا نبيح لأنفسنا ان نلم بفرض او تفسير لم تمهده لنا سوابق العلم ومقدمات التاريخ ، ولكننا ـ على الكفة الاخرى ـ لا نبيح لأنفسنا ان نهمل فرضا واحدا يقوم اهماله على مجرد الدعوى ، او على مجرد الحذر ، ولا يقطع به قول فصل او خبر وثيق .

وقبلتنا في النظرة الى الغد ان نسأل الماضي عن معناه ، وان نلتمس هذا المعنى فيما سيكون ، وفيما سوف يكون ، قياسا على ما كان .

ان للتاريخ الانساني وجهة تدل عليها العقبات والعوائق كما تدل عليها الدوافع والممهدات ، وان تاريخ الآلة من عهدها الحجري الى عهد الذرة لمعالم قائمة تهدينا الى تلك الوجهة من البداية الى النهاية ، وعلى هذا الفرض ـ او هذه النظرية ـ مدار النظر فيما يلي من التعقيب .

البَابُ الثَّاني

تعقِيبٌ وَمُراجَعَة

يشتمل هذا الشطر من الكتـاب ـ وهـو البـاب الثانـي منـه ـ على الفصـول التالية :

١ ـ معنى التاريخ .
٢ ـ غاية النوع .
٣ ـ الآلة .
٤ ـ خواص المادة والنظرة « المادية »
٥ ـ الايمان .
٦ ـ العوالم الأخرى .
٧ ـ عالمنا .
٨ ـ افريقية وآسيا .
٩ ـ المجتمع .
١٠ ـ الأسرة والمرأة .
١١ ـ الفن والعلم .
١٢ ـ خاتمة في سطور .

١ ـ التاريخ

هل للتاريخ الانساني معنى ؟ هل للماضي رابطة بالحاضر تهدي الى المستقبل على سبيل اليقين أو على سبيل الظن والترجيح ؟

يخطر هذا السؤال على الذهن كلما نظر الى المستقبل ليستطلع خباياه ، ويعود الذهن بعد الجهد الجهيد بجوابين مختلفين كلاهما يحتاج الى دليل .

نعم ، للتاريخ معنى يدل على خطة مطردة بين ماضيه وحاضره ومستقبله .

كلا . ليس للتاريخ معنى ولكنه مصادفات تتكرر أو تتناقض على غير وتيرة معروفة .

والذين يقولون بهذا الرأي يحسبون أنهم خلصوا من السؤال والمناقشة ، وانهم غير مطالبين بالدليل ، لأنهم ينكرون ولا يدعون .

لكنهم في الواقع مطالبون بأدلتهم كما يطالب بها القائلون بالخطة والتدبير ، فان الاثبات والنفي يتساويان في طلب الحقيقة ، وان اختلفا في ساحة القضاء وليس المدعي وحده هو الذي يبحث عن الحقيقة ويسأل عنها .

ان الكواكب والسيارات تجري في أفلاكها وتطلع في بروجها ومنازلها ونعلم من حركاتها الماضية كيف تكون حركاتها التالية ، ومتى يعرض لها الكسوف والخسوف وأين تشرق وأين تغيب .

فلم تجري حركات التاريخ الانساني على غير هذا النسق ؟ وكيف ينتظم مدار

الفلك ولا ينتظم مدار الحياة الانسانية ؟

من قال ان النظام هنا موجود كالنظام في حركات الأفلاك ولكنني أجهله ولا أعرف من ماضيه وحاضره ما يدل على مصيره فهو ـ بحق ـ صاحب القول الذي يعفى قائله من الدليل .

أما الذي يقرر الاختلاف جزما وتوكيدا بين حركات الأفلاك وحركات الأمم ولا يرى في ذلك غرابة ولا يسأل له عن سبب فهو الذي يقرر حكما معتسفا بغير دليل ، ولا بد له من دليل .

لم يختلف نظام الكواكب ونظام الأمم ؟ ولم يعتبر هذا الاختلاف أمرا طبيعيا يدعيه من شاء ولا يلزمه البرهان على ما يقول ؟

ان انكار النظام هنا ليس بأيسر الجوابين ، بل هو عند البحث في أسبابه ونتائجه أصعب الجوابين وأغربها وأحوجها الى البحث من جديد ، الى أن يستقر البحث على قرار .

من قال بالخطة المتبعة والتدبير المقدر فليس من اللازم أن يبسط أمامنا الخطة المتبعة بتفاصيلها ويضع أيدينا على أوائلها وخواتيمها ، وكل ما يلزمه « أولا » أن يدحض حجة الفوضى والارتجال الأعمى ، وأن يقرر الفرض المعقول ثم يقرر أن الواقع يؤيده ويجري في مجراه ، وأدل من ذلك على صحة الفرض المعقول أن الغرض المقصود من الخطة المتبعة يتحقق بما يظهر أنه يناقضها كما يتحقق بما يظهر أنه يجاريها ويمضي في طريقها .

وسنرى أن هذه الدعوى يسيرة الاثبات ، أو أنها على الأقل أيسر اثباتا من دعوى الفوضى والعمل الجزاف .

أما نفي الخطة المتبعة وادعاء المصادفة المحضة فليس من اليسر بالمكان الذي يحسبه من يقولون بالمصادفة على أي وجه من الوجوه ، وانهم ليقولون بالمصادفة على وجوه كثيرة ، دليل بعضها غير الدليل الذي يقوم به ادعاء الآخرين .

فالمصادفة عند بعضهم مرادفة لمعنى الفوضى والخبط في الظلام ، تهدم اليوم ما تبنيه وتبني ما تهدمه ، وتتقدم وتتأخر في العمل الواحد وفي الساعة الواحدة ، وتتصرف في عموم حركاتها وأفعالها كأنها مئات من الأضداد يجذب كل منها الى

ناحيته ولا يستطيع أحد أن يعلم أنه يجذب في الناحية الواحدة مرتين ، ومن ادعى ذلك فلا حاجة الى تفنيد قوله بالبحث الطويل وراء حوادث الماضي والحاضر ، فان ظواهر اللحظة الواحدة كافية لتفنيد ما يدعيه ، وان فهمه للمصادفة حتى على هذاالوجه لا يتأتى بغير وجود النظام الذي ينبغي أن تقاس اليه مصادفات الفوضى والخبط في الظلام ، ولا بد من بعض النور لنعلم كيف يكون ذلك الخبط في الظلام .

والمصادفة عند غير هؤلاء لا تنقض النظام ولكنها قد تصاحبه وتتممه وقد تلازمه في حالات وتفارقه في حالات ، وعلى هذا النحو تفهم المصادفة في مذهب الفيلسوف الكبير شارل بيرس Charles Peirce رائد البرجمية المشهور . فانه لا يفهم المصادفة كأنها الضد المناقض للقوانين الطبيعية ، بل يفهم منها أنها قوانين في انتظار التكوين ، وان قوانين الكون لم تتم جميعا في لحظة واحدة ولم تكن هكذا كما نعهدها الآن في كل زمن وكل ظاهرة طبيعية ، ولكن القوانين الكونية أخذت في جريانها مجرى العادة على درجات وأدوار متعاقبة ، ومن الجائز أن يشمل القانون الواحد كل ظاهرة من ظواهره في الكائنات المادية ولا يشمل جميع الظواهر فيما يتعلق بالحياة ، ومن أمثلة ذلك عنده أن قانون الحركة المكنية التي تطرد وتنعكس لا ينطبق على حركة النمو في النبات أو الحيوان ، وأن الحقائق التي تستخرج من حركات الأجسام في الجملة لا يلزم أن تطابق حركات أجزائها ، أو جزئياتها الدقيقة كل المطابقة .

فالمصادفة عند الفيلسوف بيرس لا يتحتم أن تناقض القانون الطبيعي أو تبطله ، وقد يكون حكمها كحكم مشروعات القوانين أو حكم القرارات الفرعية في اصطلاح المشرعين ، فمن قال بها لم يحسب من القائلين بالغاء الخطة المتبعة في سياسة الكون .

***

وتفهم المصادفة بمعنى غير ما تقدم عند فريق من القائلين بنفي القصد والتدبير في حركات التاريخ وحركات الطبيعة على الاجمال ، فلا هي فوضى تناقض القوانين ولا هي تتمة للقوانين أو زيادة عليها تجاورها ولا تدحضها .

فعند هذا الفريق من القائلين بالمصادفة ان المصادفة هي القوانين الطبيعية

ذاتها ، وأن القوانين الطبيعية انما تولدت من المصادفة بغير تدبير مقصود .

قال أحد هؤلاء : اننا لو فرضنا أن فردا أمام صناديق الحروف يرتبها جزافا على كل وضع محتمل لتكونت منها في وضع من الأوضاع كتب مفهومة كالياذة هوميروس ، لأن الالياذة مجموعة من الحروف على وضع من الأوضاع لا بد أن ينتهي اليه التعديل والتبديل في ترتيب حروف الصناديق على طول الزمن ، وليس أطول من الزمن الذي مضى على الكون مضطربا متقلبا بين ألوف الألوف من الأشكال والقوالب التي تتناسق أحيانا وتتضارب أحيانا ولا بد لها من التناسق على شكل من تلك الاشكال في وقت من الأوقات .

وهذا القول ضرب من التخمين يستلزم وجود التدبير وراء ذلك التبديل أو التعديل ، لأنه يستلزم « أولا » أن يجري التبديل أو التعديل في وضع الحروف على كل وجه محتمل ولا يدع وجها واحدا يتخيله الذهن الا صار اليه ثم عدل عنه الى غيره ، ويستلزم « ثانيا » أن يكون هناك اجتناب متعمد للخطأ وأن يكون ذلك الخطأ معروفا بالنسبة الى الصواب المقصود في النهاية . والا فان الفرد يمكن أن يقع في أخطاء متعددة ويعود اليها أو الى مثلها بغير نهاية ، فان قدرنا أن ذلك لا يقع فنحن نقدر اذن أن هناك تدبيرا يقود يديه ويوحي اليه أن يختار ترتيبا بعد ترتيب على كل وضع يخطر على البال ، وقد يضع الألفات في موضع الياءات أو يضع الحروف جميعا في عين واحدة فلا يؤدي تكرار وضعها الى نسق تتألف منه الكلمات ، وان مصادفة كهذه المصادفة لهي أدل على الغاية والاستقامة على طريقها من قول الذين يقررون قيام القوانين من البداية هكذا بطبيعة مستقرة في أصل الوجود ، وهو قول غريب ـ ولا ريب ـ ولكنه أقل غرابة من الخطأ الذي يتكرر على وجه ولا يعود الى الخطأ مرة أخرى ، ولا يدع احتمالا واحدا الا استقصاه كأنه يحصي جميع الاحتمالات بغير نسيان ولا اخلال .

وآخرون يقولون ان القوانين ليست بقوانين في لبابها ، وانما نحن جزء من هذا الكون نلائمه ويلائمنا ، ولا بد أن نشعر بالوفاق بين وجوده ووجودنا فنسمي هذا الوفاق قانونا وما هو بقانون . انما نحن مستقرون في عالم من العوالم وهذا الاستقرار هو العلاقة القائمة بيننا وبين عالمنا ، نسميها نظاما وليست هي بنظام في جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات .

وفحوى كلام هؤلاء أن القانون لا يوجد وليس من طبيعته أن يوجد ، وأنه اذا

وجد فمن الواجب ألا نكون نحن موجودين على وفاق معه ، لأن هذا الوفاق يلغي تصورنا للقانون في جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات ، وفحوى هذا الكلام مرة أخرى أننا بين عالمين لا يتشابهان : عالم نستقر فيه ولا يوجد فيه القانون ، وعالم يوجد فيه القانون ولا قرار لنا فيه .

***

وعلى أي معنى من هذه المعاني فهمنا المصادفة نرى أنها حل قاصر عقيم ، أو نرى أنها في نهايتها اغضاء عن الحلول وبحث موقوف كأنه القاء للعبء عن الكاهل في منتصف الطريق ، مع تجاهل البقية الباقية من الطريق ، فليست المصادفة اذن أقرب الحلول ولا أضمن المواقف ، وليست هي كما يحسب أصحابها أمانة علمية تنتهي عند حدود المعرفة الانسانية ، لأنها في هذا الباب أقل من حرف (س) الذي يشير الى المجهول ويتركه مجهولا الى حين . فان حرف (س) أمانة علمية لا شك فيها من جانب الباحث الذي يجهل الحل ويعترف بجهله اياه ، ولكن المصادفة جزم برأي ونفي لرأي مخالف له ، وهو الرأي القائل بالتدبير ، ومن جزم بهذا الرأي بغير دليل قاطع ينفي ما عداه فليس له أن يسمي ذلك أمانة علمية ، وان كان من العلماء الأمناء .

انما الأمانة في مسألة كهذه أن نقف منها موقفنا من الأرصاد الجوية التي تصيب وتخطىء وقد تخطىء أكثر مما تصيب ، وهي ـ مع ذلك ـ تنبئنا عن ظواهر طبيعية محكومة بقوانينها التي لا يمتري فيها باحثان ، فما من عالم يقول ان الرياح وأشعة الشمس وعوارض المد والجزر وحرارة القشرة الأرضية وطبقات الجو العليا تندفع بغير ضابط وتسكن لغير سبب ، وما من عالم يزعم أن النبوءة عنها مستحيلة مع الوقوف على جميع أسبابها وعواملها ، غير أن الرأي السليم فيها أن نفهم أنها عوامل طبيعية قابلة للتقدير الدقيق بجميع تفصيلاتها وتقلباتها ، ولكننا لا نحيط بها جميعا ولا نحقق النتائج على صحتها لأننا لا نحقق الأسباب على صحتها ، وهي هي تلك العوامل المحسوسة المتكررة الخاضعة للمراقبة والتسجيل في مواقعها من الأرض والفضاء .

ونحن نسمح لأنفسنا بالجهل في أمثال هذه الظواهر الطبيعية ونسمح لأنفسنا بالتردد في الحكم عليها ، ونقرر وجود الضوابط لها ونحن عاجزون عن ضبطها . فأحرى بنا أمام العوارض التاريخية التي تتسع لمجهولات الطبيعة

الظاهرة والباطنة أن نقف منها موقفا كهذا الموقف ، وأن ندين بالأمانة العلمية على هذا النحو فلا نزيد عن حرف (س) الذي يرمز الى المجهول ، حتى نستبدل به جوابا أقرب الى الوضوح والبيان .

ولسنا نريد أن نخطو خطوة واحدة وراء الحد الذي تسمح به الأمانة العلمية حين نفضل القول بالتدبير على القول بالمصادفة العمياء . ولكننا نريد أن نضيف النظريات العلمية الى التجارب المقررة ، لأن الأمانة العلمية تقضي علينا بأن نطرق كل باب من أبواب التفسير ولا نغلق بابا منها بغير برهان .

ان الأرصاد لم تثبت لنا شيئا قاطعا عن حركات الكهارب والنويات وعن السوالب منها والموجبات ، والمتردد منها بين السلب والايجاب تارة الى هذا وتارة الى ذاك ، ولكننا أضفنا النظريات الى التجارب فيما نعلم عنها فصح التقدير في كثير من الأحوال .

لتكن عندنا اذن شجاعة النظريات العلمية لتفسير الظواهر المطردة في تواريخ الأمم ، لا بل هو الواجب العلمي وليس بالشجاعة العلميه وكفى ، اذ كان الواجب يأبى علينا أن ندع نظرية من النظريات دون أن يكون لاهمالها سند ثابت لا مراجعة فيه .

وأحرى بالمفكر العصري أن يتوسع في مذهب الفيلسوف الكبير وليام جيمس الذي شرحه قبل هذا القرن العشرين في مقاله البديع عن ارادة الاعتقاد (١٨٩٧) وسماها أحيانا بشجاعة الاعتقاد ، وحجة المفكر العصري في ذلك أن الزمن قد تقدم بنا كثيرا في هذه الوجهة وفرض علينا شجاعة أدبية غير الشجاعة الأدبية التي كانت مفروضة علينا في عصور الحجر الظالم والتقليد الأعمى والاستسلام الذليل للخرافات والأوهام خوفا من اغضاب الطغاة أو اثارة الدهماء . ففي تلك العصور الغاشمة كان الشك واجبا عقليا وكان اعلان الشك شجاعة أدبية نفسية ، ولكن هذه الشجاعة في عصرنا هذا سيف يضرب في الهواء وحرب في ميدان خلو من الأعداء ، وانما الشبح الجديد الذي يتقاضانا شجاعتنا الأدبية هو شبح العناد في الانكار والانطلاق الى الطرف الآخر وهو طرف الاحجام عن اظهار الاعتقاد أو الميل اليه خوفا من مظنة التأخر والجحود ، فأصبح الانكار مجاراة للعرف أيام الجهالة والجمود .

يقول الفيلسوف الكبير وليام جيمس في مقاله عن ارادة الاعتقاد :

« ان القضية التي أدافع عنها هي : ان طبيعتنا الوجدانية لا يحق لها بل يجب عليها أيضا أن تفصل في مسألة الاختيار بين الآراء كلما كان الاختيار بينها داعية صدق لا تقبل الحل بالوسائل العقلية ، لأننا اذا قلنا في هذه الحالة : دعونا نترك الباب مفتوحا ، فهذه حالة وجدانية لا تختلف عن القول بنعم أو بلا ، وفيها نفس المجازفة بفقدان الحقيقة » .

ويقول في مقاله هذا وهو قريب مما نسميه بشجاعة النظريات :

« ان الاعتقاد - حين نقيسه بالمقياس العملي - لا بد أن يسبق الاثبات العلمي ، ونزيد على ذلك أنه هناك طائفة من الحقائق يكون الاعتقاد عاملا من عواملها كما يكون معبرا عنها ، وأن العقيدة بالنسبة الى هذه الحقائق لا تعتبر جائزة أو مناسبة ولا زيادة ، بل تعتبر مع ذلك جوهرية وضرورية لا غنى عنها ، وأن هذه الحقائق لا تصبح حقائق حتى تكون عقيدتنا هي التي جعلتنا كذلك » .

وعلى هذه السنة نكون علميين ولا نقنع بالفلسفة وحدها اذا وضعنا النظرية العلمية مكان القانون العلمي المقرر وفسرنا ظواهر التاريخ بمعنى القصد والغاية ، ورأينا أن الاعتماد على الشجاعة العقلية هنا أولى بنا من الاعتماد على الراحة والقول بالمصادفة هربا من تكاليف الدعوى واسقاطا لمؤونة التفسيرات .

ليكن هذا المذهب في دراسة التاريخ نظرية علمية تقيس المعلوم على المجهول وتطرق أبواباً من الاحتمال المفتوح لا يجوز للعقل الأمين أن يوصدها ويحرم النظر فيها بغير برهان .

ودعوانا أن نظرية التاريخ المفهوم ، أو نظرية الغاية في التاريخ ، تفسر لنا أمورا كثيرة لا تفسرها المصادفة البحتة بغير معنى ، فضلا عن المصادفة التي تلغي المعنى وتحسب الحوادث فوضى تخبط من ماضيها الى مستقبلها خبط عشواء .

وعلينا أن نبني دعوانا على أساس صالح لاقامة البناء عليه ، وهذا الأساس هو مطابقة الواقع للغاية التي يمكن أن نتخيلها اذا قررنا أن التاريخ تدبير يشير الى

وجهة ، فما هي الغاية التي يتصورها العقل ويتطلبها البحث من وراء حوادث العالم بالنسبة الى النوع الانساني وبالنسبة الى الانسان الفرد وبالنسبة الى الطوائف والجماعات ؟

اننا اذا استطعنا أن نوفق بين الحوادث المتفرقة وبين هذه الغاية جاز لنا ، بل وجب علينا ، أن نقول بمعنى التاريخ ، وذلك ما نتحراه ونرجو أن نتبينه في المقارنة الموجزة بين بداية التاريخ المعروفة وبين حاضره المشهود .

ينتقل من القبيلة ، الى الشعب ، الى الدولة ، الى الجامعة الدينية أو العنصرية ، الى التوازن بين مجموعة ومجموعة من الفئات الدولية ، الى هذا الاشتباك المتلاحم في سياسة العالم ومواصلاته وعلاقاته ، الى الوحدة التي أوشكت أن تكون وحدة للكرة الأرضية أمام غيرها من العوالم والأفلاك .

وقد أصبح التضامن العالمي تيارا يطوف بكل جانب من جوانب الكرة الأرضية ولا يقوى على الخروج من نطاقه أقوى الأقوياء من الدول والشعوب ، بل ان أقوى الأقوياء مضطر أن يحمل من أعباء هذا التضامن وجرائره ما ليس يضطر الى حمله من هم أقل منه قوة وأضعف منه علاقة بمسائله ومراميه .

وقد مضى على الكرة الأرضية من مستهل التاريخ ألوف السنين وهي منقسمة الى عالمين منعزلين يجهل أحدهما الآخر ويجهل أنه موجود معه على ظهر الكرة الأرضية ، ثم مضت عوامل الوحدة العالمية في طريقها فانكشف كل من العالمين لصاحبه وقيل عنهما منذ ذلك الحين : انهما عالم جديد وعالم قديم .

ثم مضى ردح من الزمن خيل فيه الى أحد العالمين أنه قادر على الاعتزال بأهله وبلاده عن الشطر الآخر من الكرة الأرضية ، ايثارا للسلامة واجتنابا للمآزق واكتفاء بما عنده من مسائله وشواغله وهي غير قليل ، وافترق ساسة هذا العالم ـ وهو العالم الجديد ـ فكان أعلاهم صوتا وأكثرهم أتباعا من ينادي بالعزلة ويوصي بالابتعاد غاية الابتعاد من مشاكل القارة الأوروبية وغيرها من القارات في العالم القديم ، وكانت الحرب العالمية الأولى حجة لأنصار العزلة يذعن لها معارضوهم أو يكادون يذعنون مترددين متحيرين ، فاذا بالحرب العالمية الثانية تنقل المسألة من مجال الرأي والبحث الى مجال لا محل فيه لحكم غير حكم الضرورة ولا متسع فيه لتعدد البحوث والآراء ، واذا بالعالم الجديد يشترك في كل مشكلة من مشاكل القارات التي كان يحسبها من قبل فضولا لا يعنيه ، فلو أراد أن يتنحى عنها لما استطاع ولو أراد كلا العالمين أن يعتزل صاحبه لأعياه سبيل الاعتزال .

وقد يكون دليل النكسات أدل على وجهة التاريخ هذه من دليل الخطوات المطردة في طريق التضامن والوحدة فاننا لا نزعم اننا نعلم كيف كانت هذه النكسات جزءا من عوامل السعي الى الوجهة المتابعة ، ولكننا نكتفي بأن ننظر الى كل نكسة من هذه النكسات على حدة ثم ننظر الى حالة العالم الانساني

قبلها وبعدها فنرى على التحقيق أن العالم الانساني كان بعد كل نكسة منها أقرب صلة وأدنى الى التضامن مما كان قبلها بسنوات .

كانت حروب الشرق والغرب على عهد الدولتين الفارسية والرومانية أبعد شيء أن تكون تمهيدا للتقارب بين أنحاء العالم وأبنائه ، وكذلك كانت غارات التتار وغارات الصليبيين وغارات المستعمرين : كانت نكبات ونكسات ، وحاربها من ابتلي بشرورها كما تحارب النكبات والنكسات ، ولكننا ننظر الى العالم بعد كل نكسة ، أو نكبة منها ، فنرى أنه تقارب ولم يتباعد ، وانه تهيأ بعدها لنكسة جديدة أكبر منها ليخرج منها كذلك أقرب صلة وأدنى الى وجهة الوحدة العامة والتضامن الوثيق .

وكانت الصين في عزلتها العريقة ، فلما سطا عليها الاستعمار خرجت من عزلتها واجتمعت كلمتها بعد فرقتها ، وكان من عجيب شأنها أنها أخرجت أمة أخرى من عزلتها المختارة ـ وهي أمة الولايات المتحدة ـ لتقضي في مسألة الشرق الأقصى بسياسة الباب المفتوح لجميع دول العالم ، بدلا من استبداد كل دولة بحصة من الحصص تستأثر بها وتذود الآخرين عنها .

وكانت الهند أمما لا يجمعها اسم ولا تربط بينها عصبة ، فلما ابتليت بالاستعمار أصبحت أمة واحدة لأنها وجدت نفسها أمام عدو واحد ، وخرجت من غاشية الاستعمار دولتين عالميتين لهما في سياسة الشرق والغرب وزن لا يسقط حسابه من ميزان .

وقد كان عدد الأمم التي استقلت وأخذت مكانها في السياسة العالمية أكثر عددا وأكبر شأنا بعد كل من الحربين العالميتين مما كان قبلها ، وكانت مهمة الهيئات الدولية المشتركة بعد الحرب الثانية أهم وأعم من جميع الهيئات التي سبقتها .

***

(ب) الانسان الفرد

ووجهة التاريخ بالنسبة الى الانسان الفرد أوضح ـ فيما نرى ـ من وجهة النوع كله كما تبينت من الانتقال المتابع من تضامن القبيلة المنعزلة الى تضامن العالم الذي تمتنع فيه العزلة على من يريدها .

فلا شك أن التاريخ يتنقل بالانسان الفرد من حالة مبهمة مهملة الى حالة الشخصية المستقلة بحقوقها وتبعاتها ، المتميزة بكيانها وحرمتها .

فمن فرد لا تتميز حياته من حياة أبناء القبيلة الى « شخصية » محدودة المعالم تحاسب بعملها ولا تؤخذ بجريرة غيرها .

وكان الفرد من أفراد القبيلة يقتل بذنب كل فرد من أفرادها ، وبقيت هذه الحياة الضائعة في حياة المجموع الى ما بعد عصر القبيلة البدائية بأجيال طوال أدركت عهد الشرائع المكتوبة في دول الحضارة والسنن الاجتماعية ، فكانت شريعة حمورابي تقضي على الأب الذي قتل بنت رجل آخر أن يسلم بنته الى ذلك الرجل ليقتلها قصاصا لبنته ، وتحسبها ـ من ثم ـ شيئا مضافا الى أسرتها أو الى أبيها لا تستقل بحياة خاصة لها أو بحقوق واجبة لحياتها ، وجاءت شرائع الرومان بعد ذلك على هذه الوتيرة في حقوق الأتباع والفروع ، ثم تقدمت مع تقدم الزمن حتى أصبح كل فرع من فروع الأسرة أصلا قائما على جذوره مستقلا بكيانه ، أهلا للحق وأهلا للتبعة في عمله .

وليس للتفاضل بين الانسان والانسان مقياس واحد أصدق من المقياس الذي نستمده من وجهة التاريخ بالنسبة للانسان الفرد كما كان وكما يكون مع تعاقب الأطوار وتتابع الأجيال ، وأوجز ما يقال في المقياس الذي نستمده من وجهة التاريخ أنه المقياس الذي ينبىء عن تكامل الشخصية الانسانية في حقوقها وتبعاتها .

فالعلم يعطينا مقياسه الذي نفضل به العالم على الجاهل ، والأخلاق تعطينا مقياسها الذي نفضل به خلق الصلاح والنفع على خلق السوء والضرر ، والاجتماع يعطينا مقياسه الذي نفضل به الوجاهة والشرف على الضعة والخمول ، والمال يعطينا مقياسه الذي نفضل به المليء المكتفي بنفسه على العاجز المفتقر الى غيره ، والعبقرية تعطينا مقياسها الذي نفضل به الفطنة المبدعة على الذهن العقيم والخاطر الكليل .

وهذه كلها مقاييس صادقة للتفاضل بين الناس في مواضعها وموضوعاتها .

ولكنها كلها لا تبلغ في الدقة ، وفي الصحة ، ما يبلغه المقياس المستمد من وجهة التاريخ ، وهو مقياس « الشخصية » المسؤولة الكاملة : الشخصية التي

تسأل عن أعمالها وتحاسب بتبعاتها .

ليس العالم بأفضل من الجاهل في كل حالة ، ولكنه أفضل منه في حالة واحدة ، هي الحالة التي يكون فيها العالم أقدر منه على النهوض بالتبعة والاستقلال « بالشخصية » في حقوقها وفي واجباتها

وليس العباقرة والسراة بأفضل من الأغبياء والوضعاء في كل حالة ، ولكنهم أفضل منهم في تلك الحالة بعينها ، وهي القدرة على النهوض بالتبعة .

ولنا أن نقول ما نشاء في فضل الكبير على الصغير ، والسيد على العبد ، والرئيس على المرؤوس ، والرجل الرشيد على الطفل اللاعب ، والعلم المشهور على النكرة المجهول .

لنا أن نقول ما نشاء عن فضل انسان على انسان كيفما كان هذا الانسان أو ذلك الانسان ، ولكننا نخطىء في التفضيل ما لم يكن مرجع الفضل الى تلك المزية التي نستمدها من وجهة التاريخ ، وهي مزية الشخصية الكاملة المسؤولة عن تبعاتها ، فانها هي المزية التي لا يدل عليها فضل العلم ولا فضل الأخلاق ولا فضل العبقرية ولا فضل الوجاهة ولا فضل السن ولا فضل الخبرة ، فانها جميعا أفضال تنفصل عن مزية النهوض بالتبعة فلا تغني شيئا ولا تتم لها قيمة ، فاذا سكت عن كل فضل وكل صفة وقلت عن انسان انه أصلح للنهوض بالتبعة فقد غنيت عن البيان وجمعت الفضائل بأنواعها ودرجاتها في فرد عنوان .

وتلك هي المزية الأولى التي تبرز لنا من متابعة النظر الى وجهة التاريخ : انها انتقال من حالة الكم المهمل والرقم المتكرر الى حالة « الشخصية » المتميزة بالحق والتبعة ، ولعلها المزية التي تعيننا في كل مفاضلة بين مجموعة من الناس وغيرها من المجاميع الانسانية ، وليس مبلغها من الصدق أن تعيننا في أسباب المفاضلة بين انسان وانسان ، فمن قال عن أمة من الأمم انها أوفر نصيبا من « الشخصيات » الحرة التي تناط بها التبعات فلا حاجة به الى الاسهاب في تسمية الفضائل والصفات .

***

ولم تخل هذه الوجهة من نكساتها في العصور المتطاولة بين ثورات الحرية

وثورات الطغيان ، وبين دعوات التقدم ودعوات الرجعة والجمود على القديم ، وبين قلاقل الاضطراب في انتظار الاستقرار . ويحسبون من هذه النكسات تلك المذاهب المتأخرة التي تغض من قداسة الحرية الفردية ولا تبالي أن تغرقها في غمار الجماعة ، لاعتبار أصحاب تلك المذاهب أن الحرية الفردية ومصلحة الجماعة طرفان متناقضان .

على أن العبرة بالأعمال لا بالأقوال ، وبالنتيجة المقصودة لا بألفاظ المصطلحات التي تجري على ألسنة الدعاة . ونتيجة تلك المذاهب ـ ان صحت مقدماتها ـ أن تتحرر الشخصية الانسانية من ذل الضنك والفاقة وتتخلص من مهانة التسخير وربقة الاستعباد ، وأن ينال الملايين من الكرامة تلك المنزلة التي كانت في الأزمنة الغابرة حكرا للآحاد المعدودين ، وليست هذه النتيجة مما يناقض وجهة التاريخ في انتقاله بالفرد من الاهمال الى الرعاية والحسبان .

(ج) الطوائف والجماعات

والطوائف الصغيرة لا تعد مجرد مجموعات حسابية من الأفراد لأنها ظواهر اجتماعية ترتبط بتركيب بنية الأمة ، ولكنها على أغلبها وأعمها لا تبرز بوجهة تاريخية خاصة بمعزل عن حياة الأمة التي تحتويها ، الا أن تكون من تلك الطوائف التي تتنازع الغلبة على المجتمع لولاية الحكم أو تأييد ولاته ، كما يحصل فيما سمي حديثا بحرب الطبقات . ويؤخذ من تجارب العصر الحديث أن هذه الطبقات ذات وجهة تاريخية تؤثر في مجرى الحوادث ، وانها تميل الى التوازن والتعاون أو الى التقارب والتضامن كلما ارتقى النظام الاجتماعي في الأمة ، وتمضي مجارية ولا تمضي مدابرة للوحدة العالمية .

وربما حدث في الأمم المتخلفة أن تنبري فئة من طلاب الانقلاب لاستئصال كل طبقة في المجتمع غير الطبقة التي تعتمد عليها في تقرير سلطانها ، ولكن هذه الطبقة لا تلبث أن تتمخض عن طبقات جديدة تملأ فراغ الطبقات المستأصلة وتؤكد من جديد أن الشخصية الانسانية تستوفي كيانها وان الأمم لا تستغني عن التعاون بين طوائفها .

***

من هذا العرض المجمل نرى أن الغرض الذي قدرناه غير بعيد عن الواقع في

وجهة التاريخ بالنسبة الى النوع الانساني أو الى الانسان الفرد أو الى الجماعة التي تبرز لها مع الزمن وجهة تاريخية ، ويسوغ لنا أن نقول : ان كثيرا من الفروض التي يتقبلها الباحثون العلميون تختلف عند التطبيق العملي اختلافا أبعد من الاختلاف بين الوجهة المفروضة والوجهة الواقعية في هذه المسألة ، وقد يحق لهذا الفرض عن وجهة التاريخ أن يتلقى من قبول العلماء أكثر مما تلقاه ويتلقاه ، ولا نخالهم يترددون في قبوله ويسرعون الى الاعتراض عليه لو لم يكن تحقيق تلك الوجهة مصحوبا بالكوارث والشرور التي امتلأت بها الدنيا في تاريخها الطويل ولا تزال تمتلىء بها في تاريخ العصر الحاضر ولا يؤمل أن تنتهي فيما يتوقع من تاريخ المستقبل القريب .

يقولون : أيجوز أن نقول بالحكمة والقصد في تاريخ العالم مع هذه النقائص والآلام التي يبتلى بها الأحياء من كل نوع ولا سيما نوع الانسان ؟ ألا يجوز لنا أن نتردد ونرتاب قبل الذهاب الى القول بالحكمة والغاية في عالم يتخبط هذا التخبط بين التقدم والتأخر وبين الرجاء والخيبة وبين الثقة والحيرة ؟

نقول : بلى . يجوز اذا استنفدنا كل تفسير معقول لهذه المفارقات ، وجربنا غير هذا الغرض فوجدناه أقرب إلى الفهم والأمل مما فرضناه وقدرناه .

لم لا نقول : ان عوارض النقص والألم ودواعي الحيرة والخيبة هي بعض النكسات التي رأينا أنها تفعل فعل الخطوات المسددة في هذا الطريق ؟

لم لا نقول : ان الوجود الأبدي لا يحكم عليه من نقطة واحدة أو نقط شتى غير متصلة ولا متلاحقة في العصر الواحد ولا في مختلف العصور .

لم لا نقول : ان الكون لا ينحصر في مرضاة المخلوق وأن « الكل » لا يرمى بالنقص لما يقع لا محالة من النقص في الأجزاء .

ان الأمانة العلمية ـ ولا نقول الأمانة الدينية ـ تتقاضانا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة وأن نفرغ من أجوبتها اليقينية قبل أن نجزم بالقول الفصل في هذه المسألة الكبرى ، ولعلها أكبر مسائلنا ـ نحن بني الانسان ـ على الاطلاق ؟

وقبل أن نلغي من أذهاننا فكرة الوجهة التاريخية المقصودة من أجل نقائص

الكون وشروره ينبغي أن نتصور الكون الذي يخلو من النقائص والشرور كيف يكون ، وينبغي أن نؤمن بأن الصورة الأخرى أقرب الى الحكمة مما فرضناه وقدرناه .

عالم ليس فيه صغير يكبر ولا ناقص يتم ولا جزء يستوفيه جزء آخر ولا حاضر يأتي بعده مستقبل ، ولا مجهود يبذل ولا فارق بين موجودين يتسلل من جانبه الشعور بالحاجة والسعي الى تداركها والحيلة في دفعها واصلاحها من حين الى حين ومن مكان الى مكان .

عالـم كهـذا كيف يكون ؟ وإذا كان كيف يكون أصلـح وأكرم لوجـود الانسان ؟

أناس يتساوون جميعا في السعادة والرضى ، ويتساوون جميعا في السن والميلاد وفي الصحة والفكر والقوة والأخلاق والجمال .

أناس على هذه المساواة نفرض وجودهم فنفرض أنهم يوجدون هكذا كما توجد المصنوعات في قوالب الصناعة ، وليت هذا الفرض متيسر بغير فرض آخر أصعب منه وأبعد من الامكان وأقرب الى الاستحالة والامتناع .

ذلك الفرض الأخر هو المساواة بين الأماكن والأوقات ، ومن وراء ذلك المساواة بين الأيام والأفلاك والعناصر والأشياء ، ومن وراء ذلك عالم لا شيء فيه لأن الشيء لا يوجد في عالم تمتنع فيه الفروق وتتشابه فيه جميع الموجودات .

ما البديل المفضل ، اذن ، من هذا العالم الذي نحن فيه ؟

ليس ثمة الا بديل واحد ، وهو أن يوجد الناس بطبائع الخير والسعادة كما توجد المعادن والجمادات بخصائصها وتراكيبها .

والناس يوجدون كذلك ، ان أمكن وجودهم ، في عالم لا تتكرر فيه المخلوقات ولا تتعاقب ولا تحس الحاجة الى شيء ولا يحدث لها الاحساس الا كما يحدث الأثر في المادة الصماء .

والناس لا يمكن وجودهم على هذه الصورة في عالم تتميز فيه الأشياء ، لأن

الأشياء لا تتميز في عالم يتشابه فيه الزمن والمكان وتتساوى أجزاؤه كما تتساوى أجزاء الفضاء .

هذا هو البديل من العالم كما عهدناه ، فمن ارتضى هذا البديل فله أن ينكر الوجهة في التاريخ ، وأن يفهم المصادفة كما يشاء ويفهم الحكمة والتدبير كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أن هواه قضية مسلمة واختيار متفق عليه .

٣ ـ الآلة

قصة الآلة اعجب القصص في تاريخ الانسان ، لانها القصة التي نستطيع أن نبصر في خلالها عوامل الحضارة من بداءتها الى ما انتهت اليه في أيامنا ، وما تنتهي اليه بعد هذه الأيام ، وهي الى جانب ذلك قصة الحكمة الخالـدة التـي تتجلى لنا من وراء تاريخ الانسان ، ونستطيع أن نلمس عبرتها في أدوار ذلك التاريخ .

الآلة من عمل الانسان أو الانسان من عمل الآلة ؟

من قال ان الآلة من عمل الانسان لم نشعر بغرابة في قوله ، ولكننا كذلك لا نرى أنه قال قولا يستحق عناء ترديده ، لأنه من تحصيل الحاصل ، ومن تبيين ما لا يحتاج الى بيان .

ولكننا نستغرب أن يقال ان الانسان من عمل الآلة ، ولكنها الغرابـة التـي تتراءى بها كل حقيقة جديرة بالنظر فيها والبحـث عنهـا ، خفية عنـد النظـرة الأولى ، جلية بعد التأمل واعادة النظر أصدق جلاء .

ليكن رأي العلماء ما يكون في مذهب النشوء والتطور ، وليكن منهم من يقول ان الانسان حيوان من الحيوانات العليا نشأ معها أو تسلسل منها ، أو فليكن منهم من يرفض هذا القول ويقصر التطور على كيان الانسان عضوياً حيوياً أو أدبياً فكرياً كيفما اختار .

ليقل من شاء هذا وليقل من شاء ذاك ، فلا اختلاف بين الفريقين في حقيقة

واحدة لا تتوقف على هذا القول أو ذاك ، وهي أن استخدام الآلة كان من أوله أكبر فارق بين الانسان والحيوان الأعجم ، وان الانسان ـ لو بقي كالحيوان ـ عاجزاً عن استخدام الآلة لم تكن له حضارة ولم تكن له حياة اجتماعية ، أو فردية ، تختلف كثيراً عن حياة الحيوان .

ان الحيوانات في جملتها عاجزة عن استخدام الآلة على أبسط ما تكون في حالتها البدائية ، عاجزة عن استخدامها دفعة واحدة على فترات متقطعة ، وعاجزة عن مواصلة استخدامها من باب أولى .

فليس في وسع الحصان ـ مثلا ـ أن يقذف حجراً أو يحمل عصا أو يحرك شيئاً بواسطة من الوسائط غير أعضاء جسده .

وقد تستطيع الحيوانات العليا ـ كالقردة ـ أن تقذف بالحجر أو تحمل العصا من فروع الشجر ، وربما استطاعت أن تحرك بها شيئاً بعيداً عنها اذا شاهدت أمامها من يفعل ذلك فعمدت الى محاكاته وهي لا تدري ما تفعل ، أو تدريه ولا تبتدئه من عندها عن روية وتفكير .

ولكنها ـ سواء درت أو لم تدر ـ عاجزة عن مواصلة الانتفاع بالآلة البسيطة من الحجر أو من فروع الشجر ، لأنها تحتاج الى يديها لتمشي عليها ، ولا تقوى على استخدام الرجلين والاكتفاء بهما في حركة المشي خطوة واحدة اذا هي انتقلت من مكانها .

فاستخدام الآلة وانتصاب قامة الانسان أمران متلازمان ، واستقامة الانسان في وقوفه ومشيه هي الفاصل الواضح بين أطوار الحياتين : أطوار الحياة الانسانية وأطوار الحياة الحيوانية .

وبين انتصاب القامة وصلاح اليدين للعمل المتواصل المتعدد ملازمة ظاهرة في تكوين بنية الانسان ، وتكوين دماغه ، وارتباط الحركة اليدوية بالحركة الفكرية في أعماله .

ولا يهمنا أن يقال في هذا السياق ان الانسان ارتقى لأنه صنع الآلة أو أنه صنع الآلة لأنه ارتقى ، فكلا القولين يفيد شيئاً واحداً وينتهي الى نتيجة واحدة ، وهي ارتباط تاريخ الآلة بتاريخ الانسان وحضارته وتفكيره وسائر مزاياه التي ميزته من عامة الأحياء أعلاها وأدناها على السواء . فالانسان حيوان صانع

للآلات كما قال بنيامين فرنكلين في تعريفه الجامع المانع لهذا الحيوان الناطق بما ينطوي عليه معنى النطق من ملكة واستعداد ، ومن قال ان الآلة ميزت الانسان بين أنواع الحيوان ، فله أن يقول ان الآلة صنعت الانسان .

قلنا في كتابنا عن فرنكلين : « ان تعريف فرنكلين للانسان في الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع في التعريف . فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه القدرة هي المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون ، وأن بعضهم يولدون بكماً أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعي أن يشذ بعض الناس ويتأبد في الخلاء وينفر من الاجتماع ، ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمي المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة في طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات . . » .

هذه الرابطة الوثيقة بين قصة الآلة وتاريخ الحضارة الانسانية ، أو تاريخ نوع الانسان في تطوره وارتقائه ، هي مدار العبرة الخالدة ومظهر الحكمة الالهية في ذلك التاريخ ، وأدعى الأمور الى اظهار هذه الحكمة أن نذكر أن الآلة قد فرضت على الانسان اضطراراً كما تفرض الأخطار والنكبات ، وأن نذكر من آراء الناس فيها قديماً وحديثاً كيف نظر اليها الهداة من الفلاسفة والقديسين ، فانهم لم ينظروا اليها قط نظرة المختار الذي يحمدها ويتمناها لأبناء نوعه ، ولم يكن في أقوال الفلاسفة والقديسين عنها ما يدل على أنها من تدبير نوع الانسان لنفسه ، وانما هي من تدبير آخر غير تدبير النوع الانساني ، يساق اليه حيناً على ما يريد وأحياناً على غير ما يريد .

***

فمنذ القدم جعلت الآلة رمزاً للتسخير وفقدان الارادة ، ولحق بها في هذا الاعتبار من يعمل بالآلة ومن يصنعها . فالعاملون بالآلات مسخرون والذين يصنعونها مسخرون ، وكلهم تجردهم الآلة من انسانيتهم ، وهي في منشئها مزية الانسان على عامة الأحياء .

ولما تخيل الناس الأرباب على صورة البشر تخيلوا الرب الذي يصنع الآلات دمياً ممسوخاً أعرج شائه المنظر يتقبله الارباب في علياء « الأوليمب » على مضض ويهمون بطرده من سمائهم أنفة من جلوسه الى جوارهم ، ولم يصبروا عليه الا لحاجتهم اليه .

ذلك هو « هيفستوس » الحداد كما عرف في ملاحم اليونان الأقدمين ، ويسمى أيضاً « ملسيبر » الذي عاشت قصته بهذا الاسم في الآداب الأوربية الى العصور الحديثة ، وقال فيه ملتون ان زيوس رب الأرباب قذف به من السماء : « فظل يهوي من الصباح الى وقت الظهيرة ، ومن الظهيرة الى المساء الندي ، نهار صيف كامل ، هبط بعده عند مغرب الشمس كالنجم المنقض من السمت الى جزيرة بحر ايجه : لمنوس » .

وفي قصة أخرى من قصص « هومر » ان أمه هي التي قذفت به من سمائها بعد مولده ، لأنها استقبحته وعافت منظره فنبذته خجلا من الظهور به بين الأرباب . وقد هبط به الشعراء المتأخرون من « اوليمب » الالهة وزعموا أنه يعمل في مخبأ مدفون في الأرض تحت البراكين الثائرة ، فخلط الرومان بينه وبين الرب « فلكان » رب المواقد والنيران .

ويظهر أن تمثيل هيفستوس على هذه الصورة قديم متواتر بين شعوب المغرب والمشرق ، ففي الاصحاح الرابع من سفر التكوين : « ان لامك اتخذ لنفسه امرأتين : اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلّة . . فولدت صلّة توبال قين الضارب كل آلة من نحاس وحديد » وهو اسم مركب من كلمة طورانية وكلمة سامية حيث التقت اللغتان قديماً في وادي النهرين ، ومعنى توبال أعرج ، ومعنى قين حداد ، وتطلق في العربية أحياناً على العبد المسخر في الصناعة .

قال الاستاذ سليمان البستاني مترجم الياذة هومر في تعليقاته على النشيد الثامن عشر منها :

« قيل أخذ اليونان عبادته عن المصريين حيث كان يسمى فتالي . والهة النار عند البلاسجة والطرواد ، ثم الرومان ، تدعى ـ فستا ـ تطرقت اليهم عبادتها من الفرس . ومن الغريب أن يكون هذا التشابه بين المعبودين ، وأحدهما ذكر والأخرى أنثى . والأغرب من ذلك أن أول صيقل لجميع المصنوعات الحديدية

والنحاسية في التوراة هو توبال قين ، وتوبال أو طوبال باللغات التترية ـ ومنها التركية ـ الأعرج ، وقين باللغات السامية ـ ومنها العربية ـ الحداد ، وكلاهما لقب هيفست ، مع أن توبال قين كان قبل عهد هوميروس بحسب نص التوراة بنحو ألفي عام . . » .

واذا كان هذا شأن صناع الآلات ومخترعيها بين الأرباب وأوائل الأسلاف ، فلا جرم يهون شأنهم بين البشر ويساويهم أو يقل عنهم من يعملون بها ويعولون في معيشتهم عليها ، فقد أوشك هذا العمل أن يكون من لوازم الرق والعبودية أو لوازم الضعة والهوان ، فمن عمل الآلة لنفسه أو عمل بها لغيره فهما عند الأقدمين في المهانة سواء .

وجاء أرسطو فقسم النوع الانساني الى طبقتين : طبقة حرة ذات ارادة ، وطبقة مستعبدة لا حرية لها ولا ارادة ، وجعل هذه الطبقة في حكم الآلات ، لأنها وسيلة لخدمة المسخرين لها بغير اختيارها .

ولما ظهرت آلات البخار والكهرباء وشاعت المكنات الكبرى التي يديرها المئات من العمال والصناع لم يرتفع شأن العامل والصانع في نظر المحدثين عما كان عليه في نظر الأقدمين ، بل هبط كثيراً في القرن الأول من نشأة الصناعة الكبرى ، لأن الصناع الأولين كانوا ينفردون بأعمالهم أحياناً ويتصرفون بادارة آلاتهم وأدواتهم ويحتاجون الى الذكاء والحيلة في اتقان مصنوعاتهم ، ويفوقون غيرهم ممن لا يحذقون الصناعة في حسن الفهم والملاحظة ، فلما نشأت المكنات الكبرى وتشابهت أعمال الصناع استغنى الصانع عن الفهم والملاحظة ، وكاد أن يعتمد على يديه أو على عضلات بدنه في أداء مهمته المتكررة المتشابهة بغير تنويع أو تفكير ، وصح فيه أنه أصبح في حكم الآلة التي يديرها ، بل تطورت صناعة المكنات شيئاً فشيئاً حتى حلت فيها المفاتيح والأزرار محل الأيدي والعضلات .

ولم يمض غير قليل على انتشار الصناعات التي تدار بالبخار والكهرباء حتى انطوت كلها في عنوان واحد يحتوي الآلات في اطوائها ، ويحتوي معها أصحاب المصانع وأصحاب أموالها وجمهرة العاملين فيها من العاملين بأفكارهم والعاملين بأيديهم ، بل يمتد حتى يحتوي سياسة الدول التي اتسعت فيها ميادين الصناعة الحديثة ودفعتها الى التوسع في غزو البلدان وفتح الأسواق واحتكار موارد

لخامات المصنوعة وحصر المناطق التي تباع فيها ، والتنازع بينهـا على السيادة العالمية للاستئثار بتلك الأسـواق والمناطـق ، والاستعـداد لذلك التنـازع بمـا يستلزمه من سلاح ومكيدة وما يقتضيه من اثارة الفتن وشن الغارات واشعال نيران الحروب ، فأصبحت كلمة « الصناعة الكبرى » عنواناً لجميع هذه الخطط والمطامع ولكل ما يتصل بها من مرافق المال ومساعي السياسة وبواعث الأخلاق والعادات .

ونظر المفكرون الى « الصناعة الكبرى » في ابان نشأتها وامتدادهـا نظرتـين متعارضتين : فمن كان من بناتها ومؤسسيها والمقيدين بنظامها فقد حسبها من ضرورات التقدم التي تقترن فيها النعمة بالنقمة ويحتمل فيها الضرر الكبير في سبيل المنفعة التي لا غنى عنها ، ومـن كان من المفـكرين خلـوا من مطالبهـا وأغراضها بعيداً من قيودها وشباكها فهي عنده محنة من محن الزمن الأخير تربى سيئاتها على حسناتها وتغيب منافعها في غياهب آثامها وجرائرهـا ، ووصفهـا بعضهـم بالصناعــة الجهنمية وخيل اليه أن « المكنــة الضخمــة » انمــا هي « الجقرنوت » الساحقة يركبها إله المال بدلاً من إلهها القديم « فشنو » ويجتاح بها كل ما قابله في طريقه ليستوي عليها معبوداً بين قرابينه وضحاياه .

وتقابل في رأي المفكرين المنكرين عالم الصناعة وعالم الطبيعة ، أو تقابلت عندهم الحياة المصطنعة الملفقة والحياة الفطرية السليمة التي بدا لهم أنها الحياة المثلى ، وأنها نقيض تلك الحياة المختلقة التي تمسـخ النفـوس وتفسـد ما بـين الانسان والانسان من روابط العطف ووشائج الرحم والولاء .

وعلى أثر الهجمة الأولى من هجمات هذا « الجقرنـوت » الحـديث سرت في العالم دعوة خفيفة ، أو رفيعة ، كادت تغطي شيئاً فشيئاً على ضجيج « المكنة » الصاخبة التي ملتها الأسماع وأعارتها ما أعارته من صغواتها على كره منهـا ، وكانت تلك الدعوة التي سرت خفيفة تارة ، ورفيعة تارة أخرى ، هي دعـوة العودة الى الطبيعة أو دعوة السـلام مع الله كما سماها بعض أقطابها الأولين ، وتقاس هذه الدعوة في الزمان كما تقاس في المكان فينكشف لنا مدى اتساعها ونشاط الأذهان لقبولهـا حيثما تنقلـت الصناعـة الكبـرى في خطواتهـا ، كأنمـا تطاردها في مسيرها على حسب انتشارها وشيوعها واحتدام مشاكلها وأخطارها .

فمن شعراء البحيرة في انجلترا بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن

التاسع عشر ، الى هنري ثورو Thoreau في أمريكا الشمالية من أوائل القرن التاسع عشر الى ما بعد منتصفه ، ثم تنتقل الى شرق القارة الأوروبية في روسيا فينادي بها رسولها تولستوي بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتبلغ الهند فتعود اليها مع الجقرنوت الحديث وترتفع بها عقيدة قديسها وزعيمها مهاتما غاندى ، أكبر رسلها في العالم الحديث وآخر من حارب « المكنة » الضخمة ليعود بالناس الى آلات البداءة التي يكاد أن يصنعها الصانع بغير حاجة الى معمل ولا أداة .

وتلاقى المصلحون الأخلاقيون والمصلحون الاقتصاديون في هذه الدعوة الى الطبيعة فنشأت مدرسة « الطبيعيين » وقال المؤمنون بمذهبها ان الأرض ينبوع كل خير ومنبت كل عمل ، وان الأرض تعطي ولا تعقب عطاءها بالشر والعداوة ، ولكن الصناعة التي تنفصل من الأرض تأخذ منه أضعاف ما تعطيه وتسوي بينه وبين الآلة الصماء في التقدير والتقويم ولكنها لا تعفيه من الألم والضغينة اعفاءها للآلة الصماء .

***

وعلى هذا النمط قضى عقل الانسان قضاءه في الآلة منذ خرج بها من عداد العجماوات وامتاز بها بين عامة الأحياء وهو لا يدري بهذه المزية . فلو كان في مقدور نوع الانسان أن يدبر لنفسه على مدى القرون ، لما ارتضى الآلة تدبيراً له يقدر له منافعه ونتائجه قبل عشرات الألوف من السنين ، ويثابر على رضاه مستزيداً من خطاه شاعراً باقترابه في كل خطوة من هدف مرسوم يريده ويصبر على عثراته ، لعلمه بما وراءها من نهاية مطلوبة وأمنية مبتغاة .

كلا . ان نوع الانسان كان خليقاً أن يحكم على الآلة في كل مرحلة من مراحل تاريخها كأنها ـ على أحسن ما تكون ـ ضرورة مكروهة يلجئه اليها ما هو أكره منها ، ويعتمد عليها لأنه مسوق اليها ، يرميها من يده قبل استخدامها لو استطاع ، ولا يصبر عليها ـ كما هو شأنه معها ـ الى أن يلقيها من يده بعد الفراغ منها .

***

وجملة القول ان تاريخ الآلة عند الانسان ينتهي الى تاريخ شيء محتقر أو

مكروه ، ولكننا اذا نظرنا اليها نظراً يحيط بالنوع الانساني منذ نشأته الى هذه السنوات الأخيرة وما سيليها من السنوات اللاحقة فقد يسفر هذا النظر عن حقيقتين يقل الخلاف عليهما وهما :

(أولا) ان الآلة صاحبت تقدم الانسان فرداً وجماعة وكانت مقياساً لدرجات الحضارة عند أممه عصراً بعد عصر وفي جميع العصور ، فهي على الجملة مقياس الفارق بينه وبين الحيوان الأعجم في أعلى أنواعه وأقربها اليه .

والحقيقة الثانية أن منافع الآلة غير المقصودة لا تقل عن منافعها المقصودة التي تدخل في تدبير الفرد أو الجماعة ، فما من آلة قديمة أو حديثة تنحصر منافعها في حدود الغاية التي تستخدم لها وتخترع من أجلها ، وما من حكمة انسانية يمكن أن تنحصر فيها تلك المنافع أو يمكن أن تستوعب مقدماتها ونتائجها من النظرة الأولى .

كانت الآلة الأولى صخرة أو فرعاً من فروع الشجر وسيلة لاصابة الصيد أو اتقاء السباع الضارية ، وهذه هي فائدتها التي تدركها حكمة الانسان ويعمل على طلبها .

ولكن الفائدة غير المقصودة من استخدام الصخرة أو فرع الشجرة أكبر جداً من هذه الفائدة التي تكفل له البقاء وحماية النفس بين الأعداء ، لأنها فائدة تتقدم به وتزيد في قدرته وتنمي ملكاته وتنقله من الحيوانية الى الانسانية وتخطو به الخطوة التي يقف عندها الحيوان فلا يتقدم ويبتدىء منها الانسان فيبلغ ما هو بالغه اليوم من تمييز وامتياز .

فاستخدام الآلة في رأي العلماء جميعاً هو الذي جعل اليدين في الانسان أتم وأقدر من اليدين في ذوات الأربع ، وهو الذي شحذ العلاقة الفكرية والمادية بين الدماغ وسائر أعضاء الجسد وحواسه ، ولا اختلاف بين الباحثين في علم الانسان على ذلك ، وانما يختلفون في التقديم والتأخير بين سير الانسان على قدميه منتصب القامة وبين ارتقاء دماغه وابتدائه في التفكير .

فمن العلماء من يرى أن الانسان ارتقى فكراً ، فهداه التفكير الى استخدام الآلة واكتسب المرونة الجسدية والفكرية من توفيقه بين الأغراض والمجهودات التي يستخدم من أجلها الآلات ، ويرى علماء آخرون أنه استوى قائماً على

قدميه واستطاع أن يمشي معتدل القامة ، فتمكن من استخدام الآلة واستعمال اليدين في حملها وتصريفها وتسديدها الى غاياتها ، وتعلم من ذلك كيف يوفق بين حركات الجسم وهداية الدماغ فكان هذا سبباً لنموه واطراد تقدمه وازدياد قدرته على الفهم والحركة الجسدية في وقت واحد .

فالأستاذ واشبرن Washburn أستاذ علم الانسان (الانثروبولوجي) في جامعة شيكاغو يقول في فصل كتبه سنة ١٩٤١ « ان المعروف عن الأجزاء الأخرى من الهيكل العظمي قليل ، ولكن يستطاع أن نعتبر من المقررات البينة الآن أن اعتدال القامة وكل ما يصاحبه مما يساعد عليه في تركيب الجسم هو مرحلة بلغها الانسان قبل وصوله الى هيئته التي استقر عليها »[١] .

وقد لخص الدكتور أشلي مونتاجو طرفي الرأي حول هذه المسألة في عجالة علمية سماها « الانسان في أول مليون سنة » قال فيها عند الكلام على نسب الانسان :

« في افريقية الجنوبية ـ وبخاصة في أخريات السنوات العشرين ـ كشفت هياكل عظمية من متحجرات القردة سميت قردة الجنوب ، وأدعى ما فيها الى الالتفات أنها في كل شيء قردية الا في سعة الجمجمة وعظام الفخذ والساق والقدم فانها شبيهة بالعظام البشرية ، ويتحقق من عظام الفخذ والساق أن قردة الجنوب كانت تمشي معتدلة أو على نحو من الاعتدال ، ومن ثم نشاهد لأول مرة علامات ثابتة تدل على ترتيب تطور البنية الانسانية . وقد حدث هذا الاعتدال قبل نمو الدماغ الى الحجم الذي يماثل دماغ الانسان ، وكان بعض الثقات يحسبون أن الترتيب مختلف ، ولكننا الآن نعلم يقيناً أن سلف الانسان اعتدلت قامته أولا قبل أن يبلغ مبلغ الانسانية .

« كم عاشت هذه القردة الجنوبية ؟ لا نعلم علم اليقين لأن طبقات الأرض في الاقليم الذي وجدت فيه بقايا تلك القردة لم تدرس دراسة وافية . الا أن الأكثرين من المختصين يرجحون أنها عاشت في العصر المحدث الأخير Pleistocene أي قبل مليون سنة أو نحوها . وربما انقرضت هذه القردة قبل ربع

---

١ ـ صفحة ٤٩٣ من كتاب « ذخيرة علم » الطبعة الرابعة .

A treasury of Science

مليون سنة أو أقل من ذلك . . . » .

ثم استطرد قائلا بعد استبعاده أن تكون هذه القردة اسلافاً مباشرة للانسان : « هل كان لها نوع من الكلام ؟ لا نعلم . وربما كانت لها مبادئه الأولى . فهل كانت لديها آلات ؟ يجوز انها كانت تستخدم شيئاً منها . فان في بعض أقاليم افريقية الجنوبية حصى دقاقاً مصفحة كثيرة العدد من المحقق أنها استخدمت كالآلة ويجوز أنها من صنع سلف الانسان ، وقد وجد بعضها ومعه أسنان القردة الجنوبية ، ويزعم بعضهم أن تلك القردة الجنوبية استخدمت عظام الربّاح - أحد السعادين - آلات لها ، ودعا الى هذا الظن أن جماجم كثير من هذه السعادين قد وجدت مع بقايا القردة الجنوبية على حالة يفهم منها أنها ضربت على رؤ وسها ، فاعتقد الأستاذ رايموند بارت Bart من افريقية الجنوبية أنها من عمل القردة وان هذه كانت تستخدم بعض الآلات أو الأدوات ، وان كان كثير من المختصين يتردد في اعتقاد ذلك ما لم تؤ يده أسانيد أخرى »[1] .

وقد خيل الى آحاد من النشوئيين أن تكرار التجربة التاريخية بوسائل العلم الحديث مستطاعة . فشرعوا في اعداد العدة للاستعانة بالجراحة على تقويم عظام الحيوانات العليا التي تقوى على المشي معتدلة بعد تعديل عظام الحقوين وتثبيتها في مفاصلها على نحو يمكنها من الحركة ولا يحوجها الى المشي على أربع من حين الى حين ، ويظن النشوئيون الذين يشرعون في هذه التجارب أنهم سيعرفون بعض الشيء على الأقل عن ترتيب نشوء الكلام واستخدام الدماغ والأجهزة الصوتية في النطق المفيد ، وهم لا يجهلون أن الحيوان الفرد لا يدرك في مدى حياته القصيرة ما أدركه نوعه في مئات القرون ، ولا يجهلون كذلك أن الذي يمرنه الفرد بعملية جراحية في عظامه لا يورث ولا ينقل بالوراثة - كله أو بعضه - ما لم يتسرب أثره الى الخلايا الناسلة Genes وصبغياتها Chromosomes ولكنهم يترقبون من تغيير مسلك الحيوان بعد اقتداره على المشي المعتدل أن يفهموا كيف ابتدأ تحسين الأجهزة الصوتية وتهيئة اللسان للكلام مع التجاوب بين عمل الدماغ وحركات الأعضاء ، وقد يحدث في عمر الحيوان الفرد ما يكفي

---

١ - Man, His First Million Years by Dr. Ashley Montagu.

قدميه واستطاع أن يمشي معتدل القامة ، فتمكن من استخدام الآلة واستعمال اليدين في حملها وتصريفها وتسديدها الى غاياتها ، وتعلم من ذلك كيف يوفق بين حركات الجسم وهداية الدماغ فكان هذا سبباً لنموه واطراد تقدمه وازدياد قدرته عل الفهم والحركة الجسدية في وقت واحد .

فالأستاذ واشبرن Washburn أستاذ علم الانسان (الانثروبولوجي) في جامعة شيكاغو يقول في فصل كتبه سنة ١٩٤١ « ان المعروف عن الأجزاء الأخرى من الهيكل العظمي قليل ، ولكن يستطاع أن نعتبر من المقررات البينة الآن أن اعتدال القامة وكل ما يصاحبه مما يساعد عليه في تركيب الجسم هو مرحلة بلغها الانسان قبل وصوله الى هيئته التي استقر عليها »[١] .

وقد لخص الدكتور أشلي مونتاجو طرفي الرأي حول هذه المسألة في عجالة علمية سماها « الانسان في أول مليون سنة » قال فيها عند الكلام على نسب الانسان :

« في افريقية الجنوبية ـ وبخاصة في أخريات السنوات العشرين ـ كشفت هياكل عظمية من متحجرات القردة سميت قردة الجنوب ، وأدعى ما فيها الى الالتفات أنها في كل شيء قردية الا في سعة الجمجمة وعظام الفخذ والساق والقدم فانها شبيهة بالعظام البشرية ، ويتحقق من عظام الفخذ والساق أن قردة الجنوب كانت تمشي معتدلة أو على نحو من الاعتدال ، ومن ثم نشاهد لأول مرة علامات ثابتة تدل على ترتيب تطور البنية الانسانية . وقد حدث هذا الاعتدال قبل نمو الدماغ الى الحجم الذي يماثل دماغ الانسان ، وكان بعض الثقات يحسبون أن الترتيب مختلف ، ولكننا الآن نعلم يقيناً أن سلف الانسان اعتدلت قامته أولا قبل أن يبلغ مبلغ الانسانية .

« كم عاشت هذه القردة الجنوبية ؟ لا نعلم علم اليقين لأن طبقات الأرض في الاقليم الذي وجدت فيه بقايا تلك القردة لم تدرس دراسة وافية . الا أن الأكثرين من المختصين يرجحون أنها عاشت في العصر المحدث الأخير Pleistocene أي قبل مليون سنة أو نحوها . وربما انقرضت هذه القردة قبل ربع

---

١ ـ صفحة ٤٩٣ من كتاب « ذخيرة علم » الطبعة الرابعة .

A treasury of Science

المكنة الضخمة بقوة جديدة لم تكن تعرف نفسها ولم يكن أحد يعرفها ، ولم يكن لها ـ لو عرفت ـ من سبيل الى اسماع صوتها . فقد جمعت المكنة الضخمة مئات الصناع وألوفهم في صعيد واحد ، وكان اجتماعهم بهذا العدد في رابطة واحدة عدة حية تعتمد عليها الصناعات في انتظامها وتوفير انتاجها . فتم التوازن الاجتماعي حيث اجتمعت هذه القوة للطوائف التي كان من السهل ظلمها ومن الصعب انصافها ، وهي متفرقة تدير آلاتها المفردة على حدة .

كان لأصحاب الأموال سلطانهم الذي لا يدفع ، سواء كانوا من ذوي الثروة الزراعية أو ذوي الثروة الصناعية أو ذوي الثروة التجارية ، وكانوا ربما تنافسوا بينهم فاضطرتهم المنافسة الى الاعتدال في مطالب كل فريق منهم ، ولكنهم كانوا اذا استبدوا بسطانهم يداً واحدة لم يردعهم رادع ولم يعسر عليهم أن يجوروا بمطامعهم على حقوق غيرهم وعلى حدود الشريعة والعرف السديد ، فكان قيام القوة الجديدة ـ قوة الأيدي العاملة ـ خيراً عمياً يحقق مصالح الطوائف جميعاً ويجعل مسألة الانصاف الاجتماعي مسألة لا تتوقف على حسن النية من طلاب الخير العميم .

بيد أنه كان خيراً لم يخلص من الشر في جميع الحالات ، اذ كانت الصناعة الكبرى قد ظهرت في بلاد لا توازن فيها بين قوى الثروة المنوعة كما ظهرت في البلاد التي توازن فيها سلطان أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، فكان ظهور القوة الجديدة سبباً من أسباب الطغيان على المجتمع من الأدنى الى الأعلى ، بعد أن كان الخوف كل الخوف من طغيان العلية على من دونهم مالا وعلماً وقدرة على اسماع الصوت وابلاغ الشكاية واحقاق الحقوق ، وتبين مع شيوع الجهل والتنافر بين طوائف الأمة أن تسخير الجهلاء من المحرومين لعبة سهلة على من يحسن خداعهم واثارة ضغائنهم واستغلال شكاياتهم ، وقد يسخرهم دون أن يشبعهم أو يرفه عنهم لأنه يشبع فيهم شهوات النقمة على من هو أحسن حالا وأكبر جاهاً وأدنى الى رخاء المعيشة ، وقلما يعنيهم أمر الحكومة الحرة لأن فقدان الحرية لا يسلبهم شيئاً يحرصون عليه من فكرة أو مبدأ أو متعة روحية .

ولا ريب أن الطغيان من الأدنى بغيض وخيم العاقبة كالطغيان من الأعلى أو ابغض وأوخم في عقباه البعيدة أو القريبة ، ولكنه مع هذا ضرورة لا محيد عنها

لتعيين الاتجاه ان لم يكن كافياً لادراك الوجهة أو للاقتراب منها كما حدث في أطوار التاريخ .

***

ونعود فنقول ان النشوئيين قد يختلفون فيما بينهم وقد يختلفون بينهم وبين غيرهم ، ولكن الواقع الذي لا خلاف فيه أن الفارق بين الحيوان والانسان مرتبط بتاريخ استخدامه للآلات ، وانه لولا قدرة الانسان على صنع الآلات والاستعانة بها على مطالبه لما كانت له مزية تفرق بينه وبين العجماوات .

وننتقل من الانسان الفرد الى الانسان الاجتماعي في الشعب أو الأمة .

اننا في غنى عن تتبع الأدوار التي مرت بها الصناعات لنعلم أنها كانت في كل دور من أدوارها مقياساً لحضارة الأمة وعنواناً على المزايا الفكرية والخلقية التي تميزها على غيرها ، وقد نعلم من عرض حالة الصناعة في دور واحد من أدوارها أن فوائدها المقصورة لا تستقصي جميع فوائدها ، وان الصناعات التي يتقنها الانسان للحرب لا تلبث أن تدخل في عداد الصناعات التي يقوم عليها السلم ويقوم عليها العمران ، ومن المشكوك فيه أن الصناعة كانت تتقن تطريق الحديد وتليينه على درجات من المرونة والمضاء لو لم تعمل على اتقان السيوف والحراب والدروع . فان آلات الحرث والحفر تصنع بغير حاجة الى الامعان في أساليب التطريق والتليين ، ولكن معالجة الحديد قد أغنت في صناعات السلم والعمران فوق غنائها في صناعات القتال والتدمير .

ولما نشأت صناعات البخار والكهرباء ظهر للآلات أثر جديد لم يكن منه بد لترقية الاجتماع ولم تكن اليه وسيلة بغير « المكنة الضخمة » التي جاء بها الى التاريخ عصر البخار والكهرباء ، وهي تلك « الأداة الجهنمية » أو « تلك الأداة الشيطانية » كما وسمها الحكماء ، بمعزل عن حكمة التاريخ .

لقد كان بناء الصناعة الكبرى على المكنات الضخام مظهراً من مظاهر التوازن في المجتمع بين أصحاب الثروة الزراعية وأصحاب الثروة المعدنية وأصحاب الثروة التجارية ، وكان قيام هذه الصناعة الكبرى دليلا على تكافؤ القوى بين أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، ثم جاءت

المكنة الضخمة بقوة جديدة لم تكن تعرف نفسها ولم يكن أحد يعرفها ، ولم يكن لها ـ لو عرفت ـ من سبيل الى اسماع صوتها . فقد جمعت المكنة الضخمة مئات الصناع وألوفهم في صعيد واحد ، وكان اجتماعهم بهذا العدد في رابطة واحدة عدة حية تعتمد عليها الصناعات في انتظامها وتوفير انتاجها . فتم التوازن الاجتماعي حيث اجتمعت هذه القوة للطوائف التي كان من السهل ظلمها ومن الصعب انصافها ، وهي متفرقة تدير آلاتها المفردة على حدة .

كان لأصحاب الأموال سلطانهم الذي لا يدفع ، سواء كانوا من ذوي الثروة الزراعية أو ذوي الثروة الصناعية أو ذوي الثروة التجارية ، وكانوا ربما تنافسوا بينهم فاضطرتهم المنافسة الى الاعتدال في مطالب كل فريق منهم ، ولكنهم كانوا اذا استبدوا بسطانهم يداً واحدة لم يردعهم رادع ولم يعسر عليهم أن يجوروا بمطامعهم على حقوق غيرهم وعلى حدود الشريعة والعرف السديد ، فكان قيام القوة الجديدة ـ قوة الأيدي العاملة ـ خيراً عمياً يحقق مصالح الطوائف جميعاً ويجعل مسألة الانصاف الاجتماعي مسألة لا تتوقف على حسن النية من طلاب الخير العميم .

بيد أنه كان خيراً لم يخلص من الشر في جميع الحالات ، اذ كانت الصناعة الكبرى قد ظهرت في بلاد لا توازن فيها بين قوى الثروة المنوعة كما ظهرت في البلاد التي توازن فيها سلطان أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، فكان ظهور القوة الجديدة سبباً من أسباب الطغيان على المجتمع من الأدنى الى الأعلى ، بعد أن كان الخوف كل الخوف من طغيان العلية على من دونهم مالا وعلماً وقدرة على اسماع الصوت وابلاغ الشكاية واحقاق الحقوق ، وتبين مع شيوع الجهل والتنافر بين طوائف الأمة أن تسخير الجهلاء من المحرومين لعبة سهلة على من يحسن خداعهم واثارة ضغائنهم واستغلال شكاياتهم ، وقد يسخرهم دون أن يشبعهم أو يرفه عنهم لأنه يشبع فيهم شهوات النقمة على من هو أحسن حالا وأكبر جاهاً وأدنى الى رخاء المعيشة ، وقلما يعنيهم أمر الحكومة الحرة لأن فقدان الحرية لا يسلبهم شيئاً يحرصون عليه من فكرة أو مبدأ أو متعة روحية .

ولا ريب أن الطغيان من الأدنى بغيض وخيم العاقبة كالطغيان من الأعلى أو ابغض وأوخم في عقباه البعيدة أو القريبة ، ولكنه مع هذا ضرورة لا محيد عنها

اذا كان هو الوسيلة التي لا وسيلة سواها لانقاذ الملايين من مرارة الضيم والاهمال ، وانه ليهون خطبه ـ على فداحته ـ اذا بدا من ورائه أمل في زواله وتلطيف جرائره بعد الاستفادة منه في كبح طغيان الأقوياء على الضعفاء .

وعند « المكنة الضخمة » ترياق العلة التي جلبتها ، ومنها يكون الدواء كما كان منها الداء .

ان المكنات الضخام لا تبقى طويلا على الصورة التي عهدها الناس منها لأول نشأتها .

لقد كانت لأول نشأتها تحتاج الى مهندس واحد يفهم تركيبها ويحسن ادارتها ويعتمد في تنظيم عملها واصلاح خللها على الذكاء والدراية العلمية ، وقد يعاونه على ادارتها مساعدون قليلون ـ بل جد قليلين ـ يتعلمون مثل تعليمه ويفهمون مثل فهمه ، ولا حاجة بعد المهندس ومساعديه الى معونة غير المعونة اليدوية التي يتساوى فيها الذكاء والغباء ويتكرر فيها العمل الواحد على أيدي المئات والألوف كما تتكرر أعمال الآلات .

انسان واحد وألف آلة ، ولا فرق في ذلك بين نوع ونوع من المكنات الضخام التي قامت عليها الصناعة الكبرى منذ أواسط القرن التاسع عشر ، الى العقود الأولى من القرن العشرين .

ان عهد هذه المكنة ينقضي في كل أمة من الأمم التي نهجت على سياسة التصنيع وذهبت تتدرج في تعميم الصناعة الكبرى ، وسيصبح « الآدميون الآلات » نمطاً عتيقاً لا نفع له بعد شيوع التنويع في المكنات وشيوع الأجهزة المختلفة في المكنة الواحدة ، ولن تكون هناك سخرة آلية محصورة في فئة كبيرة من فئات العاملين في الصناعة ، ولن تكون هناك قوة طاغية تعتمد على السخرة الآلية متى زالت هذه السخرة من قرارها .

وكلما انتشرت الصناعة لزم الذكاء في استخدام الآلات وشاع استخدامها في المكتب والنادي والمتجر والبيت والديوان ، ولم يبق عمل الذكاء مقصوراً على المكنة الضخمة في المصانع الجماعية ، وأصبحت الصناعة اليدوية المجردة من الخبرة العقلية والدراية الفنية شيئاً نادراً يقل من يزاولونه ويرتضونه ويناط أداؤه بذوي القصور الطبيعي من الأغبياء وضعفاء العقول . وقد رأينا فيما تقدم من

البحوث عن حالة التعليم في القرن المقبل ان علماء التربية سيحتاجون الى جهد غير قليل لتدبير العمل الذي يوكل الى هؤلاء القاصرين ضناً بالذكاء أن يبذل في أعمال تستغني عن الذكاء ، وشعوراً بالحاجة المزدادة الى درجات من الفطنة تصلح لكل درجة من درجات الانتاج وتسيير الآلات .

ولا يخفى أن تهيئة التعليم الصناعي الذي ينجب الخبراء المطلوبين في كل فرع من فروع الصناعة ، لا يتأتى بغير مرحلة عامة من التعليم الأولي كفيلة على الأقل بمحو الأمية وتزويد الناشىء المتعلم بقسط من المعرفة ، يرتفع به عن تلك الآدمية الآلية التي تنساق مغمضة الأعين للدعاة المغررين والطغاة المستبدين .

ويصحب هذا في المجتمع الصناعي المتقدم نظام آخر يمنع التفاوت الواسع بين الطبقات . فان المساهمة في الشركات التي تملك معامل الصناعة الكبرى باب مفتوح لكل من يملك ثمن السهم والسهمين والأسهم القليلة التي لا يعجز عنها أصحاب الموارد المحدودة ممن يعيشون بالمرتبات والأجور .

فالمكنة الضخمة التي تشق المجتمعات وتقطع الصلة بين طبقاتها تعود فتعقد هذه الصلة ، وتملأ الفجوة بين كل طبقة وما يليها ممن هم فوقها ومن هم دونها في العلم والعمل والذكاء والمعيشة ، ومن آثارها في مناح كثيرة أنها تقارب بين دواعي الاتصال والتعاون وتباعد بين دواعي القطيعة والبغضاء ، وتتقارب هذه الدواعي اضطراراً كما تتقارب اختياراً بما يناسبها من الآداب والأخلاق . فاذا امتنع التوازن في المجتمعات التي يسيطر عليها أصحاب الأموال أو يسيطر عليها أصحاب الأعمال اليدوية ، فلا بد من التوازن في المجتمعات التي يملك فيها الأوساط سلاحاً كسلاح الأغنياء المحتكرين للثروة أو سلاحاً كسلاح العمال اليدويين القادرين على تعطيل الأعمال أو على التهديد بالاضراب . اذ يستطيع هؤلاء الأوساط أن يجردوا سلاحاً كسلاح أصحاب الأموال لأنهم يحتلون مراكز الادارة الهندسية والاقتصادية ، ويستطيعون أن يجردوا سلاحاً كسلاح العمال اليدويين لأنهم يملكون التعطيل ويملكون التهديد بالاضراب ، وليس من اليسير أن يستبد أصحاب الأموال أو يستبد العمال اليدويون متى قامت في المجتمع طبقة وسطى بين الطبقتين لها صوت مسموع ووسيلة الى اسماع صوتها واثبات حقها ورفع الضغط عنها من أعلاها ومن أدناها ، وأبعد ما يكون المجتمع عن استبداد العلية أو استبداد الجماهير اذا امتدت فيه طبقاته الوسطى امتداداً يتغلغل

بها في الطبقتين ممن هم أعلى منها ومن هم دونها ، ويحاول من يريد التفرقة هنا أو هناك أن يضع الخط الفاصل حيث ينقطع الشبه بين الجانبين فيعييه الفصل الحاسم على وجه من الوجوه .

***

فتاريخ الانسان الاجتماعي ، أو تاريخ الانسان في الحضارة ، ملازم اذن لتاريخ « الآلة » كل الملازمة : تطورها مقياس صادق لتواريخ الحضارات وللفوارق المحمودة ـ أو غير المحمودة ـ التي تميز بعضها من بعض . وترتقي الآلة البسيطة الى المكنة الضخمة فيكون ارتقاؤها في المجتمعات المتقدمة مظهراً عاماً من مظاهر التوازن بين طوائفها ووسائل نفوذها واقتدارها على تبليغ صوتها وتقرير حقها . فاذا ظهرت الصناعة الكبرى في مجتمع لم يستوف تكوينه الاجتماعي ولم تتوازن فيه القوى والمصالح فهي خليقة أن تتدارك هذا النقص وأن تخلق هذا التوازن مع الزمن وتخلق معه أسباب التعاون بين الطبقات وأسباب التغلب على كل طغيان من احداها على الأخرى .

***

ان أثر الآلة في حضارة الانسان الاجتماعي لا يقل عن أثرها في ثقافة الانسان الفرد أو في قياس الفارق بينه وبين الحيوان .

ولا يقل عن هذين الأثرين البارزين أثرها في حياته العالمية : حياة النوع الانساني على تباعد أقطاره وتفاوت أقوامه وتنازع القوى بين حكوماته وشعوبه .

فقد ولد العالم بعلاقاته المشتبكة يوم ولدت المطبعة والاذاعة والباخرة والطيارة ، وتقررت مبادىء التضامن العالمي عملا في هذا العصر من عصور الصناعة بعد أن طالت دعوة المصلحين اليه وترددت كلمة « النوع الانساني » بغير معنى أو بمعناها المصطلح عليه في الألسنة والأوراق ، ومهما يقل القائلون في قيمة هذا التضامن الحديث فليس هو اليوم بالحبر على الورق ولا بالصدى الذاهب بين الألسنة والأسماع : ان العالم الانساني اليوم أوسع نظاماً من أن تحكمه أكبر دولة وأوثق اتصالا من أن تهمل فيه أصغر دولة ، وما من كارثة في جزء من أجزائه تؤمن عاقبتها في أجزائه المترامية ، على ما بينها من تباعد في

المكان وتباين في المصالح والأهواء ، ولا يحدث هذا في العالم بغير تضامن « واقعي » بين اجزائه ، كائناً ما كان سببه وكيفما اختلف النظر اليه في دساتير الأخلاق .

فاذا قيل ان هذا التضامن ضرورة غير مقصودة ، لأسباب غير محمودة ، ففي ذلك مصداق للحكمة التي تفوق ارادة الانسان وتسوقه في تاريخه مرحلة بعد مرحلة وهو جاهل بما يساق اليه .

ونعود فنقول ان الانسان لم يصنع الآلة وهو يقصد الى جميع فوائدها وعواقبها ، وانه قد يقصدها سلاح حرب فلا تلبث أن تصير على غير قصد منه دعامة سلام ، وقد صح هذا كثيراً في تاريخ الانسان الفرد وتاريخ الانسان الاجتماعي ، ولكنه أصح من ذلك في تاريخه العالمي أو تاريخ هذا التضامن العالمي في الزمن الأخير ، فما كانت منافع المواصلات لتقود الانسان الى اتقان الطيران هذا الاتقان لولا فعله في الغارات والحروب ، وما كانت أمانة العلم لتفلح وحدها في شق الذرة وابداع الأقمار الصناعية واطلاق الصواريخ وتركيب سفن الفضاء ، وما كانت خصائص المادة وأسرار العناصر والأجسام لتنكشف للعلماء وتنقاد للمخترعين لو لم يكن منها سلاح ووقاء وخوف من عدو أو عزم على اعتداء ، فليست هذه الروائع العلمية مما يتاح للعلماء وينقاد للمخترعين بغير القناطير المقنطرة من الذهب ، وليس انفاق القناطير المقنطرة مما تتحمله شركات البيع والشراء أو تتفتح له حزائن الأغنياء ، أو يأذن به ولاة الأمر والنهي اذا انكشف عنه الغطاء .

٤ ـ خواص المادة
والنظرة « المادية »

النظرة المادية نقيض النظرة المجردة الى الأشياء في اصطلاح الاقدمين والمعاصرين ، سواء كانوا من الفكريين المثاليين او من الحسيين الواقعيين .

وأساس هذه التفرقة قديم عند الأمم التي اشتغلت بالفلسفة والعلم ، مع اختلافها في المزاج والعقيدة ووجهة النظر .

فعند الفيلسوف الهندي القديم ان المادة وهم باطل واننا مطالبون بان نلغي وجودها ونفرض عدمها اذا أردنا ان ننفذ الى الحقيقة المجردة التي لا تتلبس بالأوهام والأباطيل .

وعند الفيلسوف اليوناني ان المادة كثيفة غليظة ، وان الفكر في لبابه صاف خالص من شوائب التجسيم والتجسيد ، ولا شك ان الفكرة الجغرافية كان لها عمل كبير في هذه التفرقة من أساسها الأول ، لأنها فرقت بين الكائنات الأرضية والكائنات السماوية ، او فرقت بين هذه المحسوسات الكثيفة الترابية وبين الكائنات العليا التي لا يحس منها غير النور الذي ينبعث منها ، وهو بسيط صاف لا تركيب فيه ولا يعتريه الا ريثما يختلط بالأجسام ثم ينفصل عنها فيعود الى الطهارة والنقاء .

فكل ما تحت القمر فهو مادي غليظ عرضة للفساد والانحلال ، ويأتيه الفساد والانحلال من جانب التركيب الذي لا يدوم على حالة واحدة ، ومن فقدانه الدوام يتطرق اليه العطب والفناء .

ولا نذكـر هنا فلسفة المصريين الأقدمين فيما يرجع الى النظرة المجردة والنظرة المادية ، فانهم لم يفصلوا بين النظرتين ولم ينظروا الى الوجود كله الا على اعتباره وجودا واحدا تمتزج فيه الروح والجسد ، ولا يلزم من اختلافهما ان ينفصلا عنصرين متناقضين ، فلا تنفرد الروح بالبقاء ولا يمتنع على الجسد ان يبقى ملازما لها او منفصلا عنها الى حين .

***

ثم انقضى عصر الفلسفات القديمة واتخذت التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة مناهج شتى في العصور الوسطى بين الفلاسفة المستقلين والفلاسفة المفسرين لأصحاب الآراء الخالية . فانقسم هؤلاء جميعا الى قسمين متناقضين : قسم الواقعيين وقسم الاسميين ، واطلق « الواقعيون » على الذين يحصرون الوجود في الأفراد المحسوسة ، واطلق « الاسميون » على الذين يقولون بوجود النوع مستقلا عن الفرد بكيان غير محسوس .

فالواقعيون يقولون بوجود هذه الشجرة وتلك الشجرة وكل شجرة يرونها او يلمسونها ويحسونها على نحو من الاحساس الجسداني ، ولكنهم يرون ان « الشجر » كلمة تقال لتدل على جنس الاشجار في جملتها واسم لا وجود له في الخارج غير وجود مسمياته المتفرقة .

وعلى نقيض هؤلاء « الاسميون » الذين يقولون بأن « النوع » هو الموجود الحقيقي وان الافراد المحسوسة انما هي محاكاة ظاهرية تحاول ان تمثل ذلك الوجود العام على صورة من صور الوجود الخاصة التي تدركها الحواس .

وجاء بعد الواقعيين والاسميين اناس مثلهم في هذه التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة ولكن على اسلوب آخر : هؤلاء هم الحسيون العقليون يقابلهم المثاليون المنطقيون ، فلا وجود عند الحسيين العقليين لتلك الأمثلة العليا والحقائق الغيبية التي يؤمن بها المثاليون المنطقيون ويستدلون عليها ببراهين المنطق وأدلة القياس ، وانما الوجود الحق للمادة التي يحدها المكان والزمان ويثبتها العيان وما يؤيده من حواس الانسان .

ثم جاءت المادية الحديثة قبيل القرن العشرين فأنكرت جميع المجردات ولم تثبت شيئا غير الاجسام كيفما كانت في تراكيبها التي تدركها الحواس او تكشفها

ادوات الرصد والتحليل .

وسمي العصر الحديث ـ بين أسمائه الكثيرة ـ باسم العصر المادي او عصر الماديات على اطلاقها ، وجعلوا يطلقون الماديات على كل شيء يطلبه الجسد ويستمتع به الحس ولا يتجرد عن « الجسدية » على حال من الأحوال .

ولقد حسب الكثيرون ان هذه « المادية » خليقة ان تقضي على نظرة التجريد قضاءها المبرم الذي لا رجعة لها بعده ، وان الذي بقي من نظرات التجريد ـ بعد فلسفة الواقعيين وفلسفة العقليين ـ وشيك ان يذهب ذهابه الأخير في ابان عصر المادة الحديث ، فكلما استغرق الباحث في النظرة المادية فهو مبتعد بحكم الضرورة عن نظرات التجريد ، ابتعاد النقيض من النقيض .

وغير هذا هو الذي حدث ويحدث مع توالي الكشوف عن اسرار المادة وعناصر الاجسام ومآل هذه العناصر في النهاية ونشأتها قبل ان تتعدد وتبلغ العشرات .

فلم يعرف الناس نظرة التجريد كما عرفوها في هذا « الزمن » الغارق في ماديته كما يقال .

كان الفيلسوف المادي ـ والعالم المادي معا ـ في منتصف القرن التاسع عشر يعلن الايمان بالمادة دون غيرها لأنه يحسب ان وجودها هو الوجود الثابت بغير برهان ، وانها تملأ عيانه وتصدم يديه وقدميه ولا تحوجه الى فهم حقيقتها وراء النظر واللمس ووراء صدمة الواقع المقرر بغير جدال ولا امعان في الخيال .

ولكن ما هي تلك « المجردات » التي يتحدث عنها غير الماديين ؟

وهم لا نراه . خيال لا نعقله . فروض لا تبرأ من النقائض وضروب المحال .

ثم وصف علماء المادة وفلاسفتها هذه المادة التي لا تجريد فيها فاذا هم يعيدون فيها ما قاله الروحانيون عن المجردات . فما يقوله الماديون عن سر المادة انما هو وهم لا يرى وخيال لا يعقل ونقائض من الفروض في التفسير الواحد ، ودع عنك غيره من التفسيرات .

***

كانت مادة الأقدمين معدنا للكثافة والغلظة ، وضدا لمعنى الصفاء والتجريد ، لأنها من معدن يناقض النور السماوي في بساطته ولطفه ونزاهة مكانه ، فأصبح قوامها كله من النور المحض يتساوى اكثفها والطفها كما يتساوى اثقلها واخفها في استمداد هذا القوام من ينبوعه الاصيل ، وكلما ثقل وزنها كان هذا الثقل عنوانا لوفرة نصيبها من النورانية او من الشعاع المنطلق بلا جثمان .

وكانت مادة المحدثين حقيقة واقعة مأخوذة في اليدين ، يعدون من غريب القول ان يسأل السائل هل هي مفهومة او غير مفهومة ، لانها اظهر واثبت من ان يصل الأمر فيها الى الفهم بالذهن المجرد وهي قائمة أمامنا بالوانها واحجامها واجزامها الصلدة التي تصدم الأكف والاقدام ، فاصبحت هذه الحقيقة الواقعة الماخوذة باليدين شيئا يدق عن ادراك العقول ويبلغ من الدقة غاية ما يبلغ الروح المجرد في خفائه وصفائه ، فكل هذه الاجسام الكثيفة انما هي ذرات صغار لا تدركها العيون ولا يدركها العقل الا بالحساب والتقدير ، وكل ما انطوت عليه هذه الذرات انما هي هزات او جزئيات لا ندري على التحقيق ايها تكون ، وقد يفسرون الظاهرة الواحدة بالهزات من ناحية والجزئيات من ناحية اخرى ، ويتممون هذه بتلك على نحو يستغربونه من شراح « الروحانيات » والمجردات ، وما اليها من خلائق البديهة والخيال .

وما قصارى الهزات والجزئيات بعد هذا التردد بين التفسيرين ؟ . . قصاراها انها حركات في ظن من الظنون يسمى بالأثير ، لا يعرف بلون ولا طعم ولا مس ولا عدد ولا طول ولا عمق مقيس بغير الحساب والتقدير .

وآل أمر الامتداد كذلك الى الحساب والتقدير ، لأنه جاوز الحس والتصوير ولحق في النهاية بالغيبيات وما شاكلها من فروض البديهة والخيال . ففي الثانية الواحدة يعبر شعاع النور قريبا من ثلثمائة الف من الكيلو مترات . وكم يعبر اذا انقسمت خفقة الثانية الواحدة الى الف خفقة ؟ وماذا يكون جزء من الف جزء من الثانية في حساب الزمن المعهود .

وتضاءل شأن « الامتداد » الذي سميت باسمه المادة فاصبح ادراكه وادراك المعاني الذهنية على حد سواء : لا نهاية للصغر بعد ان كان المظنون ان اللانهاية صفة من صفات السعة الشاسعة من الآفاق والآباد .

واذا تركنا اللانهاية في الصغر او في الكبر ووقفنا عند المحدودات في عالم الاجسام والمعاني فالعجب هنا اعجب من كل اعجوبة روحانية عزت على قرائح المتعمقين في التفكير والتخمين .

ان الناسلات او الجنيات Genes التي يتكون منها النوع الانساني كله توضع في فنجان صغير يحتوي كل ما في هذا النوع من القوى الكامنة والخصائص المميزة والموروثات الباقية في وظائف الاعضاء وفي الأذهان والطوايا الخفية : يحتوي من جراثيم التكوين كل ما توزع من الملكات والأخلاق في اكثر من الفي مليون من ابناء الأمم الاحياء يتوارثون ملكاتهم واخلاقهم من اضعاف هذه الملايين في مئات القرون ، فماذا بقي من معنى الامتداد القديم ؟ واين مسافات الفضاء او مسافات الزمن في هذه المقاييس والمقادير ؟ واين يذهب بنا التجريد المفروض وراء هذه الخفايا التي لا تؤخذ باليد ولا بالفكر الا مع التسليم والاعتراف في النهاية بالعجز والقصور ، واذا كان جزء من ثلاثة آلاف مليون جزء محتواة في فنجان صغير يحفظ جرثومة الطبائع والافكار والاعضاء في انسان عظيم او صغير فماذا بقي من المعجزات للذين يتحدثون عما وراء الطبيعة وما وراء المادة وما وراء العقل والعيان ؟ واين هو الفاصل القائم الذي يسمح للمادي الفخور بماديته ان يقول لخصمه : انا مادي المس الحقيقة وانت خيالي تطير وراء المحال ؟

***

زعم فيثاغوراس قبل خمسة وعشرين قرنا ان الوجود كله قوامه من عدد ونغم ، او ان الوجود كله بعدده ونغمه يقوم على النسب الموسيقية .

ولم يذكر فيثاغوراس شيئا عن الموجودات المعدودة ، فهو يذكر العدد ولا يعنيه امر المعدودات كانه يقدم العدد في الاعتبار ويجعل النسبة الموسيقية بين الأعداد اصلا تتبعه الفروع .

وسمع بهذا الرأي الفلسفي كاتب يعرف الكيمياء معرفة الصيدلي الماهر ، ويشتغل بالدراسات العلمية الحديثة ولا سيما مذهب النسبية في شعبتها الخاصة وشعبتها العامة . فما كاد الكاتب الصيدلي يصغي الى ذلك الرأي الفلسفي حتى صاح محنقا : ما هذا اللغو السخيف ؟ الوجود كله عدد ؟ الوجود كله نسب

موسيقية ؟ اما آن للعقل البشري ان يتحرر من هذا المراء العقيم الذي اكل عليه الزمان وشرب وضاعت فيه الدهور عبثا بين الجدل والسفسطة ؟

ولم يقنع الكاتب الكيمي بما قال في ثورة الغضب بل كتب مقالا بهذا المعنى لم يعدل فيه عن وصف الفيلسوف الكبير بالسخف والجهالة .

ولقيت صاحبنا فقلت له : ان آخر من يحق له ان يرمي الفلسفة العددية بالسخف لهو الباحث الذي يعرف الكيمياء معرفتك . ماذا تقول الكيمياء عن اصل المادة بحذافيرها واصل المعدودات على « تعدد » حسابها .

قال : انها من عناصرها المعروفة .

قلت : وماذا نعرف من عناصرها ؟

فمضى يسرد التعريفات المعلومة لتركيب النواة وكهاربها بين موجبة وسالبة ومحايدة ، الى آخر ما يقال عنها في بسائط الكيمياء .

قلت : علام يقوم الاختلاف بين عنصر وعنصر منها ؟

قال : انه بالطبع قائم على عدد النويات والكهارب .

قلت : والنويات والكهارب من اين جاءت . اليست هي جميعا من شعاع وتؤ ول الى شعاع بعد الانحلال ؟ فما هو الشعاع ؟ اليس هو هزات في الاثير ؟ وما الفرق بين هزات الاثير ان لم يكن فرقا بين عدد ونسبة ؟ وهل في الاثير شيء معدود غير هذا العدد المفروض ؟

ان عناصر المادة اذن تختلف باختلاف ما فيها من اعداد الهزات في الاثير ، ونرجع الى الاثير فلا نجد هنالك جسما ولا كائنا شبيها بالأجسام التي تقاس بالوزن او بالحجم او بالأطوال والابعاد . وكل ما نعرفه اذن اعداد مفروضة لا نعرف معها معدودات موجودة ، فماذا قال فيثاغوراس غير هذا مما يحق لنا اليوم ان نصفه بالسخف والمراء ؟ عدد ، ونسب مقررة بين الأعداد ، يتبع بعضها بعضها ولا يعسر على الخبير بها ان يتبين الموضع الخالي في السلسلة المتلاحقة على حسب اعدادها وضوابط النسبة بينها .

كل ما نعرفه عن تركيب المادة انها اعداد مفروضة ومعدودات مجهولة ، ومن قال بهذا الرأي قبل العلم الحديث بخمسة وعشرين قرنا لا يستحق منا الوصف

بالسخف والهراء ، بل هو حقيق منا بكل اعجاب واكبار ، وجدير بنا ان نتعلم منه كيف نفكر ونفتح ابواب التفكير امـام عقولنـا ، فان لم نتعلـم منـه ذلك فلنتعلم على الاقل كيف نتردد في اغـلاق ابـواب الفـكر وفي حجـب العيون بالأيدي حتى لا ترى ما لعلها قادرة على رؤ يته ، لولا هذا الحجاب .

على ان العلم الرياضي قد اضطر العلماء الماديين وغير الماديين ان يسلموا بقول يشبه رأي فيثاغوراس في العدد بلا معدود ، فلم يقل أحد منهم عن اقليدس انه مخرف سخيف لانه يقول عن النقطة الهندسية انها شيء بغير طول ولا عرض ولا عمق او ارتفاع ، ثم يقول مع ذلك ان الخط المستقيم مجموعة من هذه النقط بغير عدد معروف يميز بين الطويل منه والقصير .

اضطر الماديون وغير الماديين اضطرارا الى تسليم هذا الفرض المجرد ، وبنوا عليه علوم الهندسة العملية والنظرية ، فهي قائمة على غير اساس ، ان لم تقم على هذا الاساس .

وزبدة هذه الفروض في العلم الطبيعي او الفلسفة او الرياضة ان الحواس لا تعطينا وصفا للمادة ـ او للامتداد نفسه ـ يغنينا عن النظرة المجردة التي يدركها العقل ولا تدرك بالابصار والاسماع ، بل ربما عجز العقل عن ادراكهـا ولـم يستطع ان يذهب فيها مذهبا وراء التسلـم .

ومن اقرب النتائج الى موقف العلم الحديث عن هذه الفروض المسلمـة ان نلغي كل ما وقر في اخلادنا عن النظر المجرد الى حقائـق الوجـود ، فليسـت الكثافة هي الحقيقة كلها وليس الخفاء هو العدم كله . وليس في المحسوسات على اطلاقها شيء واحد لا ينتهي بنا الى خفاء .

واذا عاب الماديون على الفكريين انهم يتوارثون اوهام الاقدمين في المسائـل الروحية ولا يتخلصون منها على ضوء العلم الحديث ، فمن واجبهم ان يذكروا نصيبهم من هذه الوراثـة ومـن هذا العجـز عن الخـلاص من بقـايا القـرون الخالية ، فما يزال في اذهانهم اثر ـ بل آثار ـ من صورة الارض التي تقابل السماء وتناقضها في الجوهر والبناء ، فلا ثبوت عندهـم الا لهذا القـرار الـذي يصـدم القدمين ، ولا معنى عندهم لما بعد الطبيعة ، ولا يجوز عندهم ان تكون الطبيعة نفسها حقيقة وراء الحواس ووراء العقول .

٥ ـ الايمـــان

لم يكن العلماء المفكرون في القرن السابع عشر أفضل تفكيرا من خصومهم الجامدين من رجال الدين في زمانهم أو من عامة الجهلاء المقلدين .

كان الخصمان المتنافران يصلان الى النتيجة الواحدة من المقدمة الواحدة .

اثبات دوران الأرض حول الشمس ينفي وجود الله ويبطل الايمان به عند هؤلاء وعند هؤلاء ، فهم من الجانبين المتقابلين يفكرون على نسق واحد ، ويرجعون الى قضية واحدة في فهم الكفر والايمان .

ولم يخطىء العلماء المفكرون هذا الخطأ لأنهم أساءوا فهم العلم وعجزوا عن التفكير القويم ، وانما ساقهم الى الخطأ أنهم خلطوا بين الايمان وبين رجال الدين ، وخيل اليهم أن رجال الدين هم أصحاب قضية الايمان وهم المختصون بفهمها وتفسيرها والهداية الى أسرارها ، فاذا بطلت دعواهم بطلت دعوى الايمان من أساسها ، ولم يبق لأحد حق بعد حقهم في تجديدها واستئنافها .

ولو تمادى العلماء المفكرون كلهم في هذا الخطأ حتى اليوم لصح القول بقضاء العلم على الدين منذ ثلاثة قرون ، وتقرر في الأذهان أن العالم يبتعد من الدين كلما ازداد نصيبا من معارف العلم الحديث .

ولكننا اليوم بعد ثلاثة قرون لا نستطيع أن نقول ان العالم أبعد من الدين مما كان عند ظهور طوالع العلم الحديث ، ونستطيع أن نقول على التحقيق : ان

نصيبه من العلم الحديث أوفر وأوفى من نصيب العالم في القرن السابع عشر ، بل من نصيبه عند بداءة القرن العشرين .

ما الذي تغير من تفكير علماء الأمس وعلماء اليوم ؟

تغير وضع القضية .

تغير أصحاب الدعوى فأصبح لها طرف واحد ، يتلقى المدعون فيه والخصوم .

قضية الايمان اليوم هي قضية الوجود وليست قضية الجامدين أو المتحررين من رجال الدين ، واذا صار الأمر الى قضية الوجود فالاثبات والنفي فيها مطلوبان من كل موجود يعقل ويبحث عن حقيقة وجوده ، أيا كان رأي الجامدين أو المتحررين من رجال الدين في جميع الأديان .

تغير وضع القضية فتغير فيها موقف الهجوم وموقف الدفاع : من هجم فيها فانما يهجم على عقله ووجدانه ، ومن دافع فيها فانما يدافع عن عقله ووجدانه ، ومن ظن أن طائفة من الناس أحق بالهجوم والدفاع فقد نزل عن حقه في وجوده وحياته ، وعن حقه في استطلاع أسرار الوجود والحياة فيما حوله ، وهو أكبر ما للحي العاقل من حقوق .

في رسالتنا عن « عقائد المفكرين في القرن العشرين » ـ قلنا : « ان أسباب الشك منذ نشأة العلوم الحديثة خمسة ليس أقوى منها وأعظم فعلا في عقول المفكرين الأوربيين وفي عقول غيرهم ممن نظروا الى دلالتها مثل نظرتهم وحكموا بها على الأديان مثل حكمهم ، وهذه الأسباب الخمسة هي :

« أولا » كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ومن الأجرام السماوية على العموم .

« ثانيا » ظهور القوانين الطبيعية التي سميت بالقوانين المادية أو الآلية .

« ثالثا » مذهب النشوء والارتقاء .

« رابعا » علم المقارنة بين الأديان والعبادات .

« خامسا » مشكلة الشر ، وهي ليست من مشكلات القرن العشرين خاصة ، ولكنها تخصص بالقرن العشرين لما تفاقم فيه من الحروب . . . »

كان التقليد الشائع عند المفكرين المنكرين من طراز القرن السابع عشر أن

يحيلوا على الدين كل خطأ من أخطاء رجال الدين الجامدين الـذين يرفضـون كشوف العلم وآراء العلماء في هذه البحوث والنظريات .

وكان لهم وجه من الشبهة في ذلك التقليد الذي نظلم العلم بنسبته اليه ، ولكن ما هي الشبهة عندهم على الايمان بالله اذا تحولت القضية من قضية خاصة برجال الدين الجامدين الى قضية عامة للوجود ولكل ما هو موجود .

مـا الـذي يمنـع أن يكون دوران الأرض حول الشـمس أدل على الحكمـة الالهية ، لأنها في موضعها من المنظومة الشمسية قد أصبحت أصلح للحياة من جميع السيارات .

وما الذي يمنع أن تكون النواميس في الطبيعـة أدل على الحكمـة الالهية من الفوضى والاختلال ؟

وما الذي يمنـع أن يكون التطـور آية من آيات الهـداية الالهية التـي ترتقـي بالمخلوقات وتبث فيها عوامل التنوع والارتقاء .

وما الذي يمنع أن يكون التدين اجتهادا يبلغ فيه الانسان ما هو قادر على ادراكه طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل .

وما الذي يمنع أن يكون « الشر » أدل على فضل الحياة والحرية من خلق الناس كما تصنع القوالب وتخرط الحدائد والأخشاب .

ان تلك الكشـوف العلمية لا تطـوي صفحـة الـدين الا اذا أسيء وضـع القضية ، وفهم الدين على أنه بضاعة فئة من الناس يروجونها ولا يحفل أحد غيرهم برواجها أو كسادها ، بل عليهم أن يحترسوا منها كما يحترس المشتري من تاجر ماكر يبيعه ما لا يحتاج اليه .

الا أنها اذا وضعت في موضعها وفهمت على أنها قضية الوجود والحياة ـ فكل ما كشفه العلم وما سيكشفه خليق أن ينشر منها كل يوم صفحة جديدة ويفتح منها كل مرة بابا لم يكن قبل ذلك بمفتوح للباحثين . وقد فهمت تلك الكشوف على هذه الصفة حديثا فلم ينـكر الفـكر مكان الـكرة الأرضية في وسـط المنظومـة الشمسية ، بل رأى فيها آية من آيات الحكمة الالهية أقرب الى التصـديق من زعم الزاعمين أنها مستقرة في مركز الكون ، وأن القائلين بانحرافها عن ذلك

المركز يبطلون القول بحكمة النظام في الأرض والسماء وحكمة خلق الانسان في موضعه من ذلك النظام .

لو كانت الأرض ترتج من فزع أبنائها لارتجت فعلا من فزع المتدينين الجامدين يوم سمعوا أنها كرة وأنها تدور ولا تستقر في مكانها من مركز الوجود ، ولكن الكرة الأرضية خرجت من ذلك المركز المزعوم ودارت في مدارها بين السيارات ، فتمت لها في هذا المدار شرائط الحياة واستعدت بذلك لظهور الأحياء عليها واظهار البرهان القوي على الحكمة والقصد ، من حيث لا يظهر للعقل من اثباتها في مركزها القديم .

لم توسطت بمدارها بين أقصى البعد من الشمس وأدنى القرب منها ، وبين أقصى البرد وأقصى الحرارة ؟

ولم توسطت في حجمها بين الضخامة التي تشل حركة الأجسام بوطأة الجاذبية الثقيلة وبين الخفة التي تطلق الموجودات عنها الى الفضاء ولا تمسك حولها بالجو الصالح للحياة ؟

ولم اختلف عليها النور والظلام فتيسرت فيها تراكيب الكيمياء التي لا تتيسر مع اطباق النور أو اطباق الظلام ؟

ليكن تعليل هذه الأحوال على الوجه الذي ترتضيه عقول الباحثين فيها من جوانب النظر المتباينة ، فانما نحن على كل وجه من وجوه التعليل أمام صفحة مفتوحة للبحث في أسرار الخلق لم يطوها القول بخروج الأرض من مركز الكون المزعوم الى مدارها المتنقل بين السيارات ، وهكذا تبقى القضية التي خيل الى المنكرين في القرن السادس عشر أنها قضية سقطت فيها الدعوى وبطل فيها الخلاف ، وهكذا مضت عدة قرون ولم يبتعد العقل في القرن العشرين من الايمان بمقدار نصيبه من المعارف والكشوف ، بل هو أحرى أن يبتعد من الانكار كلما إطلع على كشف جديد من كشوف العلم الحديث ، وأحرى بالعصر الحاضر أن يسمى عصر الشك في الانكار ، اذا قيل عن العصور القريبة الماضية انها عصور الشك في الايمان .

***

ولا ندري ماذا تصنع ثلثمائة سنة أخرى بمسألة الايمان والانكار في نظر العقل

والبديهة بعد هذه الخطوات التي خطاها الفكر الانساني منذ القرن السابع عشر الى هذا القرن العشرين ، ولكن المشاهد أن أفكار المعاصرين قد استفادت كثيرا من تحويل المسألة من مسألة جدل وملاحاة بين العلماء وأدعياء الذين المحترفين الى مسألة انسانية ، يضيرنا أن نهملها ولا ينفعنا أن نكتفي فيها بالتفتيش عن سخافة الجامدين والجهلاء .

ومما استفاده الفكر الانساني في القرن العشرين أنه فصل في مسألة أخرى لا تقل عن هذه المسألة في قيودها الوبيلة وفي نتائج الخلاص من اسار تلك القيود ، وتلك هي مسألة القطيعة بين العلم والفلسفة وحسبان النظر فيما وراء المادة فضولا يوشك أن يخل بكرامة العلماء ويخرج بهم من نطاق العلوم .

فالنظرة المجردة اليوم نظرة اضطرارية لا اختيار فيها للعالم الذي كان يظن أنه في حل من تركها بل يظن أنه مطالب بالابتعاد عنها ، فليس للعقل العلمي اليوم محيص من النظر المجرد الى أصول الموجودات وهو قائم في صميم هذه الموجودات المادية ، وليس « ما وراء المادة » في القرن العشرين عالما سحيقا يوغل فيه بالظن والخيال ، بل هو عالمه الذي يشاهده بالعين وينتهي اليه بالتجربة ويفكر فيه ويتخيله على اضطرار بعد انتهائه بالحس الى غاية مداه ، وقد كان الفرض الرياضي عند علماء التجربة العملية حيلة موقوتة يسمح بها مغضيا عنها في انتظار الوصول الى الحل المأمول ، وكانت النقطة الهندسية ـ مثلا ـ لغزا علميا من ألغاز الرياضة التي تشبه الألعاب التي يقبلها من يقبلها ريثما يصل الى الجد المفيد في التطبيقات العملية : قل أيها الرياضي الحريص على تعريفاته العزيزة كيفما شئت ان النقطة شيء ليس بشيء وبعد تمتد منه جميع الأبعاد ولا طول له ولا عمق ولا ارتفاع ، فما دمنا نبني ونهندس ونحسب في عالم الأبعاد والمسافات فلا بأس علينا من فروضك وألغازك في فراغ الأوهام .

غير أن الرياضي المولع بتعريفاته الأولية يعود اليوم فيسأل علماء التجربة والعمل أن ينتهوا بتجاربهم الى شيء في الفضاء يختلف في ادراك العقول والحواس عن النقطة الهندسية فلا يحيرون جوابا ولا يحسبون أنهم أفلتوا قيد شعرة من المادة الى فراغ الأوهام ، كل ما نلمسه ونحسه ونراه ونعقله ان هو الا حركة في الأثير ، وكل ما نعرفه من الأثير انه فضاء لا ندري ما الذي يتحرك فيه وما معنى الحركة فيه من هنا أو هناك .

ويضطر الطبيب وعالم الحياة ، كما يضطر الرياضي وعالم الطبيعة ، الى هذه النظرة المجردة حين يشرح مخ الانسان وينتظر نتيجة التشريح فيرى أن جسم « المخ » لا يحتوي الفكر احتواء الآنية المحسوسة كما خطر للكثيرين من الماديين الذين قرنوا بين مادة المخ ومادة التفكير ، فقد يزال جزء من المخ كثير أو قليل ويبقى للعقل كل ما كان فيه من علوم ومعارف وذكريات وأخيلة وكلمات ومعان-ولغات ، وقد يعاب تكوين المخ وصاحبه من فلتات العبقرية والنبوغ ، وقد يصغر المخ حجما ووزنا وقدرته على التفكير أكبر من قدرة المخ الذي يزيد عليه في حجمه ووزنه ، وقد كان الفيلسوف ديكارت يرجح على سبيل الظن أن الغدة الصنوبرية في الدماغ هي نقطة الوصل بين الجسد والفكر وملتقى العالمين المتقابلين عالم المادة وعالم الروح ، وكان الفيلسوف يعتقد انه بلغ غاية التسامح الذي يستطيعه من يفرق بين العالمين ويضطر الى صلة يعقدها بينهما مع هذا التفريق ، فاليوم لو عاد لرأى المغرقين في التجسيم يسبقونه الى التسليم باختلاف مادة التفكير من مادة الدماغ كله ، بما فيه من غدة صنوبرية ومن أغشية وتلافيف .

ولم تتمحض ، بعد ، بحوث العلم في اشعاع الدماغ وعلاقة هذا الاشعاع بالتفكير والانفعال ، ولم تجر المقارنة الوافية بين الاشعاع المنبعث من دماغ الانسان والاشعاع المنبعث من دماغ الحيوان في أحوال الشعور والانفعال ، ولم يظهر للعلماء الباحثين في هذه الظواهر محور الفارق بين اشعاع المخ الانساني في حالة التفكير والتأمل واشعاع المخ الحيواني في حالة الاضطراب الجسداني الذي لا تفكير فيه . ولم تكمل ، بعد ، محاولات التجربة العكسية في هذه الظواهر الفكرية أو الشعورية ، فلم يعرف أحد من الباحثين كيف يستطيع أن يحدث بالاشعاع الذي يرسله الى الدماغ أثرا كالذي ينشأ في داخل الدماغ أثناء اشتغاله بالتأمل أو بالروية أو بالأعمال الفنية والعلمية ، وكل أولئك من التجارب اللازمة في هذه الدراسة الطريفة التي لم تسبق لها سابقة من نوعها قبل القرن العشرين . بيد أننا لا نحتاج الى الانتظار الطويل لنعلم أن العامل المهم في التفكير شيء غير الحجم والمقدار ، وان المخ لا تنقص معلوماته ومحفوظاته بنقصان جزء منه يستأصله الجراح في بضع لحظات ، ولسنا نريد أن نسبق السنوات فضلا عن الأجيال والقرون ، ولكننا نستبعد منذ الآن أن يجيء اليوم الذي يستطاع فيه تكييف المخ بالأشعة المرسلة اليه من الخارج ليعرف لغة من

اللغات أو قضية من قضايا الفلسفة أو درسا من دروس الكيمياء والجغرافية والرياضة ، أو ليكسب ملكة من ملكات النظم والتصوير والتمثيل وما نحا نحوها من الفنون . وغاية المستطاع ـ على ما نعتقد ـ أن ينجح الباحثون في تسجيل اشعاع المخ بالرسوم الكهربية وادراك دلالتها على نشاط المخ أو كسله وعلى رجحانه أو نقصه ، وربما نجحوا كذلك في تنشيطه وتنبيه قدرته وحضه على عمله وتمييز ذلك العمل الذي يحض على أدائه . أما أن تنقل الأشعة الى المخ فكرة لم يبتدعها ولم يستعد لها بتكوينه وتربيته فليس ذلك بالمستطاع ولا هو مما تنبئنا عنه أوائل البحث كما بدرت لنا حتى الآن .

وأيا ما كان مآل هذه البحوث بعد زمن قريب أو بعيد فليس من الممكن أن نرجع بعمل المخ الى حركة أكثف من مادة الشعاع في الأثر ، وذلك شوط في تنزيه الملتقى بين الجسد والفكر لم يحلم به الفيلسوف الذي قنع بالغدة الصنوبرية ملتقى بينهما في تكوين الدماغ وجعل التفكير أساس البراهين على صدق وجود الانسان ووجود الاله .

***

ان الشوق الى الايمان من أقوى أشواق النفس الانسانية ، شوق متصل بحب الحياة وحب المعرفة وحب الجمال وحب الكمال ، وحسبنا منه أنه شوق يعيننا على اليأس ويمنحنا الأمل ويجعل للحياة معنى يتصل بالدوام .

وليس المتشككون أضعف الناس حظا من هذا الشوق المتأصل في أعماق النفس البشرية ، فانهم كالعاشق القلق المستريب حظه من الحب أعمق من حظ الخلي الذي يسقط الحب من حسابه فلا يعنيه أن يثق ولا أن يشك ولا أن يستريح من قلق يساوره وخواء يشعر به ولا يرتضيه .

هؤلاء المتشككون في هذا العصر يحارون بين شك يحيك بضمائرهم وشوق محتبس لا يجد سبيلا الى الانطلاق ، وفضيلة القرن العشرين في أمر هؤلاء المتشككين أنه فتح أمامهم هذا السبيل وفسح لهم مجال النظر في الغيبيات وحقائق الوجود من وراء الحواس والعقول : كان العلم يخجلهم من هذه الغيبيات كما يخجلهم من الأوهام التي انقضى زمانها بانقضاء الخرافات بل بانقضاء الفلسفة التي تخوض في ظنون لا تقع تحت الحس ولا تقبلها العقول ،

فأصبح العلم أقرب الى هذه الغيبيات من المخرفين والمتفلسفين ، وحقت عليه الكلمة من مقدماته التي لا يملك الرجوع عنها اذا ملك الفيلسوف أو صاحب الظن أن يرجع عما يشاء من الفروض والأظانين .

وفضيلة القرن العشرين بعبارة أخرى أن العقل البشري اذا اشتاق فيه الى الايمان استطاع أن يطلبه ولم يخجل من طلبه ، وأنه يطلبه مع العالم والفيلسوف والمتصوف والمؤمن بدينه ، ولا يطلبه متخاذلا متنابذا يداري سره من علانيته ويستر جانبا من تفكيره لكيلا يطلع عليه جانب آخر يعارضه أو يزدريه .

ان ثلثمائة سنة في عصر السرعة تصنع المعجزات في عالم المجهول علما وصناعة وايمانا واعتقادا وعلاقات بين الأمم في الدنيا الواسعة وبين آحاد الناس في الأمة الواحدة ، وقد يضل البصر عما سيكون بعد تلك السنين ، ولكننا نتقدم على أمان اذا قصرنا النظر على ما بقي في القرن العشرين من سنيه الأربعين ، لأننا نبصر مواقع الخطى في هذا الأمد القريب ، ونلمس طبيعة العقيدة التي تتهيأ لمن يبحث عنها وهو لا يهاب النظرة المجردة الى الغيب ولا يخضع لسلطة ترهبه بالزواجر والقيود ، وكلما أمعنت به الوحدة العالمية في مناهجها الفكرية والخلقية خلص من قيد ثقيل من قيود العصبية التي تفكك روابط الانسانية وتجعل الدين سدا من سدود الفرقة والبغضاء ، بدلا من الايمان بوجود واحد فوق الأرض وتحت السماء .

***

نحن نتقدم على أمان في استطلاعنا للغيب القريب اذا تذكرنا كيف انتهى الزمن بقضية الايمان والانكار من القرن السابع عشر الى القرن العشرين : انه نقلها من خصومة على المراسم والشعائر ودعاوى المتدينين المحترفين ، الى بحث صادق عن حقيقة الحياة وحقيقة الغيب والشهادة بغير خصومة ولا لجاجة بين قوم أصلاء في الدعوى وقوم أصلاء في الانكار ، وليس للباحث الذي يتقدم على هدى هذه الحقيقة من قبلة غير جوهر العقيدة الخالصة مبرأة من حواشي المراسم والشعائر والتقاليد ، عالمية غير ذات عصبية ، وبصيرة غير منقادة لبقية موروثة ولا سلطة ظاهرة أو خفية .

قبلة الايمان في المستقبل تتلاقى مع وجهة النوع الانساني الذي يتقدم الى

الوحدة العالمية ووجهة الانسان الفرد الذي يتقدم الى الحرية والكرامة . ولا حرج على متدين أن يبقى على دينه الموروث ويستصفي منه جوهره المبرأ من غواشي الخرافة ونفايات التقليد ، فان الأديان تتوحد بالجوهر وتتفرق بتلك الغواشي والنفايات ، ولا مبالاة بالقشور التي تعلق بلباب الدين حيث يقوى ضمير الفرد الحر على التخلص منها وحيث تتمكن عوامل الوحدة الانسانية من التغلب عليها فتبقيها متسامحة أو تنفيها متجافية ، ولا تسمح لها على الحالين أن تعوقها عن قبلتها .

***

وحسب القرن العشرين حصة من الحرية الفكرية أنه أطلق الفكر من عقاله الذي حاكه لنفسه بيديه ، فانه وصل بالعلم الى ما وراء المادة المحسوسة فلم يجد هنالك خرافة من خرافات العجائز ولا أسطورة من أساطير الأولين ، بل وجد الأصل الأصيل لكل موجود مشهود أو غير مشهود ، فاستباح لنفسه أن يبحث ويتطلع ويطرق الأبواب التي تطرق للافضاء الى ما وراء المادة والفضاء ، ومنها أبواب الفلسفة وأبواب العقيدة ، وكانت حريته هذه من قيود نفسه أنفع له من كل حرية استفادها من ثورته على رجال الدولة أو رجال الدين ، اذ كانت حريته المستفادة من ثورته على غيره لا تحميه أن يتعثر في سعيه الى الحقيقة وهو يضع العراقيل بيديه أمام خطواته ، ويحسب أنه يصون كرامته بالاحجام عما وراء المادة ووراء التجربة المادية ، فيما استأثر به قبل ذلك دعاة العقيدة وأصحاب الفلسفة المثالية .

ونحسب أن الثمرة الأولى من ثمرات هذه الحرية « الذاتية » قد ظهرت ولم تزل تمعن في الظهور في أواخر القرن الماضي الى منتصف القرن الحاضر ، وبدا من طوالعها أن تتمشى العقول في طريق واحد على تعدد الميادين التي تسلكها ، فليس بينها اليوم ذلك التقاطع المقرر منذ البداءة بين قبلة العالم وقبلة المتصوف وقبلة الفيلسوف ، كل منهم يولي شطرا غير شطر صاحبه ، الى غير لقاء .

وقد ندرك هذا الاتفاق في الغاية من أيسر نظرة الى مذاهب الفلسفة التي نشأت بين أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر ، فان المذاهب الجديدة ـ من واقعية أو مثالية ـ تمضي على نهج واحد أو على خط واحد في الاعتراف بالمادة والفكرة ، وكل ما تختلف فيه أن تذكر موضع الابتداء وموضع الانتهاء ،

ومثلهم في ذلك مثل من يسمي خط السفر فيقول انه خط يمتد من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادي أو يقول انه يمتد من المحيط الهادي الى المحيط الأطلسي ، وكلاهما يتكلم عن خط واحد لا عن خطين اثنين .

فالبرجمية مذهب ينادي امامه الأكبر ـ وليام جيمس ـ بارادة الاعتقاد أو بواجب الاعتقاد ، وهو ـ على هذا ـ أجهر الفلاسفة صوتا بتقرير الواقع دون أن يناقض نفسه في الحالتين ، اذ هو ينادي بتقرير الواقع ولا يعتبره نقيضا للفكرة ولا للآراء المثالية ، وانما هو ترجمان الحقيقة الذي يفسرها ويشرحها ويتولى اثباتها وضبط معاييرها ، وفرق بعيد بين من يقول بالواقع المحسوس وينفي ما عداه ومن يقول ان الواقع لا غنى عنه للدلالة على ما عداه .

وننظر الى المذهب المثالي والمذهب الواقعي كما يتمثلان في آراء الفيلسوف برادلي Bradley والفيلسوف صمويل الكسندر Alexander . . . فان مذهب برادلي المثالي فحواه ان الوجود الالهي حقيقة لا بد منها تترقى الموجودات المادية اليها ولما تدركها ، ويقابله مذهب ألكسندر الواقعي بما فحواه أن الوجود الالهي حقيقة لا بد منها أيضا ولكنها تنتج من ارتقاء المادة شأوا بعد شأو من تفاعلي الزمان والمكان .

فهما اذن رأيان لا ينكران الواقع ولا ينكران الحقيقة الالهية ولا يختلفان فيما هو الأعلى منهما وما هو الأدنى ، ولكنهما يختلفان بعد ذلك في نقطة الابتداء .

وجدير بالتنويه هنا ان المذاهب الواقعية والمثالية جميعا في القرن العشرين تعنى أشد العناية بحركة الزمان في الفضاء . . . فان هذا الزمان الذي كان في عرف الأكثرين فرضا رياضيا يقتضيه ترتيب الحوادث قد أصبح الآن جوهرا أصيلا للموجودات بعد أن تبين العلماء أن الموجودات المادية كافة تؤول الى حركة في الأثير ، وهو مرادف عندهم للفضاء ، وهذا الذي عنيناه حين قلنا في التعليق على مذهب ألكسندر : « لا شك ان مذهب اينشتين عن الزمان والمكان كان له أثر كبير في وقوع هذا الخاطر في روع الفيلسوف ، ولكن الأثر الأكبر ولا شك يرجع الى مباحث العلوم الطبيعية في الحرارة والكهرباء ولا سيما المباحث التي قررت أن ذرات المادة تتحول الى اشعاع ، فاذا كان الاشعاع هو أصل المادة

وكان الاشعاع مجرد حركة فلا جرم يخطر للفيلسوف ان حدوث الحركة في الفضاء هو أصل المادة في صورتها الأولى [1] » .

ومن عجائب الاتفاق في هذه المناحي الفلسفية أن يكون الكسندر الواقعي تلميذا في مذهبه عن الزمان لهنري برجسون أكبر المثاليين من أعلام الفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمذهبه في الزمان شبيه بمذهب برجسون الذي يقول بأن الزمان أصيل في خلق المادة وأن « التغير » الذي هو قوام الزمان ينشىء الكائنات وينميها ولا يفنى ماضيه بانقضائه بل يتسع مع الحاضر كما يتسع النهر في مجراه ويشق طريقه الى المستقبل محتفظا بما كان وبما هو كائن الى أن يتجمع كله فيما يكون . ومثل هذه الصورة للزمان لم تكن لتخطر على بال الفلاسفة المحدثين لو لم تمتلىء أذهانهم بفكرة الحركة في الأثر كما تتراءى في سريان شعاع الضوء خلال الفضاء . فان الفيلسوف لا يعدو حدوده حين يقول بأصالة الحركة الزمانية قبل تجسم المادة ، اذا كان العالم - الموكل بالتجارب الحسية - يقول بأن المادة « مستمدة » من شعاع يسري في فضاء ، وانها حركة مجردة لا يعرف العلم ما هو المتحرك فيها وما هو مصدر الحراك على صورة الضوء أو على صورة الحرارة أو على صورة الكهرباء .

هذا في نطاق البحوث الفلسفية .

أما في نطاق البحوث العلمية فقد أصبح البحث فيما وراء المحسوسات خطوة طبيعية بعد تجريد المادة في الأثير من صبغتها المحسوسة ، فنشأ في أوائل القرن علم حديث يسمى بالسيكولوجية المقارنة Parapsychology يدور البحث فيه على انتقال المشاهدات بغير وساطة الحواس ، ولا يزال هذا العلم معدودا من الخطوات الجريئة بحكم التقاليد التي يطول أمدها بعد أوانها في عادات الكثيرين ، ولكن العلماء الذين باشروا التجربة في هذا العلم الحديث يرون أن الظواهر التي راقبوها لا تقبل التفسير بفرض من الفروض المصطلح عليها وأن المضي في التجربة أجدى وأقرب الى الأمانة العلمية من العدول عنها ، وذلك حسب الحديث من بواكير النجاح .

---

١ - كتاب « الله » للمؤلف .

يقول الأستاذ راين Rhine من جامعة ديوك Duke بالولايات المتحدة : « . . ان بعض الرواد السابقين في هذه المباحث كانوا من علماء الطبيعة النابهين ، كالسير اوليفر لودج والسير ويليام كروكس والسير ويليام باريت ، ثم حدث بين حين وحين أن كان يسهم في تلك المباحث بعض العلماء الممتازين وان ظل بعض المتخصصين من علماء الدراسات النفسية بمعزل عنها ، وقد كان بين أولئك الرواد الأساتذة ويليام جيمس وجورج هيمانز وويليام مكدوجال ، وكان من ثمرة مباحثهم أن يقام أساس صالح لاستمرار النظر في النجوى على البعد Telepathy ، وصحيح أن المباحث التي أجريت في معامل هارفارد وجرونتجن وستانفورد خلال السنين الخمس والعشرين الأولى من القرن العشرين لم تعمر طويلا لقلة المشجعات من جانب المتخصصين . الا أن النتائج التي أسفرت عنها مباحث الرواد كانت مشجعة على المضي فيها وان لم تقبل على علاتها ، لأنها ساعدت على اقامة معمل خاص لها بعد قليل . فقد بدئت مباحث علم النفس المقارب في جامعة ديوك سنة ١٩٣٠ برعاية الأستاذ مكدوجال ، وأدى استمرار البحث فيها الى تأسيس مركز لها سمي بعد ذلك بمعمل جامعة ديوك للدراسات النفسية المقاربة ، وظهرت في سنة ١٩٣٤ رسالة مقصورة على هذا الموضوع تلخص نتائج التجارب التي أجريت خلال السنوات الثلاث بعنوان (مدركات ما وراء الحس ، وتلاها اصدار مجلة علم النفس المقارب سنة ١٩٣٧ يشارك في تحريرها الأستاذ مكدوجال . .) .

***

واستطرد الأستاذ راين الى اجمال التحقيقات التي تمت منذ انشاء المجلة الى ما قبل منتصف القرن العشرين ، وأشار الى الشروط التي اتبعت لتوحيد أسلوب البحث وضمان الاتفاق في التجربة وامتحان النتائج الموثوق بها أيها ينسب الى النجوى على البعد Telepatny وأيها ينسب الى الكشف Clairvoyance وأيها ينسب الى المصادفة ، فاذا بقيت بعدها نتائج أخرى أمكن أن يقال انها مما يثبت وجود الوساطة غير المحسوسة بين الانسان وما يدركه من الأشياء . ويؤخذ من الاحصاءات أن جانب المصادفة قليل وأن التجارب التي تحتاج الى تفسير غير معهود يزداد ويبتعد في خصائصه عن كل من النجوى على البعد وعن الكشف كما يبتعد عن الاشتباه بالتنويم المغناطيسي ، وهذه تجربة من تجارب شتى تدل

على سائرها .

قال الأستاذ : « ودلت التجارب على وجود عامل غير مجرد المصادفة ، واقتنع المجربون أنفسهم بأن النتائج لا يمكن تأويلها بسبب من الأسباب المعهودة » .

الى أن قال : « . . . ووضعت البطاقات في منزل آخر على بعد مائة ياردة ، وحاول هيوبرت بيرس الذي كان يومئذ طالبا لعلم اللاهوت أن يميز البطاقات . . فأسفرت التجربة عن ستين - يمكن أن ينسب الى المصادفة - من ثلثمائة ، أي عشرين في المائة . وعن ١١٩ مرة أصاب فيها بيرس ، أي ما يقرب من أربعين في المائة . وهي نسبة لا يمكن أن تعزى الى المصادفة ، اذ كانت مثل هذه المصادفات لا تتفق أكثر من مرة في كل ترليون ، واحتمال التواطؤ بين الرجلين يدحضه اجراء التجارب بعد ذلك على مشهد مني . . »[١] .

فاذا استمرت التحقيقات على هذه الوتيرة بقية السنين الأربعين من هذا فالمنتظر أن تتم وسائل التأكد من المصادفة وغير المصادفة في هذه التجارب ، وان يتقرر الامتحان العلمي الذي تعرض عليه مباحث هذا العلم الجديد ، وقد تثبت الوسائل المختارة وجود العوامل غير المحسوسة أو لا تثبتها ولا تنفيها . اذ كان من الواجب أن نفرق بين وسائل الكشف وبين الحقيقة المطلوب كشفها. فان المنظورات والمسموعات كانت ملء الفضاء والهواء قبل أن تمسكها المصورة الشمسية وأجهزة الاذاعة . وليس في وسع العلم أن ينفي « المجردات » مع وجود الأثير مجردا من جميع صفات المادة ، واقترابه بذلك من حدود المجردات الفكرية والنفسية .

***

ويرى أن الأستاذ راين حرص في كلمته على التنبيه الى قيام الرواد في مباحث الظواهر النفسية من بين الأقطاب المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، لأن المشهور عن الباحثين في علوم الطبيعة أنهم أشد الباحثين انكارا لما وراء الطبيعة وما يشتمل عليه من المسائل الغيبية ، خلافا للباحثين في مسائل علم النفس فانهم أقرب

---

١ - المجمل الجديد للمعرفة العصرية

The New Outline of Modern Knowledge

العلماء الى المسائل الروحية وأحراهم أن ينظروا الى شؤ ون الغيب بشيء من الترخص والسماحة الفكرية .

على أن المشاهد في السنوات الأخيرة أن كفة التردد في شؤ ون الغيب تتحول من جانب الايمان الى جانب الانكار بين أقطاب العلوم الطبيعية ، فليس بالنادر بينهم من يستند الى علمه في ترجيح الايمان على الانكار ، بل لعل هؤ لاء العلماء اليوم ينقسمون الى فريقين لا تناقض بينهما في مسألة العقيدة الغيبية ، اذ ينعقد الاجماع بينهم على أن العلم التجريبي وصاف غير كشاف ، يجمع الوقائع ويرتبها ولا يتعدى الاحصاء والتقرير الى كشف المجهول والتعرض له بالنفي والاثبات ، فهم بين مؤمن يرى في علمه ما يعزز ايمانه ويشجعه عليه ، وبين واقف موقف الحيدة يترك الدعوى العلمية جانبا كلما عرض لشؤ ون الغيب والعقيدة .

ومن علماء الطبيعة الذين يحق للقارىء أن يعتبرهم مثلا لأصحاب الايمان المعزز بالعلم الأستاذ كريسي موريسون Cressy Morrison لأنه كان رئيسا لمجمع العلوم بنيويورك وعضوا دائما من أعضاء مجمع العلوم البريطانية ، وزميلا في متحف التاريخ الطبيعي وركنا من أركان مجلس البحوث العلمية ، وكتابه الذي سماه « الانسان ليس وحيدا » [1] فحواه في بضع كلمات ان حقائق الوجود لا تقبل التفسير بغير تقرير وجود الخالق الحكيم .

ويبدأ العلامة كريسي كتابه النفيس ببيان الضعف البالغ في تعليل الحياة على الأرض بمحض المصادفة فيقول في مفتتح الفصل الأول :

« خذ عشرة بنسات كلا منها على حدة وضع عليها أرقاما مسلسلة من واحد الى عشرة ، ثم ضعها في جيبك وهزها هزا شديدا ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من واحد الى عشرة . ان فرصة سحب البنس رقم واحد هي بنسبة واحد الى عشرة ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين هي بنسبة واحد الى مائة ، وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام ١ و٢ و٣ متتالية هي بنسبة واحد الى ألف ، وفرصة سحب ١ و٢ و٣ و٤ متوالية هي بنسبة واحد

---

١ ـ Man does not stand alone وقد ترجمه الى العربية الاستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان « العلم يدعو الى الايمان » .

الى عشرة آلاف وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من واحد الى عشرة هي بنسبة واحد الى عشرة بلايين . والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولا بد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة ، بحيث يصبح من المحال - حسابيا - أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة على أي أرض في أي وقت . لذلك لا بد أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد ، واذا كان هذا صحيحا فلا بد أن يكون هناك هدف . . . وبعض علماء الفلك يقولون لنا ان مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفي لاحداث مد خفاق هدام هي في نطاق الملايين ، وان مصادفة التصادم نادرة لدرجة وراء الحسبان ، ومع ذلك تقول احدى نظريات الفلك انه في وقت ما - ولنقل منذ بليوني سنة مضت - قد مر نجم بالفعل قريبا من شمسنا لدرجة كانت كافية لأن تحدث أمدادا مروعة ، ولأن تقذف في الفضاء تلك الكواكب السيارة التي تبدو لنا هائلة ولكنها ضئيلة الأهمية من الوجهة الفلكية ، ومن بين تلك الكتل التي اقتلعت تلك الحزمة من الكون التي نسميها بالكرة الأرضية . . . انها جسم لا أهمية له في نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم جسم نعرفه حتى الآن . ويجب أن نفرض أن الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التي توجد في الشمس لا في أي كوكب آخر . هذه العناصر مقسمة على الكرة الأرضية بنسب مئوية معينة قد أمكن التحقق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلق بالسطح . وقد حولت جملة الكرة الأرضية الى أقسام دائمة وحدد حجمها وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية ، ودورانها على محورها قد حدد بالضبط لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكية ، ويصحب الكرة الأرضية كوكب نسميه بالقمر ، وحركاته محددة ، وسياق تغيراته يتكرر كل ثماني عشرة سنة . ولو أن حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو أو أصغر ، أو لو أن سرعتها كانت مختلفة عما هي عليه لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هي ، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائل في الحياة من كل نوع بما فيها حياة الانسان ، وكان هذا الأثر يبلغ من القوة بحيث ان الكرة الأرضية لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك الى أي درجة ملحوظة لما أمكن وجود الحياة فوقها ، ومن بين كل الكواكب السيارة نجد أن الكرة الأرضية فيما نعلم الآن هي الكوكب الوحيد الذي كانت صلته بالشمس سببا في جعل نوع حياتنا

ممكنا . . . أما عطارد فانه بناء على القوانين الفلكية لا يدير الا وجهة واحدة منه نحو الشمس ولا يدور حول محوره الا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس . وبناء على ذلك لا بد أن جانبا من عطارد هو أتون صحراوي والجانب الآخر متجمد ، وكثافته وجاذبيته هما من القلة بحيث ان كل آثار للهواء فيه لا بد أن تكون قد تسللت ، واذا كان قد بقي فيه أي هواء فلا بد أن يكون في شكل رياح هوجاء تجتاح هذا الكوكب من جانب الى آخر . اما كوكب الزهرة فهولغز من الألغاز به بخار سميك يحل محل الهواء ، وقد ثبت أنه لا يمكن أن يعيش فيه أي كائن حي . وأما المريخ فهو الاستثناء الوحيد ، وقد تقوم فيه حياة كحياتنا سواء في بدايتها أو تكون على شفا الانتهاء ، ولكن الحياة في المريخ لا بد أن تعتمد على غازات أخرى غير الأكسجين ، وعلى الخصوص الهيدروجين . اذ يبدو أن هذين قد أفلتا منه ولا يمكن أن توجد مياه في المريخ ، ومعدل درجة الحرارة فيه أقل كثيرا من أن تسمح بنمو النبات كما نعرفه . . . وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هما الآن عشر مرات ، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار أو في الليل قد يتجمد كل نبات في الأرض . ان الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة مسطحها اثني عشر ألف درجة (فارنهيت) وكرتنا الأرضية بعيدة عنها الى حد يكفي لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافي لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها ، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة لمات كل نبت ومات معه الانسان حرقا أو تجمدا . والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلا في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلا ستة أميال أو أربعين ميلا في الثانية لكان بعدنا عن الشمس أو قربنا منها بحيث يمتنع معه نوع حياتنا . . . الخ » [1] .

ثم عرض العلامة كريسي لمشاهدات أخرى مستمدة من سائر العلوم الطبيعية

---

١ ـ من الترجمة العربية التي سميت باسم (العلم يدعو الى الايمان) للاستاذ محمود صالح الفلكي عن الكتاب الانجليزي المسمى : Man does not stand alone

يتعسر تفسيرها بمحض المصادفة غير المقصودة وتوحي الى الذهن صدق الايمان بالخلق والتدبير ، وأولها في علم الحياة تلك الجرثومة الحية التي تنبعث بقوة لا وزن لها ولا كثافة ولا امتداد فتغالب الطبيعة وتشق الصخر وتفرض على العناصر أن تنحل لتعيد تركيبها وتحول الماء والحمض الكربوني الى ماء وخشب وتجعل الخلية الحية « البروتبلاسمية » وهي أشبه بنطفة من ضباب قادرة على بث الحياة في كل جسم يتقبلها ، وهي بذلك ذات قدرة أكبر من قدرة النبات والحيوان لم تخلقها الطبيعة لأن قدرتها هذه لا تنبت من غيرها ، ولم يكن في وسع الصخر الذي صهرته النار ولا الماء الذي لا ملح فيه أن يهيىء لها أسبابها فما الذي هيأ لها هذه الأسباب ؟

ويضرب الأستاذ أمثلة من علم الحيوان لا تفسرها المصادفة ولا تكفي كلمة الغريزة لتفسيرها لأنها ليست أكثر من كلمة ترمز الى الصورة الواقعة ، ومن ذلك غريزة سمك السلمون الذي يعيش في البحر زمنا ثم يرجع الى مكانه من النهر الذي خرج منه وينفلت من كل جدول من الماء ينقل اليه غير الجدول الذي ولد فيه ، ومثله ثعبان الماء الذي يخرج من الأنهار عند نضجه ويتجه الى البحر المحيط عند جزائر معلومة يضع ذريته في شواطئها ثم يموت فتعود هذه الذرية الى مواضع الماء العذب التي نزح منها آباؤ ها ، ولم يحدث قط أن ثعبانا منها يصاد في أوروبة اذا كان موطنه الأول في الأمواه الأمريكية أو يصاد في أمريكا اذا كان موطنه الأول في أمواه القارة الأوروبية .

ويذكر الأستاذ من تلك المشاهدات عوامل الوراثة في الناسلات والصبغيات ، فان هذه الناسلات والصبغيات التي يتولد منها نوع الانسان كله توضع في جوزة صغيرة ومنها تنبت جميع الخصائص الموزعة في الذكور والاناث من جميع بني الانسان ، فكيف تكمن عوامل الوراثة كلها في ذلك الحيز الصغير لتحفظ لكل فرد من الناس أخفى ما استدق من صفاته ووظائف حياته وتركيب أعضائه وخلاياه على ما فيها من ودائع لا يدركها الاحصاء ؟

وقد عرض المؤلف لغير ذلك من الأمثلة العلمية التي يفسرها المنكرون بكلمة لا معنى لها كالغريزة أو المصادفة ويفضل عليها المؤمنون تفسير القصد والحكمة في تدبير أحوال الوجود ، ويطلبون ممن يرفض هذا التفسير دليلا على رفضه أقوى من الدليل على قبوله ، فلا يسمع منهم دليل .

ولا يخفى أن آراء العلماء والفلاسفة انما هي سند للايمان الديني يعززه ولا يخلقه ما لم يكن له قرار في بديهة الانسان . فهذه البديهة تسعى سعيها وتتلمس طريقها في هذا العصر كما تلمسته فيما غبر من عصور التاريخ ، وستعمل ما تستطيعه وتتزود من العلم والفلسفة بما يصلح لها من زاد تسيغه ، ولم تعقم بديهة التدين ولا يبدو أن العالم اليوم أقل ايمانا مما كان في زمن من الأزمنة الخالية ، ولا أن النفوس تطمئن في زماننا الى شكوك التعطيل التي كانت تقلقها وتحيرها قبل عصر العلم الحديث ، وانما موضع النظر أن المرتابين من الأقدمين كانوا يهجرون دينا ليدخلوا في دين يتلوه ، وكانوا يرتابون وينتظرون النبوءات لجلاء شكوكهم واستلهام عقائدهم . فماذا ينتظر المرتابون في عصر العلم الحديث ؟ هل ينتظرون نبوءة جديدة تأتيهم بدين جديد ؟

قد يكون في المرتابين من أبناء العصر من تخامره هذه الفكرة ، فهو في مرد أمره سواء ومن يبحث عن عقيدته على هدى بصيرته وعقله . لأن المهم في مشكلته أن يشعر بالحاجة الى العقيدة وأن يعلم أنها معرفة شريفة لا يمنعها العلم الصحيح ولا يعارضها التفكير السليم . ومن صدقت طويته على هذه النية فهو قريب من معتقده الذي يهتدي اليه ببديهته وتفكيره ، وليس أقرب من الملتقى بين العقائد الالهية اذا خلصت الى جوهرها وصفيت من أخلاط الوثنية وقشور التقاليد .

ولا ننسى عمل « الشخصية الانسانية » في الهداية الروحية . فان العقيدة تظل معنى من المعاني يحوم عليه الذهن كما يحوم على حقائق الرياضة والحكمة ما لم تتمثل في « شخصية » محبوبة موقرة تنقلها الى الحياة بما تبعثه من الثقة وتوحيه من القداسة التي تقرب السماء من الأرض وتعقد الصلة بين الحياة الأبدية التي لا حدود لها وبين هذا العالم المحدود .

كذلك كانت رسالة الأنبياء ، وكذلك تكون الرسالة من الهداة المصلحين الذين يترسمون آثار الأنبياء في دعواتهم الى الخير والكمال . وسيأتي اليوم القريب الذي يكون فيه العلم معوانا ميسرا لذوي الرسالات من الدعاة المصلحين : انه يغنيهم عن خوارق العادات التي تطلبها الأولون ردحا طويلا من الدهر ليستيقنوا من عالم الغيب ويلمسوا دلائل القدرة التي لم يلمسوها في عالم الشهادة . فمن هذا العلم يتعلم الانسان الحديث ان العادات كلها

خوارق ، وان المحسوسات جميعا مغروسة في الغيب المحجوب الذي لا تدركه الأبصار ولا العقول ، وقد تكشف لنا الفترة الباقية من هذا القرن أن المستقبل أصلح للدين من الماضي السحيق الذي ظن أوجست كونت أنه أوان الدين وظن أن الدين ثمرة من ثمرات جهله وضعفه وأنها قد انتهت بانتهائه ، فنحن نرى من الآن أن التدين لا ينتهي عند ابتداء التعقل والدراية ، بل أوضح من ذلك أمامنا أن المعرفة تبلغ بالعقل الانساني غاية مداه فتطرق له أبواب الايمان .

٦ ـ العوالم الأخرى

كان العلماء في أول هذا القرن يشكون في امكان الطيران بجسم أثقل من الهواء ، ومضت سنوات على منتصف القرن والطيارة ـ من كل وزن ـ تسبق الصوت ولا تكتفي بما وصلت اليه .

وبعد أن كان السؤال ، هل نرتفع في جو الأرض بجسم أثقل من هوائها ، أصبح السؤال على ألسنة العلماء والمستطلعين ، هل نصل بالطائرة الى أجواء السماء ؟ وهل نصعد بها الى جو القمر وأجواء السيارات الشمسية من ورائه ؟. وهل تقلنا الطائرة يوما ما الى ما وراء شمسنا وسياراتنا في أجواز الفضاء ؟

ان العلماء والمخترعين يخافون كلمة المستحيل بعد ما ثبت من امكان الأمور الكثيرة التي جزموا باستحالتها ثم تحققت بعد ذلك بقليل من السنوات ، ويلوح من جملة الآراء والظنون أن المتنبئين يفضلون التعجل في الجزم بالامكان على التعجل في الجزم بالاستحالة ، وتكاد كلمة « لا مستحيل » أن تعود الى أفواه قادة العلم والاختراع بعد أن لهج بها قادة الحرب والحكم على مذهب نابليون الكبير ، فان خيف اليوم شيء في هذه النبوءات فانما الخوف من التورط في الأمل ، حذرا من كلمة « المستحيل » التي أخلفت الظنون غير مرة في بضع سنوات .

والأمل الغالب في هذه المرحلة من مراحل فن الطيران ان الصعود الى الكواكب ممكن ولكنه لا يزال محفوفا بكثير من الصعوبات ، وان الصعوبات في

هذه المرة من جانب الطائرين لا من جانب الآلات الطائرة ، فليس من العسير اتقان الآلة التي تصعد الى الأجواء العلوية بين كواكب السماء ، ولكن العسير أن نضمن حياة الانسان في جو غير جو الأرض وعلى جرم غير جرمها وبيئة من الأحوال الطبيعية غير بيئتها ، وأن نزود البنية الانسانية بالقوة التي تحتمل أعراض التغير الطارىء عليها ، اذا تيسر للمخترعين أن يجهزوا الطائرة بما يعوضها عن ضرورات الحياة في الأرض الى حين .

والمشكلة الحاضرة في أمر الطيران هي مشكلة طب الفضاء أو مشكلة « الطاقة الانسانية » في البيئات المجهولة من الآفاق العلوية ، ومنها ما يتعذر الاحتياط له ولا يدري أحد كيف يكون الاحتياط له ، وهو مجهول .

فمشكلة الطائرة التي تحمل ركابها الى الآفاق العليا لا تعد الآن من الصعوبات الأساسية أمام المخترعين ، سواء سارت بالدفعات المتعددة كما تسير الصواريخ ، أو سارت بالمحركات المستمرة كما تسير الطيارات المعهودة ، أو سارت بالقوتين مجتمعتين واستخدمت في جميع الحالات أنواع الوقود ومنه الوقود المستمد من الطاقة الذرية . لأن النظريات العلمية التي تطبق في هذه الحالات جميعا معروفة مقررة ، ووسائل تنفيذها قابلة للتحسين ، مع استمرار التجربة والمراجعة العلمية . أما الصعوبات الصحية فليست بالهينة ولا بالمفهومة على جلائها ، ومما يحصونه منها في الوقت الحاضر صعوبة الجو والجاذبية والأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة ، وقذائف الفضاء من الشهب والنيازك والمذنبات .

فالجو الأرضي ينتهي بعد مئات من الأميال فوق سطح الكرة الأرضية ، فاذا خف هذا الضغط فمن الواجب أن يحتاط راكب الطيارة لتغيير الحالة اذا استطاع ، والا تسربت السوائل التي في جسمه وتمددت الغازات التي في جسمه وانفجرت الأوعية والشرايين . وليس في السيارات الشمسية سيارة واحدة تشبه الأرض في أحوالها الجوية . فمنها ما ليس له جو على الاطلاق ، ومنها ما له جو كثيف خانق لا يسهل التنفس فيه ، ومنها ما يتجه الى الشمس على الدوام بصفحة واحدة ، مع اختلاف كبير في درجات الحرارة واختلاف أكبر منه في درجات الرطوبة حيث يوجد الماء ، وهو معدوم في أكثر السيارات ، ولا يسمع الكلام ـ بالبداهة ـ حيث ينقطع جو الهواء .

وصعوبة الجاذبية مرتبطة بحجم الكوكب الذي يهبط عليه الانسان فاذا كان حجم الكوكب كبيرا اشتدت الجاذبية وازداد ثقل الجسم وتعذر تحريك الأعضاء وامتنعت كل حركة سهلة على الكرة الأرضية . واذا صغر حجم الكوكب اختل التوازن في جسم المركب على حسب الجاذبية الأرضية ويزداد الاختلال عنفا حيث ينقطع جو الهواء .

وقد يبدو أن صعوبة الأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة أهون من صعوبة الجو والجاذبية ، ولكن بعض العلماء يخشى أن تكون هذه أصعب الصعوبات في رحلة الفضاء وراء الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية ، لأن هذا الغلاف عازل منيع يحمي الأحياء من تأثيرات تلك الأشعة وتأثيرات الشحنة الكهربائية أو امغناطيسية التي تكمن في بعضها . فاذا جاوزت الطائرة غلاف الأرض فان جدرانها المعدنية لا تمنع ركابها أن يصابوا بأضرارها ، لأنها تنفذ في الرصاص طبقة بعد طبقة ، فلا يؤمن أثرها في الأنسجة الحية اذا نفذت اليها . مع كثرتها وتتابع أمواجها أو ذراتها في كل خطوة .

وربما احتيل على الأشعة بحيلة من حيل الوقاية المانعة اذا نجح العلماء في تحديد خصائصها واهتدوا الى سبل الوقاية الصحية منها ، ولكن الخطر الذي لا يسهل اتقاؤه هو الخطر الذي لا يعرف موضعه ولا تعرف قوته ولا تعرف الساعة التي يطرأ فيها ، ونعني به خطر الشهب والنيازك والمذنبات . فانها تتفرق في أنحاء الفضاء وتندفع على غير انتظار وتصدم الطائرة تارة بجسم صغير وتارة بجسم كبير ، وقوتها تختلف على حسب الحالتين وعلى حسب المادة التي تتكون منها ، وقد تكون أصلب من جدار الطائرة وأسرع من الطائرة وأشد اندفاعا وخطرا في حالة الاصطدام .

تلك بعض المصاعب التي يواجهها الباحثون في طب الفضاء ، ولا يقال الآن انه أفلح في تحقيقها وحصر أضرارها . فأما التغلب عليها وتدبير علاجها فلا يدعيه أحد من ثقات هذا العلم ، وهم في الوقت الحاضر جد قليلين .

نعم ان طب الفضاء قد استفاد معلومات كثيرة من تجارب الصواريخ التي تحمل الحيوانات الى مسافة بعيدة من الجو . الا أننا نذكر « أولا » ان الصواريخ لا تتجاوز نطاق الجاذبية الأرضية ، ونذكر « ثانيا » أن جو الصاروخ شبيه من جميع الوجوه بالجو الذي نعيش فيه على سطح الأرض ، ونذكر « ثالثا » ان

الصاروخ يصعد ويهبط في وقت قصير جدا بالقياس الى الرحلة بين الكواكب ، ونذكر أخيرا أن الحيوانات لا تتأثر بالعوامل النفسية والفكرية كما يتأثر بها الانسان .

ومما يبحث عنه علماء طب الفضاء حالة الجراثيم أو المكروبات في الآفاق العليا من جو الكرة الأرضية ، فهل تعيش الجراثيم اذا وصلت الى تلك الآفاق ؟ وهل تفعل فعلها المعهود في الأجسام الحية والأجسام الميتة ؟ لهذا قيل ان علماء طب الفراغ كانوا يترقبون فرصة نادرة بالكشف على جثة الكلبة التي قيل انها صعدت الى الجو على بعض الأقمار الصناعية ، لأنهم ترقبوا أن يعرفوا منها كيف يكون سريان الفساد في جسم الحيوان بعد مفارقة الحياة على مسافة من سطح الكرة الأرضية ، وأن يعرفوا كيف يدب الفساد من داخل الجسم ومن خارجه بعد توقف عمل الحياة فيه ، وربما ظهر لهم أن وجود الانسان فترة من الوقت في الآفاق العليا كاف للشفاء من بعض الأمراض ، وان هناك مناعة من المكروبات او عاملا من عوامل المقاومة لها في طبقة من طبقات الجو الأرضي يصل اليها الانسان أو يستطيع أن يصنع حوله جوا يحاكيها وهو مقيم في داره أو في مستشفاه .

وعلى الجملة يقال الآن ان طب الفضاء ماض في دور المراقبة والجمع والتسجيل ، وان المعلومات المتفرقة التي جمعها تنتظر المراجعة والمقابلة قبل أن ينتظم منها محصول كاف لاقامة القواعد التي تبنى عليها نتائج النظر والتفكير ، ثم يأتي بعد ذلك ما يمكن أن يعمل وما يلزم أن يعمل ، وليس كله من عمل الأطباء ، بل منه ما يتم على أيدي المخترعين والصناع بتوجيه المختصين من علماء الطبيعة والأطباء وقد يحتاج الأمر الى كسوة مزودة بأجهزة للتنفس وأجهزة لموازنة فعل الجاذبية وفعل الضغط على اختلاف الأبعاد والطبقات ، ولا بد مع هذا من تكوين جو الطيارة على النحو الذي يناسب جميع ركابها معا ، ويناسب كل راكب منهم على انفراد . لأن كل واحد منهم يستقل بحركات لا يشاركه فيها زملاؤه في الطيارة ولا يشاركونه فيها ـ من باب أولى ـ متى وصلوا الى مكان يهبطون عليه .

فمسألة السفر بين الكواكب ليست اذن بالسهولة التي نتخيلها في الوقت الحاضر ، وسواء جاءت الصعوبة من تركيب بنية الانسان أو من تركيب الفضاء

والأفلاك فالمتفق عليه انها صعوبة كثيرة العقبات وأن عقباتها لم تذلل ولا يرى أنها قريبة التذليل ولو تقدم اختراع المكنات وأدوات الانتقال أضعاف ما انتهى اليه حتى الآن.

وقبل أن تستقر هذه المحاولات على نتيجة مقنعة فيما يمكن تذليله من هذه العقبات - يتساءل المطلعون والمتطلعون : ماذا يرجى من وراء تذليلها ؟ وماذا يجد السائح السماوي في الكواكب العليا اذا وصل اليها ؟ أثمة حياة ؟ أثمة أحياء عاقلة على نجم من تلك النجوم ؟ أثمة عالم آخر ؟ أثمة مخلوقات سماوية ؟

والظاهر من هذه الأسئلة أنها لا تسلم من ايحاء اللفظ ولعب الخيال واسترسال الذهن مع تداعي الخواطر والمشابهات.

فالذين يسألون عن «العالم الآخر» تثب اذهانهم من هذه الكلمة الى «العالم الآخر» الذي يترقبه المؤمنون في حياة بعد هذه الحياة ، ويخيل اليهم أنه في آخر الكون لأنه بعيد من الارض في آفاق تشبه «الآخرة» في أعلى السماوات. فما يدريهم ان آخر الكون لا يكون في هذه الارض أو لا يكون على مقربة منها ؟ ومن أين يكون الابتداء والى أين يصير الانتهاء في هذا الفضاء، وكله فضاء... ؟

والذين يتكلمون عن الكواكب كأنها السماء يستخدمون العبارات التي استخدمها الاقدمون يوم كانوا يحسبون أن الأرض في قرار الكون وكل ما طلع من نجم شارق فهو فوقها في مكان يعلو عليها...

ولكننا اذا استخلصنا الألفاظ من هذه الايحاءات فالحياة التي نسائل عنها في الكواكب الأخرى قد تكون دون الحياة في الارض كما تكون أعلى وأكمل منها في تركيبها، وقد تكون الأرض سماء عليا بالنسبة اليها ومكانا قصيا على مدى شاسع منها لما يفصل بين الأرض وبينها، وقد تكون الارض اصلح منها للحياة ، منفردة بشروطها التي تلائمها.

وليس بالقليل بين المفكرين وعلماء الطبيعة من يرى هذا الرأي الاخير ويعتقد ان شروط الحياة لم تتوافر في سيارة من سيارات المنظومة الشمسية كما توافرت في سيارتنا التي نعيش عليها ، فاذا تجاوزوا المنظومة الشمسية الى ما وراءها فغاية ما يعلمونه عنها ان وجود المنظومات التي تشابهها في آفاق الكون الواسعة

مستحيل ، ولكنه كذلك غير لازم لزوم اليقين .

ومن المفكرين الذين يرجحون انفراد الأرض بشروط الحياة العلامة كريسي موريسون الذي أجملنا رأيه عن حكمة الحياة في الكلام على الايمان ، ويوافقه على هذا الرأي نخبة من المفكرين وعلماء الطبيعة متدينين وغير متدينين . ونكتفي بسرد أمثلة من الخصائص التي تلائم ظهور الحياة ولم يثبت توافرها على كوكب آخر . فهي كما لخصناها في كتاب عقائد المفكرين عن روبرت كلارك : « وجود الماء الغزير وانحلال الملح الصالح فيه دون الأملاح السامة ووجود النبات الذي يمثل الطعام للأحياء على اليابسة ووجود الكربون وأكسيده الثاني على حالة لا يمحوها الجو المحيط بالكوكب ، وقيام هذا الجو على حالة من الكثافة والانجذاب الى الكوكب بحيث لا يكظم ما تحته ولا يرسله شعاعا في الفضاء ، وليس يتحقق ذلك اذا كان الكوكب عظما كالمشترى وزحل . فان الكربون في هذه الحالة يوجد على شكل غاز الميثان Methane فلا يصلح مصدرا للكربون الذي يلائم المادة الحية ، وليس يتحقق كذلك اذا كان الكوكب صغيرا كعطارد والقمر ، فان ثاني أكسيد الكربون لا يوجد في هذه الحالة . وقد ينعدم الجو على الاطلاق »(١) .

وينبغي أن تبدأ الملاءمة للحياة من الأدوار الأولى حيث تتكون الخلية التي تدخل في بنية الأحياء العليا ، أو كما جاء في كتاب سيرة الأرض لمؤلفه جورج جامو Jamow اذ يقول : « من النقط الهامة التي ينبغي أن تدخل في الحساب عند كل بحث في طبيعة الحياة والنبات أن الخلية الأولى تتألف مما يسمى بالمحلول الغروي Colloidal Solution أي من مواد عضوية في الماء . وهذه المحلولات الغروية ـ عضوية أو غير عضوية ـ مستحلب دقيق جدا من ذريرات مشحونة بالكهرباء تتماسك على بعد بفعل تلك الشحنة وتبقى في الماء طويلا . لأن الماء الصرف موصل رديء . فاذا أخذنا محلولا غرويا من الذهب ـ مثلا ـ وأضفنا اليه بعض الملح حتى تزيد قابلية الماء للتوصيل فقدت الذريرات شحنتها وأشرعت الى التلاصق والانضمام . . . . ويمكننا أن نحدث هذا التلاصق أيضا بضم محلولين كل منهما له شحنة مضادة لشحنة الآخر . أما المحلول الغروي من المواد العضوية فمن خاصته أن خلايا الكربون المركب على ألفة كيماوية مع

---

١ - The Universe, Plan or Accident by Robert Clark.

الماء ، وان نتيجة قيامه في الماء على الأبعاد المطلوبة تحول دون فقدان الشحنة الكهربية »[1]

والاستدراك المعقول الذي يرد على الذهن كلما قيل ان الكرة الأرضية انفردت بالحياة ان هذه الكرة بين النجوم والكواكب أقل من ذرة رمل في صحاراها الشاسعة ، فكيف تنفرد وحدها بالشروط التي هيأتها لظهور الحياة فيها ؟ ألا يجوز أن تتكرر هذه الشروط في نجم من ملايين النجوم التي نراها بالعين بآلات الرصد أو لا نراها على الاطلاق ؟ ألا يجوز أن توجد الحياة بغير شروطها الأرضية ؟ ألا يجوز أن تكون للحياة صور لا تتصورها في كوكبنا الصغير ولا تتوقف على الأحوال التي نتخيلها لكل حياة ؟

بلى . ذلك جائز . ولا يمتنع في العقل أن تتقبل الحياة تركيبا آخر غير تركيبها الذي عهدناه في كوكبنا الصغير ، وقد قيل كثيرا ان عنصر السليكون يمكن أن يحل محل الكربون في الكائنات الحية ، وأن عملية الفلورة **Fluorination** قد تعمل على الأكسدة في توليد الطاقة[2] وهو رأي لم يجمع عليه المختصون ولا يزال منهم من يستبعد تكون الحيوان الكبير من هذا التركيب . ولكن هذا الفرض يفتح لنا بابا واسعا من ابواب التأمل في شروط نشأة الحياة . فليس المهم أن تتوافر الشروط المادية التي تتقبل تركيب الأجسام الحية ، لأن عنصر السليكون موجود على الأرض كما يوجد عنصر الكربون ، ولم يحدث قط أن عنصر السليكون تولدت منه الطاقة الحية بعملية الفلورة ولو في الحيوانات الصغيرة أو الخلايا البدائية . واذا كان تشابه العناصر من حيث قبول الحياة لا يؤدي الى تكرار ظهورها في الكوكب الواحد فليس من الضروري عقلا أن يؤدي تشابه الشروط المادية في الكواكب الكثيرة الى تكرار ظهور الحياة على صورة أخرى .

ومع هذا يبقى الباب مفتوحا للظن ولما هو أكبر من الظن العارض اذا عززته مسوغات العلم ، وقال به أناس من المتخصصين للتحليل الكيمي وتركيب الضوء ورصد الأجواء بالخبرة المستفادة من ذلك التحليل والتركيب ، ومن أصحاب التخصص في هذه الدراسات أناس يحتملون وجود الأحياء في أجسام

---

١ ـ Biography of the Earth. By George Jamow

٢ ـ الدنياوات جاراتنا بقلم فيرسوف .Our Neighbour Worlds by Firsoff

من العناصر المادية ولا يستبعدون وجودها في غير هذه الأجسام ، وآخر ما انتهى الينا من هذه الآراء خبر علمي لم نطلع على تفاصيله يقول كاتبه « ان الآراء التي كانت من قبل وقفا على ملحقات الصحف أيام الآحاد قد أبداها في الأسبوع الماضي الدكتور ملفين كلفن Melvin Calvin العالم الكيمي المشهور من جامعة كليفورنيا المختص بأرصاد تركيب الضوء ، ويؤ يد الدكتور كلفن قوله بالمنطق الهادىء تدعمه ثروة وافرة من المعلومات تجمعت من تجارب المعامل الكيمية ومنها معمله ، ويقدر أستاذ جامعة هارفارد الدكتور هارلو شابلي Harlow Shapley أن في الكون المعروف نحو مائة مليون سيار شبيه بالكرة الأرضية في أحواله لا يقل عمرها عن خمسة بلايين سنة وعليها جو من الأكسجين يتخلله الكربون وتصل بينه وبين أحد النجوم التي تصدر منها الطاقة مسافة شبيهة . ويبتدىء كلفن من حيث انتهى شابلي فيقول ان هناك ـ فيما عدا السيارات الكربونية ـ نظما أخرى قائمة على العناصر الأخرى كالسليكون والنيتروجين وقد تقوم على غير هذه العناصر المادية Anti-matter . . . فاذا اعتبرنا سيارات الكربون فظهور الانسان على الأرض لم يستغرق غير وقت قصير بالقياس الى أعمار تلك السيارات التي تقدر بخمسة بلايين من السنين ، لأنه يبلغ زهاء مليون سنة ، ومن الواضح اذن أننا يحق لنا أن نقدر ظهور الخلايا الحية وما قبل الخلايا الحية في تلك السيارات ، كما يحق لنا أن نقدر ظهور الحياة عليها فيما بعد الطور الانساني ، فاذا ذكرنا أن كيانات شتى تعمل على ملايين من السيارات رأينا أن الحياة ظاهرة كونية نافذة وأن حياة الانسان احدى عواملها النافذة »[1] .

نعم . هذا رأي سائغ مشروع ، يحق لنا أن نراه ، ولكن يحق لنا معه أن نشعر بأننا نبتعد ونقترب من مواطن الحياة الكونية في وقت واحد ، لأننا نستغرب أن توجد الحياة في سيارات هذا الفضاء وتنقطع الصلة بين أبنائها ، فلا يحاول بعضهم أن يدل على مكانه ولا يفلح في الكشف عن مكان غيره . فهل تراهم يجهلون مواطن اخوانهم وشركائهم في هذا الوجود الذي ينفردون فيه بالوعي والشعور على ما بينهم من تباعد الآفاق ؟ أو هم يعلمون ولا يملكون وسائل التفاهم والاتصال ؟

---

١ ـ أخبار العلم في العدد الصادر يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ من مجلة نيوزويك Newsweek

يحق لنا كلما نظرنا الى تلك الآفاق نظرة الأستاذ كلفن ومن يرون رأيه أن نقدر وجود الأحياء في طائفة من سياراتها قبل وجودهم على سيارتنا الأرضية ، ولم لا ؟ لم يمتنع وجود الحياة في زمان قبل زمانها المحدود على هذه الكرة ؟ لم توجد الحياة حيثما وجدت في زمان واحد ولا يكون بعضها قد وجد قبل عمرها الأرضي بمئات الأعمار المحسوبة بملايين السنين ؟ ولم لا تكون لها قدرة على الاتصال بنا أكبر من قدرتنا نحن على الاتصال بها اذا كانت قد سبقتنا الى الوعي والمعرفة وأدركت من العلم ما لم ندركه في زماننا ؟ واذا كانت ندا لنا في عمرها فما بال هذه الحياة لا تنشأ حيث نشأت الا في آونة واحدة مع اختلاف المنشأ في السيارات والكواكب والنجوم وهي وراء حدود الاحصاء ؟

كلما أنعمنا النظر في أمر هذه الحياة الكونية رأينا أنها تبتعد وتقترب وأنها تنجلي من هنا لتغمض من هناك . فمن الشطط في الأمل أن نتخيل أن البقية الباقية من القرن العشرين حسبنا من أمد لاعداد معدات السفر الى مواطنينا الكونيين قبل أن نعرفهم ويعرفونا وقبل أن نتقارب فيما بيننا بلغةَ التفاهم والمراسلة ، ان كانت هناك لغة كونية لجميع الأحياء . وأدنى من ذلك الى الأمل المشروع أن نختم القرن العشرين وقد وصلنا الى الخبر اليقين عن مواطن الحياة في هذا العالم وعن شروط الحياة أو الحيوات المتعددة بين أرجائه الفساح . . . بل نكاد نستبعد هذا الأمل ونطمح مع ذلك الى أمل كبير لأنه يزيدنا علما بحياتنا على وجه الأرض ودراية بالمادة وما تحتويه من أجسام الأحياء .

فمن الآمال التي نكاد نلمسها أن تترقى أدوات الرصد حسا ومعنى في بقية القرن العشرين فنهتدي بها الى أسرار الضياء والاشعاع وعلاقة الذرات المبثوثة في الفضاء بظواهر الكهرباء والمغناطيسية وحقيقة الجاذبية الأرضية وغير الأرضية ، ومن الجائز جدا أن ننفذ على هدى تلك الأرصاد الى ذلك الينبوع الجامع لظواهر الطاقة والقوة ، وان نحول بعضها الى بعض بوسائل الصناعة في غير كلفة مجهدة تربى على فوائدها وثمراتها . وان اليوم الذي نستطيع فيه أن نحول الجاذبية الى مغناطيسية وكهرباء ليضع أيدينا على ينبوع من القوة لا ينفد ولا تعرف له نهاية ، وقد تغنينا هذه القوة عن استخراج الطاقة من الفحم أو الحجارة أو النفط أو تيارات الماء أو كوامن الذرات ، فان قوة الجذب بين الأرض والسماء شائعة في كل مكان ، ولعلها هي مصدر الطاقة التي تتولد في

الأرض وما عليها من العناصر المعروفة ومما هو صالح لتوليدها من القوى الكامنة التي نجهلها الآن .

ولعل العلم بسر « الجاذبية » بين الأكوان يهيء لنا الصلة التي تربطنا بعوالم الحياة المجهولة في سياراتها . . . فنرتبط بها على وعي وشعور كما نرتبط بها الآن بمادة الأجسام .

٧ ـ عالمنا

ومن الخير ألا تتعجل هذه الكرة الأرضية لقاء العوالم الأخرى قبل أن تتلاقى هي عالماً واحداً ، يقطنه نوع واحد : نوع انساني واحد في شرعة الرأي والخلق ، لا في شرعة علماء الأجناس عند تقسيم فصائل الحيوان . .

وهي اليوم عالم متضامن في حكم الواقع ما في ذلك مراء . ولكن كم بين العالم المتضامن في الخير والشر وبين العالم المتعاون في الخير والشر من مسافة واختلاف ؟

هنا مجال واسع لكثير من التشاؤم ، ومجال أوسع منه لكثير من المتشائمين . ففي الدنيا مشكلات لا تحل ومخاوف لا تغلب وعداوات لا تهدأ وغوامض من شؤون العيش وشؤون الرأي لا تنكشف اليوم على جلاء ، وعلى كل لسان يتحدث بهذه الشؤون سؤال لا يسمع له جواب شاف : هل تقع الحرب المحذورة المرتقبة ؟ وهل تبقى من بعدها بقية من نوع الانسان أو بقية من الحضارة الانسانية ؟

ويلوح للناظرين الى الغد أن السنين الأربعين التي بقيت من القرن العشرين أقصر من أن ترفع الستار عن غوامض هذه الشؤون . وانها في الحق لكذلك ، فربما انتهت والعالم الانساني يزداد تضامناً وينتقل الى التعاون الوثيق في علاقاته وقضاياه ، وربما انتهت وهو مشتبك في نضال يقطع العرى بين أوصال هذا التضامن الواقع فلا يعود الى مجراه الا بعد حين ، ان قدر له أن يعود .

لا ندري على التحقيق أي هاتين العاقبتين كائن في أوائل القرن الحادي والعشرين ، فهل ترانا لا ندري أي العوامل التي تعمل لكلتا العاقبتين أرجح وأقوى في أيامنا هذه ، وأيها يرجى أن يزداد رجحانا وقوة على مدى الأيام ؟ .

اذا كان هذا هو مدار السؤال فمن الافراط في الشك والحذر أن نحجم عن الموازنة بين عوامل الأمل وعوامل القنوط ، لأن هذه العوامل قابلة للموازنة والمقارنة ، وظاهرة في طبيعتها التي تمضي مع التيار المأمول أو تدبر بذلك التيار وتصده الى الوراء . ومن هذه الموازنة بين العوامل المقبلة والعوامل المدبرة لا يستطيع المتشائم أن يوقن بأنه على صواب ، وقد يستطيع المتفائل أن يطمئن الى مآل الصراع بين دواعي التضامن ودواعي التصدع والانحلال .

فمن المشكلات التي تروعنا اليوم مشكلات لم تكن لتظهر ولا لتنذر بالخطر الداهم لو لم يكن بين الأمم رباط من التضامن في المصالح والعلاقات ، يضطرها الى المبالاة بالقريب والبعيد من مشكلات الأقوياء والضعفاء .

مشكلة في افريقية الجنوبية ، أو مشكلة في الشرق الأوسط ، أو مشكلة في زاوية من زوايا القارة الأسيوية ، وكلها تحدث اليوم فتبعث القلق والتربص والاستعداد في محافل الأمم بعد أيام .

وقديماً كانت المشكلة في موقع من هذه المواقع تحدث وتنقضي ولا يعلم بها أحد ولا ينبعث منها القلق اذا علم بها بعيد أو قريب .

فاذا أقمنا الموازنة بين عوامل التفاؤل وعوامل التشاؤم في هذه المشكلات حق لنا أن نتفاءل بها ولا نتشاءم منها ، لأنها من علامات التضامن الواقع الذي يوحد بين الاخطار ويضطر الأمم الى توحيد العزائم لدفع تلك الأخطار واتقاء وقوعها قبل التفاقم والاستفحال .

ان كفة الخير في هذه المشكلات أرجح من كفة الشر ، وانها لتحسب من البشائر بتذليل المصاعب ولا تحسب من العقبات التي لا تنقاد للتذليل .

على أن العالم الانساني فيه كثير من المشكلات المنذرة بالخطر غير تلك المشكلات .

فيه مشكلات النزاع بين الأوطان ، وفيه مشكلات النزاع بين المشرق

والمغرب ، وفيه مشكلات النزاع بين الميسورين والمحرومين ، وكلها من المشكلات التي تتشعب بين الأمم وتتغلغل بين طوائف الأمة الواحدة ، وتأبى للعالم في عصرنا هذا أن يتعاون ويتوحد ، وقد تأبى عليه أحياناً أن يرغب في التعاون والاتحاد .

فأين هي عوامل الأمل وعوامل القنوط في مشتبك هذه الأخطار ؟

لا ندري ما مصيرها ؟ فهل ترانا لا ندري عند الموازنة بينها وبين عوامل التضامن العالمي أيها أقوى وأيها يمضي في اتجاه الزمن ، وأيها يحسب من بقايا الأمس التي تسرع أو تبطىء الى الزوال .

ان التضامن العالمي أقوى منها جميعاً وأحدث منها في أسبابه على الأقل ، وأدنى ـ من ثم ـ أن يكون له الغد المرجو ولا يلحق ببقايا الأمس التي أخذت في الزوال .

ان مشكلة النزاع بين الأوطان لمن أخطر المشكلات على تضامن العالم فيما مضى وفي العهد الذي نحن فيه .

ولكنه خطر يتغير ويسرع في التغير ، ويأتي التغير فيه من جانب الأقوياء الطامعين ومن جانب الضعفاء المطموع فيهم ، ومن جانب المحايدين الذين تقف بهم علاقات السياسة أحياناً في وسط الطريق لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

فالدولة القوية التي كانت قبل ماثة عام تطمع في وطن ضعيف لم يكن يمنعها مانع أن تنقض عليه وأن تقهره وتضطره الى الخضوع لحكمها ما دامت تريد البقاء فيه ، ولم يكن من العسير عليها اذا تنافس الأقوياء من نظائرها أن تتفاهم على التقاسم وتبادل السكوت والاغضاء .

أما اليوم فالدولة القوية التي تطمع هذا الطمع تجد الموانع من داخلها ومما حولها ومن نظرائها ومن الضعيف ومن يشبهه في حالته من غير الأقوياء .

يمنعها في داخلها فريق من أبنائها يزهد في العدوان على الوطن الضعيف لأنه لا يستفيد منه ، ان لم يزهد فيه ايماناً بالحق والانصاف .

ويمنعها مما حولها ومن نظرائها انهم يخسرون باحتكارها الحكم في غير وطنها ولا يتعوضون من هذه الخسارة شيئاً تمنحهم اياه وتملك ان تمنعه عنهم بمشيئتها ،

وكلما عظمت الدولة وعظمت ثروتها تشعبت مصالحها واشتدت رغبتها في فتح الأبواب لها ولغيرها ، لأنها تستطيع ـ ولو نافست ذلك الغير ـ أن تحقق مصالحها في البلد المفتوح بما لها من الوفر والقدرة على الصبر والاحتمال وعلى تبادل المنافع بينها وبين مختلف الأمم والجهات ، وربما كان من الأمم التي تحتاج اليها ذلك القوي الطامع في احتكار السيطرة عل هذا الوطن أو ذا

***

وتأتي قضايا الأوطان في الصف الأول بين قضايا الخطر على السلام العالمي والوحدة الانسانية ، ومنها قضايا الاستقلال في الأمم التي تحكمها أمم أجنبية ، وقضايا النزاع بين الأوطان المتنافسة على النفوذ والمرافق المشتركة ، وقضايا النزاع بين الدول القوية التي تختلف فيا بينها على سياسة المحكومين وعلى العلاقات الدولية في جملتها ، وكلها من ينابيع الخطر التي لا تؤمن غائلتها على علاقات التضامن بين الأمم ومن ثم على الأمل في اقتراب عهد الوحدة الانسانية .

غير أن هذه القضايا أيضاً من أسباب التمهيد التي لا محيد عنها لتحقيق الوحدة الانسانية أو تحقيق التعاون بين أقوياء الأمم وضعفائها وبين المتقدم منها والمتخلف في الحضارة وأحوال المعيشة . فقيام الأوطان المعترف بها خطوة لازمة قبل خطوة الوحدة العالمية ، اذ كانت الوحدة لا تتأتى بين أوطان مغصوبة وأوطان غاصبة وبين أمم مجردة من الحقوق وأمم تعتدي على تلك الحقوق ولا تعترف بها ولا بالاعتداء عليها . فمن الطبيعي اذا قامت للعالم أسرة واحدة أن تتألف هذه الأسرة من أعضاء تربط بينهم رعاية القرابة والمشاركة في الحرية والكرامة . وليست قضايا الأوطان الا المقدمة التي لا بد منها لتلك النتيجة التي تفضي اليها ، وهي اليوم ينبوع من ينابيع النزاع والخطر ولكنها في الغد ضمان من ضمانات السلام والتعاون والمشاركة في الأعباء العالمية ، مثلها في ذلك مثل الحقوق الشخصية التي أصبحت في كل مجتمع من مجتمعات الحضارة ضماناً للنظام والشريعة في ذلك المجتمع ، بعد أن كان النزاع بين الأشخاص حائلا دون قيام الوحدة في الجماعة على أساس القومية .

ان قضايا الأوطان هي أيضاً من طلائع الوحدة العالمية التي تنطوي على البشارة حين تنطوي على النذير ، وهي اليوم محل اعتراف في الرأي وان لم تبلغ

بعد مبلغ الاعتراف في الواقع ، اذ كان تقرير المصير مبدأ مسلماً في معاملات الدول ومحافلها المجتمعة ، فلا ينكره أحد من المعارضين له في سياسته العملية ، بل نرى من الحاكيمن الأجانب من يحتال عليه بتوحيد الوطن الحاكم والوطن المحكوم واعتبار الرعايا شركاء للرعاة في الحقوق الوطنية ووظائف الدولة ، وهي ظاهرة من ظواهر العصر لا تبخس قيمتها العملية فضلا عن قيمتها النظرية ، لأن المضي في الدعوى المنكرة باجماع الأمم أمر لا تطول المغالطة فيه .

وأخطر من قضايا الأوطان على الوحدة العالمية قضايا العناصر والسلالات ، لأن الخلاف عليها لم ينحسم بعد في الرأي ولا في الواقع ، ولا تزال ذريعة للدعوى باسم من الأسماء تتفاوت في الصراحة والاستقامة وفي الرياء والالتواء .

على أننا اذا نظرنا الى تاريخ دعوى العناصر والأجناس من ناحيتها النظرية لم نخطىء أن نلمس فيها جنوحاً مطرداً الى التقارب وابتعاداً مطرداً عن التشبث بالفواصل المزعومة بين عناصر البشر في الزمن القديم .

كان علم الأجناس البشرية يتجه في القرن التاسع عشر الى توسيع المسافة بين أجناس البشر واثبات الفوارق البعيدة بين كل جنس منها وسائر الأجناس الأخرى ، وكان يخلط كثيراً بين فكرة الأمة وفكرة العنصر . وهما شيئان مختلفان ، لأن الأمة على الأرجح رابطة اجتماعية تاريخية في حين أن العنصر رابطة من روابط الدم والسلالة العصبية ، وقد تتفرق مواقعها فلا تجمعها بقعة واحدة ، وكان للعوامل الدولية والسياسية حكمها في كل من الاتجاهين ، فكان الاستعمار وحب التسلط هما الباعث الأكبر على توسيع الفوارق بين الأجناس ، وعلى تفضيل جنس منها على سائرها ، تسويغاً للسيطرة والاستغلال واقامة الحكم الأجنبي في البلاد المستعمرة ، أو تسويغاً للسيادة والانتفاع بالمرافق والجهود المسخرة .

كانت الدولة الجرمانية تبحث عن مستعمرات لها في الشرق الافصى بعد أن تم تقسيم المستعمرات في افريقية وآسية . فنادى الساسة فيها بالخطر الأصفر ، وأرادوا به الخطر المتوقع من جانب اليابان والصين اذا انطلق « التنين الأصفر » - كما سموه - في طريق الحرية والتقدم . وترددت صيحة الخطر الأصفر في كل

دولة تبعاً لموقفها من البلاد الشرقية ، سواء وقفت منها موقف الطامع في ضم البلاد أو موقف الطامع في الامتيازات التجارية والاقتصادية .

وشاعت بعد صيحة الخطر الأصفر دعوة التفرقة بين الأريين والساميين واشتدت هذه الدعوة حين أصبحت كلمة الساميين في أوربة مرادفة لكلمة اليهود ، وأصبح اليهود هم المقصودين بعداوة السلالة السامية ، واقترنت الدعوة الآرية بتقسيم الأوربيين الى شماليين وجنوبيين لادعاء أصحاب هذه الدعوة أن أبناء الشمال في القارة الأوربية آريون خالصون ، لم يختلطوا بالأجناس اخرى التي يزعمون أنها دون أبناء الشمال في الذكاء والأخلاق ، وتجدد الخلاف في أثناء ذلك على حقوق الزنوج ـ أو حقوق السود ـ بين أبناء البلاد التي يختلطون فيها بالأجناس البيضاء . فاعتمدوا ـ عدا هذه الحقوق ـ على الفوارق العنصرية وبالغوا في توسيع هذه الفوارق وراء فوارق اللون والشكل ، كأنها من الفوارق العميقة في التكوين لا تمحوها المساواة في الحقوق السياسية ولا يجدي فيها توحيد التربية والتعليم .

كانت هذه العوامل الدولية أهم العوامل التي دعت الى توسيع الفوارق بين لأجناس البشرية في القرن التاسع عشر ولم تزل شائعة قوية الى منتصف القرن العشرين . .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير اتجاه الدعوة لأسباب كثيرة ، منها يقظة الشعوب الشرقية ورغبة الدول الكبرى في كسب مودتها ، ومنها تنافس الدول الكبرى وسعي كل منها في ابطال حجج الدول المنافسة لها ، ومنها اجتهاد اليهود فى تبرئة أنفسهم من النقائص والعيوب التي تخصهم بين الشعوب السامية ، ومنها تقدم العلم واتساع نطاق البحث بين الأجناس المجهولة وكثرة الأدلة على بطلان بعض الفوارق واقتراب وجوه الشبه بين الناس من مختلف الألوان والأوطان .

فالباحثون اليوم في علم الأجناس لا ينفون وجود الفوارق بين جنس وجنس منها ولا يقولون ان النوع الانساني كله جنس واحد لا تمييز فيه بين الصفات الجسدية والعقلية ، ولكنهم يقللون من المبالغة في أصالة هذه الفوارق ويقولون انها تتغير أحياناً بتغير المعيشة والبيئة وان الصفات المميزة لكل جنس منها قد

تنتقل الى الجنس الآخر بالتربية والقدوة وتعود المعيشة والمعاملة في مثل أحواله وظروفه ، وقد انتقل منها الكثير حتى الآن ، اما لطول الاختلاط بين الأمم ، واما لكثرة التبدل والتطور في ظروف المعيشة ، واما لوقوع الاختلاف الطبيعي بين أفراد الأمة الواحدة والجنس الواحد كما يحدث في الأسرة الواحدة فضلا عن البلد والأقليم .

وما من صفة من صفات البنية والتركيب ثبت بعد البحث والمقارنة أنها خاصة مقصورة على جنس واحد لا يتصف بها جنس آخر اذا تعرض لظروفه وملابساته ، فشكل الرأس بين الاستدارة والاستطالة كان معدودا من العلامات الفاصلة بين الأجناس ، فظهر من بحوث العالم الأمريكي فرانز بواس Franz Boas أنها علامة تتغير بتغير البيئة ، وأن الأطفال المهاجرين من بلاد أخرى تختلف أشكال جماجمهم ولا تشبه جماجم آبائهم كل الشبه مع تبدل الموطن والمعيشة . وأبناء السويد - كما هو معلوم - معدودون من خلاصة الأجناس الشمالية ، أو النوردية - ولكن العالمين ريتزيوس Retzius وفورست Furst سجلا نتيجة الكشف على خمسة وأربعين ألف شاب من المطلوبين للتجنيد فتبين لهما أن الصفات المخصصة للجنس الشمالي الخالص لا تجتمع لأكثر من خمسة آلاف منهم ، وان الذين تجتمع لهم هذه الصفات في اقليم من أقاليم الشمال على نحو أربعين في المائة . وقد أعيد اجراء هذه البحوث بعد ثلاثين سنة وسجلت صفات سبعة وأربعين ألفا من المجندين فتبين أن واحدا وثمانين في المائة منهم كانوا رق العيون زرقة خفيفة ، وان ثمانية في المائة منهم لهم عيون مشوبة اللون وأن خمسة في المائة منهم لهم عيون بنية . أما لون الشعر فقد كان في سبعة في المائة منهم كتانيا ، وفي ثلاثة وستين في المائة بنيا خفيفا ، وفي خمسة وعشرين في المائة بنيا مسودا ، وفي ثلاثة في المائة أحمر أو أدنى الى احمرار . وسجلت العلامة الكبرى - او العلامة الأولى - من علامات الفوارق بين الأجناس ، وهي شكل الجمجمة ، فظهر أن أصحاب الجماجم المستطيلة لا يزيدون على ثلاثين في المائة ، وأن ستة وخمسين في المائة منهم متوسطون بين الاستطالة والاستدارة ، وان أربعة عشر في المائة عراض الرؤوس ، وظهر أن لون الشعر ولون العين يقتربان . ولكن لا صلة لهذا اللون أو ذاك بطول القامة وتركيب الدماغ .

هذا عاية ما انتهى اليه صفاء المزايا العنصرية في بلاد السويد ، وهي أقصى

البلاد شمالا وأبعدها عن الاختلاط بأمم الجنوب ، وتسفر الاحصاءات عن نتيجة كهذه النتيجة في سكان البلاد الجرمانية . ففيها أصحاب العيون الزرق والجماجم المستطيلة والقامات الطوال ، وفيها الملايين ممن يشبهون أهل الجنوب ويسمونهم بالسلالة الألبية ، نسبة الى جبال الألب . وفيها وسط بين هؤلاء وهؤلاء موزعين بين الأقاليم الشرقية والغربية وبين الشمال والجنوب[1] .

واذا تجاوزنا الصفات الجسدية الى صفات العقل والخلق فالواقع الذي لا جدال فيه ان الحضارات العالمية جميعاً لم تنشأ في قطر من أقطار الشمال ، وان أعظم هذه الحضارات قد نشأ في الجنوب على شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وبعضها قد نشأ في الشرق الأقصى بين الشعوب الصفراء أو في البلاد البابلية والفارسية والهندية ، وهي متعددة العناصر والأجناس . وقد ظهر من اختلاف العادات والتقاليد أنها لا ترجع في أساسها الى اختلاف أصيل في التكوين وأن الناس قد يخجلون من بعض الأمور ولا يتفقون على تلك الأمور في كل أمة ولا في كل زمن . ولكن شعور الخجل موجود بينهم جيمعاً وان كان بعضهم يخجل من شيء وبعضهم يحسبه من المألوفات التي لا ضير فيها . فلا يمكن أن يقال من أجل هذا ان هذه الأمة تعرف الأخلاق وتحترمها وان تلك الأمة تجهلها ولا تكترث لها . فمثل هذا يحدث في اختلاف الأطعمة على حسب المواقع الجغرافية والمحاصيل الزراعية ، فتعيش جماعة من الناس على لحوم الصيد والماشية وتعيش جماعة أخرى على لحوم الأسماك ويعيش غيرها على النبات وقد يحرم أكل الحيوان ، ويتناول غيرهم جميع هذه الأطعمة حسبما يتيسر منها لديهم ، ولا يقال من أجل ذلك ان هذه الأمة تعرف الجهاز الهضمي وتلك الأمة لا تعرفه ، ولا يقال من أجله ان تكوين المعدات والاجسام في أساسه مختلف لا يقبل التغير والتطور . وربما حدثت من تنوع مواد الغذاء قابليات جسدية محسوسة الأثر ، بل ربما حدث لجماعة من الجماعات المتعددة أن تصاب بالمرض من أكلة تسيغها جماعة أخرى وتنتفع بها ، ثم يقف الأمر عند ذلك ولا يعدوه الى التفرقة بين هذه الجماعات في أصول التركيب وفي أجهزة الجسم ووظائف الجوارح والأعضاء ، وعلى الجملة يحق لنا بعد تجارب العلم الحديث في هذه السنين أن نردد قول

---

١ ـ من كتاب نماذج بشرية Human Types لمؤلفه رايموند فيرث Firth بتصرف .

شاعرنا أنهم جميعاً أسرة واحدة « أبوهم آدم والأم حواء » مهما يكن تفسير العلم الحديث لمعنى تلك الأبوة وتلك الأمومة . وكل ما ثبت من الفروق ـ حتى الفروق الوراثية ـ يعود في وقت قريب أو بعيد الى أسباب مكتسبة تتغير مع البيئة والزمن وطول الاختلاط بين الأمم والقبائل . فليس للسيادة صفات ثابتة في جنس دون جنس . ولا في أمة دون أمة . وقد سادت في القارة الأوربية أمم من المغول والساميين ، وساد أناس من السود بين أناس من البيض ، ودارت الحضارة دواليك من شرق الى غرب ومن جنوب الى شمال . ومهما تتعدد أجناس الانسان فالنوع الانساني واحد والخصائص الانسانية عامة مشاعة غير محتكرة ولا مقصورة مدى الزمن على بقعة دون بقعة ولا على سلالة دون سلالة .

ولا ننسى موطن العبرة في هذا الاتجاه الصالح الذي يتجه اليه علم الأجناس بعد الحرب العالمية الثانية . فان العلم قد تطغى عليه السياسة حقبة تطول أو تقصر ولكنه يتخلص من طغيانها ليجري في مجراه .

***

هذه آراء علمية من ولائد القرن العشرين ، لم يكن يقابلها في القرن التاسع عشر غير دعوات انسانية تتمثل في المناداة بتحرير الأرقاء أو انصاف الشعوب المحكومة من جنس الحاكم المتسلط عليها أو من غير جنسه ، ولم تكن منها دعوة تستند الى البحث في خصائص الجنس أو تكوين السلالة أو شواهد العلم التي تقارب بين أبناء النوع الانساني في الخصائص والتكوين ، وقصاراها من الانصاف ـ انصاف العاطفة والمروءة ـ انها كانت تنادي بأن العبيد أكرم من الحيوان فلا يجوز أن يباعوا ويشتروا في الأسواق كما تباع الماشية العجماء ، ولا يمنع هذا أن يكون المنادي بتفضيل الانسان الأسود على الحيوان منادياً عن يقين وثقة برسالة الرجل الأبيض وأمانته المنوطة بجنسه دون سائر الأجناس البشرية ، وهي أمانة السيادة على جميع تلك الأجناس .

أما البحث العلمي الذي يسفر عن التسوية في الأصول والفروع بين أبناء النوع الانساني فهو ـ كما تقدم ـ من ولائد القرن العشرين لم يسبق اليه فيما مضى من القرون ، وهو احدى علامات الزمن ولو قيل انه بلغ ما بلغه في القرن

العشرين لحداثة البحث في علم الانسان وعلم الأجناس . فان الاهتمام بهذا البحث هو نفسه علامة كبرى من علامات الزمن جاءت في أوانها على قدر مع سائر البحوث التي تجنح بالأمم طوعاً أو كرهاً الى التضامن والوحدة الانسانية .

وكل علامة من علامات الزمن لها شأنها ولها دلالتها ، ولكننا لا نغلو بها فنجعلها في قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع ، فقد يؤ من الناس بالاخوة في الأسرة ـ فضلا عن الاخوة في النوع بأسره ـ ولا يؤ منون بالمساواة أو بالانصاف . ولكن دلالة الزمن اذا اقترنت بنتائج الواقع كانت هي قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع . ومن نتائج الواقع في القرن العشرين أن يخفق دعاة العدوان باسم العصبية العنصرية وأن يتعذر تسخير العصبيات للعصبيات بالقوة أو بالحيلة ، ولا نعرف في التاريخ قرناً تعذر فيه حكم الجنس للجنس المغاير له كما يتعذر هذا الحكم في القرن العشرين . وقد جربت دعوة الجنس الآري للغلبة على غير الآريين ، وجربت دعوة الجنس الأصفر لسيادة أمة من الأمم على القارة الأسيوية على مبدأ « آسيا للآسيويين » فلم يجد أصحاب هذه التجارب من ثمراتها ما يغريهم بالمعاودة والتكرار ، ولم يظهر لنا من قبل ـ ولا يظهر لنا الآن ـ ان اصطدام سلالة بسلالة خطر يجتاح العالم ويشطر بني الانسان معسكرين أو عدة معسكرات .

كلا . بل يظهر لنا اليوم أن الخطر الذي ينذر باجتياح العالم ويوشك أن يشطره الى معسكرين متناحرين انما هو خطر واسع يطوي الأجناس والطوائف في برنامج شامل يعده كل من الطرفين المتقابلين لتطبيقه على جميع الشعوب من جميع الأجناس والألوان .

كل على طريقته يبشر بالوحدة العالمية ، وقد ينقسم أبناء الوطن الواحد والجنس الواحد فريقين متقابلين ، يريد أحدهما أن يوحد العالم الانساني على هذه الطريقة ويريد مخالفوه ومناقضوه أن يحققوا هذه الوحدة على الطريقة الأخرى .

هنا أيضاً يتراءى لنا أن تيار الوحدة العالمية هو الغالب على كل تيار يعترضه وينثني به عن مجراه . فلا تناقض في الوجهة وانما التناقض في الدفة التي تسير بالسفينة اليها .

ولا يرى حتى الان أن المعسكرين (وهما ـ كما هو ظاهر ـ معسكر الديمقراطية ومعسكر الشيوعية) يتباعدان في التطبيق ويولي كلاهما الى الطرف الأقصى من دعواه ، بل يرى على خلاف ذلك أن المستقبل كفيل بالتقريب بين الديمقراطية والشيوعية في مسألة المسائل بين المذهبين وهي مسألة الطبقات ، لأن معسكر الديمقراطية يقل التفاوت فيه بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء وتتوزع الثروات الكبيرة فيه بين أصحاب الحصص والسهوم فلا يتمكن فيها أحد من حصر الثراء في يديه أو من الاستئثار بنفوذ المال ونفوذ الحكم والجاه ، ويقابل هذا في المعسكر الشيوعي أن الطبقات تتعدد ولا تتوحد وأن العمال يتفاوتون كما تتفاوت الأعمال ، وأن الاحتكار ينتقل من أيدي الأفراد والشركات الى أيدي الدولة ويوشك أن يثير عليها رعاياها ويضطرها الى النزول عن كثير من السلطان المطلق الذي يمكنها منه احتكار المال والصناعة . وليس هنالك من تضارب أساسي بين أسلوب المعيشة الذي يؤدي اليه توزع السلطة وتوزع العمل وتوزع الثروة على كلتا الطريقتين : طريقة الديمقراطية وطريقة الشيوعية على وجهتها التي تتجه اليها .

***

وغير بعيد ـ مع الممهدات الكثيرة للتوفيق بين مذاهب الشرق والغرب ـ أن يقع المحظور قبل بلوغ الأمد المنظور ، فان الخطر لا يطرأ من تباين المذاهب أو البرامج في جميع الأحوال ، بل كثيراً ما يطرأ من تنازع القائمين عليها والمتولين لتنفيذها ، خوفاً على أنظمة الحكم التي تسندهم أو عجزاً عن التفاهم بينهم وبين أعدائهم في الداخل والخارج ، أو صرفاً لأنظار الشعوب عن أسباب القلق والشكاية ، وما هي الا خطوة تزل بها القدم فيستعصي على حكمة العالم كله أن يأمنوا عواقبها قبل فوات أوانها ، وقد حدث ذلك في التاريخ القريب كما حدث في التاريخ البعيد فوقعت الحروب لغير ضرورة عامة تستلزمها ولم يكن من الحتم وقوعها لأسبابها العارضة ، فما يحسب أحد من المؤرخين لحوادث الحربين العالميتين يعتقد أن حادثة سيراجيفو أو حادثة دانزج كانتا توجبان الحرب ضربة لازمة لولا سوء التقدير من الحاكمين وولاة الأمور . ومثل هذا قد يحدث غداً فتتبعه الحرب الثالثة وتدفع بالعالم الانساني الى الهاوية التي لا نجاة له منها كما نجا من الحروب الغابرة ، قبل اختراع القذائف النووية والصواريخ الموجهة وما

اليها من أسلحة الفناء والدمار .

ذلك كله غير مستحيل . الا أننا حريون ان نذكر أن ضوابط السلم في العالم قد بلغت في عصرنا هذا ما لم تبلغه قط في عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ، واننا في عصر لا تؤمن فيه غوائل الحروب على المنهزمين والمنتصرين ولا يسهل فيه الهجوم على الحرب قبل استنفاد كل حيلة من حيل التوفيق أو حيل التأجيل والامهال .

فالقوى بين المعسكرين متكافئة متوازنة مهما يكن من الفرق بينهما ، فهو فارق لا يغري بالطمع في الغلبة على ثقة من عوارض الحرب ونكساتها المجهولة .

وقد كانت شرور الحرب فيما مضى تنتهي بنهايتها وتتلوها الغنيمة المضمونة لمن يفوز بالغلبة فيها ، وليست الغنيمة اليوم مضمونة للظافر المتغلب بل لعله يبوء من الغلبة بالخسارة والتعويض للأمم التي أصابتها الهزيمة الفادحة ، وعلى قدر فداحة الهزيمة يكون سوء الحالة بين الشعوب التي تبتلى بجرائرها ، ويكون العبء الثقيل على كواهل الظافرين المسؤولين عن تلك الجرائر ، الخائفين على أنفسهم من عقابيلها ، وأولها انهدام القواعد التي يقوم عليها بناء المجتمع عندهم سواء منها ما قام على الديمقراطية أو على الشيوعية . . .

ومن ضوابط السلم في عصرنا أن الهجوم على الحرب عسير على ولاة الأمر في الأمم الدستورية ، وغير يسير على ولاة الأمر في الأمم التي تخضع للحكم المطلق على صورة من صوره السافرة أو المقنعة . فليس في هذه الأمم أو تلك رئيس واحد يملك أن يعلن الحرب وأن يقبض على زمامها وهو آمن على بقاء ذلك الزمام في يديه الى النهاية . ولا بد من النظر الى عامل جديد في هذا العصر لم يكن له شأن خطير في حروب الأزمنة الغابرة ، ونعني به شأن المحايدين الذين يرجحون احدى الكفتين بالتزام الحيدة أو بالسماح لأحد الفريقين بمعونة التموين وتيسير المواصلات ونقل الأخبار والمعلومات ، فلم يكن للمحايدين مثل هذا الشأن في حروب الأزمنة الغابرة ، وليس من المستطاع في حرب عالمية اغفال شأنهم كباراً وصغاراً في بقعة من بقاع الكرة الأرضية ، وليس من اليسير اقناعهم ولا انتزاع معونتهم على الرغم منهم . فاذا تيسر لولاة الأمر في دولة كبيرة أن يقنعوا المعارضين لهم في بلادهم فليس اقناع المعارضين لهم في خارج

بلادهم بالأمر اليسير .

وقد نرى غداً أن وبال الأسلحة الجديدة هي صمام الأمان ومفتاح الأمل في اجتاب الحرب العالمية ، فان تعذر اجتناب الحرب فربما اتفق الرأي على اجتناب الأسلحة الجائحة من قذائف الذرة والصواريخ الموجهة وما اليها ، ويصح القياس في هذا الأمل على أسلحة معروفة تمكن المقاتلون من اجتنابها وهي أفتك وأقرب الى متناول الجميع من أسلحة الذرة والصواريخ ، وتلك هي الأسلحة المكروبية .

فالأمم التي تقدر على صناعة أسلحة المكروبات والجراثيم أكثر من الأمم التي تخترع الأسلحة الذرية والصاروخية ، ونفقات الأسلحة التي تنشر عدوى الطواعين والأوبئة أقل من نفقات شق الذرة وتوجيه الصاروخ ، والكوارث التي تلحقها بالأعداء أشد من كوارث القذائف المرهوبة من كل سلاح جديد ، وقد أصبحت صناعة الأسلحة المكروبية في طاقة عشرات من الأمم قبل اتقان الطيران وقبل التمكن من اصابة المرمى البعيد بالمدفع والبندقية ، فان تلويث الأنهار والأمواه ـ بل تلويث الأجواء ـ في البلاد المعادية لم يكن عسيراً على أمة لديها معامل التحليل والتركيب وان لم تكن لديها مصانع التسليح ، وفي وسع شرذمة من الجواسيس أن تندس في أطراف البلد المقصود فتنشر فيه الوباء وتعطل فيه كل وسيلة من وسائل القتال والاستعداد وكل وسيلة من وسائل التموين والعلاج ، ولم يحدث حتى اليوم أن أحداً في مأزق من مآزق الهزيمة التي تهون كل شيء على اليائس المستميت قد أغراه اليأس باستخدام هذا السلاح . فلا نغلو في التفاؤ ل اذا علقنا الرجاء بحكمة الشعوب الانسانية أن تتجنب خطر الذرة كما تجنبت خطر الجراثيم .

والذرة المنشقة ـ بعد ـ ليست بالكلمة الأخيرة في علم المخترعين بأسرار الاشعاع وحركات الأثير . فقد يعلمون بعد حين ما يجهلونه الآن من حركات الأمواج الأثيرية دفعاً وطرداً وسرعة وبطئاً فلا يستعصي عليهم أن يقابلوا الموجات المندفعة من شق الذرة بموجات تصدها وتلغيها ، ولا يعسر عليهم أن يهيئوا منطقة من الجو لتعديل الموجات الشعاعية وتوجيهها الى الأعلى او الى الأسفل أو الى الوجهة التي تتحول بها من الحركة الضارة الى الحركة السليمة ، وانه لحلم من أحلام العلم لو تحقق لكان في مخترعات الصناعة عصمة من بوائقها

الجائحة ولم يوكل رجاء الناس كله الى عصمة الضمائر والأخلاق .

وسيتحقق هذا الحلم في بقية هذا القرن العشرين أو يظل من أحلام العلم والانسانية زمناً يعلمه الله . ولكن مسير العالم من التضامن الى التعاون لا يتوقف عليه . فاذا اشتبكت علاقات التضامن غاية اشتباكها فالتعاون بين الشعوب العالمية كائن لا محالة ضرورة واختياراً في حقبة من المستقبل القريب لا تطول بعد نهاية القرن العشرين .

٨ ـ افريقية وآسيا

ان اربعين سنة مضت منذ الحرب العالمية الأولى قد صنعت الأعاجيب في قضايا القارتين الأفريقية والآسيوية ، فماذا تصنع السنون الأربعون التي تمضي من الآن الى نهاية القرن العشرين ؟

لقد كانت القارتان سلعة تباع وتشرى ، فأصبحتا بعد الحرب العالمية الثانية على الخصوص شريكتين في سياسة العالم ، وان لم تكونا موفورتي الأسهم في مشاركتها .

ولم يحدث هذا التحول في هوادة ومطاوعة ولا كان حدوثه مفاجأة بغير مقدماته الطوال . وانما فصل العالم في هذه القضية بعد ان فصل في قضاياه المتشعبة التي تتوقف عليها ، وهي قضية تقرير المصير ، وقضية اللون والعنصر ، وقضية الاحتكار ، وقضية العزلة السياسية . فكانت قضية القارتين هي مجموعة هذه القضايا في دور التفاهم والاتفاق .

ونظرة سريعة ـ بل نظرة مملوءة بالتدبر والروية ـ الى حالة القارتين في مطلع القرن العشرين وحالتها في منتصفه ترينا ان العالم غير واقف في هذه القضايا وان حلوله لها ليست كلها من قبيل الخداع والتمويه كما يحلو لبعض المتحذلقين ان يرددوا ويعيدوا ويبدئوا في الحكم على كل مرحلة كبيرة من مراحل الانتقال ، وليست الغفلة في الظن والاتهام باقل من الغفلة في الثقة والتصديق . بل ربما كان الاتهام الأعمى اضل واضيع للفكر وللمصلحة من الثقة العمياء .

ان نظرة مملوءة بالتدبر والروية فيما حدث في القارتين منذ الحرب العالمية الاولى ترينا ان الخضوع للحكم الأجنبي كان هو القاعدة المطردة في القارتين قبيل منتصف القرن العشرين ، وكان الشذوذ فيهما هو الحكم المستقل او الحكومة الذاتية ، ومن مسائل الحساب - لا من مسائل السياسة - ان نحصي الان عدد الأمم الخاضعة للحكم الأجنبي وعدد الأمم المستقلة بحكمها والمشتركة في حكومتها فنعلم ان الأمر قد تحول من نقيض الى نقيض ، فاصبح الخضوع للأجنبي شذوذا واصبح الاستقلال على درجاته قاعدة يعترف بها المتنازعون عليه وغير المتنازعين .

ومن الحذلقة ان يقال انه استقلال لم يحققه العمل ولم يثبته الواقع . فان الفرق فيه كالفرق بين الحدث الناشىء الذي لا يملك التصرف لقصوره وانكار حق التصرف عليه وبين الرجل الرشيد الذي يشق عليه ان يفعل ما يشاء وهو يملك ان يفعل ما يشاء عند مؤاتاة الفرص وملاءمة الظروف : كلاهما قد يشبه صاحبه امام الواقع الذي لا يقدر عليه ، ولكن الفرق بين القاصر والرشيد فرق صحيح في الواقع لا يستهان به ولا يزهد فيه .

ان الاستعمار القائم على السلاح والاحتكار صفحة مطوية لا يقوى احد في العصر الحاضر على نشرها ، وان العلاقة بين الأمم اليوم علاقة مشاركة يقع فيها الغبن كما يقع فيها الانصاف - ولكنها - كيفما كان الحال - علاقة غير علاقة السلعة التي تباع وتشرى وتحتكر او تبذل في الأسواق .

وفيما عدا شعوبا قليلة سيأتي موعدها من تقرير المصير لا محالة يستطيع من يحقق النظر ان يعلم ان حدود الاستقلال قائمة على اساس واحد في جميع القارات ، وانما حدوده القدرة التي تتفاوت كلما تفاوتت حظوظ الشعوب من الحضارة والصناعة والثروة والتربية السياسية ، فليس في العالم امة محكوم عليها بالخضوع الدائم لانها غير اهل للاستقلال ، وليس في العالم كذلك امة مستقلة تمام الاستقلال اذا كان معنى ذلك انها تفعل ما تريد وتستبد بالرأي في كل ما تبتغيه ، ولكنها تملك من الاستقلال بمقدار ما تملك من العلم والثروة والكفاية السياسية . وكذلك يستقل الآحاد الراشدون في حقوق التصرف والمعاملة فلا حجر عليه بحكم الشريعة ، وانما يصيبه الحجر او يرتفع عنه اذا اصابه النقص في قدرته او عوفي من نقص القدرة بعمله وعمل سواه .

ان الأقوياء في عصرنا هذا يحتاجون الى من هو اقوى منهم ، ومن هو اقوى منهم لا يسمح لهم ولا يقبل منهم ان يحتكروا الاسـواق والميادين ، ولا يرى ضرورة لاحتكار الاسواق والميادين لنفسه لانه قادر على المنافسة والمناظرة بغير احتكار ، وهذاهو دستور العلاقات الدولية الجديد بعد دستور الاستعمار القائم على الاحتكار بقوة السلاح . فلا مناص مع هذا الدستور الجديد من علاقة المشاركة كيفما كان اختلاف الانصباء فيها وكيفما كانت قسمة الشريك من الغبن والخسارة او من الربح والغنيمة .

طويت صفحة السلعة التي تباع وتشرى ، ونشرت بعدها صفحة المشاركة بين الأكفاء وغير الأكفاء ، وهي أشرف وأربح في جميع الاحوال من الصفحة المطوية ، وهي ـ بعد حين ـ مرهونة بمصير التضامن العالمي الى التعاون على اضطرار او التعاون على اختيار .

وسيجري التعاون في مجراه الذي توحيه ضرورات الحوادث ودراية الخبراء . وقد يهدينا تاريخ القرية الصغيرة في ماضيها المعلوم الى تاريخ العالم الواسع في مستقبله المجهول ، فان القرية قد تمثل لنا اطوار العالم في مستقبله كما يمثل الجنين أطوار نوعه في ماضيه على قول النشوئيين .

والقرية قد فرغت من تنظيم المبادلات بين اصحاب المال واصحاب الحاجة فعالجتها في سوقها الصغيرة بعلاجاتها المختلفة وهي :

« العملة ، او المقايضة ، او الرهن ، او الضمان ، او الخدمة سدادا للدين ، او حساب الضائع والمفقود والاحسان . ثم لجأت اخيرا الى علاج يجمع بين مصالح الباعة والمشترين وهو جماعات التعاون التي يعتبر المشتركون فيها من البائعين ومن المشترين . ولا يحتاج العالم الواسع الى ابتداع علاج جديد غير هذه العلاجات التي طال عليها القدم ، ولكنه يحتاج الى الاساليب التي تمكنه من تطبيقها في نطاقه الواسع ، ويحاول الان شتى المحاولات فيهتدي حينا ويضل حينا ، ولن يزال ردحا طويلا بين الهدى والضلال .

« ومهما يكن من صواب الاراء التي توحي بتلك المحاولات فالتجارب العملية حيلة ضرورية لا تغني عنها محاولة يختارها اصحاب هذه الآراء .

« فهذه التجارب العملية هي التي تهدي كل امة الى اجتناب الجهود الضائعة

في تقدير لوازمها والموازنة بين ما تحتاجه من العالم وما يحتاجه العالـم منهـا ، واستمرار الاحساس بالنقص والتعويض من هنا تارة ومن هنـاك تارة اخـرى خليق ان يوقظ الغافل ويرشد الضال ويصحح المخطيء عن جهالة منه وعـن لجاجة في الباطل .

« واذا كانت المحاولات من اهل الرأي لا تغني عن التجارب العملية فالأمر الذي لا شك فيه كذلك ان التجارب العملية لا تغني وحدها عن محاولات اهل الرأي وعن اختيار الحلول التي تتمشى مع حلول الضرورة فتعجل خطاها وتقوم اعوجاجهـا ، وقـد كان التسانـد بـين ضرورات الواقـع ومحـاولات المدبـرين والمتدبرين ديدنا طبيعيا يتكرر في كل حركة من حركات التـاريخ الكبـرى ، ويصدق على اعمال الافراد كما يصدق على اعمال الجماعات .

« فالهيئـات الـدولية ـ ولـو لم تكن لهـا سلطـة عامـة ـ تستـطيع ان تجمـع الاحصاءات الدقيقة والبيانات الوافية ، وان تضع امام المسؤ ولين في كل امـة تقديرا نافعا يلاحظونه في استخراج محصولاتهم ومصنوعاتهم فلا تضيع الجهود عبثا في زيادة صنف لا يطلب او نزارة صنف مطلوب .

« والحواجز المصطنعة التي تقام بين المعسكرين المتقابلين لا تثبت طويلا امـام الضرورات الحقيقية التي يحسها الناس في ارجاء الكرة الارضية ، والاخطـار الملفقة التي يخلقها الحاكمون لحماية انفسهـم تتطلـب من الأمـم فوق طاقتهـا وتدفعها جميعا الى اخطار حقيقية يعجز الحاكمون عن اخفائها » .

« . . وليست العقبات في طريق التعاون بين الأمم وليدة اليوم ولا هي ممـا يزول غدا كل الزوال ، ولكنها صحبت الانسان في عمله لذات نفسه وعمله لأهله وقومه ولا تزال تصحبه حيث كان ، لا يصلحها ولا يخفف ضررها الا ما يخفف كل ضرر اجتماعي من تطور الاخلاق وتطور الضمانات التي تكف عدوان المعتدي وتكفل للمصاب بالضرر ان يدفعه عنه بقوة العـرف والقانـون او قوة الاتحاد بين المشتركين في المصاب الواحد ، وعلى هذه الوتيرة زالت عقبات كثيرة بالأمس وتزول غدا عقبات كثيرة لا مناص من زوالها مع تبدل الاحوال .

« ولنرجع الى مثل القرية التي عالجت شؤ ونها في مشكلات العملة والمقايضة والرهن والضمان وسائر ما هنالك من اشباه هذه المشكلات . فالتاجـر الـذي

يملك في القرية مالا يقرضه لاناس من اهلها ويشارك به اناسا آخرين في الزرع والماشية يكسب بهذا المال جاها يستغله في المشروع وغير المشروع من مآربه ولباناته . وقد يستغله في ابتزاز الحقوق وهتك الأعراض وايذاء الأبرياء ، ولكنه لا يجعل هذا العمل قاعدة يعلنها ولا هو يعترف به اذا اتهمه به احد ضحاياه ، ويختلف نصيب التاجر من هذا الجاه باختلاف القرى واختلاف الآداب والعلاقات بين اهلها ، فيستطيع في قرية ما يعجز عنه في غيرها ، وقد يصبح الجاه ضريبة في عنقه يؤديها لمن يحترم جاهه ويقبل مكانته بين عشيرته ، وقد يصبح ولا جاه له بينهم اذا عرفوا كيف يستغنون عن تجارته وكيف يتبادلون البيع والشراء بينهم على سنة التعاون وتكافؤ المنافع والصفقات . وان هذه الأحوال العامة في القرية لهي من معدن الاحوال العامة في الدنيا العريضة بما رحبت ، ولعلها هي هي بعد تكبير الاحجام وامتداد المسافات والأقوام ، والأعوام . . وقد كانت الدولة العظيمة قبل مائة سنة تسيطر ـ كتاجر القرية ـ على اسواق الدنيا وتكسب بعدتها وعتادها جاها يتيح لها ان تسخر شعوبها تسخير الارقاء ، وان تستفيد من حاجاتهم اليها ما يستفيده التاجر من حاجات العملاء . فاصبحت الدولة العظيمة وهي اليوم عاجزة عما كانت تقدر عليه قبل مائة سنة ، وقبل عشرين سنة ، وتغيرت أمور كثيرة في الدنيا قبل ان يتم هذا التغيير : بعض هذه الأمور الكثيرة ان الدولة العظيمة اصبحت دولا عظاما تتنافس فيما بينها وتحد كل منها من ارادة غيرها كما يحد غيرها من قدرتها ، وبعض هذه الأمور الكثيرة ان القابضين على ازمة الدولة في داخلها تغيروا وتغيرت مصالحهم في حكم انفسهم وحكم الشعوب التي دخلت في حوزتهم ، وبعض هذه الامور الكثيرة ان السيادة على الشعوب بالقوة والقسوة اصبحت من الصفقات الخاسرة التي تزيد كلفتها على غنيمتها ، وبعض هذه الامور الكثيرة ان المغلوبين عرفوا حقوقهم وعرفوا حاجة الغالبين اليهم ، وعرفوا بينهم روابط من الشكاية المشتركة والمقاومة المشتركة لم تكن معروفة لاسلافهم . وجملة هذه الامور تجيز لنا ان نوازن بين عوامل التضامن العالمي وعوامل الفرقة والشقاق فلا نبالغ اذا قلنا : ان الاولى راجحة على الثانية ، لان عوامل التضامن مقبلة متقدمة وعوامل الفرقة والشقاق مدبرة مترددة تنكص على عقبيها »[1] .

---

١ ـ من مقدمة للمؤلف على « رسالة التعاون الاقتصادي » بقلم ب . ج . وودز .

كانت القارة الأفريقية تسمى بالقارة المظلمة لانها بقيت مجهولة على حريطة الكرة الأرضية يسكنها السود فيما عرف في اطرافها ويحيط بها سواد من الظلام والخفاء .

وكانت تسمى احيانا بالقارة المتنحية كانها تركت ركب الانسانية يسير في تاريخه الطويل ولبثت في مكانها كما كانت في مجاهل ذلك التاريخ .

وليست هي اليوم بالقارة المظلمة لانها تكشفت عن دخائلها وتسلطت عليها انوار الاستطلاع في جوفها ومن حولها فلم تبق منها زاوية مجهولة او بقعة غير مطروقة .

وليست هي بالقارة المتنحية لانها ادركت ركب العالم في نهاية شوطه ويرجى ان تماشيه وتمده فيما يستقبله من مراحل حضارته .

وقد صدق من سماها في السنوات الاخيرة بقارة الغد لانها في الغد تبدأ مصيرها الذي تختاره بعد ان تفاهم العالم الانساني على حق الشعوب جميعا في تقرير المصير .

وكل مصير لأفريقية لا يكون مصيرا مرضيا للافريقيين يخل بتضامن العالم ويعوق سيره الى التعاون والمؤاخاة . فلا تعاون بين الأمم في عالم يتخذ من افريقية مطية يسوقها الى مصير غير مصيرها الذي ترضاه او يتخذها ضيعة للمتغلبين المستغلين يبتزون ثمراتها ولا يتركون لابنائها من تلك الثمرات غير فضلة الاجير المغبون .

ان سكان افريقية ثلاث طوائف : اولها بطبيعة الحال ابناء افريقية الأصلاء الذين ولدوا فيها وولد فيها من قبلهم اسلافهم الى ازمنة مجهولة ، والطائفة الثانية هم المهاجرون من القارة الاسيوية واكثرهم من العرب والهنود وابناء الجزر الملاوية ، والطائفة الثالثة اوربيون مستعمرون ، وليس للطائفة الثانية مشكلة عسيرة الحل لانها تبقى وتندمج في القارة او تعود الى اوطانها باختيارها . اما المشكلة التي لا تحل بالحسنى فهي مشكلة المستعمر الذي يبسط سيادته على اهلها بغير امل في انتهاء هذه السيادة ، الا ان يظل الأفريقيون تابعين له مسخرين في خدمته او يثوروا عليه فيطردوه . ومهما يبلغ من سلطانهم على القارة فهو اضعف من الغاية التي يطمحون اليها والنية التي يبيتونها ، وهي نية

الاصرار على استعباد مئات الملايين بغير امل لهم في خلاص قريب او بعيد ، وتلك نية تعارضها الطبيعة كما يعارضها اولئك الملايين المصابون بها . وقد يتخاذل دونها سلطان المستعمرين يوما من الايام فلا تجتمع كلمتهم عليه في موقف الحسم حيث يحتاجون اليه ، ولن تصبح افريقية وطنا للمستعمرين الا بوسيلة واحدة ، وهي ان يصبحوا افريقيين كسائر الافريقيين وان يجيء اليوم الذي يقفون فيه مناضلين عن افريقية كما فعل الامريكي في نضاله مع البريطان والاسبان .

وسيخرج الأفريقي الاصيل من القرن العشرين بفائدة اكبر من فائدة تقرير المصير ، اذا تعود في السنين الباقية منه ان يلتمس الدراية التي تجعله يدا عاملة في تعميم النفع بخيرات بلاده وينابيعها الغنية . اذ لا معنى لتقرير المصير بغير هذه الدراية التي يقعده عنها اليوم جهله وسقمه وما ينوء به من بقايا الخرافات وتقاليد السذاجة في النظم الاجتماعية . ومما يبعث الامل في نهضة لالتماس هذه الدراية ان طلاب المصالح العالمية من امم الحضارة محتاجون الى تعليمه والانتفاع بمعونته ، وهم يجدون ان التعاون معه على فهم ورضى ايسر من تسخيره على الرغم منه او الاستغناء عنه في تدبير مرافق بلاده .

يقول الخبير الاقتصادي كلارانس راندال : « ان المارد النائم يستيقظ ، وان قلب افريقية في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب يخفق بآمال جديدة ومطامح جديدة ، وان الأفريقيين مستعدون ان يحكموا انفسهم بانفسهم وان يقرروا مصيرهم بايديهم . ان الروح الاستقلالية التي كانت سائدة بيننا في عام ١٧٧٦ اصبحت الان منتشرة في هذه البلاد الشاسعة حيث تكونت من البراري امم جديدة لها نفس التصميم والجرأة اللذين امتاز بهما الرواد الأوائل من اسلافنا . وافريقية التي كانت قارة عريقة في القدم يوم ولد متوشالح قررت اليوم ان تندفع قدما الى حضارة القرن العشرين . وهي في ميزان القوى موفورة الثراء في الموارد الطبيعية التي سيحتاج اليها العالم الصناعي ذات يوم ، ولاتحاد افريقية الجنوبية مستوى عال من الرخاء القائم على اساس من مناجم الذهب والماس والأورانيوم ، ولاتحاد روديسيا ونياسالاند اعظم مستودعات النحاس والكروم في العالم . واكتشفت انجولا النفط في اراضيها ، وفي الكونغو

البلجيكية معدن الكوبالت والأورانيوم وصناعة الماس . وتستعد افريقية الاستوائية الفرنسية لاقامة مشروع ضخم لخامة المنجنيز . وفي نياجرا الصفيح والكوبلت ، وفي ليبيريا وافريقية الغربية الفرنسية خام الحديد ، وفي غانة تكثر أشجار الموجنة حتى لتصنع منها سلال المشروبات الخفيفة ، وتستعمل اخشابها في الشؤ ون العادية . وان اعظم موارد القوى الكامنة على كل حال هي القوة الرائعة التي لا حدود لها : قوة توليد الكهرباء من مساقط الماء . ففي العصور الجيولوجية عندما تكونت القارة الأفريقية ألفي منحدر هائل من المحيط الاطلسي الى داخل القارة مواز لسواحلها الغربية ، وعلى هذا المنحدر الذي يشمل معظم الجانب الادنى من افريقية تنساق الانهار الكبرى الى الجريان فوق شلالات قبل ان تنصب في المحيط الاطلسي . ولقد كانت هذه الشلالات حواجز منيعة في وجه السفن البحرية ، فتأخر اكتشاف ما وراءها . . ولكن هذه الشلالات والمساقط تعتبر الآن بالنظر الى افريقية التي افضت باسرارها للطائرات عشرات من امثال شلال نياجرا وهي تنتظر الترويض والاستغلال . وهناك مستودعان كبيران لتوليد الكهرباء من مساقط المياه في طريقهما الى الظهور الان . فنهر زامبيزي يقوم عليه خزان كاريبي الذي شارك البنك الدولي في تمويله وسيمد المناجم والمصانع في روديسيا بالقوى المحركة الوافرة . ولسوف يكون للكاميرون الفرنسي قريباً خزان في اقليم ايديا على نهر ساجانا . وهناك مشروع خزان انجا على نهر الكونغو في الكونغو البلجيكية . وهو مشروع يبلغ من الضخامة ان تساوي القوى المولدة منه بعد تمامه خمس القوى التي تتولد في الولايات المتحدة ، وعدا هذا وضعت الطبيعة الى جانب كل منطقة لتوليد الكهرباء على وجه التقريب مستودعات منجمية لا مثيل لها من البوكسيت الذي يكفي لتزويد العالم كله بمعدن الالمنيوم عدة اجيال . وقد حدث تطور لا بأس به في وسائل المواصلات . فان خطوط الطيران التي تستخدم الطائرات الحديثة وتقدم احسن الخدمات تعبر سماء القارة ذهابا وجيئة في كثير من الاتجاهات ، ويقتحم شريط السكة الحديدية طريقها الى داخل القارة ، واصبح في مقدور سيارة نقل ان تبدأ رحلتها في الشاطىء الشرقي عند موزنبيق وتمضي الى الساحل الغربي فوق طرق ممهدة يتصل بعضها ببعض خلال روديسيا وانجولا ، وانشئت في كل مكان على كلا الشاطئين موانىء جديدة . . وتزداد الاجور زيادة مطردة لا سيما على طول الشاطىء وفي مناطق المناجم كما تزداد الواردات من

البضائع والسلع المستنفدة . . . .

وهذه الموارد التي ذكرها الخبير المطلع لا تستوعب جميع الموارد المعروفة ولا جميع الموارد التي يمكن ان تعرف من قبيلها ، وهي كلها موارد موجودة مهيأة للتثمير والاستغلال بادوات المصانع العصرية ، ولكنها غير الموارد المدخرة للتثمير والاستغلال من ينابيع غير معهودة ولا مطروقة في الصناعة العصرية ، ونريد بها موارد الثروة التي يمكن ان تستخرج من اصلاح الصحارى الكبرى واستخدام اجوائها وشواطئها لخلق المناخ الملائم والتربة الغنية بثمراتها الزراعية والصناعية . . فهذه اذن قارة مستوفية لعتادها على اهبة لمجاراة اغنى القارات وارقاها في تزويد العالم بمطالبه وضروراته ، لا تعوزها كيما تتم اهبتها الا ان يملك اهلها عدتهم من الحرية والدراية ، فهل يمر الزمن دون ان يقترب ذلك اليوم الذي يستوفى لها عتادها من حرية اهلها ودرايتهم كما استوفت عتادها من موارد الصناعة والزراعة ؟ وهل ترجع الى امسها المظلم او تتقدم الى مستقبلها ومستقبل العالم معها ؟ . . قبل ان ينتهي القرن العشرون ستعلم الدنيا المتطلعة مدى الخطوات التي تتقدم بها قارة الغد الى مصيرها ، وسترى ان تذليل مصاعب التقدم اهون جدا من الصعوبة التي تواجه العقل حين يتخيلها ناكصة على عقبيها مدبرة الى ما كانت عليه يوم كانت كهفا مغلقا او فرقة متنحية عن مكانها من صفوف الامم في ركب الحضارة . ونحسب ـ على هذا ـ ان وصف القارة الافريقية « بالتنحي » عن الركب ظلم لا تقره دعوى النشوئيين اذ يتتبعون اول خطوة خطاها البشر من حظيرة الحيوان الاعجم فيرجعون بها الى مجاهل افريقية في اقدم عهودها . فاذا صدق ظنهم لقد كانت هذه القارة اول من سبق الصفوف ، وكانت حركتها اعظم من ان يقاس بها مسير الحضارة من مبدئها الى منتهاها اليوم في عصر الذرة والطائرة الفلكية . ولقد تكون لها في الغد خطوة جديدة تضارع في نسبة الزمن خطواتها الاولى .

اما القارة الاسيوية فهي كالبرزخ بين افريقية وسائر القارات ، كانت تقرن بافريقية فتشملان مقاما يطلق عليه الشرق على سبيل التجوز او من باب التسمية السياسية التي لا تتقيد بالحدود الجغرافية ، لأن هذا الشرق كان يخضع لحكم

---

١ ـ من مقال ملخص عن ستردای ايفننج بوست نشرته مجلة المختار في عدد ديسمبر ١٩٥٨

الاجنبي تارة وللامتيازات الاجنبية تارة أخرى . فكان نحو خمسمائة مليون من الهنود والأندونسيين وابناء الجنوب الشرقي في آسيا يخضعون لحكومات اوروبية ، وكان نحو خمسمائة مليون آخرين في الصين وما حولها يخضعون لامتيازات دولية تمتزج فيها سيطرة السياسة بسيطرة الاقتصاد . ولكن آسيا اليوم لها شأن افريقية في علاقة الشرق بالدول الكبرى ، وتكاد ان تكون قد فرغت من قضية الحرية والسيادة بينها وبين حكامها من صميم ابنائها ، فارتبطت هذه القضايا المعقدة بأشتات من قضايا النظم الاجتماعية ومسائل المعيشة وحقوق الرعايا المحكومين وسلطات الرعاة الحاكمين . وهذه هي القضايا التي تجعلها برزخا بين الامس والغد كما جعلتها برزخا بين افريقية وسائر القارات ، فهي من ناحية تنظر الى الغد لتعالج مشكلات المعيشة والحكم على اضواء العلم الحديث والحضارة الصناعية ، وهي من غير هذه الناحية تنظر الى ماضيها الذي اخرج للعالم في جميع القارات عقائده واديانه وقدم له شرائع بوذا وكنفشيوس كما قدم له شرائع موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، فما من سؤال عن آسيا اهم من السؤال عما تعتقد وبماذا تدين ، ويعاد هذا السؤال اليوم على مفترق الطريق ليسمع العالم جوابا جديدا نحو الايمان او نحو الانكار ، والى الحياة الروحية السماوية او الى الحياة المادية الحيوانية . . وأمل بني الانسان ان تكون لآسيا ـ قارة الامس ـ بقية من ميراث الروح تمدهم به في بحثهم عن نور الهداية ، فماذا تملك آسيا من نورها الخالد في عصر النور الذي تتطلع اليه كما يتطلع العالم في جميع قاراته ؟ ماذا تملك من نورها بعد ان اصبح النور في لغة العلم والدين رمزا لمعاني الحس ومعاني التجريد والتنزيه ؟

ان اربعين قرنا مضت لا تنتهي الى غير شيء في هذه السنين الاربعين التي بقيت من القرن العشرين .

٩ ـ المجتمع

من أضر الآفات بنظام الاجتماع ان تكون الطبقة الوسطى في الأمة محرومة من وسائلها لابلاغ صوتها واثبات حقها وتقرير مشيئتها .

فهذه الطبقة التي تؤدي للمجتمع معظم اعماله المتوسطة بين اقتناء الثروة والقيام بالصناعات اليدوية لا تملك المال والجاه كما يملكها العلية ولا تملك سلاح الاضراب والعمل المشترك كما يملكه اصحاب الاجور ، ولو ملكت معها بعض ما ينبغي لها من المشاركة في الرأي والنفوذ لاستحال قيام الحكم المطلق بسند من اصحاب المال والجاه او بسند من اصحاب الاجور والصناعات اليدوية .

ان المجتمع المثالي هو المجتمع الذي تستطيع كل طبقة فيه ان تأخذ بنصيبها وتذود عن حقها بوسائلها ، ومثل هذا المجتمع لم يوجد بعد على تمامه ، ولكنه يوجد شيئا فشيئا كلما اتسع نطاق الصناعة الكبرى وتعددت مرافق المعاملات الاقتصادية ، وحالة الطبقة الوسطى هي اصدق المقاييس التي تقاس بها درجة المجتمع من الارتقاء والانتظام والعدل والحرية ، فلا سبيل الى استبداد فئة بغيرها في مجتمع تتكافأ طبقاته وتتوازن في القدرة والوسيلة ، وانما ينجم الاستبداد حين تتغلب فئة على سائر الفئات وتعجز الفئات المغلوبة عن مقاومتها ورد عاديتها بسلاح من اسلحة المصلحة والكفاية .

فأصحاب الثروة قلة تعوض قلة العدد بوفرة الجاه والنفوذ ، واصحاب الاعمال اليدوية كثرة تعوض الثروة بالقدرة على الاتحاد والاشتراك في المطالبة ،

وكلتاهما تستطيع ان تتحكم في المجتمع الذي تقف فيه طبقته الوسطى مشلولة الحركة محرومة من وسائل جمع الكلمة والاعراب عنها ، ولكنهما لا تستطيعان منفردتين ان تتحكما في امة تتوسطها طبقة غير قليلة العدد ولا محرومة من وسائل الاتحاد ، كالطبقة الوسطى التي تظهر بين الفريقين كلما اتسع مجال الصناعة وتعددت الاعمال الفنية وضروب التصرف في التجارة والزراعة وجملة المرافق الاقتصادية .

ومن بوادر الامل في المستقبل ان المجتمع الحديث يتمشى الى هذه الغاية المثالية وان « الآلة » تعود فتظهر في التاريخ اداة من ادوات النجاة كلما استحكمت مشكلات الاجتماع وتفاقمت من جرائها زعازع الفتنة والبغضاء .

فالثروة في المجتمعات الصناعية لا تكفي وحدها للقبض على زمام النفوذ ، لانها تحتاج ابدا الى خبراء الصناعة والادارة والاقتصاد ، وليس في وسع صاحب الثروة ان يتخذ من المصنع الكبير سلاحا يملي به مشيئته على قومه ، لانه ـ وهو يملك المال ـ يضطر الى معونة المهندس والمدير وخبير الاقتصاد ومتعهد الترويج والاعلان ، وربما جهل من شؤون ثروته ما يعلمه هؤلاء ويقدرون على التصرف فيه .

وهذه الثروة التي كانت تنحصر في يد واحدة او ايد قليلة يستدعي نظام المعاملة في مجتمعات الصناعة الكبرى ان تتفرق بين الشركاء والمساهمين على حسب الحصص والسهوم . فيحسب رأس المال بالملايين ويحسب مالكوه بالمئات والألوف ، ويصعب تقسيم المالكين في هذه الحالة الى طبقات وفئات يقف بعضها من بعض موقف المغالبة والصراع . ويسري مع نظام المساهمة نظام التعاون بين البائعين والشراة على سنة المشاركة والتضامن في الكسب والخسارة ، وقلما تتباعد المسافة بين الطبقات حيث تحسب الثروة بالحصص والسهوم بين المتعاونين والشركاء .

وقد كان العمل اليدوي حلوا من الفطنة والخبرة الفنية في مصانع القرن التاسع عشر ، وكان العمال اليدويون هم الكثرة الغالبة بين اجراء الصناعة يزيد عددهم على عشرة امثال الحذاق من الخبراء ومساعديهم الفنيين ، فتطورت الصناعة ولا تزال تتطور حتى اختلفت النسبة بينهم أبعد اختلاف ، واصبح العمل اليدوي اقل الاعمال في المصانع الكبرى وما يصاحبها من المصانع

الصغيرة واجهزة الصناعة في البيوت والمكاتب واندية الفن ومعاهد التجارة وحقوق الزراعة ، وتلاحقت الدرجات من اعلى وظائف الهندسة والفن الى ادناها فاشتملت على طبقات مشتبكة الاطراف يصعب التمييز بينها والفصل بين مصالحها عند تمييز الطبقات على النحو القديم .

وكل تطور ينمو بالمجتمع نحو التقارب في الطبقات والتشابك في المصالح والحقوق فهو خطوة ثابتة تنمو به نحو الاستقرار والحرية ، فلا يتأتى في مثل هذا المجتمع ان تسطو فئة منه على الفئات الاخرى ولا هي بحاجة الى ذلك تلح عليها فتحرضها على السطو والثورة . اذ كان معظم اسباب السخط والتمرد انما ينجم من الهوة الفاصلة بين فئة وفئة او من الظلم الواضح في تقسيم الاقدار والارزاق ، وما من داع الى الطغيان والاستبداد بالامر في مجتمع تقل فيه الفواصل وتكثر الروابط ويرجع فيه تفاوت الاقدار والارزاق الى الدراية بالعمل النافع للجميع ولا يرجع الى التقاليد المبرمة والحواجز المفروضة بغير فارق معقول .

فالتعاون بين الطبقات هو التطور الملازم للصناعة الكبرى ، ولا استقرار قبل بلوغ ذلك الطور الذي يستعصي فيه على طبقة من الطبقات ان تستبد بغيرها ، ولا مفر من الاستبداد في مجتمع تتغلب فيه احدى الفئات وتجور على سواها .

اما ثورة المحرومين فليست من لوازم الصناعة الكبرى وليست هي بالطور الاخير المحتوم الذي تنتهي اليه هذه الصناعة ، وانما تحدث هذه الثورة في عهد الصناعة قبل اتساعها واستقرارها كما حدثت قبل عصور الصناعة في التواريخ الغابرة ، ولا بد ان تحدث مع الظلم والتفاوت كلما تهيأت لها بواعثها ومشجعاتها ، ومنها ـ بل في مقدمتها على الدوام ـ ان تضعف هيبة الحكم القائم وان يتيسر للمحرومين ان يتألبوا في مكان واحد ، اما في حالة كحالة الجند المنهزمين ، واما في حالة كحالة العمال والزراع المحشودين في جوار واحد بين المناجم والحقول .

حدثت اشباه هذه الثورات بعد زوال الدولة القديمة في مصر قبل أربعة آلاف سنة ، فشوهدت فيها جميع أعراض الثورات التي يربطها بعضهم بصناعة القرن العشرين ويحسبها الطور الاخير من اطوار تاريخ الانسان الى نهاية الزمان ، فجاء في محفوظات البردي التي تخلفت لنا من عهود الاسرات المالكة

بعد السادسة ان العامة شكوا في الدين واضربوا عن الشعائر والقرابين ، وان احدهم كان يقال له : تقرب الى الاله المعبود فيقول : لو عرفت مكانه لحملت اليه قربانه ، وان اواصر الاسرة قد انحلت فاستباح الاخ قتل اخيه واجترأ الولد على حرمات امه وابيه ، وان الزواج بطلت قداسته واستبيحت اعراض المصونات من كرائم البيوتات ، وان التي كانت تنظر وجهها في الماء اصبحت تقتني المرآة والحلية المنتقاة ، وان اصحاب السمت والوقار خلعوا سمتهم ووقارهم وتزلفوا الى الخدم وشذاذ الآفاق ، وان الضياع هجرت والقصور دمرت ، واستولى من استطاع على ما استطاع كما سولت له المآرب والاطماع ، وحدث هذا كله بعد حقبة جارت فيها علية القوم على سفلتهم وانحصرت فيها الثروة بين امرائهم وسرواتهم ، وتوالت فيها الغارات والقلاقل من خارج البلاد وداخلها ، وسيق فيها الالوف من الزراع والعمال حشدا بعد حشد لبناء الاهرام وتشييد الهياكل والتنقل من سخرة الى سخرة في خدمة الرؤساء وولاة الامر ، بغير اجر بل بغير قوت في كثير من الأحيان غير الخبز القفار .

« وحدثت حركة الأرقاء في اسبرطة قبل الميلاد باربعة قرون ، وهم الارقاء المعروفون باسم الهيلوت Helots او باسم الضواحيين نسبة الى الضاحية Perioeci وكلهم من الفلاحين زراع الارض بالحصة والمقاسمة في الثمرات . وقد تجمعوا بالألوف على مقربة من المدينة وهزموا قادة اسبرطة وألجأوا هذه المدينة الحربية الصارمة الى طلب النجدة من جيرانها ، فلم تقدر على صد الأرقاء الثائرين الا بعد حوالي عشر سنوات .

« وحدثت حركة الارقاء في الدولة الرومانية بقيادة سبارتاكوس (سنة ٧٢ ق . م) الرقيق الذي تعلم المصارعة وتمكن من جمع زملائه في الرق فحشد منهم قرابة سبعين الفا ودوخ الجيوش الرومانية بحملاته القوية حتى استنفد جهود الدولة وكلفها ان ترصد له اكبر قوادها من طراز كراسوس Crassus وبومبي Pompey فلم يخمدوا ثورته الا بعد عناء شديد .

وحدثت حركة الارقاء في العصر الاسلامي بعد منتصف القرن الثالث للهجرة (وبعد منتصف القرن التاسع للميلاد) حين ثار زنج البصرة بقيادة علي بن محمد بن عبد الرحيم ، وما برحت ثورتهم تحتدم وتخبو من ايام الخليفة المهدي ابن الواثق الى ايام الخليفة المعتمد بن المتوكل ، وتمكن هؤلاء الزنج من التجمع

لانهم كانوا يعملون في الموانيء وسكنى الشواطيء كما كانوا يعملون في الزراعة ونقل البضاعة ، ولم يكن هؤلاء الأرقاء ولا ارقاء (سبارتاكوس) او ارقاء الهيلوت والضواحيين عمالا مسخرين في صناعة كبرى او صغرى ، بل كانوا فلاحين او حفارين في المناجم او حمالين على الشواطيء جمعتهم اماكن عملهم ووحدت الشكاية ووحدت المصلحة بينهم ، فخرجوا في تلك الحركات الاجتماعية قبل عصر الصناعة الكبرى باكثر من عشرين قرنا في الزمن القديم ونحو عشرة قرون في زمن الاسلام .

وعملت في كل حركة من هذه الحركات الاجتماعية عواملها المشتركة التي لابد منها في جميع العهود . وهي عوامل الدعاية والقيادة والهزيمة او سقوط الهيبة وظهور العجز عن تدبير الامور من قبل الهيئة الحاكمة .

ولا نعلم على التحقيق كيف كانت دعاية الثورة المصرية بعد عهد الأهرامات ، ولكن تفرق الدعاة والاسر في الوجه القبلي على الخصوص ، مع شيوع الشكوى بين الفلاحين قد يدل على دخيلة الدعوة التي جذبت كل فريق من الثائرين الى زعيم من زعماء الاسر وطلاب العروش .

« اما ثورة الهيلوت فالمعروف عنها كثير ، ومن هذا الذي عرف عنها انها رزقت القيادة الحسنة على يدي ارستومين Aristomenie وارستديمس Aristodemus وجاءتها دسائس الفتنة الخارجية من جانب الفرس مسخرين لها اناسا من الطامحين الى الملك على رأسهم القائد بوزانيوس Pausanius واناسا من رؤساء العصابات كانوا على خطر دائم من فتك الشرطة الخفية المختصة بتعقب الارقاء البارزين بين صفوف ابناء جلدتهم وكانت لهم خفية خاصة تترصدهم يسمونها الكربتية Krypteia وتشبه الخفية القيصرية قبل الثورة الشيوعية في نظام التجسس وحبائل الايقاع والاستطلاع .

والمعروف عن ثورة الارقاء على رومة اكثر من المعروف عن ثورة الأرقاء على اسبرطة ، قياسا على اشتهار الانظمة الرومانية واشتباكها بالأمم المحيطة بها ، فلا ينظر المؤرخ في تفصيلات الحوادث التي انتهت بنشوب ثورة سبارتاكوس الا وجد فيها جميع العوامل التي تخلف هذه الثورات من الأزمات السياسية والاقتصادية الى هزائم الحروب وسقوط الهيبة الى تحريض الدعاية وامكان حشد الثائرين في صعيد واحد .

« تعاقبت الغارات على رومة من برابرة الشمال في القرن الاول قبل الميلاد ، وانقسم ولاء الجيوش الرومانية بين المشرق والمغرب وتضعضعت الحكومات القنصلية او الشبيهة بالجمهورية ومهدت الطريق لقيام سلطان الاستبداد وظهور الحاكمين بامرهم من القادة وزعماء العشائر ، وخابت آمال المصلحين في برامج الاصلاح ، ومنها تقييد الملكية الزراعية ورسم الخطط الواسعة لتوزيع الارض والثروة بين الملاك الكبار والصغار بالتدريج .

« وكان الاخوان طيبريوس وجايوس جراشي Gracchi قد استنفدا الحيل في اقناع العلية واعضاء مجلس الشيوخ باعادة توزيع الارض العامة لزيادة عدد الملاك الصغار ، واستصدر اولهما من مجلس الشيوخ قرارا بالحد الاقصى للأرض الزراعية العامة فجعله ثلثمائة فدان (سنة ١٣٣ق . م) ثم جاء اخوه فاراد ان يتوسع في تعميم الحقوق السياسية وانشأ طائفة من المشترعين دون طائفة الشيوخ وكل اليها الحق في محاسبة الولاة السابقين ومن اليهم من رجال الدولة ، وكانت هذه المنازعات على الحقوق السياسية والحقوق المدنية بداءة الانقسام بين طوائف العلية من سادة المجتمع الروماني القديم . واتفق هذا في الوقت الذي تتابعت فيه غارات البرابرة الشماليين على تخوم الدولة ، فكان عجز الحاميات العسكرية عن صد المغيرين حجة مقنعة سوغت للقائد جايوس ماريوس ان ينظم الجيش بقيادته ويستغل سمعته في الحروب الافريقية للاستئثار بالسلطة في حروب الدفاع عن تخوم الشمال ، وجر هذا الاستئثار الى انقسام الدولة بين جيش الوطن بقيادته وجيش الولايات المتحدة بقيادة كرنيلوس سولا ، ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة لم تنحسم قبل انقضاء سنوات في القلاقل والفتن والازمات ، خرج منها (سولا) منتصرا على ماريوس حوالي سنة احدى وثمانين قبل الميلاد فدانت له الدولة بالطاعة حوالي سنتين ، ولم تنقض شهور على موت سولا (سنة ٧٨ق . م) حتى تجددت المساعي الحثيثة التي تتجه من كل جانب الى هدم النظم الجمهورية واقامة السلطان المطلق بزعامة هذا او ذاك من القادة المتنافسين ، وفي هذه الفترة نشبت ثورة سبارتاكوس فوجدت لها اشياعا من اشتات الاسرى الذين جاءت بهم حروب الرومان في تراقية - وطن سبارتاكوس - وبلاد الغال وسائر ارجاء الدولة الواسعة ، وكان منهم اناس لحقوا بالجيش وتدربوا فيه على الاعمال الحربية واناس آخرون من رعاة الجنوب في ايطاليا ممن كانوا يحملون السلاح لحماية

قطعانهم Latifundia ويشتبكون في حروب كحروب العصابات كلما ضعف سلطان الحكومة القائمة . فانقاد ـ لسبارتاكوس ـ جيش كبير من المقاتلة والمصارعين بعضهم من الارقاء وبعضهم من الشذاذ النافرين ، وتمكن من الانتصار على جيش الدولة بقليل من العناء (٧٣ق . م) ثم هزم الجيوش التي جردت لقتاله بقيادة القناصل والولاة في بلاد الغال ، واستشرى خطبه حتى كاد ان يحكم البلاد الايطالية فيما وراء العاصمة ، ولم تقدر عليه الحكومة بجيوشها التي تخلفت من ايام النزاع وانقسام الولاء بين القادة ، حتى تصدى للامر رجل من رجال (سولا) الكفاة هو القائد كراسوس ، فجند لقتاله جيشا جديدا تولى تدريبه وتنظيمه على يديه ، ودارت الدائرة على سبارتاكوس في معركة ابوليا Apulia (٧١ق . م) وقد كاد ان يفلت بفلول جيشه على اسطول من السفن الصغيرة عند مسينا . ثم تبين ان الثائرين لم يكونوا جميعا من الارقاء المملوكين لسادة معروفين واحصي منهم نحو ستة الآف لم يعرف لهم سادة يملكونهم ولم تكن لاكثرهم سابقة في الرق ، وانما كانوا مع طائفة من الفلول الهاربين ثواراً على الظلم والخلل وطلابا للحرية والحقوق الانسانية .

« والمعروف عن ثورة صاحب الزنج في الدولة العباسية اكثر مما عرف عن ثورة الارقاء في الدولة الرومانية ، لانها حدثت في عهد تاريخي وافر المراجع والمآخذ قريب بالنسبة الينا في احواله واوقاته ومصادر دعوته ودعواه . وقد كانت الدعوة والدعوى معا كأوهن ما تكون الدعوات والدعاوى من السخف والتضليل . ولكنهما فعلتا فعلهما المعهود مع ضعف الدولة واحتشاد الثوار في مكان واحد وسهولة انتحال الحجة التي يستند اليها الثائر على الدولة القائمة في اعنف اوقات النزاع بين العباسيين اصحاب السلطان والعلويين اصحاب الحق في عقيدة الاكثرين من ابناء الاقليم وما جاوره من الاقاليم . . ورواية اخبار هذه الثورة من وجهة نظر غربية ادنى الى التناسق مع اخبار الثورات من قبيلها في تاريخ اليونان والرومان ، ولهذا نرويها هنا كما لخصها (سير وليام موير Muir) في كتابه عن تاريخ اضمحلال الخلافة اذ يقول من اخبار سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة (٨٦٩م) ما يلي :

ان فتنة الزنج اشاعت الذعر والفتك من حولها خمس عشرة سنة ، وكان زعيمها فارسيا انتحل النسب الى علي بن ابي طالب ، فكان يدعو اول الامر بهذه الصفة الى بعض الآداب الروحية ثم ما عتم ان كشف عن خبيئته فاذا هو

متمرد منتفض يسري عليه لقب الخبيث . وكان يحوم في شبه الجزيرة العربية قبل ذلك على غير طائل ، ثم رفع راية العصيان ونادى بالحرية لجميع المستعبدين ووعدهم بما لا حد له من الأسلاب والغنائم اذا التفوا برايته . واتخذ له شعارا آية من القرآن كتبها على الراية تبطل الرق وتلغيه « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن » . . . وفسر الآية بان الله اشترى الرؤوس والأموال فلا يملكها احد ولم يكن بالمستغرب من العبيد ـ الذين علمهم أن يهينوا سادتهم ان يهرعوا اليه بالألوف ومعهم اهل البادية من طلاب الاسلاب والغنائم . اما اسم الزنج فمعناه الاثيوبيون من اوشاب القارة الأفريقية ، ومن هنا نسبت اليهم الفتنة فسميت بفتنة الزنج . وكانت سنة خمس وخمسين ومائتين بداءة عصيانهم ومجاهرتهم بالقتال وتلتها سنتان انتشروا فيهما بين جوانب وادي النهرين وشواطىء قزوين الى الاهواز ، فبسطوا ايديهم من ثم على هذه الانهر وشجعهم النجاح فاغاروا في سنة سبع وخمسين ومائتين (٨٧١ م) على البصرة واقتحموها واعملوا في الاهلين كل منكر وفظيعة . ثم نادوا بالأمان غدرا فقتلوا كل من اغتر بامانهم من جمهرة السكان المخدوعين ، وهدموا المسجد الكبير واشعلوا النيران في المدينة كلها . وقد راع الخليفة مقتربهم من عاصمة الخلافة فانفذ الموفق على رأس الجيش لقتالهم ، فنشط للقتال نشاطا قويا ولكنه لم يظفر بهم الا قليلا في المعارك الاولى لاضطراره الى وقف القتال حينا بعد حين واشتغاله بدرء المخاطر في مواقع اخرى من الدولة ، ولقي موسى وغيرها من القادة مثل هذا الفشل سنة بعد سنة ثابر الزنج خلالها على الغارة مع ما كانوا يمنون به من الهزيمة في بعض المعارك ، وجعلوا يغيرون على العراق وخوزستان والبحرين عصابات متفرقة او جموعا مصفوفة ، فنهبوا الاهواز واتخذوا (واسط) معسكرا يشنون منه حروب التخريب والتقتيل ، وانقضت على البلاد تسع عشرة سنة من الشقاء والفزع ، ثم فرغ لهم الموفق بعد الخلاص من الأعداء الخارجيين ، فوحد الجيوش تحت قيادته وقيادة ابنه المعتضد ، ودارت الدائرة من ذلك الحين على جموع الارقاء ، فطردوا اولا من خوزستان ودفعوا الى الجانب السفلي من النهر حيث استعصموا بالمواقع الحصينة واحتموا بالاقنية والجداول المحيطة بها ، ولا تزال اخبار المعارك التي تلت ذلك نحو خمس سنوات محفوظة تروى بتفصيلاتها المسهبة المملة ، واجلى العدو من

مواقع كثيرة ولكنه لبث بعد جلائه عن تلك المواقع ثلاث سنوات مستعصما بعض الحصون لانقطاع الحصار فترات متوالية من جراء اصابة الموفق بجراح اقعدته عن العمل السريع ، واخذ الثوار يتسللون زرافات زرافات الى الموفق فيتقبل منهم التوبة برفق وسماحة ، وبلغ من رفقه وسماحته انه اعلن العفو عن المسيء الاكبر فاعرض عنه هذا بصلف وقحة . ثم سقطت القلعة وعاد كثير من النساء السبايا الى ديارهن ووقع الخبيث في الاسر وهو يمعن في الهرب فقتل وحمل رأسه حيث رفع على مشهد من الجموع المتكوفة فخروا سجوداً يشكرون الله على النجاة من شره » .

وتلخيص موير هذا لفتنة الزنج يصدر عن نظرة تاريخية على الحيدة بين الداعية والدولة التي يثور عليها ، فلا يمتزج بالغضب الديني الذي يشعر به المؤرخ المسلم وهو يتكلم عن فتنة من فتن المروق والاباحة والافتراء على الحضرة النبوية ، وهي - في رواية موير - على نسق تام مع الثورات التي من قبيلها وان تفاوتت ابعد التفاوت في الازمنة والامكنة واجناس الثوار ومطالبهم وعقائدهم التي يأخذون بها او ينتقضون عليها .

فكلها ثورات حصلت لانها امكنت ، وكلها ثورات امكنت لانها ثورات اناس من اصحاب الشكايات الاجتماعية او المنتفعين بالقلاقل والفوضى حيث كانت ، تجمعوا في صعيد واحد واستضعفوا السلطان لما مني به من الهزيمة والعجز فاستخفوا بامر الخروج عليه ، ولا يلزم من ثوراتهم هذه ان يكونوا من الفلاحين او الصناع او العاطلين ، ولا ان تتقدم ثوراتهم او تتأخر حسب الاطوار التي يرتبها المفسرون الماديون للتاريخ »[1] .

***

وقد تكررت في اوائل عصر الصناعة الكبرى ظواهر اجتماعية من قبيل ما سلف فتكررت فيها الثورات التي تفرقت في انحاء الزمن ولم يختص بها عهد من العهود ، ولوحظ في كل ظاهرة منها تكررت حديثا انها تأتي في اول اطوار الصناعة الكبرى كأنها مفاجأة غير مألوفة .تعتري المجتمعات التي لم تتهيأ

---

١ - من كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف من فصل « اتباع المذهب » .

لتوسيع مجال الصناعة والتوفيق بينها وبين مرافقها ومصادر ثروتها ، فهي عرض من اعراض المفاجآة وليست نتيجة خاصة مدخرة للصناعة الكبرى في آخر اطوارها ، ولا هي من الطوارىء المعلقة وراء حجاب الزمن الى ان يحين حينها وتدور بها ادوارها .

اما الثابت من مراقبة الحوادث بعد تمكن الصناعة الكبرى التي استوفت اطوارها فهو الاستقرار الذي تقل فيه المفاجآت ويقل فيه انتظارها وتوقعها ، لان زيادة الثروة من اتساع مجال الصناعة الكبرى تصاحبه كثرة المالكين وكثرة انواع الاعمال وكثرة الروابط التي تقضي بالتضامن بين اعضاء المجتمع الواحد في المنافع والاضرار .

وسوف يتسع مجال الصناعة فوق اتساعه في هذه السنوات الوسطى من القرن العشرين ، وقد يقصر المدى قبل نهايته دون استقامة هذا المجال في ارجاء العالم ، ولكن الاوضاع التي يبلغها التطور قبل نهايته كافية لتصحيح الآراء عن علاقة التطور الصناعي بنهاية الطبقات ، جديرة بتعليم الناس ان العاقبة للتعاون بين طبقات المجتمع الواحد ، وان الاستقرار والحرية مفقودان حيث تسطو فئة من المجتمع على سائر فئاته ، رهينان بتعدد الطبقات وتعدد الكفايات وتعدد انواع الاعمال ، ومن هذا التعدد يخلق الترياق الواقي من الاثرة والطغيان ، فانها خرق لنظام الحياة العامة لا يستطاع ولا يحتاج اليه حيث تتقارب الاقدار والحقوق وتتداخل المصالح والعلاقات .

١٠ ـ الأسرة والمـرأة

بدأت قضية المرأة على حق يشوبه الغلط ، ولم يكن لها بد من البدء على الحق المشوب بالغلط والا تأخرت ، أو جمدت ، فلم تبدأ على وجه من الوجوه .

بدأت في معمعة المطالبة بالحقوق : رعايا يطلبون حقوقهـم من ملوكهـم ، وعبيد يطلبون حقوقهم من سادتهم ، وأجراء يطلبون حقوقهم من أصحاب الأموال ، وشعوب مغلوبة تطلب حقوقها من شعوب غالبة ، بل أبناء يطلبون حقوقهم من الآباء ، وعباد يطلبون حقوقهم من المعبود .

فلما جاء دور المرأة في هذه المعمعة كانت مطالبتها بحقوقها خصومة جديدة في معترك الخصومات الكثيرة ، خصومة مع الرجل أو خصومة بـين الجنسـين ، وهذا هو موضع الغلط في قضيتها التي بدأت على حق لا ينكره ولا يجدي نكرانه بعد الانتباه اليه ، وكثيرا ما يبتدىء الانتباه اليه من الرجال قبل النساء .

فمن الحق أن المرأة كانت مظلومة مسخرة قبل عصور المعرفة والحرية ، ولكن الغلط في وضع قضيتها أن يكون هذا الظلم خصومة بينها وبين الرجل ، أو خصومة بين الجنسين . فان الجنسين معا كانا ضحية لعدو واحد لم يعرفاه الا على مهل وبعد ضلال بعيد عنه وعن منافذ الخلاص منه .

كان الرجل ضحية جهله يوم كانت المرأة ضحية جهلها وجهله .

وكان الرجل مظلوما يوم كانت المرأة مظلومة ، وكانت مسؤ ولة مثله عن هذا الظلم ـ أو غير مسؤ ولة ـ فهما على الحالين مستويان .

وكان كل ما تشكوه المرأة من مساوىء الاجتماع يشكوه الرجل مع اختلاف في الدرجة واختلاف في القدرة على الشكاية ، وربما صمتت الشكاية باختيار متفق عليه بين الرجال والنساء . وقد يقف الرجال والنساء معا في حظيرة الاتهام أمام ضحية أخرى لا هي بالخصم ولا هي بالطرف المعقول في موقف من مواقف الخصومة ، وتلك هي ضجة الطفولة المظلومة من البنين والبنات ، قبل أن يصبحوا مع الزمن رجالا ونساء وآباء وأمهات .

فما من شك في ظلم الطفولة يوم كان الرجال مظلومين والنساء مظلومات ، وما من شك كذلك في مصاب الجميع بجرائر هذا الظلم : مصاب الظالمين والمظلومين .

كم ظلمت الأم في العصور الغابرة من وليد تحبه ووليدة تحبها ؟ وكم ضاع هذا الظلم بين تبعة لا تعرف وتبعة تعرف على جهل وضلالة ؟

ومن المسؤول عن الجهل والضلالة ؟ . . . قل على حد سواء انهم البنون والبنات ، كما تقول انهم الآباء والأمهات ، أو تقول انهم الرجال والنساء .

فاذا قيل ان قضية « تحرير المرأة » قضية حق في نشأتها ، فذلك صدق لا جدال فيه . ولكنها توضع موضع الغلط حين يقال انها قضية خصومة بينها وبين الرجل ، وان الفصل فيها انما هو انتصار طالب على مطلوب ، أو صلح بين ضدين يكسب أحدهما بمقدار ما يخسر غريمه في هذه المقاضاة .

انما توضع قضية المرأة في موضعها الصحيح يوم يقضى فيها على أنها علاقة بين شريكين يتوزع بينهما العمل على حسب اختلاف الوظيفة والاستعداد ، وكلاهما خاسر مغبون اذا أخل بحق شريكه ونازعه في عمله وكفايته ، وكلاهما رابح اذا عرف أين يعطي وأين يأخذ من قسمة الخلق بين الجنسين .

ليس في الطبيعة ظاهرة محسوسة يتجلى فيها توزيع العمل وتتمثل فيها هذه الشركة كما نراها في المقابلة بين وظائف الجنسين ، فكل مخلوق انساني انما هو شاهد في تكوينه على هذه الوظائف المتقابلة في تركيب بنية الذكر وبنية الأنثى ، ومن ضحالة الفهم أن يسبق الى الظن أن هذا التقابل في تركيب الجنسين ينتهي عند أعضاء الجسد ولا يستدعي معه تقابلا في استعداد العاطفة والفكر والبديهة الخفية التي نحسها أحيانا وتحتجب عن الحس أحيانا أخرى ، لعلها أعمق

وأقوى مما ندركه نحن ـ رجالا ونساء ـ من هذه المحسوسات .

والمسألة ـ بعد ـ ينبغي أن تخرج من أفق التنازع على الحقوق والكفايات الى أفقها الذي تدور فيه الى مستقرها ، كيفما كان القرار .

ومن الغلو في الأمل أن نترقب حلها في البقية الباقية من القرن العشرين ، ولكننا نتحدث عن أمل قريب ـ ان لم يكن أملا محققا فيما نراه اليوم ـ اذا رجونا أن توضع قضية المرأة موضعها الصحيح بعد جيل أو جيلين ، فينقضي الدور الذي بدأ بالخصومة بين المرأة والرجل ، ويتبعه دور يعملان فيه عمل الشريكين اللذين يتقاسمان الواجب كما يتقاسمان الحق ، ويحذران الخسارة لأنها خسارة في الحصتين .

***

ولا شك أن حالة الأسرة أدل من حالة الطبقة على نصيب المجتمع من السلامة والاستقامة . اذ كنا نطلع من حالة الطبقة على أوضاع اجتماعية واقتصادية قلما نتخطاها الى ما وراءها الا على سبيل الاستطراد ، في حين أننا نستلهم من حالة الأسرة حكمة الطبيعة في تقسيم الجنسين ونهتدي منها الى أخلاق الفرد والجماعة ونستشف منها بداهة النوع في احتياله للمحافظة على بقائه ونموه ، ولا يفوتنا حين نطلع على تكوين الأسرة أن نلم بأحوال المجتمع في علاقاته الاقتصادية والسياسية .

ونحن نستلهم حكمة الطبيعة فنعلم أن المجتمع يبتعد من السلامة والاستقامة كلما ابتعد بالمرأة عن الأسرة ونحى بينها وبين وظيفة الأمومة وتربية الجيل المقبل وتدبير البيت لتسكن اليه وتسكن اليه الأسرة موئلا للعطف والراحة من تكاليف السعي والمعيشة .

وليس مدار البحث هنا أن نعلم مدى الحقوق السياسية التي تنالها المرأة في أمتها ، ولا عدد الوظائف التي تشغلها والدراسات العلمية التي تتلقاها ومراكز الأعمال العامة التي تتولاها : فاننا لا نواجه خطرا مقبلا اذا استغنت المرأة عن هذه الأعمال ولا يؤ ود المجتمع أن يولي الرجل كل ما تتخلى عنه المرأة يوم تكتفي بوظيفة الأم وسياسة الأسرة في الحياة البيتية .

ولكننا نواجه الخطر المحقق اذا تخلت المرأة عن حياة الأسرة ولوازمها ، ونبتعد

عن حكمة الطبيعة فنفهم أن المرأة والرجل كليهما يعملان في مجتمع بعيد من السلامة والاستقامة ، وينبغي أن نتوخى في الاصلاح الاجتماعي رد المجتمع اليهما وتثبيط الدوافع التي تحفز الناس - نساء ورجالا - الى الشطط عن سواء الطبع في توزيع الأعمال بين الجنسين .

ومن اللجاجة أن تنقلب هذه المسألة الحيوية الى منازعة على كفاءة الجنسين في شؤون العلم والعمل . فالأمر الذي لا منازعة فيه أن المرأة خلقت للأمومة وصلحت لتربية عواطف الأسرة ، فلا يحسن بالمجتمع أن يضطرها الى التخلي عن مكانها في الأسرة ، وأن يلجئها الى التضحية بالبيت سعيا الى الرزق أو اشتغالا بأعمال يغني فيها الرجل عنها .

وليس لنا أن نتجاهل الحقيقة الواقعة وننسى أن المرأة تضطر في الحضارة الحديثة اضطرارا الى هجر البيت والتضحية بلوازم الأسرة في سبيل لوازم المعيشة . الا أن الحذر من تجاهل هذه الحقيقة لا يوجب علينا أن نغتبط بها ونقيم قواعد المستقبل عليها ، وانما نعترف بها لنعطيها حقها من معاذيرها واعتباراتها ، ونسعى الى اصلاحها وتثبيط الدوافع التي تضطر النساء والرجال اليها .

وقديما اضطر الفقراء - وغير الفقراء - الى تسخير القاصرين واهمال تعليمهم في سن الطفولة الباكرة فيما يشق عليهم ويضر بأجسامهم وعقولهم ايثارا للانتفاع بأجورهم على احتمال نفقتهم ، فلم نجعل هذه الضرورة قاعدة تقام عليها تربيتهم وتفريج الضائقة عن ذويهم ، واعترافنا بهذه الحقيقة لنصلحها ونغني المضطرين الى تسخير أبنائهم عن هذه السخرة الشائنة ، فاستغنى عنها الكثيرون منهم وأنفوا منها بضمائرهم وقلوبهم بعد أن تعودوا مع الزمن أن يتجنبوها خوفا من العقوبة وطاعة للشريعة .

ولا يبدو الآن أن الضرورات التي تصرف المرأة عن حياة الأسرة يمكن أن تعالج بهذه السهولة في الجيل الذي نحن فيه ، وأكبر الظن أنها تستعصي على العلاج في الجيل المقبل أو الذي يليه ، ولكننا نأمل فلا نغلو في الأمل أن يتكفل القرن العشرون قبل انتهائه بوضع هذه القضية الجلى في موضعها الأمين ، فيختتم صفحة الخلاف عليها كأنها خصومة بين الرجل والمرأة ، ويتركها للأجيال المقبلة شركة يتعاون فيها الجنسان كما يتعاون الزميلان .

١١ ـ الفن والعلم

ولعلنا نختم هذه الظنون والنبوءات بخبر من اخبار المستقبل لا حاجة به الى ظن ولا نبوءة ، وقد يكون اوثق من أخبار الماضي الذي تتضارب فيه الرواية .

ان القرن العشرين سوف يصفي قبل نهايته حساب البدع الفنية التي نشأت فيه ، وهذا هو الخبر الذي لا يحتاج الى الظن والنبوءة . اذ تحمل البدعة في طياتها نبوءة مصيرها ، وتأتي البدعة ثم تمضي كما تأتي ازياء الثياب والحلى زيا بعد زي ثم تمضي باختيار من يبدعونها ويولعون بها ، ولولا هذا التقلب السريع لما فكر أحد في ابتداعها .

وقد كانت ذخيرة القرن العشرين من بدع الفنون أوفر وأعجب من ذخيرة سلفه القرن التاسع عشر ، ومن ذخائر اسلافه في العصور الحديثة التي اولع فيها الناس بالجديد ثم ازدادت سرعتهم في تغييره والتبرم به الى أن بلغت شأوها الاخير في هذه السنوات الأخيرة . . .

ويرجع الاقبال على البدع في القرن العشرين الى جميع أسبابه التي تغري به وتحرض عليه : الى الجرأة على التقاليد المرعية ، والى شيوع الطرافات العلمية التي يتداولها الفنانون وجمهرة المتحدثين بالعلوم والفنون ، والى اتساع ميادين النشر من طباعة واذاعة وصور متحركة ومسارح عرض وتمثيل .

والجرأة على التقاليد المرعية قديمة منذ عصر النهضة وعصر الاستنارة وما تلاهما من عصور الثورات العلمية والسياسية . الا أن الجرأة على التقاليد كانت تصدر

فيما مضى من جانب واحد باسم المجددين الثائرين على المحافظين ، أو باسم اليسار المنتقض على اليمين ، فلما تقدم القرن العشرون جاءت الغارة على التقاليد شعواء ذات اليسار وذات اليمين . فأنصار الدعوة الاجتماعية من الماديين يحطمون التقاليد الماضية لأنهم يهدمون كل بناء قام في الماضي على قواعد الطبقات من غير طبقة الأجراء ، وأنصار الدعوة الفردية ينكرون طغيان الجماعة على حرية الفرد فيعارضون الدعوات الاجتماعية التي تلغي الفرد من اجل الجماعة ، ولكنهم ـ على مذهب بعض الوجوديين ـ يبيحون للفرد أن يستقل برأيه وهواه ويثبت وجوده بالخروج على العرف واقتحام الطريق الذي يروقه على غير اكتراث بالاصول والعادات في مسائل الذوق على الخصوص ومنها الفنون .

اما شيوع الطرافات العلمية فهو فيما نعنيه هنا شيء غير شيوع المباحث العلمية التي يمحصها العلماء ويمتحنونها على أصول التجربة والتطبيق الأمين . فهذه المباحث العلمية تفيد الفن والفنان وتؤدي الى قيام المدارس الفنية التي تثبت في تاريخ العلم والثقافة ولا تظهر ثم تغيب كما تغيب البدع والأزياء .

ان الطرافات العلمية شيء غير هذه المباحث والدراسات . فانها لا تعدو القشور التي تستهوي النظر العاجل ويتخطفها المتندرون في الأندية لما فيها من غرابة تجري في نسق واحد مع غرابة الأقاصيص والبدوات ، ومنها ما يحسن فهمه ويساء تطبيقه لسوء التمييز بين موضوع العلم وموضوع الفن ، وبين مسائل التفكير ومسائل الشعور والخيال . وأشهر هذه التطبيقات الخاطئة في بدع الفنون دعوة المدرسة الطبيعية في القرن التاسع عشر Naturalism وهي من اصح المدارس الأدبية في نظرتها وأسرعها الى الخطأ في تطبيقاتها لسوء التمييز بين اساليب العلم واساليب الآداب .

كان مبعث هذه الدعوة ان اصحابها ارادوا ان يميزوا انفسهم على غيرهم من الكتاب والشعراء بالتزام الأمانة العلمية في وصف أحوال الناس والتعبير عن عواطفهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، وقالوا ان الكاتب ينبغي ان يتجرد من اهوائه وآرائه عند الكتابة كما يفعل العالم عند دراسة الظواهر الطبيعية ، وان تعبيره عن الحقائق الاجتماعية والنفسية ينبغي ان يصاغ في قالب كقالب التعبير العلمي أو قالب المسائل الرياضية .

ومن الحسن ولا شك ان يلتزم الكاتب أمانة العلم اذا كان المقصود بهذه الامانة ان يتجنب الزخرف الكاذب والأباطيل الخرافية . ولكنه لا يكون امينا بمعنى الأمانة العلمية ولا الفنية اذا عبر عن نفسه تعبيرا آليا يتجرد من الملامح الشخصية ، لأن الفن كله قائم على وجهة نظر الفنان وملكاته الشخصية التي لا تتشابه بين كاتب وكاتب ولا بين شاعر وشاعر ولا بين مصور ومصور ، ولا تأتي مقرراتها متشابهة أبدا كما تتشابه مقررات العلماء ، ولهذا كانت الصورة اليدوية مفضلة على الصورة الشمسية بالغة ما بلغت هذه من الصدق والاتقان . ولو كان المقصود بالأمانة العلمية مطابقة الصورة لأصولها المحسوسة لكانت الصورة الشمسية ارفع شأنا من كل صورة تبدعها ريشة الفنان الصناع . ولكن الأمانة العلمية في الفنون شيء غير الأمانة الآلية ، لأن العلم يقول لنا ان الآلة غير الانسان ، فلا يجوز لنا أن ننتظر - باسم العلم - تصويرا انسانيا يشبه صناعة الآلات ، ولا تتحقق امانة العلم وامانة الفن معا بغير هذا الاختلاف ، بل يصدق هذا على الفرق بين الصورة الشمسية الممتازة والصورة الشمسية المجردة من المزية . فاننا اذا اعجبتنا صورة شمسية بارعة لمسنا على الأثر براعة المصور الذي التقطها في اختيار الموقع واختيار الوجهة واختيار الألوان والظلال واختيار اللمحات البادية على الوجوه وعلى صفحات الأشياء .

ومن الواجب ان نفهم معنى الأمانة العلمية حين نطبقها على بدائع الفنون فهي لا توصف بوصف الأمانة الا اذا حسبت حسابا للفارق بين عمل الآلة وعمل الانسان .

ويهون سوء التطبيق في الدعوة الى المدرسة الطبيعية اذا قيس الى التطبيقات السيئة التي ابتليت بها دراسات علم النفس بين الحربين العالميتين ، فتسربت الى الفنون والآداب من كلمات الوعي الباطن ومركبات النقص والعقد النفسية وما شابهها من مصطلحات فقدت معناها لكثرة استعمالها في غير مواضعها ، وخلقت من افانين الأوهام ما لم تخلقه خرافة من الخرافات التي ماتت قبل ان تبلغ القرن العشرين .

وقد نسي دعاة البدع التي نبتت من كلمة الوعي الباطن ان هذا الوعي الباطن لم يخترعه فرويد ولم يزعم أن الفنانين من قبله جهلوه واهملوه ، بل قرر غير مرة انه يعتمد في تفسيره على اعمال اولئك الفنانين واقوالهم من كتاب وشعراء

ومصورين ، وما من احد ذي بصر ينظر الى صورة من صور الاقدمين ومن تلاهم في عصر النهضة وتلاميذهم المبرزين من ابناء العصور الحديثة الا ادرك لأول وهلة انهم احسوا الوعي الباطن من وراء الظواهر وعرضوه لنا على قسمات الوجه وحركات الأعضاء ، ودلوا على قدرتهم بهذا العرض الذي يرينا الخفايا كما يرينا الظواهر بلمسة من لمسات الريشة وخفقة من خفقات النور واللون ، وتركوه لنا نفسره كما يفسر كل سر من اسرار النفس البشرية قد ينطوي عن صاحبه كما ينطوي عن الناظرين اليه ، ولذلك كان وعيا باطنا ينقله الفنان القدير على غموضه او جلائه نقل الأمانة الملهمة والادراك الخفي والحس المشترك بين الوضوح والغموض . . . .

وينسى هواة الطرائف العلمية ان علماء النفس لم يكشفوا الوعي الباطن ليلغوا به الوعي الظاهر ويبطلوا به عمل الحواس . لأن معرفتنا بعقولنا الخفية لا تمنعنا ان ننظر باعيننا ونسمع بآذاننا بل تساعدنا على محو الضلالة والتثبت من حقائق المنظور والمسموع .

والمصورون ممن يدعون تصوير الوعي الباطن ينسون انهم تعلموا فن الرسم والشكل ولم يتعلموا الكهانة والتنجيم ، ولو كان فنهم كله قائما على تخمين الظنون عن العقل الباطن لتساوى المصورون وغير المصورين ، وتساوى كذلك الشعراء وغير الشعراء والفنانون وغير الفنانين فيما يتعاطونه من الوصف والتعبير . اذ كان التخمين عملا نستطيعه جميعا ولا يتقاضانا غير الحدس والاسترسال مع الخيالات ، ولا يصح ان يستأثر فيه صاحب وعي بما يتوهمه دون اصحاب الوعي من الناظرين والفنانين . فقد يتفق عشرات الألوف في البصر والسمع ولا يتفق اثنان في الخفايا الباطنة ولو كانا اخوين او عشيرين مدى الحياة . وما دام الوعي الباطن مختلطا مرتبكا غير مشهود ولا مفهوم فليس في الدنيا من يعجز عن محاكاة الاختلاط والارتباك على نحو من الأنحاء .

ومن فكاهات هذه الدعوات أن المنتحلين لها يتخطفون اطرافها على عجل ثم ينقطعون عنها ولا يعرفون ما طرأ عليها في مباحث اصحابها الأولين وروادها المبتكرين . فقد عدل فرويد في أيامه الأخيرة عن مغالاته بدعوى الوعي الباطن او العقل الباطن ورأى ان العبارة في تركيبها متناقضة لا تستقيم في التفكير . فليس بالعقل شيء لا نعقله ولابد من تعبير اصح من هذا التعبير للدلالة على

الفوارق بين طبقات السريرة الانسانية من أعماقها المستورة الى ظواهرها المكشوفة ، ولهذا أهمل فرويد مصطلحات الوعي الباطن واللاوعي وما اليها في أخريات أيامه واستبدل بها ال (ايد Id) أو الطوية وال (ايجو Ego) أو الذات وال (سوبر ايجو Super-Ego) او الذات العليا ، ولم يفصل بين دوافع هذه القوى الثلاث الا في حالات المرض والاختلال أو حالات الارتباك التي تعتري الأصحاب في حالات الكرب والشدة فلا يستقر لهم قرار الى أن تزول . وقد تراجعت مصطلحات فرويد الأولى الى الصفوف التالية في مباحثه الأخيرة ولما تزل تشغل الصفوف الأولى في أعمال الفنانين الذين تلقفوها بالسماع ولم يفهموا منها أولا وآخرا غير ما فهمه ثرثرة الأسمار . . .

***

ومن المألوف أن تعزى كثرة الخوض في النفسانيات بين الحربين العالميتين الى قلق الأفكار وتوتر الأعصاب في هذه الفترة ، من جراء الأزمات والشكوك التي تنتاب ابناء العصر فترهقهم وتلجئهم الى التنفيس عن صدورهم بهذه الأحاديث ، كما تلجىء العلماء والمفكرين الى البحث في أعراضها ووسائل علاجها . ويشبه ان يكون هذا هو الواقع في تعليل كثرة الخوض في العوارض النفسية ، لولا ما نعهده من أخطائنا المتكررة عند المقارنة بين الحاضر والماضي في مسائل الشعور والعاطفة ، فما حضر اشد عندنا مما غبر في مسائل الحر والبرد ومسائل السرور والألم ومسائل العافية والمرض ، ولا يبعد ان تكون أزمات القرن التاسع عشر أشد وقعا على ابنائه من ازمات المحدثين بين الحربين العالميتين ، لأنه لم يخل من قلاقله وشكوكه وثوراته وحروبه ومفاجآته وصدمات الخيبة لأصحاب الآمال العامة والخاصة من أبنائه ، فاذا كانت أحاديث العقد النفسية لم تتردد في فنون القرن التاسع عشر كما ترددت في فنون القرن العشرين فليس من المحتم ان يرجع ذلك الى ندرة الأزمات النفسية فيما مضى وكثرتها فيما حضر ، بل يجوز ان كثرة الحديث عنها انما ظهرت مع ظهور العلوم النفسية تبعا لتقدم العلوم في جملتها ، وانها وجدت متسعا من ميادين النشر وحرية التصريح بالآراء في الزمن الأخير لم تجده في أول عهدها بالظهور قبل بضعة أجيال .

وقد مضى الآن على ابتداء اللهج بالعلل النفسية اكثر من جيل كامل وضحت

فيه مصادر هذا اللهج الطارىء من اعمال الفنانين واعمال أدعياء الفنون ، فلم يعسر على نقادهم أن يميزوا بين سمينهم وغثهم وبين الجد والهزل في اعمالهم واقوالهم . فهم بين طائفتين تتميزان جدا بعد هذه السنين التي عرضت لنا من ثمراتهم ما يكفي لمعرفتهم : طائفة جادة في شعورها وتعبيرها تصور لنا دخائل النفوس وعللها كما يصورها الفنان الملهم في كل آونة ، وطائفة مصطنعة متكلفة تعرض لنا فنا مصطنعا متكلفا هو نفسه عرض من اعراض الأمراض النفسية . والفرق بين الطائفتين هو الفرق بين المعبر عن المرض وبين المصاب بالمرض الذي نفهم مرضه من حالته ولا نفهمه من مبتكراته واقاويله . ولا يشق على نقاد الفن أن يدلونا على الآية التي تميز كلا من الطائفتين تمييزا يدفع اللبس والاشتباه . فكل نتاج فني يلغي القواعد وينطلق مع الفوضى فهو ظاهرة مرضية وبدعة موقوتة لا تدوم الا ريثما تنسخها بدعة من قبيلها ، وكل نتاج فني يقوم على قاعدة مفهومة فهو تعبير صحيح وان جاءت هذه القاعدة على نسق جديد يخالف ما اطردت عليه فنون الأقدمين . ولا بد من التفرقة بين القواعد والقيود في الأعمال الفنية على اختلافها . فان القواعد هي قوام الفن الذي لا ينفصل عنه ولا يمكن أن يخلو منه بحال . وما عرف الناس لعبة من لعب الكبار والصغار ـ فضلا عن الفنون العليا ـ يمكن ان تلعب بغير قاعدة مرعية عند الطرفين ويجوز للاعب ان يتحرك فيها بغير ضابط معلوم ولا خطة مقررة . فلا قوام للفن بغير القاعدة ، ولكنه قد يقوم على احسنه مع زوال القيود التي يحده بها العرف ويتناولها التغيير والتبديل في كل جيل .

ولم يمض على ظهور البدع الفنية ـ بدع الفوضى والاباحة ـ بضع سنوات بعد الفترة بين الحربين حتى امكن التمييز بينها وبين الفنون المعبرة بوحي الالهام والبداهة الصادقة . فمن البدع الزائلة كل دعوة تنم عن المرض النفساني كما تنم عليه أعراضه واماراته ، ومن الفنون الصادقة كل فن يعبر عن المرض وهو غير مريض ، وينفس عنه وليس هو بضحية من ضحاياه . ولكل منها علاقة بالدراسات النفسية غير علاقة الآخر بها . فان البدع لا تستفيد من الدراسات النفسية ولا تتعلم شيئا منها ، ومثلها في علاقتها بحقائق علم النفس مثل المريض في علاقته بالطب الذي لا يعرفه . وعلى خلاف ذلك يكون الفن الصادق في علاقته بالدراسات النفسية ، فانه يستفيد من العلم بها ويصحح بها

اخطاء الحس والرأي والشعور ، ويعتمدها في نقد اعمال الأقدمين وتوجيه اعمال المحدثين .

***

منذ اواخر القرن الماضي بدأت مشاركة العلم في نقد تاريخ الفنون ولا سيما فنون التصوير والنحت والمخطوطات الكتابية . فتمكن علماء التاريخ والكيمياء من تحقيق اوقات التحف الفنية وتصحيح نسبتها الى اصحابها وعهودها ، اما بالمقابلة التاريخية بين الأساليب والتوقيعات وانواع الورق والمداد ، أو بالفحص الكيمي عن التفاعل بين الأصباغ والأنسجة وبين عوارض الجو والتربة ، وكانت لهذه المساهمة العلمية قيمتها النفسية في التحقيق والتمحيص من الوجهة التاريخية التي تنتهي عند تصحيح النسبة الى هذا الفنان أو ذاك وتبيين الفرق بين اساليب عصر وعصر وانماط مدرسة ومدرسة . ولكن النقد العلمي لم يتمكن من المشاركة في التمييز بين الفن السليم والفن السقيم وبين اسباب الدقة في الأداء واسباب الخطأ والانحراف فيه الا بعد التقدم الحثيث في علم البصريات وما يرتبط به من طب العيون والأعصاب . فان علماء البصريات واطباء العيون قد امكنهم ان يميزوا بين الخصائص التي كانت تحسب في عداد المدارس والأساليب الفنية ، وبين الخصائص التي تنشأ من امراض البصر ويضطر اليها الفنان لخلل في تركيب عينه يحجب عنه بعض الألوان او يعرضه لطول البصر او قصره او للزيغ عن النظر المستقيم الى ما يواجهه من امامه ، ففي هذه الحالات يبالغ الفنان في توكيد لون من الألوان وتخفيف ما عداه ، وتتراءى صورة اقرب الى الاستطالة او اقرب الى الاستدارة ، وفيها بعض الميل من جانب وبعض الاقحام من جانب آخر ، على حسب الاختلاف بين تركيب عينيه وبين تركيب العيون عند صاحب النظر السليم . وكان النقاد الأسبقون ينظرون في هذه الخصائص فيحسبونها من بدع الاختيار والابتكار ، ومن فوارق الأساليب المقصودة والمدارس التي يدور البحث فيها على تعدد الآراء والأذواق ، وما هي الا نظرة فاحصة من عالم البصريات حتى ينجلي له ان الامر لا يرجع الى اختلاف الآراء والمذاهب ولا الى الرغبة والاختيار ، وان مرجعه كله الى عيب في البصر يمثل الاشياء لصاحبه على صورة غير سوية ويوقعه في ذلك الخطأ الذي لا حيلة له فيه . وقد يظهر من المقابلة بين صور الفنان

الواحد أن بعضها ينم على انبساط الحدقة وبعضها ينم على بصر سليم ، فيتبين من النقد التاريخي انه يحاكي اسلوب غيره في الصور المثالية او الصور المقدسة لأن ذلك الأسلوب قد اصبح في زمانه بمثابة الزي المصطلح عليه لتمثيل « الشخوص » المحوطة بهالة من القداسة والرعاية المثالية ، ولكنه يثوب الى بصره فيعتمد عليه فيما يرسمه من المناظر اليومية والشخوص التي لا يحيطها بتلك الهالة من القداسة والتبجيل ، وهذه وسيلة من وسائل التمييز بين الأنماط والأساليب وبين اسباب الاختيار فيها والاضطرار لم تكن معروفة قبل ارتقاء علم البصريات وادوات الفحص عن وقع المسافات والمرئيات في النظر المنحرف والنظر السليم .

ويؤخذ من بحث لطبيب جراح من اطباء العيون ان نسبة الحسر في طلاب التصوير أكبر من النسبة العامة بين غير المصورين : « ففي احصاء للتلاميذ والأساتذة في مدرسة الفنون الجميلة بباريس عند اوائل القرن العشرين ظهر ان المصابين بالحسر اكثر من ستين من مائة وثمانية وعشرين ، وان نسبة طول البصر في المدرسة كلها سبعة وعشرون في المائة ، على حين أن نسبتهم في عموم الناس ثلاثة امثال المصابين بالانحسار » .

قال الطبيب : « ومما يدعو الى الدهشة كثرة المصابين بالحسر بين أساتذة المدرسة التأثرية أو الاحساسية Impressionists فمن المرجح ان مونيه Monet كان محسورا ، ولكن الحسر محقق عند سيزان Cezanne وديجاس Degas ومفهوم على وجه يكاد أن يكون أكيدا عند رينوار Renoir الذي يحكي فولار Vollard انه كان في الرابعة والستين يقرب الأشياء من بصره ليتثبت منها وهي السن التي لا يستطيع غير المحسورين أن يتثبتوا فيها من رؤية قريبة بغير نظارة محدبة . وقد كان بيسارو Pissaro محسورا أيضا مع اضطراب في القرنية أصيب به في طفولته من أثر القروح . وكذلك كان ديران Derain وبراك Braque وماتيس Matisse ودوفي Dufy ودع عنك الآخرين ممن لا يبلغون مبلغ هؤلاء في الشهرة من أمثال ماتيجكو البولوني Matejko الذي حفظت نظاراته في متحف كراكاو Cracow »[1] .

---

١ ـ نشر هذا البحث في مجلة ليسنر Listener بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

مثل هذا النقد العلمي ـ وان شئنا فلنسمه بالكشف الطبي ـ يرد أخطاء الفنون الى عللها الأصلية ويلم شعث الأفكار المهدرة في مناقشات لا طائل لها بين النقاد حول امور يحسبونها مذاهب مقصودة وهي من ضرورات النقص والخلل التي لا حيلة للفنان فيها ، ومنهم من يستنبط من الهباء فلسفة خاوية عن معنى تفضيل هذا اللون واهمال ذلك اللون في لوحات بعض المصورين ، وقد يبحثون اسرار التشبيهات في قصائد الشعراء على هذه الوتيرة فيذهبون بها الى ما وراء الطبيعة وينحلونها من المقاصد والتأويلات ما لم يخطر لناظميها على بال ، فاذا اشترك النقد العلمي والنقد الفني في تعليل تلك التشبيهات فأول ما يجنى من ذلك ان تصان اوقات الناس واذواقهم من التخبط على غير جدوى في تيه من الأوهام والأضاليل ، اذ تنكشف علل الاخطاء الفنية والأدبية فيتقبلها من وافقته على علاتها او يرفضها ويتنبه لأسباب رفضها فينظر في مداواتها بما يصلحها ويشفيها .

والعلوم النفسية لم تتقرر بعد في تحقيق العلة والعلاج كما تقررت علوم البصريات ومباحث الكيمياء والطبيعة ، ولا نخالها ستبلغ في يوم من الايام هذا المبلغ من اليقين والوضوح ولكنها ـ على ما هي عليه الآن ـ كفيلة بالتمييز بين البدع السقيمة والمذاهب الجدية في مدارس الفن والأدب ، فكل ما هو انطلاق بغير قاعدة ، واختلاط بغير بنية ، واساءة للفهم في تفسير المبادىء العلمية ـ فهو من العلة والسقم ، وكل ما يقام على قاعدة مفهومة ـ ولو اقيم على قاعدة مهدومة من قبل ـ فهو مذهب من مذاهب التحديد يضيف الى ثروة الفن والأدب ويصلح للبقاء الى حين .

وستغنم الانسانية كثيرا من هذا الفيصل الصادق بين اعراض السقم في الآداب والفنون وما ينشأ فيها من المذاهب المطبوعة والمدارس الجدية . فما من شيء اضر بالأذواق والعقول من ان تساق اليهم اعراض المرض كأنها فتح من فتوح التقدم يتهافتون عليه ويروضون اذواقهم وعقولهم على محاكاته ، وشر ما يبتلى به مريض النفس والذوق ان يغتبط بدائه ويتمادى في تمكينه ، وهو ـ لولا ذلك ـ خليق ان يأسف له ويبحث عن دوائه . ونحن منذ اليوم نحس ان غواية البدع السقيمة تنهزم سنة بعد سنة امام حقائق العلم ودراسات الطبائع والاخلاق . فاذا انتهت كشوف القرن العشرين في هذا الباب بالتمييز بين فوضى الفن وقواعده فأنعم به من ختام لا تنقضي حسناته ومزاياه .

خاتمة في سطور

١٢ ـ خاتمة في سطور

اذا أخذنا بالمقدمات التي رتبها الثقات في احصاءاتهم وآرائهم ـ وهي جديرة أن يؤ خذ بها ـ فنحن أمام نتيجة منتظرة نلمحها من وراء السنين عند نهاية القرن العشرين وبعد القرن العشرين ، ولا نقول اننا أمام أمل مشروع وحسب ، فان الأمر هنا الى الحساب أقرب منه الى الرجاء .

وزبدة هذه النتيجة في سطور : ان موارد العالم كافية لسكانه ، وان التكافؤ بين عدد السكان ومقادير المؤ ن والازواد مستطاع بفضل التقدم في العلم والصناعة وأحوال الاجتماع ، تعترضه عقبات قابلة للتذليل الا أن تكون عقبة الحرب العالمية التي يخشى أن تعاجل العالم قبل استيفاء مطالبه من التقدم والكفاية ، فلا يؤ من أن تطيح بجميع ما وعاه من حضاراته الماضية ومن حضاراته الصناعية القائمة أو المرجوة . ولا عصمة للانسان من تلك الحرب المحظورة الا أنها ـ كما يعلم ـ أخطر الأحوال التي يخشاها ، وانها الهول الذي لا يخشى بعده هول ولا يبقى بعده من يخشى .

فاذا انتفع بهذه العصمة فالعالم ماض في طريق الصلاح والأمان : تتعاون أممه وأجناسه ويبطل النزاع بين الطبقات في الأمة الواحدة ، وتؤ ول « الشخصية الانسانية » مع تعاون الأمم والطبقات الى حياة منزهة من سموم العداء وضغائن المنافسة ، متفتحة لأشواق النفس الرفيعة وأمثلتها العليا ، فيمضي النوع الانساني في جملته الى غاية كماله ، ويبلغ الانسان الفرد ما في وسعه أن يبلغه باجتهاده وتيسير بيئته ، مالكاً لزمام فكره وعاطفته بنجوة من طغيان الجماعة عليه .

واذا انتقلنا من هذه النتيجة المرتقبة الى الأمل المشروع فمن الأمل المشروع ، أو من التفاؤل الحسن ، أن نؤمن بمصير الانسانية الى ايمان بالحق يعززه العلم ، ويلتقي فيه عالم المادة بعالم الغيب فلا يتنازعان ولا ينشطر بينهما الضمير الانساني شطرين يورثانه مرض النفس ويبتليانه في قرارة وجدانه بفصام دخيل ، يخيل اليه أنه الايمان ، وهو نقيض الايمان .

ونترخص في الأمل ، دون أن نجاوز به آفاق الأمل المشروع ، فنقول : اننا خلقاء ألا نيأس من الأزمات التالية بعدما شهدناه من عواقب الأزمات الماضية ، وقد سمحت لنا حربان عالميتان أن نقول مرة : « ان الصراع الأكبر الذي نشهده اليوم سينتهي أيضاً الى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايع القوة البصيرة ، قوة العدل والحرية » .

وسمحت لنا أن نقول قبل ذلك : « أينما وجدت نفس تحسن أن تدرك فثم حقائق تدركها ، ولن تظمأ حاجة من حاجات النفس ومواردها ـ من تلك الحقائق ـ باقية . اللهم الا تلك الحاجة المحكوم عليها بالظمأ الأبدي ، والتي تموت ان رويت : وهي الحاجة الى الكمال ، وبها تتم الحاجات جميعاً ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير ، وهذه ينابيع الانسان التي يعول عليها : كلما أضاع أملا أخرجت له أملا جديداً ، وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالأبناء المسرفين حتى يقنطوا ويضيقوا ذرعاً فتفرج أزماتهم وتسري عنهم وتزودهم بالنصائح الموفقة لهم ، وهذه الجدة العجوز لا تبض لك بأمل وعندك أمل خلافه ولا تفتح لك بابها وأمامك باب سواه ، وتقنعك كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير ، فلا تكاد تصدقها حتى يتبين لك أنها خزانة لا تنفد ، وكنز ذو أوان ، يفتأ يتجدد ولا يتبدد »[1] .

ولقد كان انسان الأمس كفئاً لأزماته ، ولا يؤوده الغد أن يلقى عظائمه بما هو أعظم منها ، أفقاً بعد أفق ، وقمة فوق قمة ، ومصيراً وراء مصير .

عباس محمود العقاد

---

١ ـ من رسالة للمؤلف باسم « مجمع الاحياء » كتبت في اثناء الحرب العالمية الاولى ، وتم في اثناء الحرب العالمية الثانية .

فهـــرســـــت

أثر العرب في الحضارة الأوروبية

فهرست

الثقافة العربية

فهـــرســـــت

القـرن العشــرون

دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول

ت : ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي : ١٩٦١١٠ ٣٥١٤٣٣

ص.ب : ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - برقياً : داكلبان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H EL - ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON

The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume X

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI